شؤون فلسطينية

٧٣

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧

شؤون فلسطينية
٧٣

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين ٠

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،

برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير غير العربية ٠

الغلاف بريشة :
ايتيل عدنان

المحتويات

الصفحة

٤ محمود درويش : الصفـــــر

٦ الياس خوري : المفاجآت والمسألـةالاخرى ٠

١١ صبري جريس : مـن وعد بلفور الى تقسيم فلسطين الى زيارة السادات ٠

٢٢ شفيق الحوت : المطران كبوشي ، لحظة خارقة خارج المرحلـة الرمادية ٠

٢٩ محمود سويد : استراتيجية التسوية

٤٦ لطفي الخولي : ملاحظات حول الوضع الراهن للحركة التقدمية العربية ٠

٨٢ جوزيف سماحة : محاولة اقتراب من الفكر السياسي لكمال جنبلاط٠

٩٦ هاني فحص : الجنوب ، الجذور وآفاق المستقبل

١٠٧ معين بسيسو : دفاتر فلسطينية (٤)

١٣٠ اليزابيت ماتيو : اسرائيل وجنوب افريقيا (٢)

مناقشات

١٥٦ نزيه ابو نضال : الارهاب والارهاب الاوروبي ٠

١٦٧ رسائـل : رسالة بون ، حكم عبد الهادي ٠ رسالة واشنطن، نبيل حاتم ٠

الصفحة

تقارير

١٧٨ انتوني هـ٠ كوردسمان : ميزان القوى العربي الاسرائيلي ٠

٢٠٢ شهريات : المناطق المحتلة ، عبد الحفيظ محارب ٠ اسرائيليات ، حمدان بدر ، توفيق فياض ، مكرم يونس ٠

شؤون ادبية

٢٢٥ : مكانة الادب ووظيفته ٠

٢٣٠ فيصل دراج : بعض الاسئلة حول وضع الواقعية الاشتراكية ٠

٢٤٦ كتب : الطريق الى الخيمة الاخرى ، علي حسين خلف ٠ السينما وفلسطين ، سعيد هلال ٠

٢٦٣ مفكرة : دين ريد الغيتار المقاتل ، معين بسيسو ٠

٢٦٤ مروان حميد : جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ١٦/١٠ ـ ١٢/١١/٧٧ ٠

الصفـــر

يسدل الستار · الملك هو الملك ، والطبقة هي الطبقة · وساعة الصفر تـــدق الماضي · والماضي هو أمس والان ، والى ان ينهض البديل · وفي الفراغ يحدث كل شيء : انقلاب في اللغة شارك فيه الجميع · لقد سرقوا لغتنا ، فصـــار التحرير تسوية ، وصار الصراع اختلافا في وجهات النظر ، وصار الاحتـــلال وجودا ، وصارت الصهيونية قومية، وصارت خطوط وقف النار حدودا، ومزيدا من الانقلابات في المفاهيم ، والسير في لغة التسوية الى أن تمت الزيارة ، وصارت العودة الى اللغة الاصلية هي الشذوذ ، هي الخروج على العروبة الرائجة ، هي الردة · فلنعترف بأن الكثيرين منا لم ينتبهوا الى انقلاب المفاهيم والى انقلاب اللغـة ، فذهبوا في الانسجـام ·

ويسدل الستار على مرحلة · والماضي هو أمس ، والان · وفي الفراغ يحدث كل شيء : صارت الزيارة هي القضية ، ولكن القضية ليست هي الزيارة · ومع ذلك ، فهي العنوان ، هي النتيجة ، هي المحصلة · وهي : الزيارة العربية الاولى بعد الزيارات الاسرائيلية الدموية الاربع · ان حزيران يثمر ، ويفرخ والصهيونية تستقر في وعي الحاكم ، الزيارة دائمة ، وتشرين يعبر من دون عبرة · ويكثـر المتفرجون على الارصفة · ولا شيء يدهش ، فالبداية هي البداية ولا تفضي الا الى هذه النهاية ·

ويسدل الستار · ويعيش الفراغ قليلا · لان الجمهور ليس جهاز تسجيل يعبأ بالحمـــاسة ويفـرغ من الطاقـــة · هذا هو المنعطف · هـذه هـي التسويـة · وهـــذه هي جنيـف بكامـل زينتهـا وعريهـــا · نذهب ام لا نـذهب ؟ لقـــد جاءت · فمـن لا يعـــرف الان بساطـــة العلاقـة بين موازين القـــوى علـــى أرض الصراع وبين تقاسم الغنائم ـ الهزائم على موائد جنيف ؟· ومن هو الذي لا يطرح السؤال على النحو التالي : هل ذل الحاكـم المصري هـو المنعطف ، ام استحلاب السلام من العجز المصنوع بدقة هو الذي يحدد للاشياء هذه الطبيعة ؟· وهل يتذكر اصحاب الذاكرة المثقوبة ان الصراع هو عملية ثورية كبرى تغيـر العلاقات والمفاهيم واللغة وتكتب الغد ، ولا يشارك فيها الا اصحاب المصلحـة في تغيير التاريخ ؟

ويسدل الستار · الملك هو الملك · والحدود التي تفصل بين بعض اطـراف الصراع ليست حدودا نهائية ، ففي وسع بعض الانظمة القائمة على القمع ان تجد

في طبيعة الصهيونية مقومات متشابهة وقابلة لتأمين دورها في خدمة السيد الواحد وقمع الحركة الثورية · لم لا ، ونحن نواجه الان المقولات الصهيونية الكلاسيكية من اذاعة القاهرة !· عودة الوعي هي أم خيانة الوعي ؟· ان الحاكم المصري هو الذي يستخدم اللغة الصهيونية لواد شرعية الحق العربي على أرض فلسطين ، بعدما حجب عن الناس لغة الصراع · وهو الذي يؤسس ، جسديا ونفسيا وسياسيا ، لغة الاعتراف « بشرعية » الحق الصهيوني في بيوتنا وهو الذي يبادر الى « الغاء » منظمة التحرير الفلسطينية ويبحث عن بديل لها · وهو الذي يسمم الوعي العام بلغة العقد النفسية التي تشكل ، في رأيه ، جوهر الصراع العربي ـ الصهيوني منذ نصف قرن · الملك هو الملك ·· واسوأ حين يكون محملا بمزايا العبد المفتون بسيده ، فيتم الزواج الدنس ـ او الطبيعي ـ بين « العبقرية اليهودية » والمال العربي ، فلا يكون الغزاة سوى عباقرة ، ولا تكون الامة الا بئرا للكاز ، ولا يكون المقاتلون الفلسطينيون الا اولاد كاباريهات · ان حارس الكاباريهات في شارع الهرم يعرف زبائنه وسادته ، فلماذا يكذب في الاذاعة ويخون الراقصة التي أهداها الى العزيز هنري ··؟!·

ويسدل الستار · الملك هو الملك ، والملك عابر · يتجه الشعب الصابر الى المبادرة · لقد انتصر الرفض الاسرائيلي على حارس شارع الهرم ولم ينتصر على مصر · وليست الزيارة وما يتلوها من زيارات الا نهاية عهد ، وبداية الصراع الضاري بين القديم والجديد · هذا هو المنعطف ، وهذه هي الاضاءة الجديدة للوعي : ان أمن الغزاة القادمين من الخارج وأمن الطغاة الطالعين من الداخل أمن مشترك · ويسدل الستار على مرحلة كان فيها وفاق شرطة القمع شرطا للتحرير او للتخدير · ساعة الصفر تدق الماضي ·· تعرف الامة اعداءها · والماضي هو الماضي ·· هو امس ، والان ، والى ان يتبلور البديل الحتمي · ومن هذا الوطن الكبير ـ وطننا ـ ستولد العبقرية الحقيقية ، عبقرية الثورة · سيعيش الماضي قليلا · سيتوحش · سيدافع عن تاجه · سينشب كل مخالبه في جسد بديله · سيذهب الى اسرائيل وايران والشيطان ليطلب النجدة · ستحتدم الحرب ، ويسقط · سيفعل كل شيء ويسقط · سيرتكب كل الجرائم والمذابح ويسقط · سيبيع كل الارض ويسقط ·

محمود درويش

الياس خوري

المفاجآت والمسألة الأخرى

الجميع فوجئوا · لقد رأوا المدهش والغريب · كلهم صرخوا من المفاجأة او صمتوا على المفاجأة · انور السادات ، خليفة عبد الناصر ، في القدس المحتلة ، يعانق غولدا مئير ويخطب في الكنيست ويعلن **لا حروب بعد اليوم** · يعطي اسرائيل صك اعتراف لم تكن تحلم به رغم الهزيمة الحزيرانية · الجميع فوجئوا · لقد وصلت الامور الى نهاياتها المنطقية او اللامنطقية · لقد بدأ شيء جديد وانتهى شيء قديم · العلم الاسرائيلي الى جانب العلم العربي ·· وفلسطين تغيب ويبتلعها الوحش · والتسوية القادمة تحمل معها كل شيء من حائط المبكى الى جنة عدن · الدهشة في كل مكان · وجائزة نوبل سيأخذها عربي لاول مرة في تاريخ الجائزة ·

لكن الذين قالوا انهم فوجئوا لم يفاجأوا · وحدهم الشهداء وقتلى الحروب الاربع وابناء عمان وتل الزعتر فوجئوا · وحدهم الفقراء الذين اكلت اجسادهم الامراض والالات والسياط والاحلام فوجئوا · أما الذين ادعوا المفاجأة فهم يكذبون · الذين باعوا العرب وتسلطوا على العرب وسجنوا العرب ، يكذبون ·

ولم يفاجأ احد الا الشهداء

منذ عشر سنوات ، قبل العبور وبعد العبور ، ونحن نبتلع لغة الاستسلام جرعة جرعة ، ومذبحة في اثر مذبحة · ومنذ عشر سنوات والكلام العربي مجرد كلام · اللغة مستنقع ولغو ، والمنطق هو تبرير ما لا يمكن تبريره · والمساومات مع العدو الوطني تبدأ بالمساومة غير المبدئية مع العدو الطبقي · وكل الكلام هو رهان على الريح · والتسوية ، اي المساومة غير المبدئية تتقدم من جثة الى جثة·

والمنطق يموت خلف الاوهام والانبياء الكذبة · وانبياء الانحطاط يملأون الارض توبة وردة ونفطا ·

طبقة كاملة تحكم وتحارب وتخاف على سلطتها ، فتقدم الوطن ضحية على مذبح السلطة · طبقة كاملة ارتدت الى موقعها الحقيقي وحجمها التاريخي ، فضربت الامة بأسرها بجميع طبقاتها المنتجة في صميم وجودها · لن نتحدث عن الكرامة · فهذه قيم « مستوردة » · فالذين وقفوا بين الجنرالات والحاخامات والاسماك المتحجرة القادمة من التاريخ القديم ، لا يفهمون هذه اللغة «المستوردة» لكنهم ، اصحاب الايدي الملطخة بدماء العمال وسكان المخيمات ، الذين تشمئز نفوسهم من الارهاب والارهابيين ، فيما هم يقتلون ويسحقون · هؤلاء يريدون قتل الشعب بأسره فردا فردا وتحويله الى اصفار وذباب · واللغة التي تتحدث عن « التسوية العادلة » تسقط في جيوبهم · اللغة التي تبرر الى ما لا نهاية ، تسقط في حسابهم في البنوك الاجنبية · ومنطق التسوية الذي شربناه قطرة قطرة · منطق الاعتراف بالغزوة الصهيونية تحت اي مبرر ، وفي ظل كل اشكال المنطق المتهافت يصل الى نهايته · اذا كان لا بد من الاعتراف فلنعترف علنا · نختنق ونحن نأمل في الضغط الدولي · منطق الاتكال على الدول يصل الى لحظته الحاسمة · وها هو بيغن يتكلم عن الانتصارات ، والجنرالات الفاشست يتحدثون عن الديمقراطية الاسرائيلية وبلغة ديمقراطية !!

منطق التسوية والمساومة الذي صاغه انصاف الثوريين ، يمسك به الخواجات ويأخذونه الى القدس المحتلة · ومهما قيل عن الحرب القادمة والتي لن تقوم بها البرجوازية في عصر البترو دولار · فان منطق التسوية يهدد برمي الشعب بأسره في هاوية الهزيمة المطلقة ·

المسألة ليست في مضمون الخطاب الذي ألقي في الكنيست · ليست في عدم الاشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية ، ولا في اقتراح تدويل القدس ، ولا في مبدأ التنازلات عن الاراضي · المسألة ليست مدينة القدس بمسجدها وكنيستها ·

نحن لسنا اسماكا متحجرة · نحن لا نعبد الحجارة والرمال · نحن لا نريد البيوت وبأي ثمن ، و « الدولة » وبأي ثمن · نحن لسنا قادمين من الكتب القديمة التي امتلأت صفحاتها بالبقع الصفراء · المسألة ليست في التفاصيل · انها مسألة اخرى ·

والمسألة الاخرى قديمة · تبدأ من الحروب الصليبية ولا تنتهي في المسألة الشرقية · المسألة الاخرى ، هي مسألة هذا الاخر الغريب الوحش · هذا الغرب الامبريالي المتوحش الذي يريد تحويل الشرق الى مستنقع لا يعيش فيه سوى البعوض والمواد الاولية والايدي العاملة الرخيصة · والمعركة معه لم تكن أقل من معركة حول حقنا الاولى في الوجود · والحروب طويلة · غزوات واشكال

لا تنتهي · امتيازات وطوائف ومجموعات من المغامرين والمبشرين وحقول قطن وشركات نفط · وبين الشركة والشركة ، معارك وحروب ونكبات · لكن القبول العربي ، كان دائما قبولا مؤقتا · والبراكين تنفجر بين المؤقت والمؤقت معلنة بداية رفض ووهجا وموتا ·

المسألة الاخرى ، هي مسألة هذا الشكل الجديد البالغ القدم الذي جاءنا على شكل غزوة صهيونية الى فلسطين · انه الوجه الاخر للحروب الصليبية · لكن الغرب الامبريالي « العلماني » استبدل الصليب بالتوراة وجنرالاته بالمرابين الذين احرقهم في افرانه الفاشية ، وجعل منهم فرنا لحرق العرب والشـــرق وافريقيا ·

ورغم الانهزامية فلم يجرؤوا على القبول علنا بهذا الشكل الجديد من الوجود الاستعماري · لقد قبلوا كل شيء · لكن هذه الشركة العسكرية لم يمكن مـن الممكن اعلان قبولها · والجماهير التي شردت من ارضها ، والتي لا تزال تقصف بالطائرات والمدافع ، كانت تعلم ان صراعها مع هذه الشركة العسكرية هو الصراع الاخير · انه النقطة التي يتبلور فيها كل شيء ، ويكشف فيها كل شيء · انها فرصة الحياة او لحظة الموت · لذلك قاتلنا بأسلحة ودون اسلحة · ومتنـا بموت حقيقي وبموت غير حقيقي · حتى اكتملت الدائرة على اللاعبين · فـاذا بالبرجوازية التي أمسكت بخناقنا تهرب من التاريخ الى الموت · واذا بعجزنا عن خلق البديل الجذري يتحول الى ما يشبه الهزيمة الشاملة · وها هم الذين تاجروا بدمنا ، ومنعوا عنا الخبز والحرية بحجة الاعداد للتحرير ، ينزلون الى الكنيست ويخطبون ويخطبون · والكلام يعلو ونحن نموت بصمت او بصراخ البطولة الاخيرة الاولى ·

المسألة الاخرى هي اننا **لن نقبل الاعتراف بالشركة العسكرية التي اسمها اسرائيل** · ولن نسمح لاحد بأن يفعل · فنحن لا نريد حائطا لمبكانا مقابل هذا الذل وهذا الانهيار · نحن نعلم ان المعركة القديمة تدور بأسلحة جديدة ولغـة جديدة · وهذه المعركة اصبحت كما كانت دائما معركة حقنا في الوجود · والشرق يصبر ، يتراجع · لكنه المستقبل ، لذلك لن نعترف ولن نسمح لاحد بأن يعترف · وعلى الجنرالات الديمقراطيين جدا ان يعلموا ان عليهم ان يخوضوا الف حرب اخرى ، ويرتكبوا الف مذبحة جديدة · لكنهم لن يصلوا الا الى النهاية التـي تنتظر امثالهم ·

المسألة الاخرى ليست تصلبا دون جدوى · ليست تصلب الشرايين لحـظة الموت · لكنها جدل التاريخ الذي لن يتوقف · والهدنة المؤقتة الوحيدة الممكنة ، هي انسحاب صهيوني دون قيد ولا شرط · وما عدا ذلك فهو استسلام امـام الغـزاة !

المسألة ليست وجود فلسطين ، بل هي وجود اسرائيل · ليس علينا ان نثبت

شرعية وجود فلسطين ، بل علينا ان نلغي اللاشرعية المطلقة التي اسمها اسـرائيل ٠

« اذا قام السلام في الشرق الاوسط ، فان اشتراك العبقرية اليهودية والمال العربي سيحول هذه المنطقة الى جنة عدن » ٠

هذا هو وعد بيغن ووعد أمثاله من الفاشست ٠ العبقرية اليهودية التـي اختبرناها في أربع حروب ، والاف الجثث المحترقة في رمال سيناء ، سوف تاتي وتأخذ المال العربي الكثير وتحول به الشرق الاوسط الى جنة عدن ٠ هذا هو وعد موتنا ٠ المرابي لن يخلع لباس الجنرال ولكنه سيشتغل في التجارة كجنـرال حقيقي ٠ لقد مزجت اسرائيل ما لا يمزج ٠ المحارب والتاجر العبقري ٠ أما نحن ، الجالسون على حقول النفط وحقول العار فنتحول الى مجرد بائع كاز ٠ بائع امي في حاجة الى عبقرية خارجية قادمة من بولنده او من اليمن ، تأخذ الكاز وتحوله الى جنة وتحولنا الى ذباب ٠ويضحك الامبريالي الغربي ، ويضحك البرجوازي العربي التافه ، الذي يكتفي من النفط بصوت محرك السيارة التي لن يسمـح لشعبه بالدنو منها ٠ بل سيتركه يختنق في الاكواخ والباصات ٠

المعركة حول النفط هي معركة الامبريالية الاخيرة والحاسمة ٠ وفي عصر الكاز يجب ان لا ندوخ من الرائحة ٠ والذين داخـوا ، سقطوا في الكنيست كالاسرى يحيط بهم الذل والاستسلام والموت ٠

بين بئر النفط وبئر النفط رمال وصحارى وكلام٠ لكن العرب تعرف ان فرصتها الى الوجود والى المستقبل ، تقع هنا ٠ في طحن الرمل وسحق الكلام ٠ تقـع في اللحظة الفاصلة بين قتل البرجوازية العميلة وسحق الامبريالية ٠ في هذه اللحظة تقع ثورتنا المقبلة ٠

ان الذي يجري على مسرح المشرق العربي ليس مصادفة تاريخية ٠ ليس جنونا فرديا ٠ فهذا السلام الذي يريدون اعلانه يعني بداية جديدة للحرب ٠ لقد سقطوا في قبضة العدو الوطني ، وباعوا الوطن للامبريالية الاميركية ٠ وحتى صك البيع كان معقدا وذليلا ٠ لكنهم سيصلون الى نهاية الصفحة ويقلبونها لتبدأ حرب الابادة الحقيقية ضد الجماهير ٠ حرب تحويلها الى ذباب ومواد اولية ٠ حرب اخراج الشعب العربي من المسرح وتحويله الى شرائم وطوائف وقبائل همجية ٠ هكذا سيحاولون تجميد التاريخ كما في المختبرات ومصحات الامراض العقلية ٠ سيحاولون اقناعنا ان موتنا هو مثل حياتنا بلا جدوى ٠

العبقرية اليهودية ستشترك في تحويل المال العربي الى مال ٠ ولن نحتاج في سبيل زيادة المال الا الى خبرة المرابي والحاخام والجنرال ٠ والمال يأتـي بالمال ، والجراد يأكل المال ٠ والفقراء من الصحراء الى الصحراء يزدادون

فقرا ، ومملكة سليمان تعود الى مجدها الذي يمسك به الوحش الامبريالي فزاعة ضد الجماهير العربية ٠

هذا هو الوعد الذي أمرنا بانتظاره ٠ والوقفة الذليلة امام نصب الجنـدي الاسرائيلي المجهول ، هي مجرد تراجع تكتيكي من أجل الضغط والانسحاب واستغلال العبقرية التي تمزق خاصرتنا ٠

لم يفاجأ احد الا الشهداء

كانوا يعدون لهذا الموت ، وكنا ننتظره بأجسادنا التي طحنتها الدبابات ، وبموتنا الذي نسجناه من الدم والتراب من أجل ان لا نموت ٠ وها هو الموت يأتي مسرعا ٠ وها هي رايات العبودية والاستسلام ٠

والان ، جاء دور الفقراء والعمال والصعاليك ٠ جاء زمن الموت الحقيقي ، حيث لا رحمة الا رحمة التراب ٠

لقد وضعوا الجماهير في الزاوية الاخيرة ٠ وما على الزلازل سوى ان تبدأ ٠

لقد خسرنا كل شيء ٠ ولم نعد نخاف شيئا ٠ فماذا تنتظر البراكين والزلازل ؟

صبري جريس

من وعد بلفور إلى تقسيم فلسطين إلى زيارة السادات

تشرين الثاني (نوفمبر) هو شهر شؤم في تاريخ فلسطين والعرب ·

ففي اليوم الثاني من هذا الشهر سنة ١٩١٧ كتب ارتور جيمس بلفور ، وزير خارجية الامبراطورية البريطانية ، رسالته الشهيرة الى اللورد روتشيلد المعروفة باسم « وعد بلفور » معلنا بموجبها تعهد حكومة بلده بالعمل على اقامة « وطن قومي » لليهود في فلسطين ·

وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه سنة ١٩٤٧ ، اي بعد ثلاثين عاما بالتمام والكمال ، صوتت الجمعية العمومية للامم المتحدة تأييدا لمشروع قرار يقضي بتقسيم فلسطين واقامة دولة لليهود على جزء منها ·

وفي اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه سنة ١٩٧٧ ، اي بعد ثلاثين سنة اخرى ، وبالتمام والكمال ايضا ، وصل « الرئيس المؤمن » محمد انور السادات، رئيس جمهورية مصر العربية ، وهي اكبر الدول العربية ، الى اسرائيل في اول زيارة يقوم بها حاكم عربي لذلك الكيان منذ تأسيسه ·

وكل واحد من هذه الاحداث الثلاثة يزيد فظاعته عن الذي سبقه · فوعد بلفور ، وان صدر في حينه عن اعتى الدول الاستعمارية واكثرها نفوذا ، لم يكن في نهاية الامر ـ كما وصفه أحدهم ـ الا وعدا ممن لا يملك لمن لا يستحق · أما قرار تقسيم فلسطين وعلى الرغم من كونه ، قانونيا ورسميا ، مجرد توصية صادرة عن الامم المتحدة ، فانه يحظى على الاقل بالدعم الادبي لاكثرية دول العالم التي كانت تتمتع باستقلالها عند صدوره ، والتزاما معنويا من قبل تلك الدول ، نهايته انتزاع جزء من فلسطين وتحويله الى قاعدة صهيونية · اما

زيارة السادات لاسرائيل فهي ثالثة الاثافي ، واذا لم يتم احتواء اضرارها المتوقعة فورا وعلى كافة الاصعدة ، فلن يعلم الا الشيطان الى اين ستؤدي بالعرب ٠

اكثر من الخيانة

لا مجال للانكار بعد اليوم ٠ ولا مجال للمكابرة ٠

رئيس أكبر دولة عربية قام بزيارة رسمية الى اسرائيل ، عدوة العرب قانونيا ورسميا وشعبيا ، ونقلت اجهزة التلفزيون الحدث الى كافة انحاء العالم ٠ حطت طائرته في مطار اللد ، الذي يسميه العدو الصهيوني مطار بن ــ غوريون ، حيث كان في استقباله كافة المسؤولين الصهيونيين ، الجدد منهم والقدامى ، فصافحهم واحدا واحدا ، وعانق بشكل خاص الفتاة الاسرائيلية المثيرة غولده مئير ٠ انتقل من المطار ، بصحبته الارهابي العريق مناحيم بيغن رئيس حكومة اسرائيل ، الى القدس المحتلة ــ التي ترفض اكثرية دول العالم الاعتراف بها عاصمة للكيان الصهيوني ــ ونام فيها ، بعد ان أجرى جولة اولى من المحادثات مع المسؤولين الاسرائيليين ٠ قام في اليوم التالي بتأدية صلاة عيد الاضحى في المسجد الاقصى ، بحماية الجنود الاسرائيليين ، فذكره خطيب المسجد بصلاح الدين ، ثم أتجه لزيارة كنيسة القيامة ، فرفض الرهبان قرع أجراسها عنـــد قدومه ٠ ومن هناك توجه الى زيارة نصب قتلى النازية « ياد فاشيم » ــ وهو المتهم بالتعاطف مع النازية في أيام شبابه ــ يرافقه مضيفه بيغن وهو يسير الى جانبه ويحيط خصره بيده اليسرى ، الا انه ــ والحق يقال ــ رفض ان يضع « الطاقية » على رأسه عندما اتجه الى مكان الشعلة الدائمة داخل النصب ، كما تقضي التقاليد اليهودية ٠ خطب في الكنيست، المجلس التشريعي الصهيوني، وفوق رأسه صورة هرتسل والشمعدان ، شعار « دولة اسرائيل » ، الا انه ــ والحق يقال ايضا ــ رفض ، بمراوغة و « شطارة » ساداتيتين ، توجيه كلامه الى رئيس جمهورية اسرائيل او رئيس حكومتها ، رغم انهما كانا حاضرين ، وتحدث مباشرة الى اعضاء الكنيست فقط ! اجرى محادثات مطولة في المساء مع الوزراء الاسرائيليين ٠ توجه في اليوم الثالث الى نصب الجندي المجهول الاسرائيلي ، ووضع اكليلا من الزهور عليه ، تكريما لـ « شهداء » اسرائيل الذين لاقوا حتفهم في الحروب العدوانية التي شنها الكيان الصهيوني ضد العرب ٠ حل عقدته « وناقش » اعضاء الكنيست ، فأسمعوه ما تيسر من آيات العنجهية والتوسع والاستعلاء والغطرسة ، مقتبسين من كتب تعرف باسم التلمود ومن التوراة ٠ عقد مؤتمرا صحفيا مع بيغن، فذكره الاخير امام نحو الفي صحفي وامام العالم أجمع ، بما جاء في سفر صموئيل حول « حق » اليهود في ما يسمى « ارض ــ اسرائيل » ٠ زار رئيس اسرائيل في مقره الرسمي ، من باب المجاملة

والادب . فاستقبل بحفاوة واكرام بالغين . واغدقت عليه الهدايا ، وجلست نينا كاتسير ، زوجة الرئيس الى جانبه ووضعت يدها على رجله وكاد راسها يرتمي بين احضانه . كأنه ابن عمها الذي لم تره منذ عشرين سنة ٠

وعند استقباله وتوديعه في مطار اللد . كانت الاعلام المصرية والاسرائيلية تعانق بعضها البعض ، وعزفت الموسيقى النشيد الوطني المصري « والله زمان يا سلاحي » ونشيد « هاتكفا » الصهيوني . واختلطت الالحان ببعضها البعض ، وبثتها ايضا محطة اذاعة تسمي نفسها « صوت الغرب من القاهرة » !

كل هذا لم يكن حلما . بل حقيقة وافعه ٠ شاشة التلفزيون كانت واضحه للغاية . بل لعلها لم تكن مرة في مثل هذه الدرجة من الوضوح ٠ والارسال الاذاعي ايضا كان قويا ومسموعا ٠ لا مجال للبس او غموض ٠ وانطباع واحد وشعور وحيد يسيطر عليك عند رؤية هذه المناظر : ان عربيا « مدهشا » فقط يمكنه ان يقوم بمثل هذا العمل ٠

لقد تجاوز السادات ، بزيارته لاسرائيل ، كل ما هو محظور من وجهة النظر القومية ، وتجرأ على القيام بما لم يكن باستطاعة اي عربي التفكير فيه ٠ داس على القيم الوطنية التحررية للصراع العربي ضد الصهيونية والاستعمار ٠ طعن التضامن العربي وفتت قوى الامة ، وسينعكس موقفه هذا على ميزان القوى في المنطقة ٠ أساء لسمعة مصر والعرب ٠ تنكر للتضحيات العربية المستمرة ودنس ذكرى شهداء الامة واستخف بمعاناة اسراها وايتامها وثكالاها ٠ تجاهل الارادة العربية المتمثلة في قرارات مؤتمري القمة في الرباط والجزائر ، التي شكلت قاعدة للتحرك العربي والدولي المرحلي كأساس لمواجهة العدوان الصهيوني ، ودفعه الى الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وضمان حقوق الشعب الفلسطيني القومية ٠ ضرب منجزات حركة التحرر العربي على كافة الاصعدة وفي مختلف المجالات ٠ ومنح العدو الصهيوني مكاسب كبيرة لم يحلم يوما ما بتحقيقها ، بعد ان كسر طوق العزلة الدولية التي فرضت عليه خلال السنوات الاخيرة ٠

ولم يكتف السادات بهذا كله وباسباغ الشرعية على اسرائيل ، بمجرد قيامه بزيارتها ، وانما منحها ايضا اعترافا واقعيا (دي فاكتو) بقوله في خطابه امام الكنيست « ان اسرائيل أصبحت حقيقة واقعة » ، واضاف الى ذلك هدية ثمينة ، « فتنازل » عن القدس ووافق على تحويلها الى « مدينة مفتوحة » ٠ كما انه ، خلال زيارته ، لم يذكر اسم منظمة التحرير الفلسطينية ولو مرة واحدة ٠

وكل هذا مقابل لا شيء او، على الاصح ، لكسر «الحاجز النفسي» بين العرب واسرائيل ، وفتح الطريق امام ما يسميه « سلاما عادلا » ، الذي اصبح الان ، كما هو واضح ، نوعا من الاستسلام ٠

ان رحلة الذل الساداتية هذه تعتبر اكثر من خيانة ٠

عقد الاسرائيليين ... وعقد السادات

برر السادات رحلته الخيانية الى اسرائيل باعلانه ان ٧٠٪ من اسباب الصراع العربي ـ الاسرائيلي (على وزن قوله الاخر المأثور « ان ٩٩٪ من اوراق اللعبة في أيدي اميركا ») تعود الى عوامل نفسية ، ولا بد من ازالتها بـ « أكل العيش » مع الاسرائيليين ،قبل التوجه نحو حل العوامل الجوهرية الباقية ، التي قدرها بنحو ٣٠٪ .

ومما لا شك فيه ان الاسرائيليين ، والصهيونيين في مختلف انحاء العالم ، ومعهم حلفاؤهم من الامبرياليين والرجعيين العرب يعانون من عقد كثيرة . غير انه مما لا شك فيه أيضا ان الصراع العربي ـ الاسرائيلي ليس مسألة عقد نفسية تحل بالزيارات ، ولا مشاكل غير مألوفة يمكن ، في نهاية الامر ، حلها وديا . ان المسألة في حقيقتها ، صراع من اجل البقاء والعيش الكريم ، في مأمن من الاستعباد والذل الامبرياليين ، وعلى حلها (بما في ذلك طريقة الحل) يتوقف الى حد كبير مستقبل العرب ، وخصوصا في المشرق العربي . ولذلك فان زيارة الذل الساداتية لم تساهم ، ولا يمكنها ان تساهم في زحزحة اسس ذلك الصراع او التخفيف منه ، بل على العكس من ذلك خلقت عقدة جديدة لدى الاسرائيليين ، سيضطر المشرق العربي الى دفع ثمن باهظ لحلها . لقد اثبت السادات للاسرائيليين ، بما لا يدع مجالا للشك ، انهم بـ « صمودهم » وعنادهم واصرارهم على التشبث بمواقفهم المتشنجة قادرون ، في نهاية الامر ، على جر اكبر زعيم عربي اليهم ، ليحاول استرضاءهم . وبذلك منح التوسعيين والفاشيين بينهم امالا كبيرة و « نفسا » جديدا : اصمدوا تنتصروا . وهذه هي القاعدة من الان فصاعدا : من يريد « سلاما » من اسرائيل ، ومن لديه طلبات اليها ، او حقوق لديها ، عليه ان يحضر صاغرا ذليلا الى تل ـ ابيب للـ « مناقشة » وتقديم طلبات الاسترحام . ولا شك ان العرب سيضطرون ، لـ « حل » هذه العقدة الساداتية الصنع ، الى تقديم اعداد كبيرة من الشهداء في معارك المستقبل مع العدو الصهيوني .

وبما أن الشيء بالشيء يذكر ، وما دمنا في مجال الحديث عن العقد ، النفسية وغيرها ، لا بد من الاشارة الى انه ليست العقد الاسرائيلية فقط هي التي تلفت النظر ، وانما العقد والاخطاء وقصر النظر الساداتي ايضا . وبدون محاولة لالقاء الاضواء على هذه النواحي يصعب علينا ان نجد اي تفسير معقول لاسباب الزيارة الساداتية الشيطانية الى اسرائيل .

ليس هناك من مجال للشك في أن السادات ، استنادا الى ماضيه وتصرفاته وسياسته وخطبه العلنية وأقواله الحرفية ، يقاسي من عقد خطيرة ، ولا شك ايضا ان نظامه يستند الى عدد من المفاهيم الخاطئة والسياسات المنحرفة

التي ، ان لم يتصد احد لها ويعمل على احتواء اضرارها ، فاسقاطها ، ستجر العرب الى كارثة حتمية ٠

وأولى هذه العقد هي ان السادات ـ مثل اكثرية زعماء العالم الثالث ـ دكتاتور مقيت ، كان قد قاسى من الفقر والجوع في شبابه ، ثم انضم الى حركة الضباط الاحرار واشترك في ثورة ١٩٥٢ ، الا انه بقي في الظل مدة طويلة ٠ ثم سنحت له الفرصة للوصول الى الحكم ، اثر وفاة عبد الناصر فجأة ، ولم تمض بضعة أشهر على استلامه السلطة حتى قام بانقلاب ضد خصومه و « فرمهم » على حد تعبيره ، وذلك يوم ١٥ ايار (مايو) ١٩٧١ ـ وعلى سبيل التذكير فقط، هذا اليوم نفسه هو ذكرى اغتصاب فلسطين ـ وأصبح الحاكم بأمره ٠ ومنذ ذلك الوقت وهو يتخذ القرارات المصيرية بنفسه ، دون استشارة احد واحيانا دون علم احد ٠ ونخص بالذكر من هذه القرارات طرد الخبراء السوفييت من مصر سنة ١٩٧٢ ، الدعوة الى عقد مؤتمر صلح في جنيف وحرب تشرين لا تزال مشتعلة ، توقيع اتفاق فصل القوات الاول ، ثم الثاني ، مع اسرائيل واخيرا القيام بزيارتها ٠ لقد عارض الكثيرون في حينه ، داخل مصر وخارجها ، هذه الخطوات ولكن السادات لم يأبه لاحد ٠

أما العقدة الساداتية الثانية فهي الاقليمية والفرعونية ٠ فبعد تصاعد المعارضة والانتقادات العربية للسادات ، اثر توقيع اتفاق فصل القوات الثاني بين مصر واسرائيل ، وقف الرجل يخطب امام الاذاعة والتلفزيون وشتم العرب كلهم عامة والفلسطينيين خاصة ٠ ومما قاله يومها ان مصر كانت اغنى دولة عربية ، ثم أصبحت افقرها بسبب خوضها الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وأوضح انه تعب من هذا الصراع ويريد انهاءه (وهنا يمكن الخطر في عقده النفسية) ٠ اما الفدائيون الفلسطينيون ، الذين يضحون بأرواحهم في صراع غير متكافىء مع العدو الصهيوني ، فقد وصفهم بوقاحة بأنهم « ارهابيون » ٠ وقبل مدة قصيرة فقط ، وفيما كان يشن احدى حملاته المعهودة على ليبيا ورئيسها ، « روكب » لسانه واسمعنا لمدة دقيقتين عبارات تنم عن انفعال عميق، على هذا النحو : « الله ٠٠٠ دي مصر ٠ مصر يعني مصر ٠ دي مصر ٠ يعني مصر ٠٠٠ » ٠ والرائحة الاقليمية النتنة التي تفوح من هذه العبارات والتصرفات تكاد تزكم الانوف ٠ والامر لا يتوقف عند هذا الحد ، اذ ان مثل هذا الكلام يدخل تدريجيا الى عقول المصريين والعرب ويكاد يصبح ، في العقل الباطني ، تبريرا للتصرفات الساداتية المشينة ٠ غير ان نظرة سطحية وسريعة كافية لاظهار مدى الدجل الساداتي والخطر الفرعوني الكامن في هذه العبارات والترويج لها ٠ لقد قاست مصر ، مثل غيرها من الدول والشعوب المجاورة لاسرائيل ، من الصراع العربي ـ الصهيوني ، ولكن ليس هذا هو السبب الرئيسي لفقر مصر ، والا لكانت الدول الاخرى في وضع اشد بؤسا عما هي

الحالة عليه في مصر · ان السبب الحقيقي لذلك يكمن في ان مصر تعاني من نقص شديد في الموارد الطبيعية ، وتعاني في مقابل ذلك من انفجار سكاني كبير ، بحيث ضاقت رقعة العيش فيها الى حد كبير عما كانت عليه في السابق · ولهذا ، وبانعدام وجود صناعات على نطاق واسع ، يلاحظ ازدياد الهجرة يوما بعد اخر من مصر ، واتجاه الالاف من المصريين للعمل في الدول العربية ، في الشرق والمغرب · ولو نظر السادات والفراعنة الجدد ، الذين يحيطون به ، مليا الى هذا الوضع الاقتصادي ـ الديموغرافي لادركوا بسرعة انهم هم الذين يحتاجون العرب وليس العكس ، وتخلوا حالا عن التبجح الاقليمي الذي يسيطر على تصريحاتهم · ولو كان لديهم شيء من بعد النظر لاقتنعوا ببساطة ان مصلحتهم ، حتى من وجهه النظر الاقليمية البحتة ، تكمن في الالتزام بقضايا العرب التي هي ايضا قضاياهم · ان مصر هي التي تحتاج العالم العربي · ومن الخطأ الاعتقاد ان العدو الصهيوني ومصاصي الدماء الامبرياليين هم الذين سينقذونها ـ حتى اذا كان نظامها حليفهم ·

وبالاضافة الى هذه العقد التي تسيطر على السادات ونظامه ، هناك ايضا عدد من الاخطاء المميتة التي ارتكبوها · ومما لاشك فيه ان نظام السادات واجه، مع صعوده ، مشاكل عسيرة حاول حلها بأكثر من طريقة ، ولكنه اخطأ في اكثر من ناحية ، فوصل الى مأزقه الحالي ·

وأول هذه الاخطاء وأبرزها كامن في المفهوم الساداتي لحرب تشرين ومداها وأهدافها · لقد كانت اولى المشاكل التي واجهت السادات ، مع استلامه الحكم، تلك الناجمة عن الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية ، ومنها اراضي مصر · ولحل هذه المشكلة اعد السادات ، بنجاح نسبي ، لحرب تشرين بعد ان نسق جهوده مع عدد من الدول العربية · غير ان استراتيجية تلك الحرب استندت في أساسها الى مفاهيم خاطئة ، اذ لم يمض الا نحو ١٠ ايام على اندلاع القتال حتى اعلن السادات ، وقبل ان تتضح نتيجة المعارك ، انه يطالب بعقد مؤتمر صلح في جنيف ، فأوضح للقاصي والداني ان حرب تشرين هي أساسا حرب تحريك ، لا حرب تحرير · ولم تقف الامور ، في مدى الاضرار التي نجمت عنها ، عند هذا الحد ، اذ نبه السادات الاسرائيليين الى مدى الإخطار المحيطة بهم وإمكانية حشد طاقات عربية هائلة ضدهم ، قد تؤثر على مجرد وجودهم · وقد تنبه الاسرائيليون ـ وبسرعة ـ لهذا الوضع الجديد ، ولم تمر فترة قصيرة على انتهاء القتال حتى قاموا بحملة اعادة تنظيم شاملة لحشد كافة قواهم البشرية والمادية وضاعفوا ضغوطهم على الولايات المتحدة فزودتهم بكل ما يحتاجونه من اسلحة ، بل واكثر من ذلك · وبحلول الذكرى الاولى لحرب تشرين كان واضحا ان ميزان القوى العسكري يميل الى صالح اسرائيل · ولكن على الرغم من كل هذا لم يقم السادات باتخاذ أية استعدادات تذكر لمواجهة هذا

الوضع الجديد ، بل راح يعد لمعركة « السلام » ، من خلال ضعف وتخاذل ، بعد ان سيطرت على كيانه باسره « عقدة العبور » · وفيما كانت اسرائيل مستمرة، ليلا نهارا ، في حشد قواها واعادة النظر في خططها وتصليب مواقفها ، كان السادات منهمكا في الحديث عن العبور ، في كل مناسبة ، حتى ظهر كأن الهوس سيطر على الرجل وتفكيره · راح يخطب ويعبر ، يهدد ويعبر ، يتفلسف ويعبر ، يدجل ويعبر ، وظل يعبر ويعبر ، ويعبر ويعبر حتى وصل الى شرق تل ـ ابيب وأرتسى في احضان مناحم بيغن ·

والشيء نفسه ينطبق علىهذيان جنيف ، الذي سيطر ايضا على تفكير السادات · فكرة عقد مؤتمر صلح في جنيف كانت من بنات افكار السادات ، وهو الذي جر الاخرين اليها · الا انه خنقها في المهد ، بعد ان سمح لميزان القوى بالاختلال لصالح اسرائيل ، التي راحت تفرض شروطها وتزيد من تصلبها يوما بعد اخر · وعندما رأى السادات ، في نهاية الامر ، ان تلك الفكرة « المدهشة » قد تفشل بسبب التصلب الاسرائيلي ، وحيث انه فقد معظم عوامل قوته ـ وتخلى ايضا ، كما يبدو ، عن التفكير في اللجوء الى القوة في المستقبل ـ لم ير في نهاية الامر بدا من الذهاب الى مناحم بيغن نفسه ، « لاقناعه » بضرورة الذهاب الى جنيف ·

وزاد الطين بلة ان السادات ناصب السوفييت العداء ، وراح يشتمهم في كل مناسبة ، ان كان هناك مبرر لذلك او لم يكن · ونسى او تناسى انه لا يملك سببا يمكن ان يبرر قيام رئيس دولة جائعة وخائرة القوى باستعداء السوفييت ، ودون مبرر ، وان عواقب مثل هذا التصرف قد تكون وخيمة للغاية ، وقد تدفع بأصحابه الى الهلاك ·

الحلف الساداتي الرجعي ـ الصهيوني الاسرائيلي ـ الامبريالي الاميركي

والان ، ماذا بعد ؟

آن لنا ، بعد ان تمت زيارة السادات لاسرائيل واصبحت حقيقة واقعة ، ان نعيد النظر في حساباتنا ، ونحاول ان نستكشف ما قد يخبئه لنا المستقبل ، ونستعد لذلك · لقد أصبحت صورة النظام الساداتي ، مع مرور الذكرى السابعة لنشوئه ، واضحة للغاية · ولا ينبغي لنا ان نتصرف كالنعامة ونتعامى عن رؤية الشعارات الواضحة جدا ، المكتوبة بالخط العريض على الحائط أمامنا ·

أن اول ـ واخطر ـ ما يلفت النظر في سياسة النظام الساداتي هو استعداده لانهاء الصراع مع اسرائيل والقبول بكيان صهيوني في المنطقة دون أية شروط تقريبا · وهذه المؤامرة ـ الخيانة ، ان تمت ستؤدي الى قيام قلعة امبريالية ـ

صهيونية دائمة في قلب الوطن العربي ، وستعرض العرب بأسرهم ، وخصوصا في المشرق لاخطار فادحة ، فتهيء اسباب البقاء والاستمرارية والقوة للحركة الصهيونية وتعيد المنطقة الى حلبة النفوذ الامبريالي ، وتخضع تقدم شعوبها ومصيرها للسيطرة الاستعمارية ولاستغلال الاحتكارات الاجنبية ٠

ولهذا الاتجاه انعكاساته الواضحة ايضا على السياسة الخارجية للنظام الساداتي ٠ فمنذ مجيء السادات الى الحكم ابتعدت مصر تدريجيا عن سياسة الحياد التي اتبعتها في السابق ، وغطست في بحر المعسكر الامبريالي الاميركي وناصبت الاتحاد السوفييتي العداء ، دون مبرر او حاجة لذلك ٠ ويبدو ان السادات ، باتجاهه نحو الاميركيين قد أقنع نفسه بانهم هم الوحيدون الذين يستطيعون حل مشاكل مصر الداخلية والخارجية ، ولذلك لا بد من استرضائهم او حتى الاستسلام لهم اذا دعت الحاجة لذلك ٠ الا ان اسرائيل سرعان ما ادركت خطورة هذا الاتجاه فأوعزت للوبي الصهيوني في اميركا بالتحرك ، ونجحت في ايقاف كارتر عند حده ٠ والظاهر ان هذا التطور ارعب السادات ، الذي رأى ان استراتيجيته مهددة بالفشل أخيراً ، فقرر الاستمرار في «تحريكها» بواسطة ٠٠٠٠ زيارة بيغن « لاحراجه » ٠ ويصعب علينا ان نرى الان ما هي التنازلات التي سيقدمها السادات لبيغن في المستقبل ، « لاحراجه » اكثر فأكثر ٠

ولهذه السياسة انعكاساتها ايضا على صعيد التحالفات في المنطقة ٠ ويلاحظ، مثلا ، ان احد اكبر اصدقاء السادات هو شاهنشاه ايران ، احد اكبر حلفاء الامبريالية في الشرق الاوسط ٠ ومن حين الى اخر يقوم السادات بزيارته لاجراء المباحثات والتنسيق معه ، وقد التقى به مؤخرا قبيل الاعلان عن استعداده لزيارة اسرائيل ٠ وكانت مصر قد رفضت ، في حينه ، حتى الاحتجاج على احتلال ايران لثلاث جزر في الخليج العربي ، بينما قام السادات بزيارة للشاه اثر قيامه بذلك العمل مباشرة ٠ ويبدو ان السادات يسعى ، في قرارة نفسه ، الى عقد حلف بين مصر وايران واسرائيل ٠ واذا صح هذا التوقع يمكننا ان نتصور ايضا انضمام بعض الدول العربية الى هذا الحلف في المستقبل ـ وخصوصا تلك منها العاملة على رفع رايات الاسلام عالميا ، ولكنها ـ بالاضافة الى ذلك ـ تحارب « الشيوعية الدولية » ، بالدولارات ونقدا ، في كافة انحاء العالم ، حتى في الوقت الذي كف فيه غلاة المتعصبين عن القيام بذلك ٠ كذلك فان المحمية الاميركية ، المعروفة باسم الاردن ، مرشحة للاشتراك في هذا الحلف ، واحتواء الفلسطينيين داخله ٠ وسيحظى هذا الحلف ايضا بتأييد المعجبين العرب بـ « عبقرية الاسرائيليين » ، وهي العبقرية الناجمة عن وجود نحو نصف مليون يهودي مغربي امي في اسرائيل ، كانوا قد ارسلوا هدية الى الكيان الصهيوني ، منذ منتصف الخمسينات وحتى اليوم ٠

ان هذا الترتيب الجديد لاوضاع المنطقة ، والاحلاف الناجمة عنه ، ان تمت ، لن تؤدي الى انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة ولا الى قيام دولة فلسطينيه مستقلة ، كما يزعم السادات · واكثر ما يمكن ان نتوقعه ، في مثل هذه الحاله، هو انسحاب اسرائيلي من مساحة كبيرة من سيناء ، مع ضم مناطق معينة من شبه الجزيرة ، خصوصا في العريش وشرم الشيخ ، اليها · كما ستضم منطقة الجولان الى الكيان الصهيوني · واما الضفة الغربية وقطاع غزة فستبقيان تحت السيطرة الصهيونية ايضا، وتتحولان الى مستعمرة اسرائيلية ، بينما سيسمح للاردن ضمن « حل وظيفي » بشيء من الاشراف عليها لكي يتحمل ، ببساطة ، المتاعب والاضرار الناجمة عن ذلك ·

وعلى الصعيد الاجتماعي سيؤدي هذا الوضع الى مزيد من الانفتاح الاقتصادي وتشجيع التطلعات الاستهلاكية ، فتدخل المنطقة في لعبة التضخم المالي وارتفاع الاسعار المستمر، وتسيطر الاحتكارات الاجنبية ووكلاؤها، ويزداد الاغنياء غنى والفقراء فقرا ·

واذا تم مثل هذا الترتيب الجديد لاوضاع المنطقة ، يمكننا ان نتصور مجموعة من الخطوات الاخرى المتممة له ، تتمثل في هجمة امبريالية ـ صهيونية ـ رجعية على كافة الانظمة التقدمية في المنطقة وجوارها ، وعلى منظمة التحرير الفلسطينية ، وكافة التنظيمات والاحزاب الوطنية والقومية ، لسحق منجزات حركة التحرر العربي كليا ·

ان الزعماء ، سواء كانوا معتوهين او حكماء ـ وخصوصا في العالم الثالث ـ هم الذين يصنعون تاريخ بلادهم ، خيرا كان او شرا · والسادات واحد من هؤلاء الزعماء الذين يبدو انهم لا يتقنون الا صناعة الشر · ان شخصية الرجل وسياسته خطيرتان للغاية ، ويكاد يذكرنا ، من حيث النتائج الخطيرة التي قد تترتب على مشاريعه ، ان سمح لها بالمرور ، بشخص اخر في تاريخ العرب الحديث (وخصوصا تاريخ فلسطين) هو الملك عبد الله بن الحسين ، مؤسس مملكة شرق الاردن وجد الملك حسين الحالي ·

لقد كان الملك عبد الله رجلا طموحا وماكرا ، توسم البريطانيون فيه الخير عندما اتجهوا لتدعيم نفوذهم ورسم خططهم الامبريالية في المشرق العربي ، فخلقوا امارة شرق الاردن وسلموها له ، واعتمدوه كأحد عملائهم الرئيسيين في المنطقة ، بينما كان وايزمان ، الذي كان من ابرز العاملين لاستصدار وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، هو الشخص الموازي له صهيونيا، بالنسبة لفلسطين · ولم يقنع عبد الله بتلك الامارة الصحراوية التي سلمت له ، فوقع في حب امارة فلسطين ايضا ووجه انظاره كذلك صوب سوريا والعراق ولبنان · وبالنسبة لفلسطين بالذات لم ير عبد الله حرجا في عقد حلف مع الصهيونيين ، فاقترح

عليهم « مد » حدود الوطن القومي اليهودي لتشمل شرق الاردن ايضا ، لقاء موافقتهم على تنصيبه اميرا على فلسطين · وفي حالة واحدة على الاقل كانت هناك اكثرية صهيونية تؤيد هذا المشروع ، الا ان البريطانيين تدخلوا اخيرا ومنعوا تحقيق حلم الامير · غير ان عبد الله لم ييأس واستمر في مساعيه ، الى ان استطاع اقناع لجنة بيل البريطانية التي اقترحت تقسيم فلسطين سنة ١٩٣٧ ، بضم المساحة المخصصة للعرب ، بموجب ذلك التقسيم ، الى شرق الاردن · وعلى الرغم من فشل هذا المشروع ، في حينه ، بعد ان رفضه الفلسطينيون بشدة واسدلت الحرب العالمية الثانية الستار عليه ، بقيت هذه الاطماع راسخة في عقل الامير ، الى ان استطاع تحقيقها سنة ١٩٤٨ ، وذلك باتفاق مع الصهيونيين سمح له بموجبه بضم الضفة الغربية الى مملكته شرط الامتناع عن مهاجمة المناطق المخصصة لليهود بموجب قرار التقسيم · وبعمله هذا ، كان عبد الله من اكثر العرب نشاطا في المساهمة في خلق الكيان الصهيوني ، تحت حماية الحراب البريطانية ، التي ايدته والصهيونيين معا ·

واذا كانت سياسة عبد الله واطماعه ومفاهيمه الخاصة به للصراع العربي ـ الصهيوني قد أدت الى خلق اسرائيل التي نعرفها حتى الان ، فان سياسة السادات ـ كما يبدو ـ ستؤدي الى خلق اسرائيل الكبرى ، وهذه المرة تحت حماية الحراب الاميركية ·

ان مخاطر السياسة الساداتية واضحة للغاية ، اذن ، ولا بد من التصدي لها واسقاطها ، بالتي هي احسن او اسوأ · وبانتظار ان يتم ذلك ، دعونا ننظر نحو الضحايا المرشحين لسياسة النظام الساداتي ·

المشرق ··· المشرق العربي

تكشف زيارة السادات لاسرائيل عن نواح مهمة في التفكير الامبريالي والصهيوني ، كانت حتى الان غائبة عن انظار العديد من العرب · وهذا التفكير الجديد يعرض الان للاختبار ·

أن زيارة السادات لاسرائيل لم تتم ، بالطبع ، مصادفة فقد سبقتها اتصالات ومفاوضات واغراءات وضغوط وجهت الى مصر وحكومتها · والهدف الصهيوني الاول منها هو العمل على الانفراد بمصر ودفعها الى الخروج من دائرة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ومن ورائها المغرب العربي بأسره ، ومن ثم توجيه الضغوط نحو المشرق ومحاولة اخضاعه · وليس في هذا الاتجاه ، على كل حال ، اية غرابة · فالاطماع الصهيونية موجهة اساسا نحو المشرق العربي ، ففيه توجد ما تسمى « ارض ـ اسرائيل » (والتي تضم ، بالاضافة الى فلسطين، اجزاء من جنوب لبنان والجولان وسهل الحوران في سوريا وكل القسم المأهول

من شرق الاردن) ، وعلى نتائج الصراع مع سكانه يتوقف ، في نهاية الامر ، مستقبل المشروع الصهيوني · ولذلك ليس من المستغرب ان تحاول اسرائيل بذل كل ما في وسعها لدق اسفين بين مصر والمشرق العربي ـ لعزل مصر وتركيز جهودها في المشرق · كما يساهم في تقوية هذا الاتجاه الرأي القائل ان مصر هي زعيمة الامة العربية ، وان ما تقرره يقبل به العرب ، في نهاية الامر ، أن شاؤوا او ابوا ·

ان محاولةالنظام الساداتي الفرار من ساحة الصراع مع العدو الصهيوني يضع المشرق العربي في مواجهة مسؤوليته التاريخية ، ووجها لوجه امام الخطر المحدق به · والطريقة الوحيدة لمواجهة هذا الخطر هي التكتل في وجهه ، واقامة جبهة صمود مشرقية ، تضم اليها اي دولة عربية راغبة في ذلك · ان محصلة النشاط السياسي في المشرق حتى الان ، لا تشجع ، لاول وهلة ، على تعليق آمال كبيرة على قيام مثل تلك الجبهة · ولكن من الواضح ، من ناحية ثانية ، ان الخطر الداهم المستجد يهدد كل المشرق ، ويضع وجوده بحد ذاته في الميزان · ومن الواضح أيضا ان جبهة مشرقية ، ان قامت ، كفيلة بتشكيل سد منيع في وجه المطامع الصهيونية على المدى القصير ، ولدحرها على المدى الطويل · ان المشرق العربي يشكل وحدة جغرافية وتاريخية وحضارية ، يضم نحو ٣٠ مليونا من العرب ، وصلوا الى مدى من التقدم والعلم كاف لان يؤهلهم لمجابهة المهام التي قد تلقى على عاتقهم · كما ان المنطقة واسعة بما فيه الكفاية ومليئة بالخيرات والموارد الطبيعية والاراضي الخصبة ، التي يمكن ان تتحول الى قاعدة صلبة لصد العدوان او المطامع الامبريالية · والمرء لا يستطيع الا ان يأمل ـ على الاقل ـ بان ينهض المشرق ويحزم أمره ويتصدى بعنف للمؤامرات التي تحاك ضده · وينبغي ان يكون واضحا ، في نهاية الامر ، ان السادات لن يتورع كثيرا عن « بيع » المشرق بأسره ، اذا سمح له بالاستمرار في السير على طريق تل ـ أبيب ، وان كنا نعتقد ان عصابة بيغن ـ دايان ـ المفدال ـ غوش ايمونيم « ستخذله » اخيرا ، ولن تقدم له ـ او لغيره ـ اي تنازل ·

المطران كبوشي
لحظة خارقة خارج المرحلة الرماديّة

خرج المطران كبوشي (١) من سجنه واطل علينا ونحن لا نزال اسرى المرحلة الرمادية ، ونحاول جهدنا ان نقتحمها ، ان نخرج من دائرة نفوذهـــا ، وان نتحرر من « منطقها » ٠

ففي هذه المرحلة تلاشت الالوان وفقدت ضياءها ، وطغى الرمادي علـــى قوس قزح ، ولفت السماء سحابة كئيبة ، ظنناها سحابة صيـف فخدعتنا او خدعنا نحن انفسنا ٠

وتاهت الحقائق وضلت سبلها ، وتساوت الاخبار مع الاكاذيب مع الشائعات، واختلطت الوقائع مع التمنيات ، فلم نعد ندري بما يجري !

وماذا لو درينا او علمنا ؟ فاي فرق ، في هذه المرحلة ، بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، بين الذين يقبلون والذين لا يقبلون ؟

حتى القيم المطلقة ، كالحق والحرية والخير والجمال ، ساوموها علـــى مضامينها ، فبتنا لا نميز بين القيمة ونقيضها ، بين القرين والضد ٠

اطل علينا المطران في مرحلة ساوت بين الثورة والثورة المضادة ، بين من يحمل السلاح معها ومن يحمله في وجهها ٠

وساوت بين داعية لسلام يقوم على حق واخر يدعو لاستسلام على باطل ٠ بين حامل عبوة لنسف الكنيست ، واخر يدعو لالقاء محاضرة فيه ٠

---

(١) سألت المطران كيف يكتب اسم عائلته ، فقال انه يكتبها بالشين وليس بالجيم كما هو شائع ٠ وكتبتها كما يريدها صاحبها ٠

مرحلة تحترب فيها عواصم العرب حول شبر ارض على حدودها المشتركة ، وتغض الطرف عن وطن بأسره يغتصبه العدو بكامله · وتملأ ساحات بعضها البعض بالقنابل الموقوتة وعربات الديناميت انتقاما لتصريح او بيان ، وتغض الطرف عن حقوق شعب كاملة يبتلعها البحر الميت تحت مشارف القدس ·

مرحلة وضعت كل شيء في القفص ، قفص الاتهام ، ونصبت كل واحد فوق القوس ، قوس المحكمة · واصبح المجرم هو القاضي والقاضي هو المجرم وتبادل مدعي الدفاع ومدعي النيابة الادوار ·

هي المرحلة الرمادية في عصر الرمال ·

وتحاول ، وانت الثائر والواعد بالتغيير ، ان تقتحم المرحلة ، ان تخرج من اللعبة ، ان تغني خارج السرب ، ان تركض الى امام لتمسك « باللحظة التاريخية » وتصحح مسارها ·· وفجأة تكتشف انك لا تزال تراوح داخل المرحلة ، وانك لم تخرج من اللعبة ، وانك كنت في اناشيدك الشاذة استكمالا سيمفونيا لنغم السرب ، وانك كنت تركض داخل قطار يسير عكس اتجاهك ·

وتكاد تيأس ، واحيانا تيأس بالفعل ، ويسيطر عليك الاحساس بالعدمية ونهاية المطاف ، وبأن الالوان غابت الى غير رجعة ، وان الرمادي سرمدي لا يزول ·

غير انك ، وانت في الوادي المظلم ، تفاجأ كذلك بالسحابة الرمادية وهي تنشق ، لتسطع في لحظة كل اضواء الالوان الغاربة ، مقرونة بهزيم رعد مدو يمزق جدران الواد ويفتت رتابة النقيق الرمادي ·

لحظة ليست ككل اللحظات ، انها اللحظة الخارقة ، غير الوافدة من بدائع الطبيعة الماورائية استجابة لنفوس تاكلها المرض والخوف والحقد ، وانما هي من صنع الرجال على الارض ، من اجل الرجال على الارض ·

اطلالة المطران كبوشي كانت لحظة خارقة ، بل انه هو تلك اللحظة الخارقة ، التي كانت وامثالها ، وعلى مدى التاريخ ، اللحظة المنعطف التي تفصل بين اليأس والامل ، بين الهزيمة والنصر ·

انها لحظة الضوء في ظلام الرمادية وعصر الرمال ·

اي واحد منا كان يتمنى ان يفتدي حريتك بحياته ، ومع ذلك فلقد كنا جميعا، كل فدائي حولنا ، ينظر اليك عبر الافق كرمز للصمود وبطل من ابطال المقاومة، فكيف استطعت يا سيدي وانت الراهب الجليل ان تتحمل كل ما تحملت وان تكون في سجنك اكبر من سجانك ؟ ولانه من الناس ، مثلهم جميعا ، يأبى التصنع واصطياد الكلمة ، فيأتيك الجواب متدفقا بين لسانه وشفتيه حديث قلب لقلب :

□ لا شيء خارق كالانسان يا ولدي ، ولا محرك كالعذاب · كنت في عذابي كذلك الصاروخ الذي ينتظر العد العكسي : عشرة ، تسعة ، ثمانية ، ويهون العذاب حتى يتلاشى مع الصفر ، فاذا بالروح تنطلق من قمقمها الجسد مثل الصاروخ صعودا الى اعلى لتلف في المدارات التي اختارت · وبين القدس والفدائي مدار روحي ·

ويتطلع بنا ، يريد توكيد الحقيقة على البلاغة ، ويقسم بانه لم يشعر طيلة ايام حياته بالعملقة والقوة التي احس بهما وهو في سجنه وفي اخريات ايام اضرابه عن الطعام :

□ اصبحت وانا الواهن الضعيف اقوى منهم يا ابنائي ، اقوى منهم بكثير · صار السجان الذي اعتاد ان يثقل علي من شباك زنزانتي يطاطىء رأسه امام تمتمات صلاتي ، وشموخ ارادتي ، ورفضي لارهابهم واغرائهم ·

وتقول له : الحياة ، اذن وقفة عز وموقف رجل ! فيقاطعك ليقول :

□ ولا تكتمل رجولة انسان قبل ان يصهر ببوتقة العذاب · أولم تكن تلك سيرة الفادي الاول السيد المسيح ؟ اولم يعان الرسول العربي مما هو اشق على النفس والجسد ··؟ وكل الرواد ، كل الثوار ، هم رسل حق وانبياء صغار من اجل الحق والعدل والسلام ·

وينزل من ملكوت سماواته الى الارض ويذكر :

□ اولم يتحمل شعبنا الفلسطيني اكثر مما تحملت انا ؟ او لم يقض جيلا من عمره في المنفى ؟ او لم يذيقوه كأس الذل مترعة ، فاوقفوه طوابير طوابير من اجل لقمة خبز او ملجأ او وثيقة سفر او شهادة ميلاد ؟ انا من هؤلاء يا اولادي ، هؤلاء هم اهلي وعشيرتي واخوتي وابنائي ·

وينظر الى ثوبه الديني والصليب المدلى بسلسلة فضية من عنقه ليضفي على لحيته وشاربه ضوءا من نور ويقول :

□ ولاني مطران ، ولاني رجل دين ، فانا اولى من غيري بالحس قبل غيري· او لم نات هدى للناس ورحمة ؟ ولا فضل لي في ذلك يا ابنائي ، فانا مسير ولست مخيرا ، وما كان يمكن لمصيري ان يكون غير ما كان عليه · هي ارادة الرب ان اقوم بواجبي قدر طاقتي ، وقد فعلت ذلك قبل دخولي السجن ، واتممت ذلك وانا في السجن ، وسأفعل واجبي بعد السجن ·

وتريد ان تخفف له حدة ما عانى ، وان تطيب خاطره ، فتقول له :

كنا كلنا معك يوم سجنوك وعذبوك · كنت معنا فوق كل رابية وعند كل منعطف ، في كل شارع ، في كل منزل ، في قلب كل فلسطيني ، بل في قلب كل

عربي ، وكل انسان حر شريف · واليوم نشعر اننا بتنا احرارا معك ، لا ظلمة بعد اليوم ، ولا صرير ابواب حديد ، ولا شتائم سجانين ! وينهمر الدمع من عينيه · هو لا يحاول ان يحبس دمعه · هو لا يمثل دورا ، وانما يحيا عمره بلا زيف وبلا رتوش · اذن فليجر الدمع من ماقيه · دموع فرح هي ، مشوبة بغصة · والمطران لا يكذب اهله ، ولا يخدع رفاقه ولا يموه على اخوته · انه يقول :

□ السجن يا ابنائي ! ما هو السجن ؟ اسلاك شائكة هو ، وعمدان شاهقة ، وجدران تحول بينك وبين الافق · اكثر من ذلك ! هو ايضا قيد في اليدين ،وقيد في الارجل · ولكنه ليس اكثر من ذلك · السجن الحقيقي يا ابنائي هو تكبيل اللسان ، وحرمان القلب من رعاية الوطن والمواطنين · ويسرح قليلا ، يشرد ، كأنه يستذكر تلك الايام التي سبقت الافراج عنه وما رافقها من ملابسات ، ثم يشتد ويقول :

□ انا اعرف مدى حب قداسة البابا وغبطة البطريرك مكسيموس لشخصي ، واعرف ان عاطفتهما السامية دفعتهما لانقاذي واخراجي من السجن ، ولكني ·

ويتعثر اللسان الذلق ، ويضطرب القلب الحائر بين الطاعة والثورة ، ثم يتدفق مرة اخرى من القلب للقلب حديث الراهب الثائر :

□ ليس في الدنيا كلها ما يعادل حرية لساني · ولن ارضى بالسجن الكبير بديلا عن سجني الصغير · انهم ان ارادوا قيد حريتي وابعادي عن فلسطين ، سأعفيهم من وعودهم وسأختار راضيا العودة الى سجني في الرملة · هناك على الاقل اشعر ان السماء التي تظللني في زنزانتي هي نفسها السماء التي تظلل يافا وحيفا والقدس والناصرة وجنين ··· ويستمر في تعداد مدن الوطن وقراه وكأنه يعدد اسماء الله الحسنى من حول حبات سبحته · سبحته ؟؟!!

ولسبحة المطران قصة · فهناك في سجنه ، بعد ان خانه النظر فلم يعد يقدر ان يقرأ ، اخذ يتسلى بالخشبة المقدسة ، خشبة الزيتون ·

وماذا يمكن ان تكون تسلية راهب جليل في سجنه الضيق !!

لقد تعلم الحفر حتى اتقنه ، ومن خشب الشجرة المباركة اخذ يحفر رايات العرب واسماء قادتهم موقعة بامضائه الطاهر من سجنه في الرملة ، ويربطها بعد ذلك بسبحة من خيوط مجدولة ·

ومن سجنه اوصل هداياه لقادة العرب وحكامهم ، ومع كل هدية رسالة ، وكل رسالة موعظة وعبرة ، ومناشدة في الصمود واستمرار الكفاح · اماكيف كان يهرب رسائله فتلك قضية ليست للنشر ، الان على الاقل ·

هو الذي في السجن ، يدعوهم هم الذين في القصور ، الى الصمود

واللايأس واستمرار المسيرة !!

ونعود لحديثه الذي لا تجوز مقاطعته :

□ هم يا اولادي ـ يقصد الصهاينة ـ ليسوا اقوى منا ، وليسوا اذكى منا ٠٠٠ انما نحن يا اولادي ، نحن ضعفنا في فرقتنا ، وسر هزيمتنا في عدم معرفة عدونا وعدم معرفة انفسنا ٠٠ فنحن الاقوى ، ونحن الاقدر ، وفوق هذا كله ، نحن الى جانب الحق ، يعني الى جانب الرب ومن كان مع الله فهو المنتصر ٠

ويستمر في التدفق شلالا من الامل والثقة :

□ لقد عدت اليكم يا ابنائي ، وليس من قوة غير قوة الله تبعدني عنكم وعن ثوارنا الذين زرعوا ارض الوطن بدمائهم العطرة ٠ عدت اليكم لنكمل الطريق ، فلست ممن يقفون في منتصف الطريق ٠ انا معكم حتى نهاية الشوط، حتى يوم النصر ، حتى تلك اللحظة التاريخية يوم تلف ايادينا خواصر بعضنا البعض نرقص ونغني لفلسطين ٠

وتخشى عليه من فرط تعلقه بالعودة الى الساحة ان يصاب بقلبه فيما لولا قدر الله ، ابعدوه الى اميركا الجنوبية ، او اطالوا غيبته في روما ، فتحاول ان تخفف عنه بالقول :

بوركت يا سيدي ، فلقد اعطيت نصيبك للعلى ، ولا بد من راحة ولو لبعض وقت ٠ انها استراحة المحارب ٠

ولا يدعك تكمل ، ليقول بالحسم كله :

□ لاسبوع او اثنين ، لشهر او شهرين يهون الامر ٠ لزيارة عابرة او اقامة مؤقتة يهون الامر ٠ ولكن غير ذلك مرفوض مرفوض ٠ نحن يا ابنائي رهبان ٠ والراهب لا يتزوج ، والمسيحي لا يطلق ٠ اما انا المسيحي الراهب فلقد تزوجت عروسا لا يوجد في الكون من يستطيع ان يحل محلها ٠ عروسي هي القدس ، هي فلسطين ولن اغير زوجتي ٠

وتأخذه العزة في الوطنية ويضرب المائدة بقبضته ويقول :

□ انا مطران القدس ٠٠٠ وتدمع عيناه ويكمل :

□ مطرانها في المنفى ٠ ولن اسجل على نفسي لقبا غير هذا اللقب ولو فرشوا لي الدنيا بالذهب والفضة او ٠٠٠

ويكمل المطران وعيده ، ونحجبه نحن عن النشر ، فللكلام في حضرة المطران حرمة ، هو لم يفرضها علينا ولكننا نحن التزمنا بها ٠

فالمطران ايلاريون كبوشي لا يعرف المواربة ، ولا يعرف المراوغة ، وكحد السيف القاطع بحسمه · هذا اسود وذاك ابيض ، هذا حق وذلك باطل ·

المطران كبوشي خارج المرحلة الرمادية ويرفض عصر الرمال المتشابهة ·

لذلك هو لحظة خارقة ، وومضة برق في ليل بهيم ، هزيم رعد في وادي الصمت العميق ·

ولا يرضخ · تسأله عن شروط الافراج عنه فيحسم :

□ انا لا ارضخ للشروط · في حياتي لم افعل · ذات يوم عرضوا علي المنفى والابعاد بديلا عن السجن ، فرفضت مؤثرا السجن فوق تراب فلسطين على الحرية بعيدا عن ثراها ·

وانا ـ شفيق الحوت ـ اقول : اذا ابعدوه قتلوه ، اوقفوا قلبه عن الخفقان، فللمطران كبوشي مع فلسطين قصة حب تختلف عن قصصنا جميعا · يتحدث عنها حديث العاشق الولهان ، العاشق الذي يتحدث عن اول تجربة حب له في حياته ولعلها الوحيدة والاخيرة · ولغته لغة الفرسان القادمين من عهود الوفاء والايمان والشجاعة · فهو يرى الله من خلال حبيبته ، ويبدو ان فلسطين هي التي شدته الى الله ، فالتحمت الرؤيا بين عين البصر وعين البصيرة واختلط ملكوت السماء وملكوت الارض الفلسطينية ·

هو غرسة زيتون ، وشتلة برتقال ، لا تحيا ولا تنتعش ولا تعطي الا في ارض عربية ، يستحسن ان تكون قريبة من القدس ·

لا اقول ذلك مبالغة ولا صياغة ، وانما احذر واندر لانها هي الحقيقة ، وابعاد الرجل عن ترابه وعن اهله هو قرار باعدامه ·

وهو لا يخشى الموت ، بل يرحب به من خلال مجابهة العدو في ميدان القتال، في عملية فدائية ، لانقاذ طفل ، لري زر ورد ، ويرفض الاستسلام لحبل مشنقة·

ولا ينخدع بالزمن ، ولا يقر انه العقار الذي يشفي امراض الشوق والحنين · الزمن عنده اداة يستخدمها هو ، وليس مهربا للنفس من تعلقها بالقيم الخالدة والوفاء السرمدي اللامحدود ·

□ لن استكين ، ولن استريح ؟؟ هذه كلماته التي تذكرك بمطلع قصيدة للمرحوم كمال ناصر : « لن استريح والشعب دام جريح » ··· ويكمل :

□ الراحة يوم تدق الاجراس ، اجراس العودة في كنائسنا المصادرة وماذننا اللاجئة فوق قببها ·

وينحسر الياس عن نفسك وانت تستمع اليه ، وتستعيد ثقتك بالانسان

والضياء والقيم ، وتبدأ السحابة الرمادية بالانحسار ولو عن نفسك ، ويتسع شق الضوء في بطنها القبيح ٠

وتسأله ، اما من كلمة لابنائك المقاتلين ، ولاهلنا في الارض المحتلة ، فيقول:

□ للجميع اقول ، والجميع مقاتل من اجل الحق : ان الله حق فانتم جنود الله ٠ للجميع اتقدم بتحيتي ومحبتي وتمنياتي بالصمود والمثابرة والكفاح ٠

للجميع اقول لقد تعلمت منكم يا من زرعتم الارض المقدسة بدمكم الطاهر وقدمتم للوطن قربانا يستحقه ٠ انا منكم ، وانا معكم ولكم ٠ ولاخينا الاكبر ، المناضل الثائر ، ياسرنا ابو عمار ادعو الله ان يمده بعونه وان ينير قلبه وان يلهمه المزيد من الصبر والصمود حتى تتحقق رسالتنا ويتم نصرنا ونعود لديارنا ٠ وللجميع اقول : اوصيكم بالوحدة فليس من قوة كالوحدة ٠

بكلمة اختم فأقول :

ـ المطران كبوشي لحظة خارقة ٠

محمود سويد

استراتيجيّة التسوية

باستثناء اللعبة المنفردة . الحافلة بالمفاجآت ، التي يؤديها الرئيس انور السادات . على مسرح الشرق الاوسط . وصلت المساعي ، التي تقودها الولايات المتحدة لعقد مؤتمر جنيف . الى طريق مسدود . فالتسوية المعروضة على العرب واحدة في جوهرها ، وهي لا تتعدى ادخال تعديلات بسيطة على « الحدود » الاسرائيلية الحالية : انسحاب تجميلي في الجولان ، والبقاء في معظم الضفة الغربية ، وفي كل غزة ، وفي بعض سيناء ، مقابل معاهدة سلام تشتمل على علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية وغيرها . اما القدس ، فخارج نطاق البحث . وتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف) في جنيف مرفوض . ولا مجال للبحث ، على الاطلاق ، في انشاء دولة فلسطينية مستقلة ، على جزء من التراب الوطني الفلسطيني .

هل تستطيع الانظمة العربية ، ان تحقق التسوية المتوازنة ، والسلام العادل، في ظل ميزان القوى الحالي ـ الذي يعكس ، انطلاقا من جنوبي لبنان ، حقيقة الوضع ؟ .

ان تحالفا ثلاثيا يتحرك على الساحة بقوة : الولايات المتحدة ، اسرائيل ، الجبهة اللبنانية . اما الجانب العربي ، فمنهمك في خلافاته ، وفي سد « الثغرة » التي قد ينفذ منها العدو . ولم يبق من ثغرة ، كما هو معروف ، سوى الثورة الفلسطينية التي لا تزال تقاوم رغم كل الضغوط .

الولايات المتحدة

تبلور الموقف الاميركي من مساعي التسوية « في الشرق الاوسط » ، في الاونة

الاخيرة ، من خلال وثيقتين رئيسيتين : البيان الاميركي ـ السوفياتي ، وورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ، وخطاب للرئيس الاميركي كارتر امام المؤتمر اليهودي العالمي ٠

اولا : البيان الاميركي ـ السوفياتي : جاء في هذا البيان ما يلي :

١ ـ « ٠٠٠ ضرورة التوصل في اسرع وقت ممكن الى تسوية عادلة ودائمة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وان هذه التسوية يجب ان تكون شاملة ، وان تتناول كل المواضيع ، وكل الاطراف ٠

« ٠٠٠ حل كل عناصر التسوية ، بما في ذلك المسائل الاساسية ، كانسحاب القوات الاسرائيلية من اراض احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وحل المسألة الفلسطينية، بما في ذلك ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وانهاء حالة الحرب ، واقامة علاقات سلمية عادية رسمية ، على اساس الاعتراف المتبادل بمبادىء السيادة وسلامة الاراضي والاستقلال السياسي ٠٠٠

٢ ـ « ٠٠٠ التفاوض في اطار مؤتمر جنيف ٠٠٠ على ان تشترك في اعماله كل اطراف الصراع ، بمن في ذلك ممثلو الشعب الفلسطيني ٠٠٠» (١) ٠

هذه هي العناصر الاساسية التي يتضمنها البيان ٠ وقد اعتبر مقبولا عربيا، بوجه عام ، لما تضمنه من اعتراف اميركي « بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ٠ فهذه اول مرة تستخدم فيها الادارة الاميركية هذا المصطلح ، بدلا من مصطلح « المصالح » الذي درجت على استخدامه في بيانات سابقة ٠ أما بقية عناصر البيان ، فكان تقويمها سلبيا ، من وجهة النظر العربية ، خصوصا : التراجع عن الموقف السوفياتي التقليدي ، بالنسبة الى انسحاب اسرائيل من « الاراضي » (وليس اراض) العربية المحتلة ، وعدم الاتيان على ذكر م٠ت٠ف كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وضرورة تمثيلها في جنيف ٠

ثانيا : ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية : الا ان حبر الوثيقة الاميركية ـ السوفياتية ، لم يكن قد جف بعد ، عندما توصل موشيه دايان ، وزير خارجية اسرائيل ، اثناء وجوده في واشنطن ، وبعد حملة ضغط واسعة شنتها اسرائيل واللوبي اليهودي واصدقاء اسرائيل وحلفاؤها في الولايات المتحدة ، وبعد محادثات طويلة ليلة ٥ـ١٠ـ٧٧ مع الرئيس كارتر ، الى توقيع ورقة عمل اميركية ـ اسرائيلية ، اعتبرها المراقبون السياسيون ، بمثابة الغاء لايجابيات البيان الاميركي ـ السوفياتي ، وتنصل اميركي من بعض بنوده ٠ وهذا هو نص ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ، التي نشرت في وقت لاحق في اسرائيل ، على الرغم من الاتفاق على ابقائها سرية :

« ١ ـ يمثل الاطراف العربية وفد موحد ، يضم عربا فلسطينيين ٠ وبعد جلسة الافتتاح ينقسم المؤتمر الى مجموعات عمل ٠

« ٢ ـ تشكل مجموعات العمل للمفاوضات وعقد معاهدة السلام كالتالي :

أ ـ مصر ـ اسرائيل

ب ـ الاردن ـ اسرائيل

ج ـ سوريا ـ اسرائيل

د ـ لبنان ـ اسرائيل (اذا ضم لبنان الى مؤتمر جنيف)

« ٣ ـ تبحث المسائل المتعلقة بالضفة الغربية وقطاع غزة في مجموعة عمل تضم اسرائيل والاردن ومصر والعرب الفلسطينيين ٠

« ٤ ـ يبحث الحل لمسألة اللاجئين العرب واليهود وفقا لقواعد يجري الاتفاق عليها ٠

« ٥ ـ القاعدة المتفق عليها لاجراء المفاوضات في مؤتمر السلام في جنيف فيما يتعلق بالشرق الاوسط ، هي قرارا مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ٠

« ٦ ـ تبقى جميع القواعد الاصلية لمؤتمر السلام في جنيف سارية المفعول ، باستثناء ما يتم الاتفاق عليه بين الفرقاء ٠ اي اذا وافق الفرقاء على تغيير ، فسيكون هذا التغيير » (٢) ٠

وكان قد سبق اعلان ورقة العمل هذه ، صدور بيان مشترك اميركي ـ اسرائيلي ، تضمن نقطتين رئيسيتين : ١ ـ قرارا مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ هما الاساس المتفق عليه لتجديد عقد مؤتمر السلام في جنيف ، ٢ ـ قبول الاطراف بالبيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك ، الصادر بتاريخ ١ـ١٠ـ٧٧ ، ليس شرطا مسبقا لعقد مؤتمر جنيف مجددا (٣) ٠

وافقت الحكومة الاسرائيلية على ورقة العمل المذكورة ، في جلسة حضرها دايان ، بعد عودته من الولايات المتحدة ٠ وقال ، في الجلسة ، شارحا ما توصل اليه في محادثاته مع المسؤولين الاميركيين : « تعهدت الولايات المتحدة بانها لن توافق على اشتراك ممثلي م٠ت٠ف٠ في جنيف ، او على اية مداولات تتعلق باقامة دولة فلسطينية او كيان فلسطيني ، مهما كان ، في يهودا والسامرة » (٤)٠

وتابع دايان ، في مناسبات اخرى ، دفاعه عن الورقة المذكورة ، فنوه في اجتماع لجنة الشون الخارجية والامنية في الكنيست ، بحذف اسم م٠ت٠ف٠ من الورقة ، وأضاف : « يحتل الفلسطينيون ومشكلتهم ، في الوثيقة ، موقع مسألة محلية تحتاج الى حل ، وليس بمثابة مسألة سياسية متساوية الاهمية مع امور قائمة بين اسرائيل وبقية الدول العربية الاربع المجاورة لها » (٥) ٠ ونقلت عنه هآرتس ، يوم ١٤ـ١٠ـ٧٧ ، قوله ان الولايات المتحدة وافقت على ٣

لاءات : لا لاعطاء م٠ت٠ف٠ اي موقع في المفاوضات ، لا لاقامة دولة فلسطينية، لا لعودة اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ٠

واشارت صحيفة دافار ، يوم ١٣ـ١٠ـ٧٧ ، الى النقاط التي تميز ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ، عن ورقة العمل الاساسية التي اعدتها الحكومة الاميركية لعرضها على اطراف النزاع :

أ ـ تضمنت الصيغة الاساسية ، مشاركة ممثلين ، من مراتب عليا ، عن م٠ت٠ف٠ ولم تتضمن الصيغة النهائية ذلك ٠

ب ـ ذكر في الصيغة الاساسية ان جدول اعمال مؤتمر جنيف سيتضمن مسألة الكيان الفلسطيني ، ولم تذكر الصيغة النهائية ذلك ٠

جـ ـ في الصيغة الاساسية : وفد عربي موحد ، ووفد اسرائيلي ، يواصلان عملهما طوال فترة المؤتمر ، وليس فقط في جلسة الافتتاح ٠ لم تشمل الصيغة النهائية شيئا من هذا ٠

د ـ في الصيغة الاساسية ، ان اسرائيل « ستفاوض » على مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ وقد استبدلت « ستفاوض » بـ « شتناقش » ٠

قبل سفره الى الولايات المتحدة ، قال دايان في خطاب امام الكنيست : يمكن اجمال الموقف الاميركي بما يلي : « انسحاب اسرائيلي الى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ ، مع تعديلات طفيفة تجري بموافقة متبادلة ، ومنح العرب الفلسطينيين حق تقرير المصير ، وسلام يشمل اقامة علاقات دبلوماسية وتجارية » ٠ هذا الموقف تبلور في عهد الادارة السابقة ، ولم يحصل فيه اي تغيير في عهد الادارة الحالية (٦) ٠

وبعد عودته ، حاملا ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ، قال دايان : « لا يوجد توافق في الآراء بيننا وبين الرئيس الاميركي بالنسبة الى مستقبل الفلسطينيين ووطنهم ، وبالنسبة الى انسحاب قواتنا من المناطق ، والى مشاركة م٠ت٠ف٠ في مفاوضات السلام ٠٠٠» (٧) ٠ وفي وقت لاحق ، قال دايان : تتمحور الخلافات في وجهات النظر مع الاميركيين حول موضوعين : مسألة عمق الانسحاب ، ومسألة الكيان الفلسطيني ، وبالمقابل ، وهذه نقطة مهمة ، نستطيع ان نصر على موقفنا بالنسبة الى الضفة الغربية ، من دون احداث شرخ في العلاقة بالولايات المتحدة (٨) ٠

ثالثا : تصريحات اميركية : قالت اذاعة اسرائيل ، يوم ٧ـ١٠ـ٧٧ : بعد الضغط الصهيوني الذي ادى الى الغاء مضمون البيان الاميركي ـ السوفياتي ، وتوقيع ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ، شرح كارتر موقفه امام ٢٦ نائبا اميركيا مؤيدا لاسرائيل بقوله : هناك فرق بين « الحقوق القومية » و « الحقوق

المشروعة » للفلسطينيين ، والولايات المتحدة لا تتحدث عن « حقوق قومية » . وهي غير ملتزمة باقامة دولة قومية فلسطينية (٩) ٠

وفي ٢ـ١١ـ٧٧ ، تحدث الرئيس كارتر امام المؤتمر اليهودي العالمي . المجتمع في دورته السنوية في واشنطن ، وهذا اهم ما ورد فيه عن موضوع التسوية ٠ وقد وزع النص مكتب المعلومات الاميركي ـ السفارة الاميركية في بيروت ونقلته صحيفة النهار يوم ٤ـ١١ـ٧٧ :

ـ « نحن فخورون بكوننا صديق اسرائيل الثابت واوثق شريك لها ٠ وسنقف الى جانبها دوما » ٠

ـ « انني ما زلت اعتقد ان العناصر الاساسية الثلاثة هي : اولا ـ التزامات السلام ، بما في ذلك انشاء علاقات طبيعية كليا ، سياسية واقتصادية وثقافية ٠ ثانيا ـ ايجاد اجراءات امنية فعالة ، ترافق الانسحاب الاسرائيلي من اراض عربية محتلة ، والاتفاق على حدود نهائية معترف بها وآمنة ٠ ثالثا ـ حل المشكلة الفلسطينية ٠ هذه القضايا متداخلة بصورة معقدة ، ولكي يتحقق السلام يجب ان تحل كلها » ٠

ـ « باستطاعتنا ان نقدم مساعينا الحميدة كوسطاء ، وباستطاعتنا تقديم اقتراحات ٠ لكننا لا نستطيع القيام بالمفاوضة » ٠

ـ اعرب كارتر عن اعتزازه « بالتقدم الذي تم احرازه » ٠ فالموقف الاسرائيلي يتضمن الان ، العناصر الايجابية التالية : القبول بفكرة تمثيل وفد عربي موحد في جنيف يضم فلسطينيين ، الموافقة على البحث في مستقبل الضفة الغربية وغزة مع الاردن ومصر والفلسطينيين العرب ، الاستعداد للتفاوض على كل القضايا دون شروط مسبقة ٠ ويتضمن الموقف العربي ، الان ، العناصر الايجابية التالية: الاعتراف باسرائيل كدولة ، الرغبة في الوصول الى معاهدات سلام وتشكيل هيئات عاملة منفردة للتفاوض على تسوية نزاعات الحدود وغيرها ، عدم رفض الجلوس الى مائدة مفاوضات مع اسرائيل ، وعدم المجادلة في حقها في العيش داخل حدود آمنة ومقبولة ٠ كل ذلك تحقق في فترة قصيرة ، مما يدعو الى التفاؤل ٠ « فحتى قبل سنة ، بدت فكرة اشتراك الاسرائيليين والعرب في مفاوضات وجها لوجه حول سلام حقيقي ينتظم في معاهدات ملزمة ، ضربا من الوهم ٠٠٠ » ٠

ـ ادانة الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، من جهة ، وموقف م٠ت٠ف٠ الرافض للقرار ـ ٢٤٢ ، من جهة ثانية ٠

ـ مساهمة الولايات المتحدة في حل الخلافات العربية : « ونحن نتغمس

بنشاط في جهود ترمي الى تضييق شقة تلك الخلافات ، كي يمكن استئناف مؤتمر جنيف ٠٠٠ » ٠

ـ « وسنواصل تشجيع الوصول الى حل بناء للمسألة الفلسطينية في اطار لا يهدد مصالح اي من الفرقاء المعنيين ، ومع ذلك يحترم حقـــوق الفلسطينيين المشروعة ٠ وعلى الدول المعنية ان تتفاوض على التسوية ، **لكننا نحن انفسنا نفضل عدم قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية** » ٠

ـ « علاقاتنا باسرائيل ستبقى قوية ٠ فمنذ العام ١٩٧٣ قدمنـــا لهـــا ١٠ مليارات دولار على شكل مساعدة عسكرية واقتصادية ٠٠٠ جسامة تلك المساعدة لا نظير لها في التاريخ ٠٠٠ وستستمر » ٠

ـ « ان فكرة احلال السلام في الشرق الاوسط ، ليست اليوم بحلم اكبر مما كانت فكرة انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في عام ١٩١٧ ، لكنهـــا تتطلب تكريس النفس ذاته الذي جعل من اسرائيل حقيقة واتاح لها ان تنمو وتزدهر »٠

وفي خطاب القاه سايروس فانس ، وزير الخارجية الاميركية ، امام المؤتمر القطري للجاليات اليهودية في اميركا الشمالية ، قال : « اننا منذ حرب يـــوم الغفران ، زودنا اسرائيل بمساعدات عسكرية واقتصادية قيمتها ١٠ مليـــارات دولار ٠ وسنستمر في تقديم المساعدات لاسرائيل ، بحدود مليار و ٨٠٠ مليون دولار في السنة ، ولن نلحق الاذى بامن اسرائيل ، عن طريق وقف المساعـــدات الامنية والاقتصادية » ٠ واضاف أن ادارة كارتر لن تفرض حلا ، وستستمر فـــي تأييد اسرائيل في المؤسسات الدولية كالامم المتحدة ٠ كما كرر تصريحات كارتر عن حقوق الفلسطينيين المشروعة ، ولكن ليس في نطاق دولة مستقلة غربي نهر الاردن (١٠) ٠

عناصر الموقف الاميركي

من هذا العرض ، يمكن استخلاص العناصر التالية للموقف الاميركي ـ ادارة كارتر :

أ ـ حل المسألة الفلسطينية على أساس ضمان الحقوق المشروعة للشعـــب الفلسطيني ، واشتراك ممثلين عنه في مؤتمر جنيف (البيـــان الاميركـــي ـ السوفياتي) ٠

ب ـ استبعاد م٠ت٠ف٠ من التمثيل في جنيف ، وبحث المسائل المتعلقـــة بالضفة الغربية وقطاع غزة في مجموعة عمل تضم اسرائيـــل ومصر والاردن والعرب الفلسطينيين ٠

ج ـ بحث حل مسألة اللاجئين العرب واليهود وفقا لقواعد يتفق عليها ٠

هذان البندان (ب و ج) المستخلصان من ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية، يلغيان القضية الفلسطينية كقضية وطن وشعب وارض ، ويجزئانها الى مسائل محلية تتعلق بالتعايش العربي ـ اليهودي فيها ، والى كيفية تسوية أموال واملاك اللاجئين الفلسطينيين مقابل اموال واملاك « اللاجئين » اليهود من البلاد العربية الى اسرائيل · وبهذا المعنى لا يتعارض البندان ب و ج مع البند أ ، المتعلق بضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وتمثيله في جنيف ، وقد سارع كارتر نفسه الى التمييز بين « الحقوق المشروعة » و « الحقوق القومية » والى رفض الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية · وعلى صعيد التمثيل في جنيف ، يقتصر البحث في صفوف وجهاء الضفة الغربية ، والاساتذة الاميركان ـ من أصل فلسطيني ، اي المهم نزع الصفة السياسية عن التمثيل ، ونزع صفة « شعب » يتمتع بحق تقرير المصير ، عن اولئك الفلسطينيين الذين سيمثلون في جنيف · وهذا المفهوم لا يبتعد كثيرا عن المفهوم الاسرائيلي لمستقبل التعايش مع عرب الضفة الغربية ـ هذا المفهوم الذي صاغته تجربة عشر سنوات من الاحتلال ·

د ـ رفض اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية · وقد اخذ المسؤولون الاميركيون يلحون ، في تصريحاتهم في الفترة الاخيرة ، على تأكيد هذا الرفض، وكأنهم يشيرون بذلك الى اقتناعهم بوجهة النظر الاسرائيلية ، بعد ان عكست تصريحات كارتر ، في اوقات سابقة ، غموضا وبلبلة في هذا الموضوع ·

هـ ـ الانسحاب الاسرائيلي من اراض عربية محتلة ·

و ـ ربط السلام بانشاء علاقات طبيعية ، سياسية واقتصادية وثقافية ·

ز ـ تأكيد استمرار الدعم « الذي لا مثيل له في التاريخ » لاسرائيل ، وابراز دورها كشريك ·

ح ـ تحديد الدور الاميركي بالوسيط الذي يقدم الاقتراحات فحسب ، وعدم اللجوء الى ضغوط وفرض حل ·

هذه هي عناصر الموقف الاميركي ـ ادارة كارتر ، اما الوسائل : فاستمرار الجهود والمساعي ، ومحاولات الاقناع ، وتذليل الصعاب ـ بما في ذلك الخلافات العربية : « نحن ننغمس بنشاط في جهود ترمي الى تضييق شقة تلك الخلافات ، كي يمكن استئناف مؤتمر جنيف ··· » · ولا بد هنا من التساؤل : على اية ارضية تبذل الجهود الاميركية لتوحيد الموقف العربي ؟ على ارضية الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في وطن ؟ وحقه في ان يمثل في مؤتمرات السلام بقيادته الوطنية ؟ او على ارضية الجلاء الاسرائيلي الكامل عن الاراضي العربية المحتلة ؟ وكيف تعمل الاجهزة الاميركية لتذليل الصعاب العربية كي يمكن استئناف مؤتمر جنيف : بتمزيق الصف العربي عن طريق ورقة

العمل الاميركية ـ الاسرائيلية ؟ والعمل لفصل مصر عن سوريا ، ودفعها باتجاه عقد اتفاق منفرد ؟ وبعدم تمكين السلطة الشرعية اللبنانية من ممارسة الحكم ؟ وتضييق الخناق على المقاومة الفلسطينية في جنوبي لبنان ، استكمالا لاهداف حرب السنتين ؟

ان السلطة الاميركية « منغمسة » حقا « بنشاط » في تذليل الصعاب على الساحة العربية ، بينما هي مطمئنة الى سلامة الساحة الاسرائيلية ـ تمدها كل يوم بعوامل القوة ، حتى اذا ما وصلت محادثات السلام الى طريق مسدود، وجدت الانظمة العربية نفسها امام قوة جبارة لا تقهر ، ووجدت امامها نافذة امل واحدة : الولايات المتحدة · ملاذها الاخير ، فهي اذ ذاك تملك حقا كل الاوراق ، بعد ان تكون الانظمة قد اسقطت اوراق جماهيرها وحلفائها ·

لا يختلف موقف ادارة كارتر كثيرا عن الموقف الذي صاغته عبقرية كيسنجر التآمرية ، في اعقاب حرب تشرين ١٩٧٣ ، بل ان ادارة كارتر تكمل ما بدأ به كيسنجر : تستمر في مد اسرائيل باحدث الاسلحة واشدها فتكا ، وبالمساعدات الاقتصادية ، وتستمر في حرب التصفية ضد المقاومة الفلسطينية ، وتستمر في محاولات تمزيق الوضع العربي، وبث الخلافات بمختلف وسائل التهديد والترغيب فهي تلوح « بجزرة » المساعدات ، والكلام المعسول عن التنازلات مرة ، وتلوح مرات « بالعصا » الاسرائيلية الغليظة للذين لا يرعوون · واذا كانت حرب السنتين في لبنان ، ووضع المنطقة على حافة التمزيق الى دويلات طائفية وعنصرية ، هما ذروة ما انتجته عبقرية كيسنجر التآمرية ، قبل ان يغادر وزارة الخارجية الاميركية ، ومنصبه الحساس في قيادة المخابرات المركزية ، فان ادارة كارتر تقود ببراعة مرحلة ما بعد حرب السنتين ، نحو استكمال النتائج المرسومة ، وتجيد الامساك بطرفي الحبل المشدود ، مهددة ، كلما تردد احد في القطيع العربي او تلكأ ، بنار الحرب الاهلية والتمزق الطائفي والعنصري ·

كان موقف كيسنجر ، بعد حرب تشرين ، يقوم على جعل اسرائيل قوية بما يكفي لحماية نفسها بامكاناتها الذاتية ، وفي الوقت نفسه اقامة محور ـ غربي ـ شرق اوسطي ، قوامه مصر والسعودية وايران ، لاضعاف الوجود السوفياتي في المنطقة · وكان كيسنجر يعمل لتمزيق الصف العربي ، خصوصا فصل مصر عن سوريا ، وكسب الوقت لاسرائيل (١١) ·

وكان هنري كيسنجر معاديا لفكرة الدولة الفلسطينية · اذ ان « كتبه في التاريخ علمته ان مثل هذه الدويلة المصغرة ، يربي في النفوس عوامل الحماسة لاسترداد السليب ، ويسبب انفجارات فيما بعد ، ويبعث على قيام منازعات خطرة بين الدول العظمى · وقد ينال الفلسطينيون دولة لهم ، ولكن اذا كانت فقط جزءا من الاردن » (١٢) ·

ووصف دان مرغليت ، احد المراسلين الاسرائيليين المطلعين في واشنطن . الاسلوب الاميركي لادارة اللعبة في الشرق الاوسط بما يلي : « يستطيع الاميركيون اعطاء العرب اكتفاء كاملا . من دون ان يتعهدوا باي عمل فعلي باتجاه تسوية شاملة · فالدبلوماسية الاميركية ليست مهتمة بها ، وهي تريد ان تتقدم ببطء ، وبانتقائية ، وعلى مراحل . خلال عدد من السنين · ذلك ان تقدما كهذا فقط ، يبقي في يدها ، على المدى البعيد ، امتيازها الاساسي الواضح على السوفيات : القدرة على الوساطة · والاتفاق النهائي السريع يجعل هذا الامتياز غير مجد دفعة واحدة » (١٣) ·

ان التأييد المطلق الذي تمحضه الولايات المتحدة اسرائيل ، لا يلغي الفروق في النظرة الى بعض عناصر التسوية والصراع · فاسرائيل مصلحة قومية اميركية ، لا ترقى اليها مصلحتها في كسب محور مصر ـ السعودية ـ ايران ، على اهميته البالغة · ولا تستطيع الولايات المتحدة حماية مصالحها في المنطقة (بما فيها اسرائيل) دون استمرار المسار الحالي للانظمة العربية ، وتثبيته وتعزيزه في الوجهة نفسها ·

غير ان اسرائيل تنظر الى نفسها كأمة مستقلة ، ذات مصالح قومية في المنطقة ، مرتبطة بالامبريالية ومستقلة عنها ، في آن معا · واهم هذه المصالح ، العمل لالغاء الوجود الفلسطيني ، كوجود ذي هوية قومية ، وضرب مكونات هذا الوجود وتشتيتها · من هنا تبدو مسألة التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني ، على أساس هويته الوطنية والقومية ، وحقه في تقرير مصيره ، اكثر مسائل التسوية تعقيدا ، بل هي الحد الفاصل بين احتمالات السلم ، او اللجوء الى الحرب ·

اذا كان الشعب الفلسطيني قد اثبت عبر نضاله الطويل ، استحالة تصفيته كشعب ذي اهداف وتطلعات وطنية وقومية ، واذا كانت اسرائيل لا تملك ان تيأس من امكان القضاء على هذا الشعب وتشتيته (فلحظة اليأس بالنسبة اليها هي لحظة بداية العد العكسي) ، فان الولايات المتحدة تعمل للالتفاف على قضية الشعب الفلسطيني ، وتطويع قيادته ، وتقييدها ، وافراغ كفاحها من مضمونه ، بما يقضي على الثورة ، ويملأ نفوس ابناء الشعب الفلسطيني باليأس ، ويحملهم على التسليم بالقدر والمصير الذي خططته لهم الصهيونية والامبريالية منذ عشرات السنين ·

واذا كان ثمة بين المسؤولين الاميركيين ، من لا يجد خطرا كبيرا في قيام كيان فلسطيني هزيل ، ينعصر بين فكي الكماشة الاردنية ـ الاسرائيلية ، ويشكل رقما يضاف الى الانظمة التابعة في المنطقة ، بل يشكل اضعف حلقات سلسلة الانظمة التابعة ، فاسرائيل تعتقد بانها لاتملك ان ترتكب خطأ واحدا في التقدير· ان الشعب الفلسطيني ينفي ما عداه في الوطن الفلسطيني · واذا كان نظامه

تابعا في ظروف تاريخية معينة ، فلا شيء يحول دون تحـــــرره من التبعية ، وامتلاك زمام امره في ظرف تاريخي ملائم · وعندها يكون الصـــراع اصعب ، وتكون معركة اسرائيل يائسة ·

في نقطة التقاطع هذه ، يحكم ميزان القوى في المنطقة لحظة التسوية ، ويعين حدودها · ولعل الولايات لمتحدة ، بما تقدم من مساعدات غير محدودة لاسرائيل تكفر عن عدم تطابق نظرتها مع النظرة الاسرائيلية الى عناصر التسوية تطابقـا كاملا ، وتوفر لها ما يمكنها من القول لا، لاية تسوية لا تحقق اهدافها وتطلعاتها ·

ان تعديل ميزان القوى هذا ، من الجانب العربي ، وحده يمكن العرب مـــن تحقيق الحل المتوازن الذي يرفع عرب التسوية شعاراته ، على الاقل : الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة ، واقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفـــة الغربية وقطاع غزة · ذلك ان الخلل في ميزان القوى ، هو الذي يعين « حدود» الانسحاب ، وهو الذي يحول الدولة الفلسطينية المستقلة ، الى « كيان » مرتبـط بالاردن . ثم الى جزء من المملكة الهاشمية ، ثـــم الى الرضـــــوخ للاملاآت الاسرائيلية في الضفة الغربية · لقد كان هذا دائما العنصر الرئيسي في الخلاف مع منظري التسوية بعد حرب ١٩٧٣ · فليس العرب هم الذين يرفضون الحل ، بل الولايات المتحدة واسرائيل هما اللذان لا يعرضان سوى الاستسلام ·

اسرائيـــــل

لا تملك اسرائيل ان تعرض على الفلسطينيين ســوى الضياع والتشـتت · وسواء حكمها الليكود ام المعراخ ، فان ما تقدمه في الحالين واحد ــ وان اختلف الاسلوب · فالمطلوب في ظل « التسوية الشاملة » الليكودية ، التصفية الفورية الشاملة · واللجوء الى اسلوب « التسوية على مراحل » ، يعني صعوبة التصفية الفورية الشاملة ، وضرورة العودة الى اسلوب التصفية على مراحل · والحديث عن نهاية اسلوب الخطوة ــ خطوة لحل « الازمة » ، هو الحديث عن نهـــاية اسلوب التصفيات خطوة ــ خطوة : من حرب الاردن ١٩٧٠ ، الى حرب السنتين في لبنان · ذلك ان ما تبقى لا مبرر لمرحلته ، بحسب « اجتهاد » البعض ، وانما يكفي توجيه الضربة الحاسمة في جنوبي لبنان · والتردد في توجيهها ، ناجـم عن الخوف من ان تؤدي الى حرب شاملة في المنطقة ، تفسد الترتيبات الاميركية فيها · فالوضع اليوم مختلف عما كان عليه عام ١٩٦٧ ، عندما وجهت الضربة الى خصم مشترك لاسرائيل والامبريالية : عبد الناصر وحركة التحرر العربي · اما اليوم ، فالى من توجه الضربة : الى اصدقاء الولايات المتحدة ، الذيـــن يقدمون الدليل تلو الدليل على ولائهم واستعدادهم لتشكيل سد عال يذود عن مثل العالم الحر وقيمه ، ويصد « الشيوعية الهدامة » ليس عن بلادهم فقط ، بل ايضا

عن كل الشرق الاوسط وافريقيا ، واحيانا اوروبا الغربية ! ٠

تريد الولايات المتحدة من اسرائيل ان تدرك ان دورها وحجمها ينبغي الا يتعارضا مع مكاسب اخرى في المنطقة ، لا مجال لانكار اهميتها ، وان تدرك ان الرجحان الكبير في ميزان القوى لمصلحتها ، الذي يسمح لها بأن تحتفظ بما تحتفظ به من اراض ونفوذ في المنطقة ، ليس ناجما عن قوة اسرائيل الذاتية ، بل عما تمدها به الولايات المتحدة بالذات من عوامل القوة ٠

اما اسرائيل فتريد ان تحتفظ لنفسها بالابعاد الامبراطورية التي تتمتع بها بفضل « فتوحاتها » ، والتي تمكنها من ان تطمح للعب دور « الشريك » الامبريالي لا التابع ، وتضعها في مركز القوة من حاجات الغرب ومصالحه في الشرق الاوسط وافريقيا ٠ وهي تعتقد بأنها جديرة بهذا الدور والحجم ٠ فالعامل الذاتي يلعب دورا كبيرا في الافادة من المساعدات الاميركية ، والا لماذا تنجح هي ، ويفشل غيرها ، ممن يتلقى مساعدات مماثلة ؟٠ لذا ، فان من حقها ان تعامل كقومية رئيسية في هذه المنطقة ، تشغل حيزا يتناسب وما تمثل من حضارة الغرب وتطوره ، ويتلاءم والدور الذي يفترض ان تلعبه ، على امتداد هذه الرقعة الشاسعة من العالم ٠ ولذا ، فهي تستهجن ، مثلا ، ما يبدو لها من « خضوع » اميركي لسياسة النفط ، ما دام بامكانها ان تؤمن النفط للغرب بالقوة ، اذا تعذر تأمينه ، دون الرضوخ لشروط العرب ٠

اسرائيل مصلحة امبريالية : هذا هو معنى اصرار بيغن ، في مطلع عهده ، على تذكير الولايات المتحدة ، بالدور الذي تلعبه اسرائيل في خدمة مصالح العالم الحر ، والامن القومي للولايات المتحدة ٠ فقبيل سفره الى واشنطن ، اعلن بيغن ، في المطار : « ان اسرائيل هي جزء لا يتجزأ من العالم الحر ، وانها تبذل الكثير من اجل تحقيق حرية الانسان ٠ وليست اسرائيل عبئا على الولايات المتحدة ، بل هي حليفة لها وللعالم الحر بأسره » ٠ (١٤)

وفي الولايات المتحدة ، عاد بيغن الى تأكيد ان « اسرائيل هي حليفة مخلصة للولايات المتحدة ، وتبذل ما في وسعها لخدمة مصالح العالم الحر ، والمساهمة في الامن القومي الاميركي » (١٥) ٠ و « نحن الاسرائيليين نقوم بدورنا تجاه الامن القومي الاميركي ، واننا الحصن الديمقراطي الاخير في الشرق الاوسط » (١٦) ٠

وذكرت اذاعة اسرائيل ، يوم ٢٢ـ٧ـ٧٧ ، ان بيغن قدم الى كارتر وثيقة بشأن مساهمة اسرائيل في الامن القومي للولايات المتحدة (١٧) ٠

الموقف الاسرائيلي من الدولة الفلسطينية : الرفض الاسرائيلي للدولة الفلسطينية المستقلة هو الثابت ، في مجمل الموقف الاسرائيلي ٠ وما عداه يمكن

التفاوض عليه · فالبعد التاريخي لهذه المسألة ، لا يدركه احد من حلفاء اسرائيل واصدقائها ، كما يدركه قادتها التاريخيون · فلسطين تنفي اسرائيل · وشعب فلسطين ينفي شعب اسرائيل · هذه هي المعادلة التاريخية ، التي تشكل جوهر الصراع · وفي ضوء هذه المعادلة ، يصبح مفهوما قول بيغن اثناء زيارته للولايات المتحدة : « ان معنى دولة فلسطينية هو الموت لاسرائيل · ونحن نريد ان نحيا » (١٨) ·

ولمواجهة الضغوط ، وقطع الطريق على اي حديث في هذا الشأن ، اتخذ الكنيست الاسرائيلي ، بتاريخ ٧٧/٩/١ ، قرارا بأكثرية ٩٦ صوتا ، مقابل ٤ اصوات ، وامتناع ٦ ، نص على ما يلي : « يجزم الكنيست ان المنظمة التي تدعى م·ت·ف· هي اطار لمنظمات قتلة ، هدفها تدمير دولة اسرائيل · واسرائيل لن تجري مفاوضات مع منظمات قتلة في اي مجال » (١٩) ·

وابلغ موشيه دايان ، الكنيست الاسرائيلي ، قبل سفره الاخير الى الولايات المتحدة ، انه « خلال المحادثات (مع الاميركيين) سيتم التعبير عن ارتباطنا القومي والتاريخي بيهودا والسامرة » (٢٠) ·

وفي لقاء بزعماء يهود في بروكسل ،. قال دايان : « رفضت اسرائيل في الماضي (قيام دولة فلسطينية) ، ولن توافق عليه في المستقبل ايضا ، لان دولة كهذه ستعرض وجودها بالذات للخطر » · واعرب دايان عن انه يفضل نشوب حرب على القبول بدولة فلسطينية ، لان الموافقة على قيامها سيؤدي الى حرب بعد عشر سنوات ، في ظل ظروف امنية اسوأ (٢١) ·

وابلغ دايان الرئيس كارتر ووزير خارجيته فانس ، ان اسرائيل مستعدة لدرس اي مشروع تسوية في « يهودا والسامرة » ، ما دام يتمشى مع ثلاثة مبادىء اساسية هي : « اولا ـ الا تقوم سيادة او سلطة اجنبية في تلك المناطق · ثانيا ـ ان تكون هناك حقوق متساوية للعرب واليهود في تلك المناطق · ثالثا ـ ان يكون نهر الاردن خط الدفاع لاسرائيل » (٢٢) ·

وفي لقاء مع قناصل اسرائيل في الولايات المتحدة ، قال دايان ، معلقا على البيان الاميركي ـ السوفياتي : ان التهديد الاساسي لاسرائيل ، هو انه في جميع المقترحات تبدو ملامح اتجاه نحو اقامة دولة فلسطينية ، على الرغم من ان تلك المقترحات تظهر بصيغ مختلفة ومبهمة · هذا هو التهديد الاخطر لاسرائيل ، لانه يشكل خطرا على وجودها · والنقاش مع الولايات المتحدة ، يجب ان يدور حول هذا الامر (٢٣) ·

وتقف المعارضة الاسرائيلية (المعراخ) الى جانب حكومة بيغن ، في هذا الشأن · فقد اعلنت غولدا مئير : « اذا كان كارتر سيضغط على بيغن اكثر من اللازم في الحديث عن دولة فلسطينية ، فاننا في اسرائيل سنقف كلنا خلفَ

بيغن » (٢٤) · وقد ابلغت مئير هذا الموقف الى كارتر ، وكذلك ابلغه شمعون بيريس الى فانس ، اثناء زيارتهما الى الولايات المتحدة ، في النصف الاول من تشرين الثاني ١٩٧٧ (٢٥) ·

وكان هذا الموضوع احد العوامل الاساسية التي حملت الحركة الديمقراطية للتغيير (داش) على الانضمام الى حكومة بيغن ، لصد الضغوط اذا حصلت ، وابراز الالتفاف « القومي » حول الليكود : « نظرا الى تطور الشؤون السياسية في الحلبة الدولية ، فقد حان الوقت لان تحتم مصلحة الدولة ··· تكتلا داخليا يرتكز الى ··· معارضة م·ت·ف· ومعارضة اقامة دولة فلسطينية ، ومعارضة العودة الى حدود ٤ حزيران ٦٧ » (يغئيل يدين ، معاريف ٧٧/١٠/٢١)

كذلك اعربت الحركة الصهيونية ، واللوبي اليهودي الاميركي ، عن موقف مماثل ، في البرقية التي وجهها نادي الرؤساء اليهود في الولايات المتحدة الى وزير الخارجية الاميركي ، ردا على البيان الاميركي ـ السوفياتي : لا يهدف المشروع الاميركي ـ السوفياتي الى السلام ، وانما الى « تقليص حجم اسرائيل ، الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة ، وبالتالي جعلها محمية ··· » (٢٦) ·

ما تبقى من السلام : ماذا يبقى من مشروع السلام الذي يعرضه الاميركيون والاسرائيليون ؟ تعديلات طفيفة على « حدود » اسرائيل الحالية ، « لمصلحة » العرب ! ذلك ان اسرائيل تصر على البقاء في معظم الجولان ، وفي كل غزة ، وفي معظم الضفة الغربية ، وفي بعض سيناء ، مقابل « سلام حقيقي » يعبر عنه بمعاهدة سلام « تشتمل على انهاء حالة الحرب ، واقرار حدود دائمة ، واقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية وغيرها » (٢٧) · وهذا هو التعريف الاميركي ايضا لمعاهدة السلام المطلوبة · فهل كان العرب حقا بحاجة الى حرب تشرين ١٩٧٣ ليفاوضوا على هذه الفتات ؟ ام ان الانظمة بددت « رصيد » تشرين ، ولم يبق لها الا ان تندب « خيانة » الزوج الاميركي ؟ ·

لبنان

ما تبقى من « المشروع » ، يتم تنفيذه في جنوبي لبنان · وهو فصل قديم ـ جديد ، نفضت عنه عبقرية كيسنجر التآمرية الغبار ، فأصبح ورقة قوية تستعجل اسرائيل تنفيذها ، احيانا ، فتلجمها الادارة الاميركية ، على اساس ان مجرد التهديد باستعمالها قد يعطي النتائج المرجوة ، دون التعرض لمخاطر التفجير الكامل · وقد اصبح بالامكان اطلاق اسم « المسألة اللبنانية » على الفتيل الذي يكفي اشعال طرفه ، لتفجير الحروب الاهلية في منطقة لا تزال تعيش مرحلة ما قبل اكتمال مكوناتها كشعوب منصهرة ، مرحلة القبائل والعشائر ، والطوائف

التي تدعي تشكيل قوميات مستقلة . والقوميات التي تتطلع الى اقتطاع ارض وتشكيل دولة ٠

فالمشروع الماروني الذي يسعى للانسلاخ عن الجسم العربي . وتشكيل قومية مستقلة . واقامة وطن قومي طائفي . ليس جديدا . بل يعود في قدمه الى العهد العثماني . حيث تمتع جبل لبنان بنوع من الاستقلال الذاتي ٠ لكن الجديد ، هو ان دعاة المشروع في صفوف المارونية السياسية . يجدون الظرف مناسبا ، في عصر الجبروت الاسرائيلي . لفرض امر واقع جديد في المنطقة ٠ وتجد اسرائيل في هذا التطلع . فرصتها لتحقيق حلمها الذهبي : تقسيم المنطقة الى دويلات طائفية وعنصرية هي اقواها واكبرها على الاطلاق ٠ ووجد الطرفان في عدد من القرى المارونية في جنوبي لبنان « مسمار جحا » المطلوب ، فاصبح الجنوب بكامله مسرحا للعبة القذرة ٠ ذلك انه بحجة حماية « الاقلية المسيحية » في الجنوب ، اوجدت اسرائيل . او تحاول ان توجد الصلة الجغرافية بالوطن الماروني المنشود ٠ هذا ، مع العلم ان مساعدات اسرائيل « للمحاولة » المارونية لم تقتصر على الجنوب ، فقد سبق ان تبارى يتسحاق رابين ، رئيس حكومة اسرائيل السابق ، وبيغن ، رئيسها الحالي ، بعرض ما قدمت حكومتاهما من مساعدات ٠ وقد بادر بيغن الى اعلان « الحماية » والمساعدات ، بعد ان ابقاها سلفه رابين سرا طوال سنة ٠ فقد ابلغ بيغن السكرتير العام للامم المتحدة ، فالدهايم ، اثناء لقائه به في نيويورك : « اننا سنواصل حمايتهم » (٢٨) ٠ وكرر ذلك اثناء زيارته للولايات المتحدة : « ٠٠٠ لن نترك المسيحيين لوحدهم ، وسندافع عنهم دائما ، انهم يعيشون في كنفنا وسيعيشون » (٢٩) ٠

وكتبت معاريف (٧٧/٨/٩) في افتتاحيتها : « ان المساعدة العسكرية-التي تقدمها اسرائيل الى المسيحيين في جنوبي لبنان لم تعد سرا ٠ فقد اكد رئيس الحكومة علنا وجودها واستمراريتها ٠ وما كان بمثابة سر عسكري تحول عمليا الآن الى حقيقة مكشوفة ومعلنة » ٠ واضافت : « **ان اسرائيل تقوم هنا بالمهمة الطبيعية ـ تشكيل مرتكز لجميع الاقليات العرقية والدينية في الشرق الاوسط** ٠٠٠ » ٠

وورود مثل هذا التأكيد على لسان بيغن ، الذي اعتبر العلاقة « بنحو مليون عربي ٠٠٠ عبر الحدود الشمالية ٠٠٠ » بمثابة تسوية فعلية ٠ واضاف : « **في احد الايام سوف تعرف جميع الشعوب ان اسرائيل هي حامية الاقليات في الشرق الاوسط** » (٣٠) ٠

وعرضت يديعوت احرونوت (٧٧/٨/٩) اشكال المساعدة التي قدمتها اسرائيل الى « القوات المسيحية » ، فقالت : « كشف بيغن ، رئيس الحكومة ، اول مرة ، ان اسرائيل تقدم مساعدات عسكرية للقوات المسيحية في لبنان ٠ ولم يذكر بالتفصيل نسب هذه المساعدات التي بدأت منذ نحو سنة ، بناء على قرار اتخذه

رابين وبيريس » · وعددت الصحيفة اشكال المساعدة ، فذكرت الحصار البحري الذي ضربته اسرائيل على الشواطىء اللبنانية ، وتدريب « شبان مسيحيين » على السلاح ، في اسرائيل ، بما في ذلك السلاح المدرع ، واقامة ضباط اسرائيليين في ميناء جونيه وجواره ، في اطار المساعدة العسكرية ، وتزويد « القوات المسيحية » بدبابات شيرمن ، وملالات ، ومدافع هاون ، واسلحة خفيفة : بنادق ورشاشات وذخيرة بكميات ملحوظة ، وتدخل القوات الاسرائيلية لاسكات مصادر نيران المقاومة الفلسطينية اثناء المعارك في الجنوب ·

اما رابين ، فقد كتب مقالا في صحيفة يديعوت احرونوت (٧٧/٩/٣٠) جاء فيه ان اسرائيل ساعدت « القوات المسيحية الرئيسية في منطقة بيروت وشماليها ، في صراعها العسكري والسياسي · وهناك ضرورة لبقاء القوات المسيحية قوية ··· لقد عملنا كل ما نستطيع لتعزيز وتقوية القوات المسيحية في وسط لبنان ، وقدمنا مساعدات ضخمة لهذا الغرض · وذكرت الانباء ان حجم المساعدات تراوح بين ١٠٠ ـ ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية ، وانا لن انفي ولن اؤكد هذا الرقم » ·

وقد اضافت اسرائيل في المعارك الاخيرة في الجنوب ، شكلا آخر من اشكال الدعم ، اذ « دخلت قوات من المشاة ، وقوات مدرعة تابعة للجيش الاسرائيلي الى المنطقة المسيحية الواقعة الى الشمال من المطلة ، والى المناطق المجاورة ، والى داخل القرى المسيحية في تلك المنطقة ، ومكنت بهذا جميع المقاتلين المسيحيين من القيام بحملات هجومية ··· » (٣١) ·

واصبحت اسرائيل ، بعد هذا التدخل طرفا في اتفاقية وقف اطلاق النار ، وفي اية تسوية تتعلق بالجنوب ، في اي وقت · فقد شرطت انسحاب قواتها من « المنطقة المسيحية » « بحق » العودة اليها اذا ما خرقت المقاومة اتفاقية وقف اطلاق النار · ومن بين شروطها للتسوية في الجنوب : انسحاب المقاومة الى ما وراء نهر الليطاني ، الابقاء على البوابات المفتوحة في « الجدار الحسن » على طول الحدود اللبنانية ، الابقاء على العلاقة مع « المنطقة المسيحية » (٣٢) ·

لم يصدر عن الجانب اللبناني المعني (الجبهة اللبنانية) اي تكذيب او نفي للانباء الاسرائيلية عن المساعدات · وبذلك تكرست العلاقة العلنية من جانب الطرفين · وقد عرضت جريدة النهار يوم ٧٧/٩/٢٧ ، النقاش الذي يدور داخل « الجبهة اللبنانية » على صيغة لبنان المستقبل ، فذكرت ان كميل شمعون يعتقد بأن التريث في هذا الامر « من مصلحة لبنان كما تريده الجبهة ، خصوصا اذا وقعت حرب خامسة بين العرب واسرائيل ··· فالاحداث في مثل الوضع الراهن، هي التي تصنع الصيغة لا العكس » · اما بيار الجميل ، فقد رفض ما اشيع عن اقتراح بمرابطة قوات دولية على الحدود بين اسرائيل ولبنان ، لان المعركة تدور

بين « اللبنانيين والفلسطينيين » : « ان القضية لم تعد بيننا وبين اسرائيل ، بقدر ما هي بيننا وبين الفلسطينيين » (٣٣) ٠

في ضوء هذه الوقائع ، يصبح واضحا لماذا يمتنع التحالف الثلاثي : الولايات المتحدة ، واسرائيل ، والجبهة اللبنانية ، عن تسهيل مهمة العهد الحالي لاستلام السلطة ، ولماذا يشد الخناق على المقاومة الفلسطينية في الجنوب ، ويعمل عن طريق القصف المتواصل والمدمر لتفريغ المناطق الحدودية من سكانها ٠ اذ لم يبق ، لقطف ثمار حروب التصفية ، من الاردن ١٩٧٠ ، الى حرب لبنان ، ثم حرب الجنوب ، سوى ان تختار المقاومة الانسحاب ، فتخسر آخر مواقعها التي دفعت ثمنها غاليا من دماء ابنائها ، وتفقد آخر مركز قوة يتيح لها حرية الحركة السياسية ، او تصر على البقاء ، فيستمر القصف ، وربما تعرض الجنوب لخطر الاجتياح الاسرائيلي ، والوضع العربي برمته للانكشاف ٠

اننا امام استراتيجية واحدة للتسوية ، اسمها الحقيقي : الاستسلام ٠٠٠ الى ان تقلب الجماهير الصفحة ٠

هوامش :

(١) النهار ٢ـ١٠ـ٧٧

(٢) هآرتس ١٤ـ١٠ـ٧٧

(٣) هآرتس ٦ـ١٠ـ٧٧

(٤) هآرتس ١٢ـ١٠ـ٧٧ ـ ماتي غولان ٠

(٥) هآرتس ١٣ـ١٠ـ٧٧ ـ عوزي بنزيمان ٠

(٦) هآرتس ٢ـ٩ـ٧٧ ـ عاموس بن فيرد ٠

(٧) اذاعة اسرائيل ٢٥ـ١٠ـ٧٧ ـ نشرة ر أ رقم ١٣٢٦ ٠

(٨) المصدر نفسه ٧ـ١١ـ٧٧ ، رقم ١٣٣٧ ٠

(٩) رأ رقم ١٣١١ ٠

(١٠) اذاعة اسرائيل ١١ـ١١ـ٧٧ ـ رأ رقم ١٣٤٠ ٠

(١١) هآرتس ٥ـ٢ـ٧٥ ـ نشرة م٠د٠ف٠ ١٩٧٥ ، ص ٩٦

(١٢) ادوارد شيهان في مجلة « فورن بوليسي » في ٧ـ٣ـ٧٦ ـ ترجمته م٠د٠ف٠ ونشرته في ملف خاص ٠

(١٣) هآرتس ٦-٦-٧٥ - نشرة م٠د٠ف ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٣ ٠

(١٤) اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٧/١٥ - راا رقم ١٢٤٥

(١٥) المصدر نفسه ، ٧٧/٧/٢٠ ٢ رقم ١٢٤٩

(١٦) المصدر نفسه ٠

(١٧) راا ، رقم ١٢٥١

(١٨) المصدر نفسه ، ٧٧/٧/١٨ ، رقم ١٢٤٧

(١٩) هآرتس ٧٧/٩/٢ ٠

(٢٠) هآرتس ٧٧/٩/٢ - عاموس بن فيرد ، نشرة م٠د٠ف٠ ص ٦٢٥

(٢١) هآرتس ٧٧/٩/١٦ - الياهو سلبيتر

(٢٢) معاريف ٧٧/٩/٢٠

(٢٣) هآرتس ٧٧/١٠/٣ - يوئيل ماركوس

(٢٤) اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٧/١٨ ، راا رقم ١٢٤٧ - نقلا عن نيويورك تايمز ٠

(٢٥) المصدر نفسه ، رقم ١٣٣٨ ، و ١٣٣٩ ، و ١٣٤٠

(٢٦) هآرتس ٧٧/١٠/٣ - يوئيل ماركوس

(٢٧) مناحم بيغن - اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٧/٢٦ ، راا رقم ١٢٥٤

(٢٨) يديعوت احرونوت ٧٧/٧/٢٤

(٢٩) اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٧/٢١ - راا رقم ١٢٥١

(٣٠) اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٩/٦ ، راا رقم ١٢٨٨

(٣١) اذاعة اسرائيل ، ٧٧/٩/٢٨ ، راا رقم ١٣٠٤

(٣٢) المصدر نفسه ، ٧٧/١٠/١٤ ، رقم ١٣١٧

(٣٣) النهار ٧٧/١٠/٢٩

لطفي الخولي

ملاحظات حول الوضع الراهن للحركة التقدمية العربية

- ١ -

تعاني الحركة التقدمية العربية ، بصفة عامة في الوقت الراهن ، موجة جزر ذات مدى اوسع واقوى نسبيا ، بالقياس الى كل موجات الجزر التي اصطدمت بها الحركة ، من حين لآخر ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥ وانشاء اسرائيل في ١٩٤٨ ٠

واللافت للانتباه ، انه تحت ضربات هذه الموجة ، اخذت الحركة التقدمية تفتقد ، بشكل ملحوظ ، قدراتها على الهجوم والمبادرة التي ظلت تتمتع بها ، بدرجات متفاوتة ، منذ اوائل الخمسينات حتى منتصف الستينات ٠ وهي ، اليوم، تتراجع ، بشكل عام ، الى مواقع دفاعية ، تتراوح فيها حركتها بين « الدفاع السلبي » كما هو في حالات مواجهة صعود ظاهرة الهيمنة البترولية المعادية للتقدم في العالم العربي وما يرتبط بها من نمو طبقة رأسمالية طفيلية كومبرادورية موحدة المصالح في غالبية البلدان العربية ، وبين « الدفاع الايجابي » الذي يتمثل في مقاومة سياسة الخطوة خطوة الامريكية ، بأشكالها وصياغاتها المتعددة ، الرامية الى تحويل الصراع العربي الاسرائيلي الى صراع عربي مع الثورة الفلسطينية ٠

بل يلاحظ ، في بعض الحالات الحادة والمواقع الاستراتيجية ، ان الحركة الاستراتيجية التقدمية اجبرت على التقوقع والانكفاء ٠ وذلك بهدف حماية كوادرها وتنظيماتها من خطر التدمير والفناء ٠

ـ ٢ ـ

غني عن البيان ، ان هذا الرصد لواقع الحركة في اللحظة الراهنة ، لا يعني ـ سواء في التحليل النظري او التعامل التطبيقي ـ نزع « هذه اللحظة » من سياقها التاريخي المترابط والممتد ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا · او عزل هذه الموجة من موجات الجزر « عن مجمل التفاعلات الديناميكية في وطننا وعالمنا ، التي تتشابك وتتداخل فيها دون انقطاع موجات الجزر وموجات المد ، بدرجات متفاوتة من التعقيد في المكان والزمان وفي العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية للقوى التقدمية » · وانما المقصود بالدقة ، هو الاقرار « بالطابع الغالب الذي يسيطر في اللحظة الراهنة من مسار التاريخ على الحركة التقدمية العربية » ، واتخاذه مدخلا واقعيا للتحليل والفعل ، وذلك بهدف استكشاف الطرق والوسائل التي تعيد للحركة التقدمية العربية قدراتها على المبادرة والانتقال الى مواقع الهجوم مرة اخرى ·

ـ ٣ ـ

يحسن ، بادىء ذي بدء ، ان نحدد ـ كنقطة اولى ـ ماذا نعني بالحركة التقدمية العربية في الوضع الراهن ؟ وان نحدد ـ كنقطة ثانية ـ ماذا نعني بالوضع الراهن للحركة التقدمية العربية ؟

نحن ننطلق ـ بالنسبة للنقطة الاولى ـ من المقولة العامة التي ترى الحركة التقدمية ، تيارا يضم جميع القوى الاجتماعية والسياسية التي تستهدف وفق مقدراتها المادية وآفاقها الايديولوجية ، التقدم بمجتمعها خطوات كمية او خطوة نوعية ، عما هو قائم من بنيات ثقافية واجتماعية واقتصادية ، لم يعد يلبي مصالح واحتياجات وآمال الغالبية العظمى من الشعب · وذلك بمعايير مستمدة من خصوصية مرحلة التطور التاريخي التي يمر بها هذا المجتمع ، دون ما تجاهل او انفصال عن عمومية روح العصر ومتغيراته الدولية

بيد ان هذا يظل تحديدا عاما يتسم بالتبسيط ، ما لم نعمل على ترجمته ترجمة قومية ، متكيفة مع الظروف الخاصة والسمات المميزة لمجتمعنا العربي في مرحلته التاريخية المعاصرة ·

وفي تقديرنا ، انه طالما ان الشعب في مختلف اقطار الوطن العربي ، ما برح يناضل ـ كخط عام ـ من اجل استكمال تحرره السياسي والاقتصادي ·· وتنمية اقتصاده الوطني بما يرفع مستوى معيشته ·· وتطوير نظامه السياسي على نحو ديمقراطي بما يضمن له حرياته الاساسية وحقوقه في المشاركة في صنع القرارات المتعلقة بمصيره ، فان المرحلة الراهنة من تاريخ المجتمع العربي تبقى في اطار

الثورة الوطنية الديمقراطية ، ومحكومة بقوانينها واهدافها ٠

وباعمال هذه القوانين والاهداف ، فان وعاء القوى التقدمية مفروض ان يتسع ليشمل البرجوازية الوطنية بفئاتها المختلفة والفلاحين والعمال ، فضلا عن المثقفين الوطنيين بحكم دورهم المتميز المنشط للحركة التقدمية في البلدان النامية ٠

غير ان الثورة الوطنية الديمقراطية ، في الواقع العربي ، تواجه ظروفا خاصة تتولد عنها تعقيدات رئيسية ادت الى اكتساب هذه الثورة ، في حركتها ، سمات وابعاد متميزة ، الامر الذي ينعكس ـ بالضرورة ـ على مضمون ومكونات وعاء القوى التقدمية العربية الراهنة ٠

كيف ؟

باختصار ، يمكن ان نرصد الظواهر السبع التالية بالنسبة الى حركة الثورة الوطنية الديمقراطية وتفاعلاتها مع القوى التقدمية ٠

ـ ٤ ـ

الظاهرة الاولى ، تتمثل في امتداد المساحة الزمنية لمرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية العربية ، على نحو غير عادي ٠ حتى انها تبلغ في بعض البلاد ، كمصر ، حوالي قرن من الزمان ٠ بدأت بالثورة العرابية عام ١٨٨١ ، وما تزال ماضية لانجاز مهامها ، مارة بثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢ ٠ وفي بلاد اخرى مثل سوريا والعراق وفلسطين بدأت في اوائل القرن العشرين وعشرينياته وثلاثينياته وما برحت مستمرة بحلقات متعاقبة ٠

وقد نتج عن هذه الظاهرة ، التي لم يشهد التاريخ الانساني سوى حالات نادرة منها ، تغيير دائب ومتنوع لقواها وقيادتها واساليبها بل واعدائها ٠ فضلا عن مواجهتها لعواصف المتغيرات الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين ٠

واذا كان هذا الامر ينم ، من ناحية ، على ضخامة حجم الطاقة الثورية المختزنة في الواقع العربي ، الا انه يكشف في نفس الوقت ، بحكم طابع الهبات الجماهيرية المتقطعة التي تميز بها مسار الثورة ، عن ازمة حادة ، تكاد تكون مزمنة ، في القدرة الموضوعية والذاتية للقيادة ٠ وفي مسألة تنظيم الطاقة الجماهيرية بفاعلية ذات نفس طويل ٠

ـ ٥ ـ

الظاهرة الثانية ، تتعلق بالدور المتعاظم الذي اخذت البرجوازية الصغيرة ،

على وجه الخصوص ، تقوم به في مسار الثورة الوطنية الديمقراطية في العالم العربي ، وذلك في اعقاب الحرب العالمية الثانية بمتغيراتها الدولية والتي كان ابرزها ظهور العالم الاشتراكي ، قطبا قادرا على ادارة الصراع الايديولوجي والسياسي مع العالم الرأسمالي ليشمل كل المجتمع الدولي ، وقيام اسرائيل بقوة السلاح ، وعلى نحو اوقع الهزيمة التاريخية بالبرجوازية العربية الكبيرة عام ١٩٤٨ ، وكشف عدم قدرتها على الاستمرار في قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية وتحدياتها ٠

ولعل اخطر ما في هذه الظاهرة يتبلور في امرين :

الاول ، تعاظم حجم البرجوازية الصغيرة في الواقع العربي ، المتخلف اقتصاديا واجتماعيا ، بمعدلات كبيرة ، وذلك بالقياس الى الطبقات الاخرى وخاصة الطبقة العاملة ٠ ثم تحول هذا « الحجم » الى « كيف نشط » ، وذلك بحكم التناقضات التي اخذت تزداد حدة بين مصالح هذه البرجوازية الصغيرة وبين النظام الاجتماعي والسياسي الذي سيطرت عليه البرجوازية الكبيرة وبات اعتمادها على الاستعمار كاملا ٠ هذا في الوقت الذي كانت البرجوازية الصغيرة هي المصدر الاساسي لغالبية المثقفين ولغالبية الكوادر التي تمركزت في المواقع الدنيا والمتوسطة من مختلف اجهزة الدولة التي جرى بناؤها ، او تدعيمها ، اثر حصول كل بلد على استقلاله ٠

وهكذا غدت البرجوازية الصغيرة ، في غياب طبقة عاملة مؤثرة كما وكيفا ، هي القاعدة الاجتماعية الاساسية ، لكل التحركات النضالية والتنظيمات والاحزاب السياسية بما في ذلك الاحزاب والحركات الاكثر جذرية كالاحزاب الاشتراكية والشيوعية ٠ وان كانت هذه الاحزاب الثورية ، بدرجاتها المختلفة ، قد اسهمت بدورها في اخصاب البرجوازية الصغيرة ببذورها ، الامر الذي افرز من داخل هذه الطبقة قوى واتجاهات ذات بعد اجتماعي ثوري ، وقدرة على التصدي القيادي لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ٠

الثاني ، قيام بعض العناصر الثورية في الطبقة البرجوازية الصغيرة التي تمركزت في المواقع الدنيا والمتوسطة من القوات المسلحة ، بتحويل الجيش الذي جرى تكوين هيئة ضباطه ، بعد الاستقلال السياسي ، من ابناء الطبقة البرجوازية الصغيرة في الاساس ، من اداة قمع في يد البرجوازية الكبيرة الحاكمة الى اداة تفجير انقلابات سياسية واجتماعية تتراوح في درجاتها الثورية ٠ بمعنى ان الطبقة البرجوازية الصغيرة ، استعاضت بجهاز الجيش المنظم والمسلح والقادر على الحركة المنضبطة ، عن التكوين الفعلي للحزب السياسي الثوري في احضان المجتمع ٠ وهكذا عندما تمكنت البرجوازية الصغيرة ، بطلائعها الاكثر ثورية ، من ان تتسلح بالجيش ، اقدمت على احداث الانقلاب والاستيلاء على السلطة ، والانتقال بالثورة الوطنية الديمقراطية الى مرحلة اكثر تقدما ٠ سواء في المواجهة

مع الامبريالية والاستعمار الجديد والخطر الصهيوني المتجسد في اسرائيل ، او في التصدي لقضايا التخلف الاقتصادي والاجتماعي ومحاولات بناء الاقتصاد الوطني المتطور والمستقل . والتحرر الاجتماعي للانسان العربي من الاستغلال الرأسمالي التقليدي · وان بقيت الحركة محكومة . غالبا وفي جميع اتجاهاتها ، بمصالح البرجوازية الصغيرة وتطلعاتها وتذبذباتها · غير ان هـذا النهوض البرجوازي الصغير احدث . موضوعيا . تغييرا جوهريا لاول مرة في التاريـخ العربي والعالم الثالث . من طبيعة الدور التقليدي المستقر للجيوش كأداة قمـع لصالح البرجوازية الكبيرة الحاكمة . ومن انقلاباتها كحركات عسكرية رجعية ذات طبيعة فاشية معادية للجماهير الشعبية ·

ولعل هذا هو « جوهر الناصرية » . نظريا وعمليا · فقد كان عبد الناصـر هو القيادة الاولى الناجحة لهذه العملية التاريخية الجديدة ، في اطار الثـورة الوطنية الديمقراطية في الوطن العربي والعالم الثالث ، اذا وضعنا في الاعتبار حركة « عرابي » العسكرية في مصر ايضا عام ١٨٨١ · وقد تلى تفجير يوليو ١٩٥٢ ، تفجيرات سياسية واجتماعية « **للبرجوازية الصغيرة المسلحة بالجيش** »، متفاوتة النجاحات ، في عدد من البلدان كالعراق وسوريا · وذلك جنبا الى جنب مع تفجيرات اخرى لم يتحقق لها النجاح في اقطار اخرى ·

ومنذ ذلك الوقت (عام ١٩٥٢) ، غدا الجيش في العالم العربي ، بوصفـه اخطر واهم المؤسسات المركزية المنظمة والمسلحة ، يغلب عليها طابع ومصـالح البرجوازية الصغيرة ، يملك ثقلا خاصا ، لا يمكن اغفاله او تجاوزه ، عند تحديد مسار وماهية القوى التقدمية العربية المعاصرة ·

ـ ٦ ـ

الظاهرة الثالثة ، تتحدد في اليقظة القومية المعاصرة التي شملت كل اجزاء الوطن العربي ، وراحت تطرح بالحاح متزايد على كل القوى وفي مقدمتها القوى التقدمية ، قضية الوحدة العربية ، بفكريـات وصياغـات متعـددة واحيانـا متصادمة · بمعنى ان القومية العربية ، غدت منطلقا فكريا وعمليا لحركة كـل فصيل من فصائل القوى التقدمية · وكان مما اذكى ذلك ، فضلا عـن الرصيـد المتراكم تاريخيا من الاسس القومية المشتركة بين البلدان العربية من ارض وشعب ولغة وتكوين نفسي وثقافي ومصالح اقتصادية ، ثلاثة عوامل رئيسية حديثـة التكوين نسبيا :

اولها : التحدي الاسرائيلي ، بعد احتلاله واستيطانه لفلسطين ، لمصير كـل بلد عربي دون استثناء ، وبالتالي للعروبة ككل لا يتجزأ ·

ثانيها : اكتشاف مصر ، من خلال ثورة ١٩٥٢ بصورة خاصة ، لعروبتها ·

وبأن لا مستقبل لها خارج دائرة الانتماء العربي · وانه بقدر حجم ونوعية دورها في الساحة العربية ، بقدر ما تكتسب من وزن مؤثر محليا وعالميا ، يعود عليها بالتالي بمنافع ذاتية على درجة كبيرة من الاهمية ·

وبالمقابل فان الالتحام المصري بالعروبة ، منح الجسد العربي ، العمود الفقري اللازم للنهوض والحركة الايجابية ·

ثالثها : نمو الوعي العربي العام ، خلال وبعد الحرب العالمية الثانية ومتغيراتها الدولية ، بالاهمية المتزايدة للمنطقة العربية ككل موحد في حساب الجغرافيا السياسية العالمية · وذلك سواء بحكم الموقع الجغرافي الاستراتيجي للمنطقة الممتد في قارتي آسيا وافريقيا او بحكم ما بات معروفا على وجه اليقين منذ اواخر الثلاثينيات من انها موطن اكبر مخزون احتياطي للطاقة البترولية ·

وكان طبيعيا ان تتبادل هذه اليقظة القومية العربية الحديثة ، التأثير والتأثر ، بالثورة الوطنية الديمقراطية المستمرة بحلقاتها المتتابعة ·

وهكذا اكتسبت القومية العربية الحديثة ، مضمونا ثوريا ديمقراطيا ، يميزها عن القومية العربية التقليدية التي ظلت طويلا اسيرة المفاهيم الطوباوية والنوازع العرقية الى حد كبير · وفي نفس الوقت اكتسبت الثورة الوطنية الديمقراطية ـ بالمقابل ـ ابعادا واهدافا وحدوية قومية · ونتج عن ذلك انه لم يعد ممكنا في الواقع الحي ، اعتبار او تصور اي قوة في بلد عربي مهما كانت درجة ثوريتها الفكرية في عداد القوى التقدمية الفاعلة ، اذا بقيت خارج دائرة القومية العربية وحركة النضال من اجل الوحدة ·

ـ ٧ ـ

الظاهرة الرابعة ، تتحدد في ان الثورة الوطنية الديمقراطية تحت قيادة الفئات الثورية من البرجوازية الصغيرة ، في محاولاتها دعم الاستقلال السياسي باستقلال اقتصادي ، ودفع عجلة التنمية للاقتصاد الوطني وخاصة في مجال الصناعة بأسلوب مخطط واعادة توزيع الدخل القومي على نحو يرفع نسبيا من مستوى معيشة الطبقات الشعبية الكادحة ، اصطدمت خلال معارك متعددة ، بلغت حد العنف الدموي ، بالامبريالية والاحتكارات والاستعمار الجديد (شركة قناة السويس في مصر وشركات البترول العالمية في العراق والجزائر وليبيا الخ ··) وذلك بالاضافة الى الاقطاع وكبار ملاك الاراضي والرأسمالية الكبيرة·

وفي مناخ هذه المعارك التي اشتعلت من حول قضايا الاستقلال الاقتصادي والتنمية ، اقدمت البرجوازية الصغيرة من خلال سيطرتها على جهاز الحكم اساسا ، على اتخاذ عدد من الاجراءات ذات الطابع التقدمي كالاصلاح الزراعي

الذي بلغ حد الثورة الزراعية كما حدث في الجزائر ، ودعم الحركة التعاونية في الريف وتأميم عدد من المؤسسات الاحتكارية الاجنبية والمملوكة للرأسمالية الكبيرة المحلية وانشاء قطاع عام يقود عملية التنمية وخاصة الصناعية على اساس مبدأ التخطيط القومي ، ومنح العمال حق المشاركة في الادارة والارباح واقرار نسبة الـ ٥٠٪ للعمال والفلاحين في المجالس الشعبية المنتخبة · ومجانية التعليم وكسر احتكار التعامل الاقتصادي والتجاري مع السوق الرأسمالية والانفتاح على السوق الاشتراكية ·

وعلى الرغم مما شاب هذه الاجراءات من سلبيات ونواقص ، واستئثار البيروقراطية بعمليات تطبيقها بمعزل عن رقابة شعبية فعالة ، الا انها منحت ـ موضوعيا ـ الثورة الوطنية الديمقراطية ، وخاصة منذ النصف الاول من الستينيات ، مضمونا اجتماعيا متقدما راح يتجه في بعض نقاطه الى آفاق اشتراكية ·

وقد تولد عن هذا الالتحام التاريخي بين مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ومهام الثورة الاجتماعية ذات الآفاق الاشتراكية ، تغيير اساسي في بنية القوى التقدمية العربية · اذ انسلخت عنها الشرائح العليا والمتوسطة من البرجوازية الوطنية حتى ولو كانت وحدوية الاتجاه عربيا · وتبلورت ، في نفس الوقت ، مجموعة قوى اجتماعية جديدة مرتبطة ارتباطا ثوريا ، لم يسبق له مثيل ، بعملية الانتاج والتطور · وبالتالي منحت الحركة العامة للقوى التقدمية العربية طاقات ذات عمق غائر في البنى التحتية للواقع العربي · ونعني بهذه القوى الاجتماعية الجديدة ، على وجه التحديد ، فلاحي الاصلاح والثورة الزراعية وعمال القطاع العام ، والمتعلمين من ابناء العمال والفلاحين بفضل اقرار مجانية التعليم ·

ـ ٨ ـ

الظاهرة الخامسة ، تدور من حول تعاظم التحدي الاسرائيلي ، وخاصة في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، الى حد تجاوز فلسطين والبلدان العربية المجاورة ، الى كل الوجود العربي ، مشرقا ومغربا ، وامنه وقدراته على التطور والتقدم ·

وجاء انطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة في ١٩٦٥ وتصديها الفدائي للتحدي الاسرائيلي رغم مناخ الهزيمة ، مفردة حتى اشتعال حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس في عام ١٩٦٩ ، ليقوم بدور التجميع والحشد الديناميكي لمقاومة التحدي الاسرائيلي ، على المستوى القومي الشامل للوطن العربي · الامر الذي خلق الظروف الموضوعية ، لاول مرة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي ، لبناء حد ادنى من وحدة عمل عربي مشترك ذي طابع هجومي ضد التحدي الاسرائيلي ، امكن معه استمرار الصمود ثم تفجير حرب اكتوبر ١٩٧٣ المحدودة ·

واذا كانت هذه الحرب قد اسفرت عن احراز انتصارات تكتيكية عربية ، الا انها كشفت عن مفاجأة استراتيجية اساسية وهي شجاعة وقدرة المقاتل العربي الذي تربى وتكون في احضان الثورة الوطنية الديمقراطية بأبعادها الوحدوية وآفاقها الاشتراكية · بيد ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، لم تحسم الصراع مع التحدي الاسرائيلي · والانتصارات التكتيكية التي حصل عليها المقاتل العربي ، لم تستثمر استثمارا سياسيا جيدا · بل ، جرت وما تزال ، محاولات لمحاصرتها واهدار آثارها · وتجمعت كل قوى الامبريالية والاستعمار الجديد والصهيونية والرجعية المحلية في تحالفات جديدة متعددة ذات وسائل واساليب مختلفة ، تتراوح بين الضغط السياسي والاقتصادي عامة والبترولي خاصة ، وبين العنف المسلح وتفجير الحروب الاهلية (لبنان) والانفصالية (الاكراد في العراق) ومنازعات الحدود (ليبيا ومصر) ، وذلك بهدف تصفية ، او على الاقل سلب فاعلية ، الحركة التقدمية العربية على مواصلة مسيرة الثورة الوطنية الديمقراطية ، مع التركيز على المقاومة الفلسطينية وتحالفها مع القوى التقدمية اللبنانية ، وذلك باعتبار ان الساحة « الفلسطينية ـ اللبنانية » اصبحت تمثل جبهة الصدام الامامية للثورة العربية ببعدها الوحدوي وآفاقها الاشتراكية ، وباعتبار ان المنتصر في هذه الساحة ، او على الاقل غير المنهزم سوف يملك القدرة على المضي في تحقيق وحماية مصالحه ، ومحاصرة وضرب مصالح الطرف الآخر ، استراتيجيا على مدى المستقبل المنظور · هذا المستقبل الذي يمكن ان نسميه بعصر البترول الذهبي ، والممتد وفقا لاغلب التوقعات ، حتى نهاية القرن العشرين ·

ومن هنا تعمق اكثر فأكثر في وجدان الشعب العربي ووعي القوى التقدمية ان معركة المصير للمستقبل المنظور ، تتكثف في المواجهة الجذرية مع التحدي الاسرائيلي بكافة ابعاده الامبريالية والاستعمارية الجديدة والرجعية المحلية المدعمة بالطاقة البترولية ·

وبالتالي ، فان القضية الفلسطينية ، بخصوصيتها وعموميتها ، انتقلت كيفيا ، بفعل تراكم حركة الاحداث المعقدة منذ حرب الايام الستة في ١٩٦٧ حتى الحرب الاهلية في لبنان ، مرورا بحرب اكتوبر ١٩٧٣ وسياسة الخطوة خطوة الامريكية وتفاقم السلبيات السياسية والاجتماعية للقوة البترولية العربية وارتباطاتها الاحتكارية ، من مركز « بند من بنود » جدول اعمال الحركة التقدمية العربية ، الى مركز المحور الرئيسي لكل الحركة سواء على المستوى الاقليمي او على المستوى القومي ، **بتعبير آخر تكثفت كل صراعات الحركة في « البؤرة الفلسطينية » · وتبلور عن هذا التكثيف التاريخي ، معيار واقعي لقياس حقيقة ومدى تقدمية كل قوة عربية في الواقع المعاصر** · ونقصد به معيار « الفلسطنة » ، الذي يعني تحديدا المشاركة في النضال لاقامة الدولة الفلسطينية المستقلة فوق كل ارض تتحرر من فلسطين كمرحلة اولى وضرورية نحو بناء الدولة الديمقراطية

العلمانية لكل فلسطين · وكشفت « الفلسطنة » في الواقع العربي عن منابع اجتماعية ـ سياسية خاصة اثرت ـ بدورها ـ الحركة التقدمية العربية بقوى استراتيجية جديدة هي فدائيو الثورة الفلسطينية ومقاتلو حرب اكتوبر ·

وهذه قوى من شأن تلاحمها الحتمي مع مجموعة قوى فلاحي الاصلاح والثورة الزراعية وعمال القطاع العام والمتعلمين من ابناء العمال والفلاحين التي افرزتها المنابع الاجتماعية لمسيرة الثورة الوطنية الديمقراطية نحو آفاق اشتراكية ، ان تحدث على المدى المتوسط والبعيد ، تغييرا جذريا في موازين القوى المتصارعة في المنطقة لصالح التقدم والثورة ·

ـ ٩ ـ

الظاهرة السادسة ، تبدو في اغراق العالم العربي حتى الثمالة في بحر متلاطم من الافكار والفلسفات والقيم الغيبية ، واستغلال « الدين »« مدفعية ثقيلة » ضد القوى التقدمية العربية وثورتها الوطنية الديمقراطية ببعدها الوحدوي وآفاقها الاشتراكية ومحورها الفلسطيني ·

ويتجسد هذا الاستغلال في صياغات متعددة ، تستهدف جميعها « اخصاء » قدرة الانسان العربي على تغيير واقعه والسيطرة على مصيره · وفي هذا المجال تتنوع حملات التأويلات المشوهة للتراث الديني والروحي العميق الجذور في المنطقة · هذا التراث الذي كان قوة دافعة للتحرر والتقدم للانسان العربي ، وذلك في عصر المخاض للثورة الوطنية الديمقراطية في اواخر القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين ، بمشاركة قيادات دينية مستنيرة تواصلت ، قوميا وتاريخيا ، منذ الطهطاوي ومحمد عبده في المشرق العربي حتى عبد الحميد بن باديس في المغرب العربي · وحملات التكفير لكل فكر تقدمي او حتى عصري ، والدعوة الى السلفية واعتبار كل من ينادي بالاشتراكية والقومية العربية والصداقة مع البلدان الاشتراكية ، منتميا الى قوى جاهلية يتوجب ، دينيا ، اهدار دمها بالعنف الارهابي · الامر الذي ادى الى افتعال معارك وهمية عن الحلال والحرام في الثقافة والتعليم والعمل والمأكل والملبس ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، تستنفذ الطاقة او الجهد فيما لا طائل من ورائه الا تزييف الوعي الجماهيري العام ، وحرف النضال ضد الاعداء الحقيقيين ، وتبديده في محاربة طواحين هواء ·

وجرى هذا كله جنبا الى جنب مع اشعال نيران الصراعات بين الاديان وتأجيج الفتن الطائفية بهدف تفتيت التوحد القومي للشعب الى كيانات دينية طائفية متنازعة · كما حدث في لبنان على نطاق دموي واسع ، وكما حدث على نحو اضيق ، في بلدان عربية اخرى ·

وفي هذا المناخ تولدت قوى واتجاهات دينية تقدمية تستلهم الروح النضالية للتراث الاسلامي والمسيحي ، تربط بين التعاليم الدينية التي تدين بها الغالبية العظمى من الجماهير الشعبية وبين قضايا التحرر السياسي والاجتماعي التي تطرحها الثورة الوطنية الديمقراطية المعاصرة · ولاول مرة ، منذ الاربعينات ، تحالفت القوى الدينية التقدمية تنظيميا وسياسيا ، بوزن مؤثر وفعال ، مع الحركة التقدمية العربية بكل فصائلها بما في ذلك الماركسيين ، وذلك على اساس برنامج عمل مشترك · وتم ذلك في عدد من المواقع الرئيسية بالواقع العربي ، وفي مقدمتها التجمع الوطني التقدمي الوحدوي في مصر والحركة الوطنية التقدمية في لبنان وحزب جبهة التحرير الجزائري وحزب البعث العربي الاشتراكي والجبهة الوطنية التقدمية في العراق وسوريا والتنظيم الثوري الموحد باليمن الديمقراطي·

ان اهمية هذه الظاهرة ، انها تطرح عمليا ، لاول مرة منذ تفجر الثورة الوطنية الديمقراطية ، امكانية بروز قوى تقدمية من ذات المحيط الديني تقوم بقطع الطريق على الامبريالية والصهيونية والرجعية في استغلالها للدين ضد الحركة التقدمية العربية التي تمارس نضالها وسط جماهير مؤمنة يسودها التدين العميق والمؤثر ـ بالضرورة ـ تأثيرا بالغا على مواقفها واختياراتها السياسية والاجتماعية ·

الظاهرة السابعة ، تلخص في ان المنبت التاريخي والاساسي لغالبية القوى التقدمية العربية الراهنة هو البرجوازية الصغيرة · وذلك على اختلاف اتجاهاتها الفكرية واحزابها السياسية من قومية الى شيوعية · واذا كان هذا لا ينفي بروز عناصر تقدمية من منابع اجتماعية اخرى كالبرجوازية الوطنية بل والكبيرة في بعض الاحيان والطبقة العاملة ، الا ان البرجوازية الصغيرة تظل هي المنبع الغالب والاقوى · وهذا يعني ان التعدد في منابع القوى التقدمية ، يأتي دائما على مستويين، اجتماعي وايديولوجي· الامر الذي من شأنه ان يولد، بالضرورة، بحكم تمايز النظرات الايديولوجية والاصول الطبقية، صراعات جانبية، فيما بينها، رغم وحدة مسارها النضالي في اطار الثورة الوطنية الديمقراطية · وتصبح القضية المطروحة بالحاح في هذا المجال هي كيف يمارس الصراع الايديولوجي صحيا مع استمرار الحفاظ على وحدة الفعل بين مختلف فصائل واحزاب القوى التقدمية العربية ·

هذا وجه واحد من هذه الظاهرة ·

اما الوجه الثاني ، فيكمن في انه لما كانت القوى التقدمية العربية بأحزابها

وتنظيماتها وشخصياتها . قيادتها وكوادرها قد نشأت ـ غالبا ـ في احضان البرجوازية الصغيرة · فلا مفر جدليا من ان تظل هذه القوى التقدمية . بدرجة او بأخرى وبقدر او آخر من الزمن، متأثرة بقيم وطبيعة البرجوازية الصغيرة التي تتسم دوما بعدم الاستقرار والتذبذب · وذلك بحكم اوضاعها غير المتجانسة في عملية الانتاج . يخضعها لتقلبات انقسامية عديدة تصعد ببعضها الى دنيا البرجوازية المتوسطة والكبيرة وتهبط ببعض آخر الى مراتب البروليتاريا · والواقع ان هذا الطابع الاجتماعي الوراثي الغالب . للقوى التقدمية العربية الراهنة يتفاعل سلبيا مع عدد من العوامل الهامة مثل غياب طبقة عاملة ذات وزن قيادي في الواقع العربي . او عدم توافر الظروف الموضوعية والذاتية لاحداث القدر الضروري من التلقيح والاخصاب بين المثقفين الثوريين والقوى الاجتماعية المؤهلة بطبيعتها للثورة . فضلا عن سيادة الامية وقيم المجتمع الزراعي المتخلف والضغوط اليومية للفقر الكاسح ·

وتحت وطأة التفاعل بين مجمل هذه العوامل . يتضخم على نحو مرضي . دور القيادة الفردية العربية التقدمية في حركة التاريخ . وتتاح الفرص لتغليب « الذاتية » على « الموضوعية » و « الشللية » على « التنظيم » و « الانقسام والتفتت » على « الوحدة الجماعية » · من هنا شهدت الحركة التقدمية العربية ، وما تزال الى حد مقلق ، ظواهر انقسام وتشرذم قواها واحزابها باستمرار · يستوي في ذلك ، مع اختلاف الدرجات ، الحركة الناصرية والتنظيمات القومية والاحزاب الشيوعية ، والمقاومة الفلسطينية · كما شهدت محاولات متباينة على مستويات مختلفة ، لاستئثار كل قوة ـ منفردة ـ بالسلطة او فرض ذاتها في مركز القيادة قسرا في التحالف الجبهوي ونفي وجود الآخرين الا على اساس شكل ذيلي · واستسهلت القوى التقدمية العربية عند استيلائها على السلطة ، اتخاذ قراراتها للتطوير والتغيير ، بيروقراطيا ، دون مشاركة الجماهير لها · وفضلت الدعم الجماهيري للشارع غير المنظم على دعم جماهيري من خلال تعبئة تنظيمية دائمة · الامر الذي جعل العديد من النظم التقدمية العربية تقع بين متناقضين خطرين من ناحية علاقاتها العضوية مع الجماهير : اما الطوفان المفتقد لاي توجيه او تنظيم واما الفراغ الموحش والقاتل احيانا ·

وفي مثل هذا المناخ ظلت تتناقص الى درجة خطيرة فرص الحوار الديمقراطي وتعدد الآراء بين مختلف القوى التقدمية على ارضية النضال المشترك · وتصاعدت ، على العكس ، نزعات التعامل غير الديمقراطي بين فصائل القوى التقدمية بعضها وبعض · وتعرضت للانتهاك الخطير حقوق الانسان العربي وحرياته الاساسية في التعبير وممارسة دوره في المشاركة في صنع القرارات المتعلقة بمصيره · الامر الذي رسب في الجماهير انطباعات خاطئة ومدمرة بقيام تناقض بين التقدم السياسي والاجتماعي وبين الديمقراطية واحترام حقوق الانسان ·

ـ ١١ ـ

في ضوء هذه الظواهر السبع الرئيسية التي تحكم طبيعة وحركة الثورة الوطنية الديمقراطية في الواقع العربي وتعامل القوى التقدمية معها ، نستطيع ان نحدد هوية هذه القوى في الخطوط الخمسة التالية :

الخط الاول : القوى التقدمية العربية الراهنة هي جماع الجسد الحي والمفارس للثورة الوطنية الديمقراطية ببعدها الوحدوي وآفاقها الاشتراكية ومحورها الفلسطيني ٠

الخط الثاني : تعدد المنابع الاجتماعية للقوى التقدمية العربية ٠ واذا كانت البرجوازية الصغيرة ، ما زالت هي النبع الاجتماعي الغالب ، فقد تفتحت منابع اجتماعية جديدة متميزة واكثر ثورية ، خلال تطور مسار الثورة الوطنية الديمقراطية ٠ وتتحدد في فلاحي الاصلاح الزراعي والثورة الزراعية ، عمال القطاع العام ، المتعلمين من ابناء العمال والفلاحين ، مقاتلي حرب اكتوبر ، فدائيي الثورة الفلسطينية ٠

الخط الثالث : تعدد المنابع الفكرية والتنظيمات السياسية للقوى التقدمية العربية في الحركة الناصرية والتنظيمات القومية التقدمية وحزب البعث الاشتراكي والاحزاب الشيوعية ، وفصائل الثورة الفلسطينية ٠

الخط الرابع : بروز قوى دينية تقدمية كجزء منظم من مجمل القوى التقدمية العربية تواجه على نحو فعال القوى الدينية الرجعية والسلفية المتحالفة مع الامبريالية والاستعمار الجديد ٠

الخط الخامس : استمرار معاناة الحركة التقدمية العربية ، بدرجات متفاوتة ، لامراض الانقسامية والتشرذم والشللية والعلاقات غير الديمقراطية وتضخم دور الفرد القائد على حساب الحركة الجماهيرية المنظمة ٠

ـ ١٢ ـ

ننتقل الآن الى **النقطة الثانية** في محاولتنا لتحديد طبيعة مرحلة الجزر المعاصرة وهي : ماذا نعني بالوضع الراهن للحركة التقدمية العربية ؟

نحن ننطلق ايضا فيما يتعلق بهذه النقطة من مقولة عامة ترى في ٦٦ ـ ١٩٦٧ عام الانكسار ، ليس فقط بالنسبة للقوى التقدمية العربية : حركات ونظما ، بل وحركة العالم الثالث ككل ٠

كان تفجر ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر ، بوزنها العربي والافريقي والاسيوي ، النابع عن تمركزها الحضاري والمؤثر تاريخيا بمنطقة الشرق الاوسط ذات

الحساسية الاستراتيجية دوليا ، بداية لتتابع الثورات الوطنية الديمقراطية في مواقع ذات قدرات اشعاعية هائلة في آسيا وافريقيا · وراحت بمسارها المعادي للامبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية والتخلف الاقتصادي والاجتماعي تزاوج بين مهام التحرر السياسي ومهام التحرر الاجتماعي بآفاقه الاشتراكية ، على درجات متباينة ·

وامكن لهذه النظم التي تمخضت عنها هذه الثورات ، وفي اطار صراعات الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي في تلك المرحلة ، ان تفرض نفسها على ميزان القوى الدولية ، كقوة ثالثة مترابطة ومستقلة تنهج طريق الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، وتلح على احترام مبدأ التعايش السلمي بين الدول على اختلاف نظمها واحجامها ودون ما تدخل لاي دولة في شؤون الاخريات · وانبثقت هذه القوة الدولية الثالثة الجديدة من خلال مؤتمر باندونج الذي انعقد عام ١٩٥٥ · وراحت وفاء لمبادئها ومصالحها تنسج علاقات اقتصادية وتجارية وعسكرية وثقافية مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية ، على نحو واسع ومؤثر على العلاقات الدولية والنظام الاقتصادي العالمي ، وذلك منذ الحصار الذي ظلت تفرضه القوى الامبريالية والرأسمالية على الاتحاد السوفيتي عند قيامه في ١٩١٧ وعلى مجموعة البلدان الاشتراكية التي توالى تأسيسها بعد الحرب العالمية الثانية ·

وكان كل كسب سياسي او اقتصادي تحققه ثورات العالم الثالث ، هو انتقاص خطير من رصيد المصالح الاحتكارية والاستعمارية ، واضعاف لوزن المعسكر الرأسمالي الذي تزعمته الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، في صراعه مع المعسكر الاشتراكي الذي تزعمه الاتحاد السوفيتي · وتضافرت مجموعة من العوامل الموضوعية الجديدة التي تخلقت في الحياة الدولية ، بفعل موجة المد العارمة لحركات التحرر الوطني والقوى الاشتراكية ، الى دفع العالم الرأسمالي الى مواقع الدفاع والتأزم · وذلك على مدى المسافة الزمنية الممتدة من اوائل الخمسينات حتى اواسط الستينات · نذكر منها : التأميمات الكلية والجزئية ، التي شملت العديد من المشروعات والمصالح الاحتكارية في العالم الثالث ، مثل قناة السويس ومزارع الشاي والكاكاو ومناجم الحديد والفحم ، التحالف دوليا بين حركة كل من الدول الاشتراكية والعالم الثالث والقوى العمالية والديمقراطية في اوروبا الغربية ، كسر الاتحاد السوفيتي للاحتكار الامريكي للاسلحة الذرية والنووية ، قيام الصين الشعبية ، زيادة حجم التصنيع في بلاد العالم الثالث بما يضيق في رقعة السوق العالمية امام الصناعة الرأسمالية ، تصفية القواعد العسكرية الامريكية والاوروبية في مواقع متزايدة من العالم الثالث بما هدد تهديدا خطيرا حلف الاطلنطي وحلف جنوبي شرقي آسيا ومجموعة الدول العنصرية والعميلة في افريقيا (جنوب افريقيا) وآسيا (فيتنام وكوريا

ولاوس واسرائيل) ، الهزائم المتوالية للدول الاستعمارية التقليدية بريطانيا (في مصر منطقة شرقي السويس) وفرنسا (في مصر والجزائر وفيتنام) ، امتداد الثورة الى امريكا اللاتينية وتفجرها في كوبا على بعد ٩٠ ميلا من الولايات المتحدة وتحولها الى الاشتراكية ٠

بيد ان تراجع العالم الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الى مواقع الدفاع لم يكن ليعني انه استسلم للواقع الجديد ، وفقد الامل والقدرة على مواجهته ومحاولة تغييره بالقوة ، دفاعا عن مصالحه من ناحية ، واعادة التوازن الملائم له ـ من ناحية اخرى ـ في علاقات القوى الدولية وصراعه مع كل من الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية والعالم الثالث ٠ على حين ان العالم الثالث ، وخاصة مستوياته القيادية الحاكمة ، اصيب نتيجة ما حققه من نجاحات كبيرة لم تكن متوقعة بهذا القدر من السرعة ، بمرض الافتتان بقوة الذات الذي اعمى البصيرة عن نواقص وسلبيات البناء الداخلي من ناحية ، وعن ان الصراعات التي دبت ـ من ناحية ثانية ـ داخل المعسكر الاشتراكي الحليف بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية قد راحت تبذر بذور الشقاق في وحدة العمل النضالي لحركة التحرر الوطني العالمية ، وعن ان الامبريالية ـ من ناحية ثالثة ـ لم تلحقها بعد شيخوخة الموت التاريخي وان ثورة العلم والتكنولوجيا قد شحنت الجسد الرأسمالي العالمي بدماء وقدرات تمكنها من استمرار حركتها العدوانية بطرق واساليب جديدة ٠

وهكذا بدأت الولايات المتحدة والقوى الحليفة لها تخطط لهجوم مضاد ٠ ولكن كيف ؟ ٠

كان العالم الثالث قد تحول الى جبهة عريضة مترامية الاطراف في القارات الثلاث ، افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، بحيث تعجز واشنطن عن مواجهتها بهجوم شامل على مدى اتساع الجبهة ٠ هذا فضلا عن ان الهجوم بطريق الغزو المباشر من الخارج لم يعد متاحا والا عرض الولايات المتحدة لمخاطر المواجهة النووية مع الاتحاد السوفيتي من ناحية ، ومخاطر المواجهة القتالية البشرية مع الصين في الساحة الاسيوية الملتهبة من ناحية اخرى ٠ وذلك في وقت بلغت فيه الحرب الباردة الذروة ٠ وخاصة بعد ازمة البحر الكاريبي وصواريخها السوفيتية في عام ١٩٦٢ ، وزيادة التورط الامريكي المباشر في الحرب الفيتنامية ٠

من هنا خططت الولايات المتحدة على اساس تركيز هجومها ضد رموز قيادية اساسية تحتل مواقع استراتيجية في خريطة العالم الثالث السياسية ٠ يكون من شأن تحطيمها وكسرها ، في فترة زمنية محدودة ، ارهاب العالم الثالث وخنق موجة المد التاريخي فيه والانتكاس بها الى موجة جزر عامة ٠ وابتكرت لهجومها تكتيكات ووسائل جديدة ، تتنوع بين الحروب الاقليمية المحدودة والخاطفة في سرعتها ، تشعلها قوة ضاربة متمركزة في منطقة الهدف تدعمها الترسانة

العسكرية الامريكية · وبين عمليات غزو من الداخل تقوم بها جيوب اجتماعية وسياسية ذات مصالح قوية معادية لحركة التحرر مستكنة داخل كيان الهدف نفسه وتملك قدرات مادية ومعنوية بحكم تمركزها في اجهزة الدولة القابضة وخاصة الجيش · وبحيث يبدو الامر في النهاية اما في صورة حرب اقليمية بين دول صغيرة متجاورة او صراعات داخلية ، يتعذر معه تدخل الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية سواء بسبب الطابع الخاص الذي تتخذه العمليات او بسبب الوقت الضيق الذي تنجز خلاله ·

وبالفعل اختارت الولايات المتحدة بدقة ، كما دلت حركة الاحداث ، الرموز القيادية التي شنت عليها هجومها · وذلك في ثلاثة مواقع استراتيجية :

بدأت في فبراير ١٩٦٦ **بالهجوم الاول** ضد « **غانا** » التي كانت قد تحولت الى قاعدة نشطة لحركات التحرر والوحدة الافريقية المعادية للامبريالية في قلب القارة السوداء · واستخدمت في ذلك اسلوب الغزو من الداخل ، اساسا ، عن طريق البيروقراطية العسكرية في الجيش الغاني · وانتهت بتصفية النظام التقدمي واسقاط حكم الرئيس الراحل قوامي نكروما ·

وانصب **هجومها الثاني** ضد « **اندونيسيا** » ، موطن المؤتمر التأسيسي للعالم الثالث ، واحد قواعد الدعم الرئيسية لحركات التحرر في آسيا · وذلك بأسلوب الغزو من الداخل ايضا · وكانت وسيلتها في ذلك تحريك التحالف الذي قام بين البرجوازية الكبيرة والبيروقراطية العسكرية ضد الجبهة الوطنية التقدمية بزعامة الرئيس الراحل سوكارنو الى درجة الوصول الى حافة الحرب الاهلية ، وذلك منذ اكتوبر ١٩٦٥ · حتى اذا ما نضج الموقف للاجهاز على النظام الوطني التقدمي بعد ارهاب سوكارنو وعزله سياسيا واجتماعيا ، اعطى الضوء الاخضر لازاحته نهائيا واسقاط النظام وتصفية معظم كوادر وقادة القوى التقدمية على اختلاف اتجاهاتها بمذابح واسعة النطاق · وتم ذلك بالفعل في مارس ١٩٦٦ ·

اما **الهجوم الثالث** فقد وقع في يونيو ١٩٦٧ بأسلوب الحرب الاقليمية المحدودة ضد حركة التحرر العربي عامة ومصر عبد الناصر خاصة التي كانت تحتل مركز الثقل في حركة التحرر الوطني العالمية وحركة القوى التقدمية العربية خاصة · وهو الهجوم الذي عرف باسم « حرب الايام الستة » · وكانت القوة الضاربة فيه هي القاعدة العسكرية الاستعمارية العنصرية القائمة في المنطقة في شكل دولة اسرائيل ·

واستغلت امريكا في ذلك ما كان يشوب النظام الوطني التقدمي في مصر من نقاط ضعف جوهرية ناجمة عن صعود ما سمي بالطبقة الجديدة التي تكونت سرطانيا داخل النظام والمجتمع من تحالف البيروقراطية المدنية مع البيروقراطية العسكرية · وراحت تعمل فيه بالتخريب حماية لمصالحها التي تبلورت في تناقض

مع مصالح الجماهير والقوى التقدمية من حول اهداف حركة الآفاق الاشتراكية والقومية العربية والتي كانت تحكم مسار ثورة يوليو بوضوح منذ اوائل الستينات ٠

وبنجاح الولايات المتحدة في ضرب هذه الرموز القيادية الرئيسية للعالم الثالث ، في عام ٦٦ ـ ٦٧ ، حدث الانكسار التاريخي لحركة التحرر الوطني العالمية وقواها التقدمية ٠ ومع هذا الانكسار انحسرت موجة المد العارمة لتبدأ موجة جزر عاتية ، ما يزال العالم الثالث ، وفي قلبه العالم العربي ، يعاني من قيودها وضغوطها المعقدة ٠ ولم تتمكن مقاومة القوى التقدمية بعد ، ان تحقق انتصارا استراتيجيا يبدد فعل وآثار هذه الموجة ، وان كانت قد احرزت ، من وقت لآخر ، عددا من المكاسب التكتيكية المتفاوتة القيمة ٠

والواقع ان متابعة حركة الصراع الضاري بين موجة الجزر وبين القوى التقدمية العربية ، الممتدة منذ عام ٦٦ ـ ٦٧ ، حتى لحظتنا الراهنة ، تبرز امامنا مجموعة من الحقائق الموضوعية التي تميز الوضع الراهن ، نرصد اهمها في الظواهر السبع التالية :

ـ ١٣ ـ

الظاهرة الاولى : تتعلق بالتواصل المستمر لموجة الجزر الراهنة وامتدادها لمسافة زمنية طويلة نسبيا (حوالي عشر سنوات حتى الآن) ، وذلك بالقياس الى اعمار موجات الجزر التي واجهها العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية٠

ولعل استطالة موجة الجزر الراهنة دون ما حسم ، سواء لصالح القوى التقدمية العربية او لصالح القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية ، ترجع الى ثلاثة عوامل مترابطة هي :

الاول : ضخامة القوة المصدرة للموجة ، وما تتمتع به من قدرات مادية وعسكرية ، ونعني بها الولايات المتحدة ، فضلا عن حليفتها واداتها الضاربة اسرائيل ٠ وفي نفس الوقت ضخامة المستهدف من هذه الموجة وهو اعادة السيطرة على المنطقة العربية ، وضمان كل من المصالح الامريكية ذات الطبيعة الاستراتيجية في البترول العربي ، وتعزيز امن ووجود اسرائيل ، المتوسع جغرافيا والمتضاعف سكانيا ، بحيث تتمكن من ان تقوم لحساب الصهيونية والاستعمار الجديد ، في المنطقة ، بدور المدينة الصناعية المتقدمة وسط الريف العربي المتخلف ٠

الثاني : تفاقم الصراعات العربية الجانبية بين النظم المختلفة الى حد الصدام المسلح ، وفقدان القدرة على الوصول الى اتفاق حول حد ادنى من موقف قومي

مشترك ازاء اسرائيل والعلاقات الدولية · مع زيادة نفوذ الدول العربية البترولية ذات الارتباط الوثيق مع الولايات المتحدة والغرب عموما بالقياس الى نفوذ الدول العربية التقدمية سواء اكانت غير بترولية ام نصف بترولية · وما يصاحب هذا كله من انعكاسات سلبية على حركة القوى التقدمية في هذا البلد او ذاك ·

الثالث : المقاومة الدفاعية التي تمارسها القوى التقدمية من خلال الحركة الجماهيرية بأشكال متعددة ، وبقدر متفاوت من الحجم والنوع والتنسيق والتنافر فيما بينها ، وعلى الرغم من ضغوط دول البترول الرجعية والمحافظة والصراعات العربية الجانبية ، الامر الذي يجعل قوى موجة الجزر تحاول الالتفاف من حول هذه المقاومة او الدخول معها في مواجهات صريحة مما يستهلك بالضرورة احتياطيا كبيرا من الوقت لدى جميع الاطراف ·

الظاهرة الثانية : تتكشف من واقع انه ، ولو ان موجة الجزر العامة لا تزال هي السائدة في الوضع الراهن ، الا ان ثمة موجات مد جزئية لصالح القوى العربية التقدمية تزاحمها في تتابع لا ينقطع ، بهدف محاولة اضعاف وكسر شدتها ·

بمعنى ان هناك باستمرار تدخلا صراعيا بين موجات مد وجزر ، تحول موضوعيا ، دون حسم الموقف ، استراتيجيا ، لصالح اي من الاطراف المتصارعة ·

نلاحظ ـ مثلا ـ انه مع احتلال اسرائيل لسيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، كان هناك الصمود الجماهيري التاريخي ضد الهزيمة · وحركة المقاومة الفلسطينية وانفجار ثورات العراق وليبيا والسودان · ومع ضرب اسرائيل لاعماق مصر وسوريا في محاولة لكسر الصمود العربي والمقاومة الفلسطينية ، كانت هناك حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس · ومع تصفية ثورة السودان في ١٩٧١ كان هناك بناء الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية من جميع الاحزاب والتنظيمات والقوى التقدمية العربية في اول صياغة جبهوية من نوعها · ومع الحصار والضغوط الاقتصادية ومحاولات الارتداد عن الآفاق الاشتراكية للثورة الوطنية الديمقراطية ، كان هناك التأميم الكلي او الجزئي لشركات البترول الاحتكارية في الجزائر والعراق وليبيا · والحركات الجماهيرية والعمالية دفاعا عن القطاع العام في مصر وسوريا وتطوير الاصلاح الزراعي في الجزائر الى ثورة زراعية · ومع فرض حالة اللاحرب واللاسلم على الصراع العربي الاسرائيلي واحتلال الارض العربية ، كان هناك

حرب اكتوبر ١٩٧٣ بانتصاراتها التكتيكية واستخدامها سلاح البترول لاول مرة في الصراع · ومع تفجير الحرب الاهلية الطائفية في لبنان كان هناك التحالف بين القوى الوطنية التقدمية اللبنانية وبين المقاومة الفلسطينية · وهو التحالف الذي حول لبنان من فخ منصوب لاصطياد الثورة الفلسطينية والحركة الجماهيرية اللبنانية الى ساحة مواجهة مع اسرائيل والامبريالية والرجعية العربية ·

وهذا يعني ان « الفعل » و « الزمن » في موجة الجزر ليسا مطلقي السراح وانما هما محكومان ، دوما ، بقوى رد « الفعل » في ذات « الزمن » من جانب القوى التقدمية العربية وجماهيرها ·

صحيح ان ذلك يظل في دائرة الدفاع · وربما يكون رد الفعل ، ايضا اقل مستوى او فاعلية من الفعل ومتأخرا قليلا او كثيرا عن اللحظة التاريخية الملائمة داخل الوعاء الزمني ، الا انه يؤكد حقيقة جوهرية وهي عدم تمكن موجة الجزر من امتصاص حيوية حركة القوى التقدمية وخصوبتها النسبية على النضال والعطاء ·

الظاهرة الثالثة : تتبدى في ان موجة الجزر ، افرختها ظروف عصر دولي كان طابعه الحرب الباردة · ولكنها تتواصل ، اليوم ، في ظروف عصر دولي مختلف طابعه الانفراج الدولي وان كان ما زال قلقا وغير مستقر · غير انه يضع ـ بالضرورة ـ قيودا وحدودا على قدرات موجة الجزر على الحركة بنفس المعدل السابق ،سواء من حيث السرعة او كمية العنف المستخدم · كذلك فان الموجة انطلقت في اعقاب نصر كامل لاسرائيل في حربها الثالثة مع العرب ، ولكنها تتحرك اليوم في اعقاب هزيمة جزئية لاسرائيل ـ لاول مرة ـ في الحرب الرابعة ، وما خلفته من آثار سلبية على كيان اسرائيل ووزنها التقليدي الطامح دوما للقيام بدور الشريك الصغير للامبريالية في المنطقة ·

بتعبير آخر ثمة « تغيير ما » يعتمل في الظروف الراهنة المحيطة بحركة موجة الجزر ، ليس في صالح امريكا واسرائيل في المستقبل المنظور · الا انه مما يحد ـ عربيا ـ من امكانية الاستفادة من هذا التغيير بالسرعة والعمق المطلوبين ، غياب الاتحاد السوفيتي نتيجة تردي علاقاته العربية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة ، وايضا التردد في استثمار السلبيات التي عصفت بالكيان التقليدي لاسرائيل بعد حرب اكتوبر بالعمل على تكوين جبهة عربية اسرائيلية في الارض المحتلة تناضل سياسيا ضد المشروع الصهيوني وتطرح بديلا له ، مشروع الدولة الديمقراطية العلمانية ·

الظاهرة الرابعة : على عكس الظاهرة الثالثة تكشف عن اكتساب موجة الجزر عناصر قوة جديدة سواء بطريق مباشر او غير مباشر وتتركز اساسا في خمس نقـاط ٠

الاولى : غياب « جمال عبد الناصر » الشخصية القيادية التاريخية ذات الثقل القومي ، القادرة ، في ظروف تضخم دور الفرد التاريخي ، على تجميع القوى التقدمية نحو اتجاه موحد ، في لحظات الخطر العام وذلك مهما كانت الخلافات بينها وبين الآخرين ٠ او ملاحظاتها النقدية على قيادته ٠

الثانية : تحول الظاهرة البترولية العربية ، بطاقاتها وفوائضها الماليـــة الضخمة ، الى رصيد قوة للجانب التقليدي والمحافظ من النظم العربية والمتحالف مع الولايات المتحدة ٠

الثالثة : قيام حركات رفض ذات طابع سلبي في داخـل الثـورة الوطنيـة الديمقراطية ٠ وعلى الرغم من طبيعتها التقدمية فانها لم تستجب لمحاولات القوى التقدمية الغالبة للاتفاق على برنامج عمل في اطار استراتيجية واحدة وتكتيكات مرنة متعددة ٠ الامر الذي اضعف موضوعيا من قوى الصدام التقدمية ككل مع موجة الجزر ٠

الرابعة : استمرار الصراعات الذاتية بين قيادات واحزاب القوى التقدميـة سواء على الاستئثار المطلق بالسلطة او القيادة ، وتحويـل الآخريـن الى كـم تابع ٠ الامر الذي احدث انتهاكات خطيرة لحقوق الانسان العـربي وحرياتـه وحقوقه الديمقراطية ، واضعف بالتالي من حصانة وحيوية الحركة الجماهيرية ٠ وصادر ، في احيان عديدة ، مبادراتها على التصدي والفعـل المؤثر الطويـل النفـس ٠

الخامسة : تبلور مصالح امريكية مركزية في العالم العربي منذ السبعينيات ، على اساس استراتيجيتها الخاصة بالطاقة حتى نهاية القرن ، ذات طابع مستقل ، واحيانا متناقضة ، بدرجات متباينة مع مجموعة المصالح التقليدية الامريكية ـ الاسرائيلية المشتركة ٠ الامر الذي اتاح للولايات المتحدة ان تبدو « بوجه صديق » في المنطقة يختلف عن وجهها العدائي المعروف في الخمسـينات والسـتينات ، المنحاز بصراحة لاسرائيل ٠ الامر الذي يسهل على القوى المحافظة الرجعيـة « بيع امريكا الجديدة » الى الجماهير العربية ، على اساس ان « هذه الامريكا » هي احد انجازاتها الكبرى لخدمة القضية القومية ٠

ـ ١٧ ـ

الظاهرة الخامسة : تتصل بتزايد وزن ومواقع الاجنحة اليمينية في الثورة الوطنية الديمقراطية في الوضع الراهن · وذلك نتيجة عوامل عديدة تأتي في مقدمتها قيام تناقضات بين مسار الثورة بآفاقها الاشتراكية وبين مصالح هذه الاجنحة اليمينية ، بعد صعودها الطبقي من مرتبة البرجوازية الصغيرة الى مرتبة البرجوازية المتوسطة من خلال تمركزها في السلطة وتوثيق علاقاتها مع البيروقراطية والرأسمالية الطفيلية واغنياء الريف · وساعد على تهيئة المناخ المواتي لذلك ، تفاقم الانقسامات بين القوى التقدمية · بالاضافة الى ضغوط التهديد واغراءات الثراء ، التي راحت تتعرض لها من الاستعمار الجديد والرجعية البترولية ، العناصر المحيطة بالقيادات المتذبذبة التي تسيطر على مراكز حساسة في الابنية الفوقية من النظم الوطنية التقدمية ، او تتولى مهمات رئيسية داخل احزاب وتنظيمات تقدمية ·

ـ ١٨ ـ

الظاهرة السادسة : حديثة الظهور ، بل لعلها ما تزال بمرحلة التبلور · ذلك ان ما تعبر عنه من « واقع » ما برح في طور التكوين الجنيني ، ويتعرض لعمليات تجريب متعددة · ونعني بهذه الظاهرة محاولة قوى موجة الجزر ، وخاصة الصهيونية منها ، القيام بما يمكن ان نطلق عليه اسم « صهينة العصر العربي الراهن » · بمعنى خلق ظروف جديدة في المنطقة من شأنها ان تجعل مفتاح « الحل الممكن » لازمة المنطقة وحروبها الدامية وصراعاتها المتعددة ، ليس في افشال او حتى ايقاف الاتجاه التوسعي للمشروع الصهيوني المجسد منذ عام ١٩٤٨ في اسرائيل · وانما على العكس ، هو في تعميمه على مستوى العالم العربي · اي في تحويله من مجرد حالة استثنائية خاصة باليهود الى قاعدة عامة تشمل جميع المسيحيين والمسلمين على اختلاف مذاهبهم في المنطقة · بمعنى ان ينقسم العالم العربي الى دويلات صغيرة ، تقوم كل منها على اساس تجمع طائفي ديني محدد · وقد طرح بالفعل ، على المستوى النظري والتطبيقي ، مشروع بناء « وطن قومي للمسيحيين الموارنة » في لبنان خلال الحرب الاهلية · ويقوم الانعزاليون اللبنانيون اليوم ، بممارسات متعددة لوضع اسس هذا الوطن القومي المسيحي مستقلا بشعبه وابنيته الاقتصادية والسياسية والعسكرية ومرافقه وعلاقاته الدولية · وفي هذا المجال تقوم اسرائيل ، علنا ، بمد قادة المشروع الصهيوني المسيحي في لبنان بالخبرة الفنية والدعم المادي والعسكري ·

ويتردد في الوقت نفسه ، ولكن بدرجة اقل ، طرح مشروعات « متصهينة » اخرى مشابهة خاصة بطوائف مسيحية او مسلمة اخرى في بلدان عربية اخرى ·

ومن الواضح ان موجة الجزر اتخذت هذا الاتجاه ، في البداية ، كنوع من التهديد العام للقومية العربية · ولكنها ما لبثت ان تبنته كخط استراتيجي مع اشتعال نيران الحرب الاهلية في لبنان ، واغراق العالم العربي في بحر الصراعات الدينية والطائفية ، ونشوء قوى طائفية انعزالية مسلحة قادرة على الحركة الارهابية ، وتلقى سندا ودعما من القوى الرجعية والمحافظة في العالم العربي في حربها ضد القوى التقدمية العربية والثورة الفلسطينية ·

ان القوى العاملة . وراء هذه الظاهرة ، تنطلق من زاوية محددة وهي انه اذا كان العصر الراهن في المنطقة وفي العالم ، هو عصر البترول ، وكانت القوة العربية البترولية المؤثرة واقعة آنيا تحت سيطرة العناصر المحافظة والرجعية في العالم العربي ، الا ان هذه السيطرة مهددة بالزوال بفعل عوامل التعرية الاجتماعية والسياسية في المنطقة · وبالتالي فانه لضمان استمرار هذه السيطرة ، دون ان تستوعبها كليا او جزئيا ، حركة القوى التقدمية العربية ، يتوجب « صهينة » العصر البترولي في العالم العربي ، واجراء ما يتطلبه ذلك من عمليات جراحية في خريطة المنطقة ·

ـ ١٩ ـ

الظاهرة السابعة : تتجلى في كون منطقة الشرق الاوسط بغالبيتها العربية ، في الوضع الراهن ، تشكل بصراعاتها الساخنة المتعددة وموقعها الاستراتيجي وطاقاتها البترولية ، بؤرة الخطر الدولي العام في الربع الاخير من القرن العشرين · ولعل هذه السنوات الاخيرة من القرن ، هي في الوقت نفسه ، الوعاء الزمني الذي يتخلق داخله وسط تناقضات ضارية ومعقدة ، جنين نظام عالمي جديد : اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وتكنولوجيا · الامر الذي يرشح المنطقة لان تكون « الساحة التاريخية في عصر الانفراج الدولي القلق » التي يتقرر فوقها مصير قضايا انسانية كلية · ومن هنا تبرز المسؤولية القومية والدولية ، التي تتحملها بالضرورة ، القوى التقدمية العربية في تحديد اتجاه حركتها واختيار تحالفاتها العالمية ·

بمعنى انه أيا كانت ما تعانيه هذه القوى من صعوبات قاسية في وضعها الراهن ، فانه بقدر طاقاتها على الصمود لموجة الجزر ومواصلة السير لانجاز مهام ثورتها الوطنية الديمقراطية ، بقدر ما تنجذب الى صفوفها ـ مع تراكم الوقت والاحداث ـ قوى التقدم والحرية والانسانية التقدمية في العالم · الامر الذي يحول معركتها في النهاية من معركة اقليمية ، قواتها فيها محاصرة تلتزم حدود الدفاع ، الى معركة عالمية رحبة تنتقل فيها الى مواقع الهجوم ·

ـ ٢٠ ـ

على ضوء هذه الظواهر السبع الرئيسية التي تحكم طبيعة الوضع الراهن للقوى التقدمية العربية ، نستطيع ان نحدد سمات هذا الوضع في الخطوط الثلاثة التاليـة :

الخط الاول : الوضع الراهن في الواقع العربي هو انعكاس للوضع الراهن في العالم الثالث الذي بدأ انكسار موجة المد الثوري فيه مع عام ٦٦ ـ ١٩٦٧ · وبالتالي فانه بقدر ما توثق القوى التقدمية العربية صلاتها النضالية من جديد بالقوى التقدمية فـي العالم الثالث وفي الانسانيـة التقدمية ككـل ، وتمارس مسؤولياتها الدولية في اتجاه بناء النظام الدولي الجديد ، بقدر ما تتمكن من قهر موجة الجزر الراهنة واستعادة زمام المبادرة ·

الخط الثاني : بروز نوعيات جديدة من التحديات غير المسبوقة تاريخيا ، في وجه الحركة التقدمية العربية · وذلك بفعل التداخلات المعقدة التي تقع بدرجات متفاوتة في الوضع الراهن ، بين مصالح القوى النفطية ذات الهيمنة فـي « العصر البترولي » بالتحالف مع الاجنحة اليمينية المتصاعدة في الثورة الوطنية الديمقراطية ، وبين مصالح قوى « العصر الصهيوني » ، القائمة والمحتملة في المنطقـة ·

الخط الثالث : التتابع السريع الايقاع لموجات الجزر والمد الجزئية في اطار موجة الجزر العامة والموقف الدفاعي للقوى التقدمية ، عصف بالاستقرار الكلي للوضع الراهن · واوقعه بصفة دائمة تحت ضغوط عديدة ومتنافرة · وقد أتاح هذا الوضع ـ وما يزال ـ للقوى الجانبية والهامشية من كل الاتجاهات حريـة حركة واسعة تثير العديد من المفاجآت غير المحسوبة ، ازاء القوى الرئيسيـة المتصارعة في الساحة ، وخاصة التقدمية منها · الامر الذي يثقل كاهلها بمزيد من الاعباء · وذلك الى درجة تتخطى حدود الامكانيات الفعلية ، جهدا ووقتا · حتى لتصل بها في بعض الاحيان الى وضع قريب من « محلك سر » · بل والى التقوقع والانكفاء ·

ـ ٢١ ـ

هذه الرؤية الجدلية لحركة القوى التقدمية العربية ، بظواهرها العامـة وخطوطها المميزة ، في خضم الصراعات الهادرة بالمنطقة تبلور ـ في تقديرنا ـ خمسة وجوه خاصة ، تتسم بها الازمة التاريخية التي بلغتها هذه القوى فـي الوضع الراهن ، بعد صعود فئاتها البرجوازية الصغيرة الى السلطة والقيادة · واتخاذها لمجموعة الاجراءات والمواقف التقدمية الشهيرة في الخمسينات واوائل

الستينات ، ضد الاستعمار والاقطاع والرأسمالية الكبيرة والقوى الرجعية عامة ·

ـ ٢٢ ـ

الوجه الاول : يتصل بالتكوين الذاتي للقوى التقدمية · والذي جـــاء ـ بالضرورة ـ نتاجا لنوعية التركيب الاقتصادي والاجتماعي للواقع العـربي المتخلف الذي ما برح يغلب عليه طابع الانتاج الزراعي · وتتحكم فيه ثقافـة تقليدية غيبية اسنة تمتزج برواسب ثقافة استعمارية · ويتعاظم فيه ، بعـد الاستقلال ، حجم ودور البرجوازية الصغيرة في الثورة الوطنية الديمقراطيـة وخاصة بعد تسلحها بجهاز الجيش ، ثم وفاقها مع البيروقراطية واحيانا مـع اغنياء الريف الجدد بدرجات متباينة ·

وقد انعكس هذا ، بقدر او بآخر ، على غالبية احزاب وتنظيمات القـوى التقدمية في سلسلة من الانقسامات والانشقاقات المستمرة · واغراق قياداتها في تناقض دراسي بين نزوعها التحرري التقدمي ـ على الصعيد الفردي ـ وبين وقوعها ـ على صعيد السلطة وصنع القرار ـ سجينة الافق البرجوازي الضيق· وتوالي عمليات التصفية الفردية في القمة بين القيادات ، كوسيلة لحسم او كبت الصراعات الاجتماعية والسياسية · وتضخم دور الفرد القائد على حسـاب الحركة الجماهيرية المنظمة والفعالة ، ودور البيروقراطي بولائه لشخص القائد على دور المناضل بولائه الموضوعي لحركة التقدم · وايثار الامن البوليسي على الامن السياسي في المجتمع والحزب والتنظيم · بما يتولـد عن ذلك من انتهاكات للديمقراطية على مختلف المستويات· ومقاومة انطلاق وصعود الطبقات الشعبية وقيمها الثورية في المجتمع الى مستوى المشاركة في القرار وتحـديد اتجاهه · وافراغ التحالف معها من مضمونه الاجتماعي ومناخه الديمقراطي · وذلك بفبركة طبقة فلاحية من برجوازيي الريف الصغار بديلا عن طبقة فقـراء الفلاحين الحقيقية ، وطبقة عاملة من برجوازيي المدينة الصغار ، بديلا عن الطبقة العاملة الحقيقية · وذلك بمعايير قانونية علوية لا اجتماعية سياسية · الامـر الذي تنامت معه الاتجاهات السلبية وسط الجماهير الشعبية ، وتعمقت عزلة النظام او الحزب او التنظيم عن القواعد الاجتماعية الضرورية لاستمرار حركة التقدم في تطورها التاريخي ·

وهنا تكمن نقطة الضعف الجوهرية في التكوين الذاتي للقوى التقدمية فـي وضعها الراهن ، نظما واحزابا · حيث انها ظلت في الغالب ، اسيرة التجمع والحركة من حول محور البرجوازية الصغيرة ومثقفيها، وهو محور كان ضروريا للتقدم عند الانطلاق في الخمسينات وحتى اواسط الستينات · لكنه فقد الجانب الرئيسي من تقدميته وقدرته على النضال والعطاء منذ عام الانكسار ٦٦ـ١٩٦٧· وهكذا ، مع اواسط الستينات ، وصلت حركة القوى التقدمية العربية ، تحت

القيادة المنفردة للبرجوازية الصغيرة وما تراكم داخلها من بيروقراطية عسكرية ومدنية ، الى حد خطير من التفكك والصراع العلني او المكتوم بين فصائلها، على المستوى الاقليمي والمستوى القومي على السواء · واهدار المناخ غير الديمقراطي الذي ساد ، امكانيات المشاركة الايجابية من الجماهير التي تزايد ارتدادها نحو السلبية · بحيث انه لم يعد متوافرا الحد الادنى الضروري من قوة جماهيرية منظمة قادرة على حماية ما نشأ من نظم تقدمية او ما تم احرازه خلال مسار الثورة الوطنية الديمقراطية من مكاسب وانجازات ·

من هنا ، يطرح هذا الوجه من وجوه الازمة بالحاح ، على الحركة التقدمية المعاصرة ، منذ عام الانكسار في ٦٦ ـ ١٩٦٧ ، قضية القيادة البديلة · ونعني بها قضية التغيير ، المطلوب تاريخيا ، في التكوين الذاتي للقوى التقدمية ومحور تجمعها وآفاق قيادتها وصياغات واساليب حركتها ·

الوجه الثاني : يرتبط بالازدياد المضطرد في وزن الاجنحة اليمينية في الثورة الوطنية الديمقراطية ، داخل السلطة وخارجها · حيث بلغ هذا الازدياد ـ في الوضع الراهن ـ حدا تمكنت معه الاجنحة اليمينية ، في عدد من المواقع الاستراتيجية ، من السيطرة على زمام القيادة الفعلية · ومن سلب الاجنحة التقدمية قدرتها على الفعل المؤثر ، ودفعها الى مأزق العجز النسبي الخطير ·

والملاحظ ان الاجنحة اليمينية ظلت تتخلق في الاجواء غير الديمقراطية التي عانت منها حركة القوى التقدمية ، وتقتات من سلبياتها ، حتى اذا ما وقعت هزيمة ١٩٦٧ ، أسفرت عن نفسها وشرعت تعمل بلا هوادة للاستئثار بالسلطة والقيادة او على الاقل اخضاعها لنفوذها وهيمنتها · وبلغت الذروة غداة حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما تحقق فيها بفضل المقاتل العربي الذي اعدته وكونته القوى التقدمية ، من مكاسب تكتيكية في صالح العرب لاول مرة في تاريخ صراعهم مع اسرائيل ·

وصاغت الاجنحة اليمينية ، نظريتها التي تقول بأن هزيمة ١٩٦٧ هي من صنع القوى التقدمية وحركتها الالحادية ذات الافاق الاشتراكية المادية الدكتاتورية والصداقة مع الاتحاد السوفييتي · في حين ان انتصار ١٩٧٣ هو من صنعها ، ووفق خطها الذي يرفع شعارات العودة الى اشتراكية مؤمنة وتضامن عربي اسلامي لا قومي والانفتاح على العالم الرأسمالي واقامة توازن تنافسي بين القطاع العام والقطاع الخاص تغلفه حياة ديمقراطية في اطار دستور من وضعها ·

ولقد ساعد على نمو هذه الاجنحة اليمينية ، فضلا عن سلبيات الحركة التقدمية ، مجموعة من العوامل والظروف الموضوعية · مثل وجود علاقات

تاريخية كامنة بين بعض عناصر هذه الاجنحة وبين قوى الاستعمار الجديد ذات المصالح الحيوية بالمنطقة ، واكتساب « الطبقة الجديدة » التي تولدت في احضان سلطة وقيادة البرجوازية الصغيرة للثورة الوطنية الديمقراطية ، نفوذا بيروقراطيا مؤثرا · وتراكم الثروات لديها من خلال استجلاب القطاع العام وعمليات المضاربات والاستيراد والتصدير والاتجار غير المشروع والرشوة وذلك الى حد تعدي حدود البذخ والانفاق الترفي الى ادراك المصلحة في الضغط من أجل تقرير وحماية حريتها في استثمار رأسمالها ·

ومع تشابك العلاقات المصلحية والاجتماعية والاسرية للطبقة الجديدة مع قوى البيروقراطية واغنياء الريف الجدد والعناصر الرجعية القديمة ، تخلقت ، اجتماعيا واقتصاديا ، شريحة من الرأسمالية الطفيلية الشرهة الى الثراء الفاحش تسلقت جسد الاقتصاد الوطني وسلبت عافيته في صورة عمولات ومضاربات ومشاريع وهمية او استهلاكية غير منتجة · والحقت بذلك الضرر بمجمل عملية التنمية والاستقلال الاقتصادي والمواجهة المخططة للتخلف وراحت تلتهم ليس فقط مكاسب وحقوق الجماهير العاملة بل مصالح وفرص حياة البرجوازية المنتجة المستنيرة · وتدعم هذا كله ، بالتحرك النشط « للظاهرة البترولية العربية » بهيمنتها المالية والسياسية في الواقع العربي ، وخاصة بعد تضاعف قوتها منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ ·

واللافت للانتباه ان الاجنحة اليمينية تستمر في ممارسة نشاطها تحت نفس الرايات والشعارات العامة لحركة القوى التقدمية ومسار الثورة الوطنية الديمقراطية وخاصة فيما يتعلق بالآفاق الاشتراكية والوحدة العربية والقضية الفلسطينية ، ولكن بمضمون مغاير تماما · من هنا يطرح هذا الوجه من وجوه الازمة ، على الحركة التقدمية المعاصرة قضية اعادة تحديد دقيق لطبيعة المرحلة الاجتماعية القومية الراهنة من الثورة الوطنية الديمقراطية وقواها واهدافها المحددة · وما يتصل بذلك من بناء الجبهات الضيقة والواسعة للنضال على طول المدى في هذه المرحلة ·

الوجه الثالث : يتعلق بذلك الاعصار البترولي العاتي ، ماديا وسياسيا ، الذي تتحكم في مساره واتجاهه على نحو مركز منذ السبعينيات ، مجموعة القوى الاكثر محافظة او رجعية في الواقع العربي · الامر الذي اختلت معه موازين القوى التي كانت قائمة ، حتى الستينات في العالم العربي ، بين قوى التقدم وبين القوى المحافظة والرجعية بصفة عامة · وساعد على ذلك مجموعة من العوامل الذاتية (سقوط عبد الناصر) والعوامل الموضوعية (غياب الدور التقدمي المركزي لمصر في الساحة العربية ، اشتداد حدة الازمات

الاقتصادية بدرجات متباينة في النظم التقدمية ، محاصرة الثورة الفلسطينية ومحاولة استنزاف قواها) · وقد رافق هذا الاختلال في موازين القوى ، تعقيدات شتى · ففي الوقت الذي تشكل فيه القوى العربية البترولية جبهة هجومية مقتدرة ضد حركة القوى التقدمية ، فان هذه القوى البترولية لا غنى عنها ، قوميا ومن وجهة النظر التقدمية ، في المعركة ضد الاحتلال الاسرائيلي والتوسع الصهيوني وفي اي محاولة جادة لتنفيذ خطة تنمية شاملة ومتكاملة نسبيا في العالم العربي ، تتطلبها مصالح الجميع الحيوية ، بغض النظر عن الاتجاهات السياسية والاجتماعية ·

وهكذا لم يعد من الممكن ، واقعيا ، التعامل المبسط الاحادي الجانب مع القوى العربية البترولية على اساس طابعها الرجعي او المحافظ وحسب · بل اصبح الوضع الراهن يواجه معطيات سلبية وايجابية في وقت واحد للظاهرة البترولية · وبالتالي فبقدر ما تحتمه المعطيات السلبية من صراعات ، بقدر ما تفرض المعطيات الايجابية ضرورة ارساء حد ادنى من التنسيق والتعايش حول المصالح القومية الجوهرية المشتركة · من هنا يطرح هذا الوجه من وجوه الازمة على الحركة التقدمية المعاصرة ، قضية التوصل الى صياغة جديدة وممكنة واقعيا للتعامل مع الظاهرة البترولية العربية بوجهيها الايجابي والسلبي ، بحيث تتسع للصراع والتعايش معا ·

بمعنى ان السؤال المركزي في هذه القضية هو : كيف يمكن ان يتواصل الصراع الاجتماعي السياسي في الوضع الراهن للعالم العربي ، دون ان يصادر ذلك القدر اللازم تاريخيا من التعايش قوميا بين جميع الاطراف العربية المتصارعة ؟

الوجه الرابع : يتجسد في العلاقة ذات التأثير المتبادل بين الوضع العربي والوضع الدولي · صحيح ان هذه العلاقة لم تعد مفتقدة بين الوضع الدولي وبين وضع اي واقع اقليمي ، ايا كان موقعه او حجمه على خريطة العالم · ولكن العلاقة العربية الدولية بالذات ظلت تتمتع ، تاريخيا ، باهمية غير عادية ، واخذت هذه الاهمية تتضاعف دوما منذ تفجر ثورة اكتوبر في روسيا القيصرية وقيام الاتحاد السوفيتي عام ١٩١٧ عند بطن الجسد العربي ثم قيام مجموعة البلاد الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية · وما تولد بعد ذلك من سياسات عالمية متتابعة ، من حافة الحرب الى الحرب الباردة الى بدايات الانفراج الدولي · وكان لها ـ بالتالي ـ تأثيرها على الوضع العربي ، كما كان للوضع العربي ـ بدوره ـ عامل من عوامل التأثير في هذه السياسات العالمية · وتميزت مصر بالذات بمركز خاص في هذه العلاقة العربية والدولية · وذلك بحكم ان

عدم انحيازها او انحيازها ـ قهرا او اختيارا ـ لسياسة من السياسات او لكتلة من الكتل المتصارعة كان له حسابه في موازين العلاقات الدولية (مصر محمد على في القرن التاسع عشر وحركة موازين القوى العالمية بين الامبراطورية العثمانية وامبراطوريات الاستعمار الاوروبي القديم · ومصر جمال عبد الناصر في القرن العشرين وحركة موازين القوى العالمية بين العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي عامة وبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي خاصة) · وباختصار فان العلاقة العربية البترولية . يحكمها اليوم . الموقع الجغرافي الاستراتيجي للعالم العربي ، ووزنه المؤثر . سلبا او ايجابا . في حركة التحرر العالمي والعالم الثالث والتحول الانساني العام نحو الاشتراكية بطريق او بآخر · فضلا عن كونه في ذات الوقت ساحة صراع من نوع فريد عالميا وهو الصراع العربي الاسرائيلي ، ومصدرا اساسيا من مصادر الطاقة البترولية في العالم وخاصة بالنسبة لاوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة ·

لهذا كان الحرص من جانب كل قوة من القوى العظمى العالمية في كل عصر، على ضمان وجود العالم العربي في كفة ميزان علاقاتها وصراعاتها الدولية · او على الاقل ضمان استقلاله او حياده · وذلك وفقا لطبيعة وسياسة وظروف كل قوة عظمى ·

ومنذ الخمسينات اخذت غالبية القوى التقدمية الاساسية في العالم العربي تقود شعبها في صدام جذري مع العالم الرأسمالي ، وتقترب من العالم الاشتراكي ولكن من موقع الحياد وعدم الانحياز · وظل هذا الخط يتصاعد الى درجة العداء العام لامريكا من ناحية والصداقة العامة مع الاتحاد السوفيتي من ناحية اخرى · بيد انه منذ السبعينيات وعلى اثر التغييرات التي وقعت في العالم العربي عامة ومصر خاصة تحول العداء لامريكا الى صداقة عامة وتحولت الصداقة مع الاتحاد السوفيتي الى عداء او تباعد عام ·

وتواكب هذا التحول مع خط معاكس دوليا اذ اخذ الوفاق الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يحل محل الحرب الباردة وينتشر بمناخه في العالم كله · ويسهم في حل او بلورة مشروعات حلول ممكنة للعديد من المشاكل الدولية المستعصية المتخلفة من عصر الحرب الباردة واخر مراحل الغزو الاستعماري المباشر كمشكلة كوبا وفيتنام والدولتين الالمانيتين والامن الاوروبي الخ ·· غير ان المنطقة العربية بقيت بصراعاتها ومركزها الاستراتيجي ووزنها البترولي اقرب الى ان تكون ساحة من ساحات الحرب الباردة منها الى ساحة من ساحات الوفاق الدولي · وغدت بالتالي الميدان المرشح تاريخيا للمعركة الفاصلة بين بقايا الحرب الباردة وطلائع الانفراج الدولي والتعايش السلمي ، وبين الاستعمار الجديد بوسائله العصرية المتجددة وبين حركة التحرر العالمية والنزوع الانساني العام نحو الاشتراكية ، بين

مستهلكي البترول من الدول الصناعية المتقدمة وبين منتجي البترول والمواد الخام من الدول الصناعية النامية · بين الغني وبين الفقر على مستوى العالم المعاصر · بين النظام الاقتصادي الدولي الراهن وبين الطموح الى نظام جديد اكثر عدلا ·

من هنا يطرح هذا الوجه من وجوه الازمة على الحركة التقدمية العربية المعاصرة ، قضية تحديد مواقفها وعلاقاتها الدولية في اطار هذه المرحلة الانتقالية العالمية ذات الحساسية الشديدة والتي يستحيل معها ـ موضوعيا ـ تجاهل اي من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . رغم اختلاف الطبيعة السياسية والاجتماعية والايديولوجية لكل منها كقوة عظمى ·

ـ ٢٥ ـ

الوجه الخامس : يتحدد في انه على الرغم من ان ما حدث من تغييرات ذاتية وموضوعية في علاقات القوى المتصارعة في العالم العربي منذ عام الانكسار في ٦٦ ـ١٩٦٧ لم يكن ـ بصفة عامة ـ في صالح الحركة التقدمية ، الا ان الملاحظ ان هذا التغيير لم يتحول بكامله لحساب قوى الامبريالية والاستعمار الجديد والصهيونية والرجعية · بحيث يمكنها من حسم الصراع لصالحها استراتيجيا ، ومظهر ذلك ، فشل محاولاتها المتكررة في هذا الشأن في اكثر من موقع والتي حشدت فيها كل قواها الرئيسية والاحتياطية ·

وكشفت حركة الاحداث عن حقيقة اساسية · وهي انه اذا كانت القوى التقدمية قد فقدت ، في الوضع الراهن ، القدرة على فرض قانونها وارادتها على حركة الصراع ، الا انها ظلت تملك القدرة على منع الآخرين من فرض قانونهم وارادتهم على نحو مستقر وآمن · ويعني هذا ، بالتحديد ، ان الصراع في واقعه الراهن ومستقبله المنظور ، اصبح يدور موضوعيا ـ على مستوى تكتيكي لا استراتيجي ـ ، من حول محاولة كل طرف من الاطراف تحقيق الحدود الدنيا من اهدافه وحسب · ليتخذ بعد ذلك منها ، قاعدة انطلاق نحو غاياته الاستراتيجية · بتعبير آخر ، فان القانون الذي يحكم حركة هذا الصراع في الوضع الراهن هو قانون التغييرات الكمية لا الكيفية ·

من هنا يطرح هذا الوجه من وجوه الازمة على الحركة التقدمية العربية المعاصرة ، قضية بلورة برنامجها الواقعي للوضع الراهن ومستقبله المنظور على اساس انجاز مجموعة التغييرات الكمية اللازمة لايقاف موجة الجزر العامة والتحرر من خناق الازمة ·

ـ ٢٦ ـ

ادام ما تطرحه الوجوه الخمسة لازمة الجزر العامة ، من مهام في المرحلة

الراهنة بمستقبلها المنظور ، نسمح لانفسنا بان نعرض للنقاش بعض النقاط التي نتصور صلاحيتها كمفاتيح للعمل الثوري في هذا المجال · مسترشدين بالقاعدة الاصولية ، المجربة تاريخيا ، والتي تؤكد على ان العمل الثوري ليس في التناطح المغامر مع المستحيل · وانما هو ، اساسا ، فن تحقيق الممكن والانطلاق منه لتطويع المستحيل ·

وآخذين في الاعتبار ، ان مهام الحركة التقدمية في مرحلة الجزر ، التي استطالت زمنيا الى مدى غير عادي ، دون ان يقدر اي من الاطراف ، سواء بقواه الذاتية او من خلال تحالفاته المحلية والدولية ، على حسم صراعاتها استراتيجيا ، تقع ـ اساسا ـ في دائرة التغييرات الكمية لا التغييرات الكيفية· وهي الدائرة والتي ما زال يحكمها التذبذب غير المستقر في موازين القوى ومناخ الانفراج الدولي المتقلب ·

وكمثال لتوضيح ما نقصده ، نقول ان ما يجري منذ عام الانكسار في ٦٦ ـ ١٩٦٧ حتى اليوم ، من حول ما يسمى « بازمة الشرق الاوسط » ، لم يحقق حسما استراتيجيا للصراع ، لصالح اي من اطراف الصراع رغم المحاولات المتكررة والمتعددة الاشكال · ذلك ان القوى التقدمية العربية لم تبلغ حد الضعف الذي يمكن معه ان تسحق · كما ان قوى الامبريالية والاستعمار الجديد والرجعية المحلية لم تصل الى حد القوة التي يمكن لها معه ان تسيطر بلا منازع · ولهذا لم يحسم الصراع لصالح اسرائيل والولايات المتحدة بعد حرب الايام الستة في ١٩٦٧ · ولم يحسم ـ ايضا ـ لصالح العرب عامة بما في ذلك القوى التقدمية والمقاومة الفلسطينية ولصالح الاتحاد السوفيتي بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ · ولم يحسم ، كذلك ، لصالح قوى عصر البترول العربي او قوى العصر الصهيوني وحربها الاهلية في لبنان رغم تحالفهما المشترك مع الولايات المتحدة التي غدت تقوم بدور « الحكم » بين الاطراف ، منذ صعود الرئيس كارتر الى البيت الابيض عام ١٩٧٧ ·

واذا كان هذا الحسم الاستراتيجي ، الذي يغير كيفيا من الوضع الراهن ، ما زالت الظروف الموضوعية غير ناضجة له من ناحية ·· وما زال ، من ناحية اخرى ، فوق القدرة الذاتية لجميع الاطراف سواء بحرب عدوانية ماحقة من جانب ، او بحرب تحرير شاملة من الجانب الاخر ، فليس معنى هذا توقف الصراع او تجمده · وانما هو يتيح امام الاطراف ، بدرجات متفاوتة من وضوح الرؤية ، المجال لحسومات تكتيكية حول جزئيات وتفصيلات متعددة · منها ما يتخذ الطابع العسكري ، مثل العمليات الفدائية واشعال حرب اهلية في لبنان · ومنها ما يتخذ الطابع السياسي ، مثل النشاط السياسي الدولي حول ما يسمى بالتسوية والحل السياسي لازمة الشرق الاوسط ·

والملاحظ ان القوى التقدمية العربية ، ظلت في غالبيتها لا تتأخر او تستنكف

خوض معارك الحسومات التكتيكية ذات الطابع العسكري · في حين انها تتردد وتتعفف بصفة عامة عن خوض الحسومات التكتيكية ذات الطابع السياسي ·

وفي تقديرنا ان هذا يكشف عن قصور في النظرة وفي القدرة على ادارة الصراع بشمول وثورية والتعامل مع الواقع الحي بغباره واوحاله وتعقيداته المختلفة · والواقع الحي هو الواقع الكائن خارج الذات الثورية · وليس هو الواقع المتصور داخل الذات الثورية · والواقع الحي لا ينفصل فيه الطابع العسكري عن الطابع السياسي للصراع · سواء في مستواه التكتيكي او في مستواه الاستراتيجي · وبالتالي فان تجاهل ما يسمى « بالتسوية والحل السلمي » أو العزوف عن التعامل الثوري معه لا يلغي وجوده الحركي . ولا يفشل المخططات الاستعمارية والرجعية تلقائيا · خاصة وان القوى المعادية لا يفتر لها جهد في هذا السبيل ، بالتعاون مع الاجنحة اليمينية في الثورة الوطنية الديمقراطية العربية ·

غير انه يبدو ان الخبرات المتجمعة من تجارب حرب اكتوبر ٧٣ وما تداعى عنها من تحركات سياسية واتفاقيات فصل القوات في سيناء والجولان ، ومن تجارب الحرب الاهلية اللبنانية وما صاحبها ايضا من تحركات سياسية وعسكرية مختلفة وخاصة فيما يتعلق بالجنوب اللبناني ، قد انضجت الى حد ملموس النظرة الفكرية والممارسة العملية للصراع لدى القوى التقدمية العربية عامة والمقاومة الفلسطينية خاصة ·

ومن هنا نرى اقدامها المتنامي على اقتحام ميدان التسوية والحل السلمي في مواجهة القوى المعادية بهدف احراز بعض الحسم التكتيكي لعدد من الجزئيات والتفصيلات ، في اطار الافق الاستراتيجي البعيد المدى · وهكذا افرز الواقع الراهن ـ اخيرا ـ حركة متميزة للقوى التقدمية العربية وخاصة الفلسطينية في مواجهة حركات الاطراف الاخرى على ارض « لتسوية والحل السلمي » · حيث تركز جهدها على احداث مجموعة من التغييرات الكمية في الواقع الحي ، تستهدف تحصين وتقوية مواقعها ازاء مواقع الاخرين وما يحققونه بالفعل من تغييرات كمية مضادة ·

يتجسد ذلك ـ على سبيل المثال ـ في تحرك المقاومة الفلسطينية المحاصرة على الارض العربية ـ محليا ودوليا ـ للحصول على « ارض خاصة بها » عن طريق اقامة الدولة المستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة · وذلك في مواجهة تحرك اسرائيل لتأمين حدودها مع دول المواجهة العربية ضد اختراق الثورة الفلسطينية · فضلا عن الحصول على ارض خاصة بها في جنوب لبنان عن طريق التحالف مع القوى الانعزالية ·

ان هذا النوع من « التحرك التكتيكي » لا يعني ان ايا من اسرائيل او

المقاومة الفلسطينية قد تنازل عن هدفه الاستراتيجي في مواجهة الاخر · وانما يعني ـ بالدقة ـ ان كل طرف يتحرك ، في حدود امكانياته الفعلية وحقيقة علاقات القوى القائمة ، نحو الاقتراب من الهدف الاستراتيجي ويعمل على توفير الظروف المناسبة له للتغيير الكيفي · وبقدر ما ينجح احدهما اكثر من الاخر ، في الاقتراب وترسيخ اقدامه في الموقع الجديد بقدر ما يزيد من طاقته ويعدل من ميزان القوى لصالحه ·

ـ ٢٧ ـ

في ضوء هذا الفهم ، لمرحلة التغييرات الكمية الراهنة ، تتحدد في تقديرنا، المفاتيح الاربعة التالية ـ للعمل الثوري المنوط بحركة القوى التقدمية العربية للخروج من الازمة ·

المفتاح الاول : التصدي لمشاكل وسلبيات التكوين الذاتي للقوى التقدمية الراهنة ومحور تجمعها وافاق قياداتها وصياغات وأساليب حركتها · ونقطة البدء في هذا التصدي تنطلق من ادراك انتهاء الدور التاريخي الثوري للبر جوازية الصغيرة كطليعة للقوى التقدمية العربية وكمحور لتجمعها ، وذلك منذ هزيمة ١٩٦٧ وهو الدور الذي انبثق في الخمسينيات مع ثورة يوليو ١٩٥٢ · واخذ في الارتداد والتراجع مع بروز الطبقة الجديدة ببيروقراطيتها المدنية ـ العسكرية ورأسماليتها الطفيلية وتمكين الاجنحة اليمينية من السلطة والقيادة · وتفاقم العجز عن الاستمرار في عملية التنمية والتقدم الاجتماعي وحماية الاستقلال الاقتصادي ازاء الهجمة الحديثة للاستعمار الجديد او طرح الحلول الجذرية ذات النفس الطويل والنظرة الشاملة لمشاكل احتلال الارض والديمقراطية والوحدة العربية ·

واذا كان هذا لا يتطلب ـ موضوعيا ـ اقصاء الفئات التقدمية من البرجوازية الصغيرة من تجمع القوى التقدمية ، الا انه اصبح يستلزم العمل على تنحيتها عن ان تكون بمثقفيها ، محور التجمع · وهذا يعني ضرورة العمل على بناء المحور الجديد من حول العمال وخاصة عمال القطاع العام والفلاحين الفقراء وخاصة التعاونيين منهم ومثقفيهم · وهذه عملية ، فكرية وسياسية اجتماعية ، على قدر كبير من الصعوبة والتعقيد ليس فقط بسبب كثافة المطلوب من التغييرات الكمية في هذا الشأن ، بل وايضا بسبب جدة التجربة ، النابعة من ظروف واقع خاص ، لم يسبق ممارستها عمليا او دراستها نظريا، في الادبيات المعروفة للفكر والعمل الثوري ·

بيد ان هذا ليس الا التحدي الثوري التاريخي للحركة التقدمية العربية ، والذي من شأنه ان يفجر طاقاتها للابداع واثراء التراث الثوري الانساني ·

وفي تقديرنا ان المدخل الاساسي لهذه العملية هو في قيام المثقفين الثوريين ، وفقا لبرنامج مشترك يتولد عن اختيارات فكرية وسياسية اساسية ، بعملية تلقيح واخصاب مركزة للقوى الفاعلة والتقدمية بطبيعة مراكزها في عملية الانتاج والقضية القومية · والتي افرزتها الثورة الوطنية الديمقراطية المعاصرة في واقعنا العربي وهي على التحديد : عمال القطاع العام وفلاحو الاصلاح الزراعي والمتعلمون من ابناء الفلاحين والعمال ومقاتلو حرب اكتوبر ، والفدائيون الفلسطينيون ·

بمعنى انه لن يتأتى ـ في تقديرنا ـ بلورة القوى التقدمية في الواقع العربي الراهن ، والوصول بها الى نقطة التفجير والتغيير الثوري ، من خلال التقيد بحرفية « القاعدة العامة » التي تقوم على اجراء عملية التلقيح والاخصاب بين المثقفين الثوريين والطبقة العاملة بالمفهوم البروليتاري وحدها · ذلك ان مثل هذه البروليتاريا ليست متوافرة بعد ، بالقدر والحجم المؤثرين في الحركة السياسية والاجتماعية · ان بلدا ، كمصر ، وهي اكثر البلدان العربية تطورا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية بالقياس الى البلاد العربية الاخرى ، لم يصل حجم الطبقة العاملة البروليتارية فيها بعد ، الى اكثر من ٧٦٠ الف عامل في خضم تعداد سكاني يفوق الثمانية والثلاثين مليونا من البشر · هذا فضلا عن سيادة مفهوم النضال الاقتصادي دون النضال السياسي على غالبية التجمعات العمالية العربية فيما عدا بعض طلائع عمال القطاع العام ·

كذلك اوضحت التجربة في الواقع العربي السلبيات الخطيرة علاوة على قصر النفس ، بالنسبة لعمليات التلقيح والاخصاب التي وقعت بين المثقفين والثوريين وبين كل من الجيش او الفلاحين ·

والعملية الثورية لا يمكن لها ـ **اولا** ـ ان تنتظر طويلا الى ان تتطور الطبقة العاملة العربية الى المستوى المناسب ، كما وكيفا · ولا تستطيع ـ **ثانيا** ـ ان تتعامى عن استيعاب ظروفها الخاصة وما ينشأ فيها من قوى ثورية متميزة ومتعددة المنابع بحكم مركزها في عملية الانتاج مما يعوض موضوعيا ، الغياب النسبي الكبير للطبقة العاملة · ولا تقدر ـ **ثالثا** ـ ان تتجاهل التداخل المصيري بين المستوى الاقليمي وبين المستوى القومي للعمل الثوري والذي ازداد تعمقا تحت العمومية الشاملة لقضايا التحدي الاسرائيلي البترولي والشركات العملاقة المتعددة الجنسيات للاستعمار الجديد ·

من هنا كان على القوى التقدمية ، ان تبتكر « قاعدتها الخاصة » في التلقيح والاخصاب بين المثقفين الثوريين وبين قوى التقدم الاجتماعية والسياسية المتدفقة بالحيوية في شرايين مجتمعاتها الراهنة ·

المفتاح الثاني : المواجهة الايجابية للخطط المكثفة التي تقوم بها الرجعيـــة والاستعمار والصهيونية ، في الوقت الراهن ، وتستهدف اغراق العالم العربي في هوة المنازعات الطائفية ، وافراغ التراث الديني والروحي للشعب العربـي من قيم التحرر والجهاد الانساني الدائب نحو حياة افضل · وعزل الدين عن الواقع الاجتماعي وصراعاته · ووضعه في موضع التناقض الهجومي مـــع التقدم وحركة الجماهير الديمقراطية ·

هذا وضع « شاذ » في تاريخ الواقع العربي · ذلك ان التعارض بين الدين والتقدم هو في الحقيقة مشكلة اوروبية بحتة لم تشهد بلادنا مثيلا لها · ذلـك ان الكنيسة في اوروبا ارتبطت في العصور الوسطى بالنظام الاقطاعي · وكان لها مصالح اقتصادية ونفوذ سياسي بحيث يتحتم استمرار النظام الاقطاعـي للمحافظة عليها · ولهذا رفضت القيادات الكنيسية في اوروبا كل تطور نحو الرأسمالية ثم من بعدها الى الاشتراكية · كما عارضت بشكل عام اي اتجـاه للتقدم العلمي والتكنولوجي · في حين لم يشهد الوطن العربي مثل هـــذا الوضع ، ولم يكن للكنيسة فيه مثل هذا الدور الاقتصـــادي او السياسـي المتخلف · على العكس كانت الكنيسة في مجملها العام ، قوة وطنية تحرريـة حتى ضد القوى الغازية والاستعمارية التي تلفعت بالرايات المسيحية · ولقـد مهدت المسيحية لتطور حضاري مشهود في تاريخ العالم العربي ، وخاصة مصر منذ القرن الرابع الميلادي · كما انتقل الاسلام بالوطن العربي الى مرحلـــة حضارية جديدة كان لها اشعاعاتها المضيئة في العالم كله ·

من هنا ، فأن التحدي الذي يواجه الحركة التقدمية العربية في الوضـــع الراهن ، وقد اغتنت بقوى دينية مناضلة ومستنيرة ، ان تسلب « سلاح الدين» من ايدي القوى المعادية · وتحوله بمفهومه النضالي التاريخي الى طاقة للتقدم في الواقع العربي المتميز بخصوصيته في هذا الشأن · وذلك انطلاقا من حقيقة اساسية وهي ان شعبنا العربي ، شعب مؤمن متدين · والشعب هو صانـــع الحياة وتقدمها · وبالتالي فلا يمكن تصور الانطلاق بالحياة وتقدمها فـــي مسالك متناقضة مع الايمان الشعبي العام · واكثر من ذلك فان المنهج الفكري الثوري يرى في ايمان الجماهير وتدينها ما يعطي القيم والافكار الدينية قـوة مادية في الحركة ، يستحيل بدون احترامها وتجييشها لصالح التقدم التحـرك بفاعلية نحو مجتمع افضل ·

المفتاح الثالث : التعامل برؤية قومية جدلية مع الظاهرة البترولية العربيـة

وفوائضها الماليـــة ٠

ان هذه الظاهرة قد منحت القوى المحافظة والرجعية ـ دون شك ـ مصدر قوة غير عادي في صراعها التاريخي مع القوى التقدمية ـ بيد ان هذا المصدر يقع في بؤرة صراعات ساخنة ، ليس فقط على المستوى الاجتماعي المحلـــي والقومي ، وانما ايضا على المستوى السياسي بين الدول الغنية بالبترول وبين الدول العارية من البترول وما بينهما من دول اخرى نصف بترولية ٠ وبالتالي فهو مهدد دوما بالتفجر ٠ بل هو ذاته اداة الاشتعال ٠ ولعل المشكلة لـــدى المتحكمين في هذه الظاهرة انهم لا يستطيعون استنزاف ثروات الابار دفعـــة واحدة او في فترة زمنية قصيرة ، والهرب بها من الواقع العربي الى حيث الامن والامان ٠ وانما هم مضطرون للبقاء والاستمرار على الارض العربية ، وفـــي مواجهة مطالب اجتماعية وسياسية متجددة ذات طابع اقليمي وقومي علـــى السواء ٠ ولا بد لهم ـ بالتالي ـ بدافع الامن الذاتي من التعامل مع هـــذا الواقع بحد ادنى من الرشد والتعقل الذي يقوم على ايجاد ارضية بترولية من المصالح القومية المشتركة حتى مع القوى التقدمية ذلك ان هذه القوى كائنـــة بجذورها في التربة العربية ٠ قد يمكن الحد من طاقتها لحظة او لحظـــات من التاريخ ٠ لكن ليس من المستطاع اقتلاع جذورها او حتى الحد مـــن استمرار نموها وتطورها على الدوام ٠

وفي نفس الوقت ، فان البترول العربي بفوائضه المالية الضخمة ، هو من ناحية سلاح اساسي من اسلحة معركة التحدي القومي مع الصهيونية وتحدي قيود واستغلال النظام الاقتصادي الدولي الراهن ٠ وهو من ناحية اخـــرى الطاقة المادية الجوهرية للتنمية الاقتصادية والتكنولوجية المشتركة للعالـــم العربي ٠ وذلك في ظروف تاريخية مواتية ليس لها سابقة ، ولا يحتمل تكرارها في المستقبل بعد زوال عصر الطاقة البترولية على نهاية القرن العشرين ٠ خاصة وان العالم يتجه منذ اواخر الخمسينيات من الاسواق الضيقة الصغيـــرة الى الاسواق الموسعة ذات الطابع الدولي المتجانس سياسيا او قوميا ٠

ويجري هذا كله وسط تقسيم فرضته الطبيعة على العالم العربي ، بين دول غنية بالبترول وفقيرة في عنصر العمل البشري ، ودول عارية من البترول وغنية نسبيا بالعامل البشري ٠ مما يوجب ، موضوعيا ، ضرورة التنسيق بينها ٠

من هنا يفرض « العصر البترولي العربي » على الحركة التقدمية متجمعـــة لا مفتتة الوصول الى صياغة جديدة تضمن الحد الادنى والضروري لوحـــدة عمل عربي تتعايش فيه كل القوى على اختلاف اتجاهاتها على اساس « العـــام والمشترك من المصالح القومية » بمفهوم عصري ، دون ان يخل ذلك باستمرار حركة الصراع الاجتماعي والسياسي الحتمية في الواقع العربي ٠ بمعنى ان تتخذ حركة الصراع اساليب ووسائل لا تصادر امكانية التعايش القومـــي

الحضاري · وان لا يتحول التعايش ـ بدوره ـ الى حالة تجميد للصراع او كبته او افراغه من مضمونه الحي · ولعل الضمان الجوهري لذلك هو وصول الحركة التقدمية لهذه الصياغة بقوة تجمعها الموحد تكتيكيا واستراتيجيا ·

وفي هذا الاطار نعيد طرح ما سبق ان اقترحناه من ضرورة ان تتجمع القوى التقدمية العربية ـ بعد حوار ديمقراطي فيما بينها ـ حول خطوط اساسية لنقاط التعايش ونقاط الصراع في هذه المرحلة من تاريخ الوطن العربي · وعلى الجانب الاخر تتجمع القوى المحافظة (وهي في الواقع متجمعة الى حد كبير) حول خطوط اساسية مماثلة لنقاط التعايش ونقاط الصراع من وجهة نظرها · ثم بعد ذلك يلتقي الجانبان ، حيث ان موقف كل منهما صار مكشوفا للاخر على نحو شبه كامل · وذلك منذ تحطم الوحدة المصرية السورية عام ١٩٦١ حتى نيران الحرب الاهلية في ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، في مؤتمر سياسي يرتفع الى مستوى مسئولية هذا الظرف التاريخي الاستثنائي من حياة الوطن العربي ، للاتفاق على صياغة مرحلية لحركة التعايش والصراع في العصر البترولي · ان هذا قد يبدو جديدا وغير مألوف على تاريخ العمل السياسي في الوطن العربي · وهو بالفعل كذلك الى حد ما · لكن المهم هنا ليس الجدة او عدم الالفة · وانما في ان هذا التحرك ينبثق من معطيات موضوعية جديدة في واقعنا وعالمنا المعاصر على السواء · وليس من فراغ او من محاولة للتوفيق والترقيع الآلي بين متناقضات · ولدينا امثلة عالمية معاصرة تؤكد واقعية هذا الاسلوب وخاصة فيما يتعلق بالتعايش والصراع بين القوى التقدمية والقوى المحافظة في اوروبا فيما يتعلق بالسوق الاوروبية المشتركة وسوق الكوميكون والاحلاف والامن الاوربي الذي تجسد اخيرا في مؤتمري هلسنكي وبلغراد · بل لدينا الى حد ما ـ في عالمنا العربي ـ سوابق متواضعة في ما سمي بمؤتمرات القمة ·

المفتاح الرابع : القيام على ضوء حصيلة الايجابيات والسلبيات المتجمعة على مدى خمسة وعشرين عاما منذ انطلاق مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية بقيادة البرجوازية الصغيرة المسلحة في اوائل الخمسينيات ، واستشرافا لمهام المرحلة الراهنة من الثورة في امتدادها الزمني المنظور ، ببلورة « برنامج عمل» يتعدى حدود الشعارات العامة الى حسم مجموعة اختيارات اجتماعية وسياسية بل وفكرية في بعض الحالات سواء فيما يتعلق بواقعها او فيما يتعلق بعلاقاتها الدولية · الامر الذي يرسي عددا من الخطوط والاولويات الجوهرية التي يكن ان تتطور من خلال الممارسة العملية الى « نظرية للتغيير والتقدم » في

الواقع العربي ، بعصره البترولي الذي هو جزء من الواقع العالمي الذي يغلب عليه اتجاه الانفراج الدولي · تضع في اعتبارها العلاقة الجدلية بين « الخطر العام العالمي » المتمثل في الاستعمار الجديد وشركاته العملاقة المتعددة القوميات ، والخطر العنصري العدواني الخاص المتجسد في اسرائيل الصهيونية · وبين ما هو « قومي عام » وبين ما هو « اقليمي خاص » . وذلك على مستوى القوى التقدمية في حد ذاتها ثم على مستوى علاقات التعايش والصراع مع القوى الاخرى · وصولا ـ بالتالي ـ الى تحديد جدول « بالاولويات القومية » ، تتدرج في اطاره جداول « بالاولويات الاقليمية » للحركة التقدمية في كل بلد ·

وتتحمل المسؤولية في هذا المجال ، مجموعة محددة لها وزنها المؤثر في الحركة التقدمية وهي الاحزاب والتنظيمات الحاكمة في النظم المعروفة باتجاهاتها التقدمية جنبا الى جنب مع حزب البعث الاشتراكي والتنظيمات الناصرية والاحزاب الشيوعية والاحزاب القومية التقدمية وفصائل الثورة الفلسطينية · اذ عليها ان تبادر الى عقد سلسلة من الندوات والاجتماعات النوعية ، تنتهي « بمؤتمر قومي تقدمي » يتمخض عنه « برنامج العمل الموحد » للحركة التقدمية العربية ·

ان التحرك في هذا الاتجاه ، يصل الحاضر والمستقبل بتجربة اولى في هذا المسار ، بادرت بها قيادة حزب جبهة التحرير الجزائري في مايو ١٩٦٧ تحت اسم « مؤتمر الاشتراكيين العرب » الذي كان أول تجمع قومي تقدمي من نوعه في تاريخ العرب الحديث · وكان من المنتظر ان يأخذ هذا المؤتمر مداه وينعكس ايجابيا على مجمل الحركة ، الا ان هزيمة يونيو في عام الانكسار ، جرفت هذه التجربة ضمن ما جرفته في دوامة موجة الجزر العامة ·

جوزيف سماحة

محاولة اقتراب من الفكر السياسي لكمال جنبلاط

« بين الطائفيين من الجانبين في لبنان هناك هذا الجدار الفاصل والجامع في آن واحد ، هذا الموضع من تلاقي الفريقين الطائفيين واشتراكهم واشتباكهم ٠٠ هذا الفريق من المواطنين الذي يعيش في هذه « المنطقة النفسية » من اختلاط وتوحد الماء العذب بالماء المالح ـ للمثال وللصورة الفكرية لا اكثر ـ ما يزال يناضل ويكافح لاجل توسيع مجال التوافق وفسحة التشابك النفسية والتداخل الوطني المعنوي بين مختلف عناصر الوطن منذ قرن وربع قرن دون ان يتوصل اصحاب هذا الفريق وقادته الى نجاحات يطمأن اليها ٠٠ » (١) ٠

لقد سقط كمال جنبلاط شهيدا وهو على رأس « هذا الفريق من المواطنين » يحاول « توسيع مجال التوافق ٠٠ بين مختلف عناصر الوطن » وذلك قبل التوصل الى « نجاحات يطمأن اليها ٠٠ » ويذكر استشهاده بتلك الاسطورة التي تقول انه كتب على سيزيف ان يمضي عمره الابدي ناقلا الصخرة الى القمة ، ومعيدا نقلها بعد ان تتدحرج ٠

لقد حمل كمال جنبلاط الصخرة عام ١٩٥٢ الى ربع المرتفع ، لكنها سقطت ، فعاد وحملها عام ١٩٥٨ الى نصف المرتفع لكنها عادت وسقطت ، فحملها ثالثة في الاحداث الاخيرة الى ما دون القمة بقليل لكنها سقطت ، واسقطته ٠٠ مؤكدة ان قدرة لبنان القديم على اجتياح « المنطقة النفسية » التي يتحدث عنها كمال جنبلاط هي قدرة كبيرة ٠٠ فكيف اذا دعمها وضع عربي هو على ما هو عليه ٠

واذا كان كمال جنبلاط يتحدث عن « المحاولة الوطنية » من هذا الموقع الخارجي (الخارجي بالنسبة للعلاقات السياسية التقليدية ٠٠) فكيف هي حالنا

بعد غيابه ، وما هي طريقنا الى التعويض عن هذا الغياب ؟ !

الجواب على مثل هذه الاسئلة يستدعي معالجة تخرج بنا عن الموضوع ٠ ولكن احد عناصر الجواب هو ان تمثل « الجنبلاطية » بما هي ممارسة ونظرية في العمل الوطني اللبناني والعربي ، هو عامل مساعد للوطنيين في لبنان من اجل تحجيم خسارتهم لكمال جنبلاط ٠

واذا كان ثمة جانب مطموس لدى كمال جنبلاط فانه بالضبط هذا الجانب : كمال جنبلاط المفكر السياسي والمساهم في تقديم وجهة نظر وطنية ريادية حول المشكلة اللبنانية ٠

لقد كتب الكثير عن كمال جنبلاط الصوفي ، والمفكر الانساني ، والفيلسوف ، والشخص ٠٠ ولكن لم يكتب الكثير عن كمال جنبلاط القائد الوطني بكل ما لهذه الكلمة من معنى ان على صعيد الممارسة ام الفكر ٠

ولذلك ليس غريبا ان تكون كتاباته السياسية ، ومنها على وجه الخصوص المقدمة التي وضعها لكتاب « ربع قرن من النضال » ، غير معروفة بما فيه الكفاية ولا منتشرة ٠٠ حتى في الاوساط الوطنية التي قاد جنبلاط نضالها !

قبل اية محاولة لتظهير ملامح الفكر السياسي عند كمال جنبلاط تجدر الاشارة الى وجود اسهامات غنية جدا في تقديم وصف وضعي للمشكلة اللبنانية عند عدد من مثقفي اليمين اللبناني الذين تأثر بهم كمال جنبلاط في مراحل معينة من فكره (حتى ١٩٥٧ على الاقل) ٠

على رأس هؤلاء المثقفين طبعا ميشال شيحا الذي يبدي كمال جنبلاط اعجابه به في غير موضع من كتاباته والذي يبدو متأثرا به في مجمل محاضراته في « الندوة اللبنانية » بدءا من المحاضرة الاولى « رسالتي كنائب » عام ١٩٤٦ ، الى محاضرة « لبنان في واقعه ومرتجاه » عام ١٩٥٦ ٠٠

هذا التأثر بشيحا هو ، بمعنى من المعاني ، تأثر ببعض « التلامذة » ايضا الذين « طوروا » فكر واضع الاسس الرئيسية للايديولوجيا « اللبنانية » ٠

الا يبدو كمال جنبلاط قريبا مثلا ، في مراحله الاولى ، من فكرة « التاريخ ابن الجغرافيا ٠٠ فقط » التي طورها ، عن شيحا ، جواد بولس في محاولته التأريخ للبنان « حيث يلتقي ويتعانق ويتفاهم البحر والجبل ٠٠ » (٢) كما يجمع شيحا وبولس وجنبلاط على القول ٠

الا يبدو كمال جنبلاط متأثرا بفكرة شيحا عن الميثاق الوطني (طورها كمال يوسف الحاج في كتاباته وخاصة « فلسفة الميثاق الوطني ، او الطائفية البناءة ») ٠ « قد يختلف اللبنانيون ويتهدد الميثاق الوطني ولكن لا مجال الا

للوحدة والتعايش والاستمرار ٠٠ في الواقع لا نرتجي من لبنان اكثر بكثير مما هو عليه » (٣) ٠

الا يبدو كمال جنبلاط ايضا متأثرا بفكرة شيحا عن المتوسطية (التي اختص بتطويرها رينيه حبشي) وصولا الى حد اكتشاف ان لسكان المتوسط « طباع وعادات في التفكير والتصرف مشتركة واقتصاد مشترك وحياة وحضـــارة مشتركة ٠٠ وحتى الجنس البشري هو مشترك ٠٠ » (٤) ٠

الا يمكننا ان نكتشف لدى جنبلاط « لبنان هو بلد اللغتين في الواقع ٠٠ بلـد تعددت اللغات» (٥) ملامح النظرية التي طورها الاب سليم عبو عن ميشال شيحا: ثنائية اللغة صفة ملازمة للقومية اللبنانية لا بل احد عناصرها الرئيسية !

ان طرح اشكالية العلاقة بين كمال جنبلاط والمفكرين الذين اسسوا الايديولوجيا « اللبنانية » ، يوجب ، عمليا ، طرح اشكالية الصيرورة التاريخية ومواكبتـه لتطورات سياسية كانت تدفع بصاحبه ، اكثر فأكثر ، بعيدا عن المصالحة مـع « الصيغة » والوضع القائم نحو الاصطدام الجدي بهما ٠٠

ويفيد طرح هذه الاشكالية في استخراج القضايا التي بقيت تشكل عناصـر ثابتة في فكر جنبلاط ، لا بل عناصر ثابتة في تحليلات يسارية للمجتمع اللبناني تدمج ، بنجاح ، بين الحقائق العامة للاشتراكية العلمية والواقع اللبنانـــي ـ والعربي ـ الخاص ٠

كان جنبلاط في مرحلة من تطوره ـ من ١٩٤٦ الى ١٩٥٦ ـ صاحب تفكيـر « لبناني » منفتح على العروبة ، اصيل في ديمقراطيته (٦) ، متوسطي النزعة ، يحاول الوقوف على مسافة متساوية من الاطروحات الطائفية العروبية واللبنانية مع ميل واضح لتحميل « التهويمات الاقلوية والطائفية » (٧) مسؤولية الانعـزال عن « التعاون العربي » ٠

نظرته للواقع اللبناني على انه مجتمع متعدد الطوائف ، ارست مشكلته مـع نظام المتصرفية ، كانت تدفع به نحو تبني حلول تتروح بين تثبيت الواقع القائـم بعد حمايته بقوانين خاصة ، او تجاوزه نحو الغاء الطائفية السياسية ٠٠

وليس اسهل من اكتشاف ان هذا القدر من الاحترام للتركيبة الداخلية يوازيه من الجهة الاخرى موقف شبه متحفظ من قضية عروبة لبنان هو موقف ، كـان يخترق على كل حال سقف المواقف المعروفة يومذاك (مطلع الخمسينات)، ليطرح على نحو آخر ، حضاري ، ثقافي ، تعاوني ، صلة لبنان بالعالم العربي ٠٠ كمـا انه ليس اسهل من اكتشاف ان هذه الفترة كانت فترة الاستمرار في اســـار الاوهام التقليدية المعروفة للايديولوجيا اللبنانية : الهجرة ، الدور العقلانـــي المتوسطي ، المبادرة الحرة ، الديمقراطية من النمط الخاص ، والدور الخـــاص

لمسيحيي لبنان الاكثر تنورا وقدرة على استيعاب ونقل قيم الحضارة العلمانية الغربية ومعطياتها ٠٠ » (٨)

قلنا ان فترة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ هي مرحلة واحدة ٠ لكن ذلك لا يعني انها انتهت كما بدأت ٠ الحقيقة اننا نلاحظ من خلال دراستها ان ثمة تطورا تدريجيا ، تراكميا يحدث لدى كمال جنبلاط ، كما اننا نلاحظ ان تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وآثار معركة ١٩٥٢ كانت بدأت تترك بصماتها على الزعيم الشاب وتؤهله اكثر فأكثر لاستقبال التطورات العربية الدراماتيكية في منتصف الخمسينات وللتعاطي بشكل جذري مع احداث ١٩٥٨ ونتائجها ٠

وفي هذا المجال يمكننا ان نعتبر فترة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ فترة انعطاف حقيقي في المسار الفكري لكمال جنبلاط وهو انعطاف رافق تجذيرا ملحوظا في المواقف السياسية جعل صاحبه يتقدم شيئا فشيئا ليحتل مكان الصدارة في النضال الوطني ، وليتميزه منذ الايام الاولى للعهد الشهابي عن القيادة « الوطنية » التقليدية التي ارتضت بتحسين مواقعها تحت ستار « لا غالب ولا مغلوب »٠٠ في حين انها استمرت مغلوبة عمليا ، وفي حين ان امكانية التسوية الحقيقية (هذه التسوية الديمقراطية المتوازنة التي سعى جنبلاط اليها طويلا) كانت متوفرة ٠

منذ تلك الايام ، حتى الاحداث الاخيرة ، وكمال جنبلاط يطور فهمه للوضع اللبناني مستفيدا من تجربته ، ومن امتلاكه للمفاتيح الرئيسية للحياة السياسية في لبنان ، ومن ثقافته الواسعة ٠٠٠ واخيرا من اتصاله بعالم الافكار العلمية وبالحركات والمنظمات والاحزاب اليسارية ٠

غير ان هذا التطوير لم يلغ مكتسبات المرحلة السابقة ، مرحلة التعرف الوضعي ، التجريبي ، على الواقع اللبناني ٠

ولم يكن كمال جنبلاط بحاجة لمن يقول له كم ان هذه المكتسبات ثمينة ، وهو الذي اتيح له ان يختبر صحتها واهميتها ، وبصورة شخصية ومباشرة ، في عمله السياسي ٠ غير انه لا بد من التأكيد ـ وهذا ما يفعله باستمرار في كتابيه « حقيقة الثورة اللبنانية » و « في مجرى السياسة اللبنانية » ـ على ان احداث ١٩٥٨ اثرت فيه تأثيرا عميقا ٠

بعد ١٩٥٨ لم يبدأ كمال جنبلاط يطرح حلولا « للمشكلة اللبنانية » مختلفة الى حد ما عن تلك التي كان يطرحها سابقا فحسب ، بل بات فهمه لهذه « المشكلة » اكثر دقة وموضوعية ٠

يقوم التحليل السياسي الذي طوره جنبلاط (بعد ١٩٥٨) عن الوضع اللبناني ، على المفاصل التالية :

١ ـ يكاد لبنان يكون اتحادا كونفدراليا بين الطوائف ٠ انه بلد ـ ملجأ مؤلف

من فسيفساء طائفية ذات اساس اجتماعي · انه يلتقي هنا ، عن حق ، مع الكثير مما يقوله منظرو اليمين (« لبنان بلد الاقليات الطائفية المتحدة » : شيحا) لا بل يستعير تعبير « كونفدرالية الطوائف » من جواد بولس ··· لكنه يختلف عنهم بقدر ما يتحدثون عن الاساس الديني المعتقدي لاستمرار لبنان على ما هو عليه ويتغافلون عن الاساس السياسي الاجتماعي لذلك : النظام السياسي والاقتصادي الذي يعيد انتاج الطوائف · (فضلا عن انه يختلف عنهم في الحلول المقترحة وهذا ما سنعود اليه لاحقا) · ويختلف جنبلاط عنهم كذلك في ملاحظته العوامل المناهضة للانقسام الطائفي والملازمة لكون لبنان بلدا « واحدا » تنشأ فيه وضمنه علاقات افقية على حساب الانقسامات الطائفية وغيرها ·

٢ ـ النظام السياسي اللبناني ، « البنية الفوقية » (اذا جاز التعبير) لهذا الواقع الطائفي هو نظام الطائفية السياسية الذي اسسه الاستعمار استنادا الى الخلافات الطبقية التي اتخذت منحى طائفيا منتصف القرن الماضي (بسبب الالتباس الاصلي الطائفي ـ الطبقي) · الطائفية السياسية هي اصل العلة وهي التي تجعل « خمس لبنان يحكم البلاد ·· » وتوزع الحكم « كأننا في نظام العشائر والبطون والافخاذ ·· » (٩) · والوجه الآخر لهذه الطائفية السياسية عزل لبنان عن محيطه العربي وتشكيل سد يصبح اختراقه كشفا لهذا « التكاذب المشترك » (كما يسمي « الميثاق الوطني » منذ ١٩٥٨) الذي « يلعب دورا في عدم تحرير الدستور والافكار السياسية من آثار المذهبية الدينية والاقطاعية الطائفية التي علقت بها وجرت اليها من رواسب العصور ·· »

بالاضافة الى ذلك فانه يعتبر الطوائف بمثابة « كيانات سياسية » لها مؤسساتها وقياداتها وافكارها ··

٣ ـ استنادا الى كل ما تقدم فان « التركيب اللبناني » يحمل تناقضات داخلية تؤهله للانفجار وتعيد وضعه على المحك في كل مرة يتعرض البلد الى ازمة جدية ·

ولا شك انه خلف التحذير الجنبلاطي من « الوطن القومي المسيحي » ومن « تقسيم لبنان » (عام ١٩٥٨) تكمن نظرية كاملة مؤداها ان هذا التقسيم قابل للتطبيق ·

بكلمة اخرى ان جنبلاط لا يعتبر (عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٦ ··) ان قضية وحدة لبنان اصبحت منتهية · انه يعتبرها معركة مستمرة واحد البنود الرئيسية على جدول اعمال النضال الوطني (او « النضال » الرجعي) وهي متلازمة بالضرورة مع قضية عروبة البلد التي يؤكد جنبلاط باستمرار ان قاعدتها البشرية هي قاعدة اسلامية اولا ·

هذه المفاصل العامة قد لا تختصر كل مقاربة كمال جنبلاط للوضع اللبناني ،

ولكنها تعكس الى حد بعيد الملامح العامة للاطلالة الجنبلاطية على هذا الوضع ٠

وتشكل هذه المفاصل الاساس « النظري » لسياسة كمال جنبلاط اليومية ، وهي التي جعلته ، ربما ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، احد « امهر » السياسيين اللبنانيين واقدرهم على الدمج بين القوانين العامة للسياسة اللبنانية وبين العمل السياسي اليومي والمباشر ٠ ولذلك لم يكن من باب الصدفة الا يجد ناشرو مقدمة « ربع قرن من النضال » ، وهي اكمل صياغة قام بها جنبلاط لفكره ، لم يجدوا عنوانا لها افضل من « في الممارسة السياسية » ٠

ففي هذه المقدمة يصوغ جنبلاط « نظريته » بصفتها مرشدا لعمله السياسي ، ويكشف اساس هذا العمل ، وعنصر التماسك فيه وهو عنصر قد لا يبدو واضحا لمن يريد ان يأخذ الامور بظواهرها ٠٠ او بمبادئها !

قلنا ان هذه الخلفية تسند ممارسة كمال جنبلاط ويمكن ان نضيف انه يشتق منها عددا من المفاهيم والمقولات التي يصعب حصرها هنا ولكنها تشكل مجتمعة تراثا غنيا لا بد من تمثله ٠

● ينظر جنبلاط الى الدولة باعتبارها حدود اللقاء بين القوى الطائفية المؤلفة للبنان وهي مجموعة اجهزة منفصلة ، غالبا ما تكون فاسدة ، يحق لكل زعيم ـ وله ايضا ـ ان يستخدمها ارضاء لجمهور من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة لا يسعه ان يطيق الحرمان طويلا (راجع مقدمة « ربع قرن من النضال ») ٠

● يركز جنبلاط على اعتبار المارونية السياسية المتعصبة مصدرا لازمات البلد ٠ وهو يعدد باستمرار مصادر قوتها ويشير الى ان انفجار خلافها مع « الآخرين » يعود الى نقضها مقولة « التسامح » التي يفترض ان تشكل اهم قوانين الحياة السياسية في بلد مثل لبنان ، حيث التسامح هو « التعبير المحلي » عن الديمقراطية والتوازن ٠

● لجنبلاط احاديث مطولة حول ضعف الزعماء الستة واستعدادهم المبالغ فيه للمساومة « كان ولا يزال ضعف الزعماء المسلمين انهم يجهلون ما يجري في لبنان ووسط الشعب من صراع بين الوطنية السليمة والانعزالية التقليدية وبين الذهنية المتفتحة المتقدمة والذهنية المتحجرة والمتخلفة ٠٠٠ وبالتالي فهم يتوجهون دائما وبعد مرحلة كل صراع الى الزعامة الانعزالية ويدعونها للمشاركة متناسين الصف الوطني المسيحي ٠٠٠ » (١٠)

● يؤكد جنبلاط باستمرار ان من اسباب فشل اي تحرك وطني او تقدمي انشطار البلد الى شطرين وضعف التيار الوطني المسيحي ٠ « لو شارك المسيحيون بكثافة في الثورة لوقعت المعجزة التي نركض اليوم لالتقاطها ٠٠ » (١١) وهو يدرك انه من غير تنمية هذا التيار ، فان لبنان سيبقى محكوما بقانون « النمو المتفاوت » لقوى التغيير مما يهدد بحجز امكانية التغيير الفعلي ويحولها

باستمرار الى اعادة نظر جزئية بنظام الطائفية السياسية لا تلغيه من اساسه ، لعدم توفير قاعدة سياسية متوازنة مؤكدة ضمن الطوائف اللبنانية كلها ، بل تكتفي بتنقيحه وادخال تعديلات عليه ٠

والكلام الذي كنا نسمعه من كمال جنبلاط خلال الاحداث الاخيرة ، يحمل الحرقة نفسها التي كان يحملها كلامه بعد ١٩٥٢ و ١٩٥٨ : لو شارك المسيحيون لحدثت المعجزة ؟ ولكنهم ٠٠٠

هذا مع الاشارة الى انه كان يدرك بعمق مدى ارتباط « قلة » المشاركة هذه بنظام يوزع الامتيازات والحرمان بدرجات متفاوتة ٠ « تخضع الفئات الاسلامية في البلد ، على اختلاف مذاهبها ، للقهر بسبب الامتيازات الاقتصادية والمالية والسياسية والثقافية التي كان يستحوذ عليها ويمارسها بعض المنتسبين الى الطوائف المسيحية وخاصة العناصر المارونية منها ٠٠ » (١٢) ويروح جنبلاط على امتداد صفحتين من « المقدمة » يشرح التراتب الطبقي ـ الطائفي في لبنان وتاريخه ودور الاستعمار فيه ٠

ولعله من الضروري الاشارة الى واحدة من القضايا المهمة جدا لدى كمال جنبلاط والتي تعتبر مفتاح فهم الكثير من مواقفه ، لا بل مفتاح فهم سلوكه السياسي :

« تجدر الملاحظة ان النظام الطائفي المعمول به منع او حال دون تطور النظام السياسي على الاقل في مقابل تطور الليبرالية الاقتصادية ، وفي تمكين بعض الكفاءات من الصعود في سلم الرتبية الاجتماعية والقيادة السياسية في التمثيل النيابي وفي الحكم ٠٠ وقد شهدنا هذا السور من المال او اقسام واسعة منه تدعم بقاء القديم على قدمه وتجمد النظام السياسي وتزكي النظام الطائفي ٠٠ ويعود ذلك الى كون الفئات المستأثرة والغنية والفئات التي تنتسب الى المهن الحرة هي اكثرها من الطوائف المسيحية، هذه الطوائف التي فرضت في الانتداب قيام الكيان اللبناني وطبعته بطابعها وفرضت عليه امتيازاتها السياسية ، فجاء الامتياز الاقتصادي يؤثر بطبيعة الحال الامتياز السياسي » ٠ (١٣)

يلخص هذا الكلام فذلكة البرنامج السياسي المرحلي للاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية (آب ١٩٧٥) بوجهيه : التفاوت الاقتصادي ـ السياسي (لا نناقش هنا صحة هذا التفاوت) ، والهيمنة الطائفية ضمن النظام ٠ ويحتل هذا الاعتبار مكانة مهمة في فكر جنبلاط مما دفع الدكتور ادمون رباط الى اعتبار مقدمة البرنامج المذكور (التي تستعير هذه الاطروحة وتطورها) الوصية السياسية الحقيقية لكمال جنبلاط وافضل ما كتبه طيلة حياته ٠

هذا الوعي الحاد لدى كمال جنبلاط للمستويات المختلفة للتشكيلة اللبنانية عكس نفسه على ممارسته على غير صعيد ٠ فعلى المستوى الاقتصادي مثلا كان

الحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة جنبلاط احد أبرز المناضلين في سبيل تحسين حياة الجماهير والدفاع عن مطالبها الاقتصادية والاجتماعية · أما على الصعيد السياسي فان كمال جنبلاط كان يدرك بعمق ، انه في مجتمع مثل المجتمع اللبناني

وفي نظام موروث و « سريع العطب » مثل هذا ، لا يمكن الركون الى النضال الديمقراطي وحده وان امكانية « وضع العنف على جـــدول الاعمال » واردة بالضرورة · وله في ذلك محاضرات عديدة ، ومواقف تشير الى انه كان يرفض المشاركة في أشكال من الاحتجاج والمعارضة عندما يكون الظرف مناسبا لاشكال ارقى واكثر قدرة على الحسم ·

لا يغير هذا من كون كمال جنبلاط « رجل تسوية » · لكنه يفيد من تحديد موقفه من اية تسوية وفي تأكيد ، اولا ، تفاهة الحديث عن « اصلاحيته » وثانيا كونه يتميز عن رجال السياسة اللبنانية ، الذين تعني التسوية بالنسبـــة اليهم الاستسلام ليس الا !!

● اخيرا تتميز الكتابات الجنبلاطية حول الوضع اللبناني بهذا الحيز المعطى باستمرار ، لدور العوامل الخارجية والعربية في تقرير مصير اي صراع ورسم مساره · ويصل الامر بعض الاحيان حد اغفال دور العوامل المحلية لصالح ابراز اثر المصالح الاستعمارية ، او الارادات العربية · ولعله من غير الضروري اثبات ذلك بأقوال لجنبلاط طالما ان كتاباته كلها مخترقة بتأكيدات من هذا النوع ·

رسمنا في ما سبق ملامح الفهم الجنبلاطي للوضع اللبناني ، والافكار العامة التي تنظر لممارسته وترشدها ولذلك ليس أسهل من استخلاص تصور لبنان الذي كان يريده كمال جنبلاط ·

باختصار كان مؤسس الحزب الاشتراكي يريد لبنان بلدا عربيا ديمقراطيا بكل ما تنطوي عليه هاتان الكلمتان من معان ومن التزامات سواء بالنسبة للقضيـة الفلسطينية ام بالنسبة للحريات الديمقراطية السياسية والاقتصادية والصحافية والشخصية والنقابية ···

على ان العنصر الذي يحتاج الى جـــلاء ربما هو الموقف الجنبـلاطي من الموضوع الاقتصادي ـ الاجتماعي والتصور المطروح حيال النظام القائم ·

قد يحتاج هذا الامر الى معالجة على حدة ولكن يمكن هنا بسرعة تقـديم عناصر اولية للموقف الجنبلاطي في هذا الخصوص ·

تختلط لدى جنبلاط الدعوة الى اقتصاد طبيعي ، حرفي ، ما قبل رأسمالـي والدعوة الى حماية الصناعة اللبنانية وتطويرها وحماية المستوى المعيشي لليد العاملة ·· وهو يعبر في ذلك عن موقع اجتماعي معين (الزعامة الريفية ذات

النزعة الوطنية الاستقلالية ٠٠) وعن موقف شديد السلبية ، اجتماعي ، اخلاقي، ضد آثار نظام الخدمات ٠

ولعله ، في هذا المجال ، كما في بعض المجالات الاخرى ، شديد العدوانية حيال فهم للبنان (شيحا وتلامذته ٠٠) يريد للبلد ان يكون مجرد محطة ، وصلة وصل ، وممر ٠٠

« لبنان جسر وممر وصلة بين الشرق والغرب ، بين حضارة اوروبا وحضارة العرب واسيا ، هذا المفهوم للقضية اللبنانية الذي يروجون له في الاوساط اللبنانية المختلفة وتساهم في اشاعته والدعاية له الابواق الاجنبية ذاتها كان ولا يزال عقبة وحائلا دون توحيد مفاهيم الشعب اللبناني للوطن والدولة لانه كرس كواقع المعاهد الاجنبية في لبنان ، واقع اللغتين ، والحضارتين ، والاستقطابين والقوميتين ، والدينين ، والطائفتين ، والشعبين ، وبرامج التعليم المتعددة ٠٠ لا يقوم وطن على حافتي جسر وعلى فاصل وعلى ممر و « عبارة » الجسر موضع لتلاقي بلدين وقوميتين وشعبين ولا يشكل قاعدة مكانية وزمنية لدولة ولامة ٠ لا يبنى بيت لجماعة على قارعة الطريق العامة ٠٠ » (١٤) ٠

الملاحظ ان ما نقلناه عن كمال جنبلاط يشكل ، الى حد بعيد ، التوجهات الاساسية للحركة الوطنية اللبنانية كما تبدت سواء في ممارستها خلال الاحداث الاخيرة ام في وثائقها المهمة ، وعلى رأسها « البرنامج المرحلي » و « خطة المواجهة الوطنية ٠٠ » ٠

ومن المطلوب ، في مجال ، الاشارة الى هذه العلاقة بين كمال جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي من جهة ، ومجموع الفصائل الوطنية والتقدمية من الجهة الثانية ، المطلوب تبديد بعض الاوهام العالقة في ذهن الكثيرين ٠

وفي طليعة هذه الاوهام القول بأن اليسار اللبناني يتلطى وراء كمال جنبلاط لانه زعيم كبير ذو نفوذ جماهيري وهو انما يقبل بتغطية اليسار والحركة الوطنية لانه يريد ان يناور وينتزع مكاسب محدودة اضافية ٠ ينشأ هذا الوهم ـ اذا سلمنا بحسن النوايا ـ من جهل عميق بطبيعة المجتمع اللبناني وطبيعة ا يمثله جنبلاط ، ومن سوء ادراك مطبق لنقطة التصادم بين التشكيلة اللبنانية في طورها الراهن وبين كمال جنبلاط وما يمثله ٠

نبادر الى القول ، قبل اي شيء ، ان زعامة كمال جنبلاط للحركة الوطنية لم تكن صدفة او مفارقة ٠٠ انها زعامة بنيت على مر السنين ، وتدعمت ، واصبحت جزءا من الحياة السياسية في لبنان ٠

وليس اسهل من اكتشاف الصلات العميقة التي تشد الفكر السياسي الجنبلاطي الى الموقع الذي يحتله صاحبه ٠

كمال جنبلاط هو الزعيم الذي أعاد لطائفته الدرزية وزنها السياسي في لبنان٠

هذا الوزن الذي تعرض لنكسة اولى مع نظام المتصرفية الذي وضع حدا ، منتصف القرن الماضي . للحكم الدرزي في الجبل وفتح الابواب مشرعة امام المزيد من اخضاع لبنان للمخططات الاستعمارية ٠

كما تعرض الوزن لنكسة ثانية مع اعلان دولة لبنان الكبير (١٩٢٠) التي ورثت نظام التمثيل السياسي السابق بعد ادخال مجموعات كبيرة من السنة والشيعة والارثوذكس في عداد الرعايا اللبنانيين ٠ ففي هذا العام قذفت الطائفة الدرزية الى المرتبة الخامسة او السادسة في سلم التراتب الطائفي وبات واضحا ان قطبي المعادلة اللبنانية هما الموارنة والسنة ٠

اي انه في خلال حوالي السبعين عاما انتقلت الطائفة الدرزية من حكم الجبل الى تشكيل طائفة غير رئيسية في « لبنان الكبير » ٠

ولكننا نشهد ، مع الزعامة الجنبلاطية ، ومنذ منتصف الخمسينات عودة الدروز الى ان يكونوا طائفة لها « حق النقض » (بالاضافة الى الموارنة والسنة طبعا) ٠

صحيح ان الطوائف الرسمية في لبنان ١٧ ولكنها لا تتمتع كلها ، بحكم الوزن والتقليد (الناجمين عن عوامل عديدة لا مجال لذكرها) بالقدرة على التأثير المتساوي على القرار السياسي الرسمي الذي يفترض ان يمثل حدود لقاء القيادات السياسية للطوائف اللبنانية ٠

وبهذا المعنى فان لبنان اشبه ما يكون بمجلس الامن : فيه عدد من الدول لكن بعضها فقط له « حق النقض » ٠

ولعل هذا الحق ــ الذي يتمتع به الموارنة بامتياز في لبنان ــ هو دليل تحول الطائفة المعنية الى طائفة ذات وزن مقرر او شبه مقرر في السياسة اللبنانية ٠

واذا كان الدروز مع كمال جنبلاط قد عادوا ليصبحوا طائفة اساسية فليس لان جنبلاط اضاف الى وزنهم العددي والسياسي الوزن العددي والسياسي للحركة الوطنية (كما انه فعل العكس ايضا ٠٠) فحسب بل لانه استطاع ان يجير العمق العربي لصالحه ، ويصبح ناطقا باسمه في لبنان ٠

هذه الزعامة الجنبلاطية الراسخة ضمن الدروز ، وما اتاحته من اطلالة على الطوائف الاسلامية الاخرى ، وما اضيف اليها بفعل الخصوصية الطائفية الفريدة للجبل ودوره المميز في التاريخ اللبناني وبفعل الامتدادات الحزبية الوطنية الاخرى ٠٠ هذه الزعامة كانت مضطرة ، بفعل نظام الطائفية السياسية على ان تدخل ضمن التركيبة من « خرم الابرة » المفتوح لها ٠٠

ولذلك فانها كانت ، بقدر ما تكبر وتمتد ، بقدر ما تستشعر ان الثوب المفصل لها ، حسب قوانين السياسة اللبنانية ، يضيق عنها ويكاد يخنقها ، وانها ، ولو كانت تسيطر على « ٧٠ بالمئة من الارض و٨٠ بالمئة من الشعب » (كما كان يقول جنبلاط عام ١٩٥٨) فانها عاجزة عن ترجمة هذا الوزن ما لم تتم الاطاحة بنظام التمثيل السياسي الطائفي ٠

لقد وجد جنبلاط نفسه على رأس حركة متناقضة مع التركيبة اللبنانية ٠ وكانت له ـ ولنا ، وللبنان المستقبل ايضا ـ مصلحة اكيدة في نسفها واعادة صياغة العلاقات السياسية على قاعدة اكثر ديمقراطية : الغاء الطائفية السياسية مطلب جنبلاطي منذ ثلاثين سنة !

بهذا المعنى كان جنبلاط عنصر تثوير للوضع اللبناني ولذلك كانت تبذل المحاولات الحثيثة لاستعادته (تصريحات صائب سلام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) بصفته ابن العائلة العريقة ، شرط ان يترك ، على بوابة الحكم ، برنامج نقض نظام الطائفية السياسية وكل محاولات تزعم الشارع الاسلامي والتعبير عن مصالح القوى الديمقراطية في الوسط المسيحي ٠

« ان مثال الثوري والعربي الذي يشير اليه كمال جنبلاط من أجل الحاضر والمستقبل موضوع في سياق استمرارية تاريخ السكان الجبليين ٠٠ كذلك فان بعض عبارات جنبلاط تستعيد صدى تطلعات باقي العالم العربي وثقافته ٠٠ ان منطقة الشوف تبدو في قلب التاريخ اللبناني ٠٠ كما يبدو كمال جنبلاط في قلب قومه وطائفته ٠ انه يشهد من أجل حقيقة لبنانية ٠٠ ووجه اخر للبنان » (١٥)٠

هذا الكلام الواضح للمؤرخ دومينيك شيفالييه (صاحب اهم كتاب حتى اليوم عن تاريخ جبل لبنان في القرن التاسع عشر ٠٠) يحتوي على عدد من المفاهيم لا بد من تظهيرها :

١ ـ هناك تقدير خاص لهذه الزعامة الخاصة : زعامة الدروز وزعامة الجبل٠

٢ ـ هناك اشارة واضحة الى كون دروز الجبل ، تاريخيا ، امتداد للتطلعات العربية وللثقافة العربية ٠

٣ ـ هناك تأكيد على الدور الخاص للجبل في التاريخ اللبناني ٠٠ هذا الكيان الذي ركب اصلا حول الجبل ٠

٤ ـ هناك ادراك للخصوصية الجنبلاطية القادرة في وقت واحد على ان تشهد للبنان « اللبناني » وللبنان العربي ٠

والحقيقة ان هذه المفاهيم صحيحة تماما ويمكن اكتشافها من اية قراءة متأنية بعض الشيء لكتابات جنبلاط ٠٠ وممارساته ٠

ان زعامة الدروز والجبل تعني اول ما تعني الزعامة على منطقة سياسية ـ جغرافية هي غاية في الاهمية سواء كان المشروع الذي يستهدف عروبة لبنان مشروعا هجوميا تسلطيا ، ام مشروعيا دفاعيا انكفائيا ٠٠

ان الجبل هو في قلب المعركة من أجل عروبة لبنان ويستحيل على اى فريق ان يدعي هيمنة ما على لبنان ما لم يوطد هيمنته على الجبل ٠

ودروز الجبل هم تاريخيا حفظة عروبة المنطقة ، سياسيا ، على الاقل ٠ صحيح انه ينطبق عليهم الى حد ما صفة « الاقلية » الوافدة الى الجبل ، لكن الفرق بينها وبين الموارنة هي انها اقلية اسلامية وقفت باستمرار ضد الغزوات الاجنبية للمنطقة ، هذه الغزوات التي وجدت في الموارنة حليفا لها ٠

وبهذا المعنى تصبح الزعامة الجنبلاطية للدروز وللجبل امتدادا لتاريخ وطني صارع باستمرار ضد تيار الانعزالية اللبنانية ٠ ويكفي ان نتذكر تأكيد جنبلاط الدائم على « دور هذه الامارة العربية على الساحل اثناء الحكم الدرزي » ٠ لنكتشف كم انه مهتم ـ في سياق تاريخ بأكمله ـ للحفاظ على عروبة الجبل اولا وعلى منع تحوله الى شوكة في خاصرة الوطن العربي ٠

ولكن ما يجب ان يقال في هذا المجال هو ان هذه الخصوصية الدرزية (أقلية عربية في الجبل) التي وضعت جنبلاط في موقع الناقد لاي اتجاه عروبي طائفي ، وفي موقع المطالب بنهوض عربي على أساس ديمقراطي وحتى علماني ٠

ويمكننا ان نلحظ في العديد من كتابات جنبلاط مواقف التحفظ على النزعة القومية العربية الاسلامية لصالح الدعوة الى حركة عربية ديمقراطية يصح ، في حال غيابها ، التردد ، من موقع وطني وديمقراطي ، حيال الاتجاهات الوحدوية ٠ ولنا في مواقف جنبلاط من التيارات التي ازدهرت في فترة تصدع الامبراطورية العثمانية ما يؤكد لنا على هذا الطابع الخاص لفهم قضية العروبة والديمقراطية٠

فهو يمتدح مثلا فارس نمر واضرابه من « العلمانيين » المعادين للدولة العثمانية ويهاجم تيار « الانكماشية المارونية » ويتغافل عن ذكر التيار الاسلامي المعادي للغرب والمستعد لتجميد تناقضه الثانوي مع العثمانيين مقابل اندلاع المواجهة المشتركة مع الامبريالية ٠

ليس من الضروري التفصيل في هذا الموقف الجنبلاطي ودلالاته ٠ فكمال جنبلاط يبقى في النهاية القائد السياسي لاقلية طائفية ، (ولحركة وطنية عريضة ذات قاعدة اسلامية وصدى عربي ٠٠) عرفت كيف تتجاوز وضعها ، وتنتقل الى الاندماج في المعركة القومية متخلية عن الكثير من تحفظاتها ٠

وليس غريبا والحالة هذه ان تكون بعض التحفظات الجنبلاطية احترقت في لهيب معركة السنتين التي تحول خلالها كمال جنبلاط الى قائد قومي حقيقي ٠

واذا جاز لنا ان نتحدث عن خصوصية القيادة الوطنية الجنبلاطية فلا بد من التوقف عند قدرتها على الدمج الرائع بين لحظتين « اذا اذن لي ان أقول ما اضمره بصراحة فان الثورة الاخيرة اللبنانية قد جعلتني اكثر عروبة ٠٠ اي اكثر تحسسا بالواقع العربي ٠٠ ولكن في الوقت نفسه اكثر تعلقا بلبنان واستقلاله كما برز من خلال المحنة والنضال والتعاضد العربي والثورة » ٠ (١٦) ٠

هذه الخصوصية هي عنصر احراج حقيقي لليمين اللبناني ، الانعزالي منه خاصة الذي يستطيع كل شيء سوى التشكيك « بلبنانية » جنبلاط ٠٠ ولعله يمكن القول انه لا شيء يوازي « حرقة » جنبلاط من تخلف « القيادات المسيحية » سوى « حرقة » هؤلاء من انقلاب جنبلاط ضدهم ورفضه لصيغة استئثارهم المقنع ٠٠

ان هذه الخصوصية الدرزية والجبلية للحركة الوطنية هي التي تسمح ، بأقل قدر ممكن من الاضرار ، وفي ظل ضمور مواقع القوى الوطنية والديمقراطية في الوسط المسيحي ، بان تخاض المعركة القومية في لبنان بصفتها معركة بين لبنانيين وليس بين « لبنانيين اقحاح » و « لبنانيين درجة ثانية » كما كان يمكن ان يقال لو لم يكن كمال جنبلاط نفسه هو القائد الوطني وهو الغطاء الفعلي للنضال الوطني والقومي في لبنان ٠

واذا كانت السياسة اللبنانية تحسم في الجبل فليس ذلك لاسباب جغرافية او مناخية بل لان الجبل هو الحقل الفعلي للمارونية السياسية سواء لحظة تحفزها للانقضاض او استعدادها للدفاع ٠

ولذلك فان الحسم في الجبل ضدها غير ممكن من غير هذه القيادة الجنبلاطية التي تعطي الشرعية « اللبنانية » لاية مواجهة حاسمة ٠

قلنا في البداية ان استيعاب « الجنبلاطية » مهمة سياسية راهنة كما انها مهمة نظرية ٠ ويمكن ان نضيف انه من الصعب جدا العبور الى نظرية ثورية للوضع اللبناني وعلاقاته العربية من غير الانطلاق من تراث كمال جنبلاط فكرا وممارسة ٠

واذا كانت جريدة « اللوموند » كتبت عند استشهاد جنبلاط « ان المستقبل اهين في لبنان » فان الطريق الى رفع الاهانة هي ان يعود المستقبل مفتوحا على شتى الاحتمالات ولا يمكن لذلك ان يحصل الا اذا نجحنا ، الى الحد الاقصى ، في تحجيم خسارتنا للمعلم الشهيد ٠

المراجـــع :

---

١ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ، كمال جنبلاط ٠ ص ٣٩ ـ ٤٠ ٠

٢ ـ رسالتي كنائب ٠ كمال جنبلاط (محاضرة القيت ١٩٤٦) ٠

٣ ـ لبنان في واقعه ومرتجاه · محاضرة لكمال جنبلاط ١٩٥٦ ·

٤ ـ لبنان في واقعه ·

٥ ـ لبنان في واقعه ·

٦ ـ رسالتي كنائـب ·

٧ ـ لبنان في العالم العربي · كمال جنبلاط · محاضرة بالفرنسية ١٩٤٩ ·

٨ ـ المرجـع السابق ·

٩ ـ حقيقة الثورة اللبنانية · كمال جنبلاط ص ٢٦

١٠ ـ مقدمة « ربع قرن من النضال » ص ٧٩ · كمال جنبلاط ·

١١ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ·· ص ٨٨ ـ ٨٩ ·

١٢ ـ المقدمـة . ص ٧٣ ·

١٣ ـ المقدمـة . ص ٦٥ ·

١٤ ـ في مجرى السياسة اللبنانية ص ٥٥

١٥ ـ مجتمع جبل لبنان ايام الثورة الصناعية في اوروبا · دومينيك شيفالييه · ص ٢٢

١٦ ـ في مجرى السياسة اللبنانية · ص ٨٤ ·

هـــاني فـــحص

الجنوب ، الجذور وآفـــاق المستقبَل

- ١ -

بات من المؤكد ان المؤرخين للاحداث اللبنانية مستقبلا سوف يقفون طويلا عند ما احدثته من تغيير في مناهج البحث التي كانت حتى ما قبل الاحداث بل واثناءها تتصدى لرصد اسبابها وخط تطورها بعيدا عن جذورها فتقع في وهم الانقطاع التاريخي · بينما الواقع ومجريات الاحداث وما رافقها من برامـج ومشاريع سياسية تثبت بما لا يقبل الجدل ان هناك قدرا عظيما من التواصـل يصعب معه التمييز بين ما حدث على مدى السنوات الثلاث وبين ما يحدث الآن من جهة ، وبين ما كان يحدث في الماضي ، في مختلف المراحل ، من جهة ثانية ··· يصعب التمييز الا في التفصيلات التي نشأت على قاعدة ما استجد من ظروف وتطورات تؤكد التواصل ولا تلغيه ·

لقد اسهم ذلك في اسقاط اوهام كثيرة ، اسارع الى القول : اننا كجنوبيين قد وقعنا في بعضها مما اتاح للبعض ان يمرر اوهامه ايضا ·

ان عدم وضوح الارضية التي ارتكز اليها شعار (عروبة لبنان) كشـعار لا كواقع موصولا لا بمجمل الممارسات والافكار التي رافقت عـددا من فترات اليقظة على العروبة في لبنان ، اشعرنا وكأننا متهمون في عروبتنا فأخذنـا نلتمس الدليل عليها ·· من هنا رأينا في احتضان الجنوب للثورة الفلسطينية دليلا على عروبتنا ، وعندما اردنا ان نوثق الدليل ذهبنا الى التاريخ غير اننا لم نجاوز فترة الخمسينات فاعتبرنا ان استقطاب الجنوبيين بالوحدة وقيـادة عبد الناصر دليل على عروبة الجنوب ·

ان احد اهم الاسباب التي اوقعتنا في وهم ان عروبتنا بحاجة الى دليـل وتأريخ كما لو كانت حدثا من الاحداث ، هو اننا استسلمنا طويلا لفريق كان

ولا يزال ـ عن حسن نية ربما ـ يقرأ تاريخنا معبأ في قوالب جاهزة ، اذا ما استطاعت ان تفسر تاريخ شعب ما في مرحلة تاريخية او مراحل فانها تبقى قاصرة عن التعميم ، مما يجعل هذا الفريق مضطرا لان يدخل تاريخنا قسرا في علب الاصدقاء ـ الاجانب كذلك ـ ومن هنا فان من يقرأون لوتسكي وسيملنسكايا متعبدين لمنهجية صارمة ينتهون وبعدمية قومية ضارة الى تزيين الكذبة الكيانية اللبنانية عندما يرون ان كيان الـ ٤٣ قد قام على قاعدة الامارة المعنية ... ويريدون لنا فوق هذا ان نقرأ تاريخ الجنوب على احرفهم دافعين بالحب في طاحونة المشروع الانعزالي دون سواه .

لقد استقطب هذا التوجه جيلنا فأوقعه في امية مظلمة فيما يخص تاريخ لبنان عموما وتاريخ الجنوب على وجه الخصوص .

في محاولة للتصحيح والخروج من الوهم اود ان اؤكد ان عروبة الجنوب ليست حدثا ولذا فاننا نرتكب خطأ جسيما في محاولتنا التدليل عليها . فلا احتضان الجنوب للثورة الفلسطينية ولا استقطاب الجنوبيين بالوحدة وقيادة عبد الناصر دليل على العروبة ، والصحيح ان الجنوبيين كانوا وما يزالون مع الثورة والوحدة لانهم عرب ومسار تاريخهم يوصل الى هذا الموقع وذلك الموقف، وكل احتمال لغير ذلك انما هو احتمال ساقط حتما . وبالتالي فان عروبة الجنوب هي التي تفسر تاريخه ولن يكون تاريخه كاشفا لعروبته في حال من الاحوال .

ـ ٢ ـ

حتى لا نبقى في اطار التأكيد الانشائي لا بأس من العودة الى التاريخ .(١)

ولنتفق اولا ان التسمية ـ الجنوب ـ تسمية حديثة لا يتجاوز تاريخها تاريخ السنوات الاولى للانتداب الفرنسي في المنطقة ، والذي كانت خطته تقضي ـ بغية احكام قبضته ـ بتقسيم المنطقة الى دويلات وكيانات طائفية وقد نفذ جزءا من خطته في بلاد الشام واراد ان يتوسع في التنفيذ ففاحت في الجو رائحة دويلة شيعية في جبل عامل منفصلة ببنيانها السياسي والاداري والاقتصادي عن الحكومة العربية في دمشق .

... في هذه الفترة كانت مشاعر الناس في جبل عامل وعواطفهم كلها مع الدولة العربية وكان الاندفاع شديدا بحيث لا يجرؤ احد على الوقوف في وجه التيار الاستقلالي ، كما يؤكد منذر جابر في (مؤتمر الحجير ـ مخطوط رسالة تخرج في الجامعة اللبنانية) ويضيف اما التعبير العملي الاول عن هذا الموقف السياسي فقد كان الوفد العاملي الذي قصد دمشق لتهنئة الامير فيصل في ١٨ تشرين الاول ١٩١٨ وكان على رأس هذا الوفد كبار العلماء ورجال الدين في

مقدمتهم السيد محسن الامين وفي رأس اهدافهم طلب الوحدة السورية من الملك فيصل ٠

وبعد رجوع الوفد طلب الجنرال غورو الاجتماع برجال الطائفة الشيعية فترددوا في المواجهة ثم استقر رأيهم على المواجهة وعندما ادخل احد الزعماء على غورو عاد مستبشرا قائلا : جئتكم بالبشارة الكبيرة ، فقالوا : وما هي ؟ قال الالتحاق بلبنان ٠٠٠ وجاء الرد بالرفض على لسان الشيخ يوسف الفقيه مجسدا برده ارادة الجماهير العاملية وموقفها الرافض والذي يصوره السيد عبد الحسين شرف الدين بقوله : وقد شهد الكثير من معتمدي فرنسا احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الوطنية الخافقة وهتافاتها الصاخبة فكان لذلك وقعه في نفوسهم وعلموا ان الشكيمة التي يحاولونها شكيمة شديدة لا تـروض ٠

وفي حين اصر الفرنسيون على موقفهم واجههم اصرار العامليين على تمسكهم بالوحدة واخذوا يعدون العدة للمواجهة فكانت مذكرتهم الى لجنة الاستفتاء (٢) تشدد على تمسكهم بالحكومة العربية والوحدة السورية وتشكلت عصاباتهم الوطنية واخذ عمقها الجماهيري يتسع مع اتساع نضالها السليم وتوجت نشاطاتهم بمؤتمر وادي الحجير الذي شهد حضورا جماهيريا كثيفا ووحدة في موقف القيادة ورؤيتها للواقع واصرارها على التصدي للخطة الاستعمارية ، مما ضاعف من شراسة المستعمر الذي استطاع بقواه العسكرية الكثيفة وبالجيوب العميلة اياها ٠٠٠ استطاع ان يضع حدا لهذا التطور الخطر في مواقف العامليين ونضالهم ، فأعمل تخريبا وقتلا وتدميرا فيهم ليعبر على جثثهم ورماد قراهم من الوحدة الى الالحاق بالكيان اللبناني ومن يومها اصبح جبل عامل ، الجزء من سورية العربية ، اصبح جنوبا للبنان ٠

- ٣ -

والسؤال الآن : هل استتبع هذا التغيير في التسمية وما تضمنه من تغيير اداري تغييرا في انتماء الجنوبيين ؟

كان يمكن ان يحدث ذلك لو كان انتماء الجنوبيين للعروبة انتماءا ذرائعيا ٠٠٠ والواقع ان اصالة هذا الانتماء كانت الضمانة التي حالت وتحول دون تحوله ٠ غير ان الذي حصل هو ان المسألة قد ازدادت تعقيدا ، اذ بمجرد تبلور الكيان اللبناني كان هناك مشروع يوازيه للخروج به عمليا عن انتمائه العربي فاتجهت نضالات الجنوبيين للوقوف في وجه هذا المشروع ٠

وفي حين ان الجنوب بواقع كونه امتدادا لفلسطين (٣) قد ترتب له تاريخيا ان يتواصل مع فلسطين العربية كما ترتب عليه بعد الاغتصاب ان يحمل الهم

الفلسطيني الذي ما يزال يحمله وسيبقى لانه موصول بهمومه وليس بعيدا عنها حاضرا ولا مستقبلا ٠

واذا كان ذلك يشكل مظهرا من مظاهر ترسخ الانتماء العربي ، فان توجه الجنوبيين نحو الاطر القومية التي كانت نكسة عام ٤٨ احد الاسباب التي عجلت في تبلورها بسبب من طرحها لمسألة الوحدة وتحرير الارض المغتصبة ، ومن ثم موقف الجماهير الجنوبية المندفع ايجابيا من قيادة عبد الناصر وارتياحها لتحقيق الوحدة ٠٠٠ كل ذلك يؤكد ان الجنوب محصن ضد الانكفاء والسقوط في وهم التجزئة والابتعاد عن المصير العربي ٠ ذلك هو الذي جعل التركيبة اللبنانية ، التي اعطي لها الكيان اللبناني مشروطا بالحفاظ على كيانين خارج حركة التاريخ العربي ، والتي جعلت الخارطة الطائفية دليل عملها ٠٠٠ جعلها تواجه باستمرار اشكالية التعامل مع الجنوب ٠

ربما لم تكن اعوزتها الدقة في اختيار المدخل ٠٠٠ فالجنوب ـ طائفيا ـ اهم مراكز التواجد الشيعي في لبنان ٠٠٠ هذا صحيح ، ولكن كيف يتم التعامل معه وفي اي اتجاه ؟

اذا ما ادخل في التركيبة اللبنانية بثقله فان ذلك يعني انه سيتاح له ان ينمو نموا متكافئا مع غيره من المناطق او الطوائف لا فرق ٠

ولا شك ان هذا النمو سيتيح له قدرا من القوة في التقرير ، وفي هذه الحال سيكون محكوما ولا شك بانتمائه العربي والتزامه بقضايا المصير العربي ، وهذا يعني ان تضاف قوته وتأثيره الى مجمل القوى ذات الانتماء العربي المماثل لتحدث خللا في الصيغة في نهاية الامر ويفلت المشروع من أيدي اصحابه ومهندسيه ٠

تلافيا لهذا المطب تقرر ان يكون الجنوب على هامش الهم اللبناني ، داخل التركيبة ولكن في الحيز الهش منها ضمانا لابعاده عن التأثير والفعالية ٠
ماذا كانت النتيجة ؟

لم يستطع حراس الكيانية وآكلو فتاتها ، الذين نصبتهم السلطة حراسا على حدود الجنوب الاجتماعية والسياسية ان يغيروا في واقع الجنوب وانتمائه العربي شيئا ، بل اضطروا تحت ضغط الواقع الجماهيري ان يهتفوا للوحدة مع الجماهير الجنوبية ٠ وفي حين كان هؤلاء وما يزالون يدركون الاسباب التي تكمن وراء اهمال الجنوب وافقاره بل ويشاركون في ذلك عن رضا وقناعة ٠٠ لم يجرؤوا على اعلان رضاهم مرة واحدة بل ومن تجرأ منهم على التنكر للعروبة والقضايا العربية علنا كان وما يزال يعاني النبذ والكره المتفاقم ٠

وهكذا فان الجنوب المستثنى من الهم والاهتمام اللبناني بهدف اضعافه

لاخراجه من عروبته انتماء ونضالا ٠٠ يواصل هذا الانتماء اكثر صلابة واكثر تهديدا للمعادلة ٠

ـ ٤ ـ

لعل هذا كله يشكل ردا على الذين يرون ان الشيعة في لبنان كانوا خارج توازنات السلطة ولا يرون في نهاية سنتين من الاحداث احتمالا في تبدل هذا الواقع ، في حين انهم ـ محكومين بطموح الدخول في هذه التوازنات ـ يرون خطأ ان في التأكيد على الترابط بين الشيعة والكيان اللبناني ـ حد جعلهما توأمين ـ مدخلا جديدا الى هذه التوازنات ٠ ولكنهم اذ يجمعون في مسار موهوم واحد بين الاصيل والمصطنع لن يغيروا شيئا في موقف ورؤية وعمل اصحاب المشروع الانعزالي الذين لا يعترفون للشيعة بهذه الفضيلة ولا تساعدهم وقائع التاريخ على هذا الاعتراف ٠ فمنذ ان كان العالم الجليل السيد محمد الامين يترأس الوفد العاملي الى المؤتمر الذي انعقد في دمشق عام ١٨٧٨ للنظر في استقلال سوريا الذاتي داخل الرابطة العثمانية كان الموقف الشيعي جزءا من الموقف العربي الذي ظل معارضا للتجزئة والانفصال عن الدولة العثمانية حتى عام ١٩١٥ عندما ظهرت نوايا الاتحاديين في التتريك « وكانت هذه المعارضة تقوم على اساس الموقف المعادي للاستعمار الغربي الذي كان يبغي النيل من وحدة الدولة العثمانية » وهذا ما يفسر الموقف الشيعي ضمن الموقف العربي العام في « حصر التناقض مع الهيمنة التركية قبل عام ١٩١٥ في حيز المطالبة بالاصلاح ونيل حقوق العرب في اطار الدولة نفسها » (الدكتور وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠)٠

ولم يكن هذا الموقف يدور في فراغ تاريخي (٤) كما لم يكن يعكس ارادة قيادية منفصلة عن ارادة الجماهير ، اذ كانت القيادة مشاكلة لجماهيرها العريضة في قيمها ومشاغلها ولم يكن يتخطى الخصوصية الشيعية او يقفز فوقها ، بل كان يرى ، بمنهجية صائبة ، التمايز الشيعي في اطار التماثل العربي والاسلامي ليرى بالتالي عمق الترابط المصيري ولا يرى حلا لمشكلة شيعية او جنوبية او تبديلا في واقع شيعي او جنوبي نحو الافضل يمكن ان يتم ويكون ناجعا اذا لم يكن في سياق تبدل على المستوى العربي ، ومن هنا كان يتعامل مع الوحدة كهدف ومن هنا خاضت جماهيره نضالاتها واعطت وما تزال تعطي لفلسطين وللوحدة ولعروبة لبنان ٠

واذا كان قد اتيح في الماضي للجنرال غورو الالتفاف على الموقف الجماهيري العاملي في مسألة الوحدة والحاق جبل عامل قسرا بلبنان فان الاصالة العاملية

اصالة الانتماء العربي العاملي تبقى ضمانة ضد ان يتحول الطارىء الى ثابت او تنطلي تلك الكذبة التاريخية ٠

— ٥ —

لئن اطلت في البحث عن الجذور فعذري ان غيابنا التاريخي عنها وما انتج من ارباكات لا يعوضه سوى المزيد من الجهد في تلمسها لتكون لنا ضوءا وهاديا ٠

٠٠٠ اذن على قاعدة هذا الانتماء العربي الواضح الاصيل قامت علاقة الجنوب مع الثورة الفلسطينية ، لقد كان الجنوبيون عربا عندما اصيبوا في آمالهم وكرامتهم في الخامس من حزيران ، وكانوا عربا عندما فتحوا عيونهم ذات فجر وآثار النكسة تنغرز في اعصابهم لهبا ٠٠ فتحوا اعينهم على الثائر الفلسطيني يرتحل دمه الى فلسطين ويفتح ثغره من ضوء في ليل النكسة ٠٠ وعندما اختصر الفدائي مسافات اشواقهم وحل بينهم ، احسوا لاول مرة ان تاريخهم يأتي اليهم بكل كبريائه ، احتضنوه ، دافعوا عنه بالاسنان والحجارة وقلوبهم ، مجزرة مجدل سلم ٠٠ انهم يؤرخون لها بالثقوب التي ما زالت تزين الجدران الطينية في القرية الوادعة ولحظات الرعب الاولى المزوجة بفرح الفلاح الذي وجد في الفدائي من يفوقه حرارة في عناق الارض فيخرج من ذاته ليوافيها ويعود وعلى الاخمص آثار من تراب وفي العين ضوء البرتقال وفي الاذن رجع هسيس السنابل في مرج ابن عامر وفي الخاصرة جرح يطل على الاقصى وفي القلب شوق للعودة ٠

العودة ؟ نعم العودة ٠٠ المسافة بين المستحيل والممكن اصبحت مزروعة باحتمالات العودة ٠٠ تقول الرصاصة الاولى ٠

العودة الحلم ٠٠ انه يتماثل للوقوع ، هكذا قالت الرصاصة الاولى ٠٠ واخذت العدوى الثورية تنتشر فكرا وممارسة ، وابتدأت التساؤلات الجنوبية حول واقع الجنوب اكثر الحاحا وحدة من الماضي ٠ تحول النزيف الجنوبي الذي شكل حزام البؤس حول بيروت الى حالة من الغضب ٠

هل عبودية الجنوبي قدر مفروض عليه ؟ ام ان لها اسبابها الموضوعية ؟ وهل هو قادر على تغيير واقعه والخروج من عبوديته ؟ هناك تراث من النضالات الديموقراطية لم تحدث تغييرا ولو جزئيا في واقع الحال ، بل ربما ادت الى تستيره ٠ اصبح واضحا ان النضال الديموقراطي الذي اصبح السلام احتياطيه سوف يسجل بداية التغيير الفعلي فكانت مجزرة مزارعي التبغ في النبطية ، ومعها كان يقين الجنوبيين بأن السلاح هو الطريق لمواجهة القهر التاريخي المفروض عليهم بالعنف والذي يقف سلاح السلطة واحزابها جاهزا لتأمين استمراره ٠

ومع هذا اليقين كان يترسخ يقين آخر بأن الجنوب موصول بفلسطين وان فلسطين هي الاساس في حركة التاريخ العربي وهي محك الالتزام وساحة النضال العربي وان النضال خارجها غير منتج واي تغيير بدونها او في غير طريقها غير مضمون · هذا اليقين انتقل بالعلاقة مع الثورة الفلسطينية من مستوى التعاطف الى مستوى المشاركة الفعلية في الرؤية والفعل الثوري ـ احداث ايار ـ وكان الرد في كفرشوبا وما اعقبها ونتج عنها من مواقف ·· مع احداث كفرشوبا وانطلاقا منها اتضح ان هناك منهجين في التعامل مع الجنوب :

منهج تكتيكي يرى في واقع الجنوب مدخلا الى التغيير في بنية السلطة والنظام فيرى المسألة الاجتماعية في الاساس ويتعامل مع الجنوب بذهنية مطلبية تشكل قاعدة للتشهير السياسي ·

ومنهج استراتيجي يرى الخصوصية القطرية داخل العام القومي ويرى المسألة الاجتماعية بتناقضاتها موصولة بالمسألة الوطنية والتناقض الرئيسي مع العدو الصهيوني · المنهج الاول كان منهج عدد من فصائل الحركة الوطنية التي أتاح لها اتساعها التنظيمي وعمرها السياسي ان تفرض هذا المنهج على غيرها من القوى المنظمة والتي تغايرها في الرؤية والتحليل والالتزام ·

بينما كان المنهج الثاني منهج القوى الوطنية والقومية المستقطبة بالثورة الفلسطينية من موقع الالتزام القومي الواثق · هذا المنهج لم تكن له بناه التنظيمية التي تعادله تماسكا وقدرة في التعبير عن واقع المرحلة مما جعله ينسحب من التعامل مفسحا المجال لهيمنة المنهج الاول الذي استند الى المد الجماهيري الوطني الواسع ليمارس القمع على الملتزمين بالمنهج الاخر ··

وعلى المستوى المطلبي سيطرت الذهنية التجريبية واثبتت تجربة اللجان الشعبية ـ التي ذابت كفص من الملح مع انتهاء الازمات التموينية ـ خطأ وخطل القيمومة على الجماهير لان اللجان التي فرضت على جماهير الجنوب ومن خارجها ظلت كالنبات البري وظلت ممارساتها في خط موازٍ لارادة الجماهير وذوقها ووعيها في حين كانت عصا التخوين والتكفير والتخريب والرجعية تلاحق رأس من يبادر الى النقد مما ادى الى وقوع من كان بامكانه تصحيح هذا الوضع في التراجع والاكتفاء بالممارسة الصحيحة ؟ في حدود القدرة والامكان او طلبا للعذر !!

ـ ٦ ـ

عندما فتحت بوابات « الجدار الطيب » ·· كان واضحا ان هناك اعدادا لاعادة المعركة الى الجنوب والتي ابتدأت منه اصلا ·· لتثبت ان الجنوب هو الساحة الرئيسية وان الثورة الفلسطينية هي الهدف الرئيسي دون ان يلغي

اهمية الاهداف الاخرى فيما يخص المشروع الانعزالي الطائفي ان على مستوى التقسيم او على مستوى الكيان اللبناني الموحـــد الساقط في قبضة الهيمنـة الانعزالية باحكام اكثر شدة · اذ ذاك ارتفع صوتان في الجنوب ، الصوت الذي اعتاد التشهير السياسي بالسلطة ناعيا عليها اهمالها للجنوب ولم يتح له او لم يرد الوصول الى الاسباب في جوهرها · هذا الصوت ارتفع مصرا على ان يرى البوابات المفتوحة نتيجة لنقص المواد والسلع التموينية في قرى الشريـط الحدودي · وقد كشفت الاحداث فيما بعد ان من اطلقوا هذا الصوت عندما اصبح لهم حضورهم الكامل على ارض الجنوب لم يلتزموا بخطهم المطلبي برغم ما توفر لهم من امكانيات . ونظرة الى ما يعانيه الجنوب الان من نقص فـي أسباب الصمود ترينا الى اي حد كان التقصير فاضحا ·

كان من السهل ان يسمع هذا الصوت لولا انه قد ترافق بما هو أمر ·· لقد اغتر بالتراجع الجماهيري ـ شكلا ، ونتيجة عدد من الاشكالات ـ عن الالتزام القومي مجسدا في الموقف من القضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية ، وظن ان هذا العارض الطارىء هو اصيل في طبع جماهير الجنوب وقناعتها · وشهد الجنوب موجة من التشهير بالثورة الفلسطينية ، ارتكازا الى السلبيات الجزئية التي لم يسلم حتى المشهر ون منها وضخموها على قاعدة من الارتداد القطري الضيق الذي وصل حد القول : مالنا ولعروبة لبنان ؟ مالنا ولفلسطين ؟ والتنظير للبنان الكيان الذي تكون ونما وتطور خارج مسار حركة التاريخ العربي كله !!

الصوت الاخر كان اقرب لمسار الاحداث ومؤشراتها فأعلن منذ البدء ان (قدر الجليل والجنوب ان تلتقي فوق ارضهما المصالح الحقيقية للشعبين اللبنانـي والفلسطيني ، والمطامح القومية المشروعة لنضالهما فيشكلان معا مشروعـا ثوريا لا يستطيع الا ان يكون جذريا ولا خيار له سوى ذلك ، وهو هو قـدر الجليل والجنوب ان يصطدم المشروع الثوري الجذري فوق ارضهما بالمشروع الصهيوني الانعزالي (محمود سويد ـ شؤون فلسطينية ـ العدد ٦٥) ·

بين هذين الصوتين كان هناك سؤال « ما يجري في الجنوب هل هو مفصول في مأساة ؟ ام انه مراحل في معركة ، ومعركة طويلة جدا ؟

على التقدير الاول لا بد من الدخول مع الجنوب في مرحلة جديدة من الحزن والشعر والانكسار والدمع · ·وعلى التقدير الثاني لا بد من الاعداد والمواجهة والتصدي ·

كان قرار الثورة الفلسطينية كما هو دائما التصدي ··

فماذا عن موقف جماهير الجنوب ؟

هل كانت عمقا للمعركة وما تزال ام انها اصبحت مجرد عناصر حية في لوحة

المأساة ؟ اسارع الى القول بأن جماهير الجنوب قد اثبتت ان انتماءها العربي ربما يكون بعفويته اكثر ثباتا وعمقا من انتماء الكثير من طلائعها ٠٠ قد تخفت شعلة هذا الانتماء حينا من الزمن تحت وطأة الخطأ او التراجع يساعدهما التشهير والارتداد الطلائعي ، ولكنها ـ الجماهير ـ مع اول انتصار مهما كان حجمه تستعيد عافيتها الثورية ومع اي صمود تعود جماهير الجنوب الى أصالتها ونقائها والتزامها اكثر توهجا وصبرا على العطاء٠هذه بالفعل بعض دروس معركة الطيبة ورب ثلاثين ومعركة الصمود الاخيرة في الخيام ٠٠ حيث كانت جماهير الجنوب على يقين بأن العدو الصهيوني ـ الانعزالي هو الذي فتح المعركة فعلا لتوسيع الزاوية التي انحشر فيها ولكن لم يكن لا هو ولا الولايات المتحدة من انهى المعركة ٠٠ الذي انهاها هو صمود الثورة بحفنة المقاتلين اياهم والذين ابتدأوا من الواجب لا من الممكن فحسب ، وخاضوا معركة غير متكافئة ولكنهم صمدوا لانه كان لا بد من الصمود تماما كما في الكرامة وكفرشوبا ولانهم كانوا على يقين بأن اي ثغرة تفتح في جسم الجنوب عسكريا تعني في النهاية ان المشروع الانعزالي الصهيوني قد قطع بنجاح مرحلته الراهنة على حساب فلسطين وثورتها ولبنان وعروبته ٠ كانت تلك قناعة الجماهير التي عاشت المعركة بالعين والاذن والاعصاب وبالحس النضالي على عكس المنظرين المكتتبين الذين لا يرون سوى الولايات المتحدة في البدء والمنتهى ٠٠

ـ ٧ ـ

مستقبلا ٠٠ قد يكون نجاح المشروع الانعزالي على الساحة اللبنانية مرادا ٠ وقد يكون تحقيق المطامع الصهيونية في حياة الجنوب هدفا ٠٠ كما قد تكون اعادة الجنوب الى قبضة القوى المضادة هدفا ايضا ٠ ولكن كل هذه الامور تبقى امورا فرعية امام الهدف الرئيسي ٠٠ فلسطين وثورتها والتي ابتدأت فعلا بانتصاراتها العسكرية والديبلوماسية تظهر للعالم اجمع مدى الاهتزاز الذي يصيب الاستراتيجية الصهيونية التوسعية في المنطقة ٠

وعندما تكون فلسطين وثورتها هي المقصودة فان ذلك يعني ضمن مسار التاريخ العربي الحديث ان اهداف الامة العربية وتطلعاتها في الوحدة والتحرر هي المقصودة اساسا اذ فلسطين في كل الاحوال هي الشرط والركيزة ٠٠ والجنوب العربي امتداد افلسطين وساحة تتجمع فيها الان كل احتمالات المستقبل ، واذا ما كنا نراهن باستمرار على ان الخط الخارجي قد عودنا ان يثمر المزيد من التماسك والتضامن في الموقف العربي كما نراهن على ان النصر حليفنا في النهاية فان ذلك لا يعفينا بل يحتم علينا ان نتوجه جنوبا لنأخذ موقعنا مع الثورة الفلسطينية في التصدي الجدي للهجمة الصهيونية الانعزالية التي ما ان تتراجع تحت ضغط الثوار حتى تعود لتطل برأسها قارعة

ناقوس الالتزام العربي جاعلة من الجنوب محكا ومختبرا للنوايا والالتزام ٠

يقول الدكتور شوفاني ـ شؤون فلسطينية عدد ٦٥ ـ « ٠٠ والجنوبيون الذين استقبلوا اخوانهم الجليليين في عام ١٩٤٨ يعون جيدا مطامع العدو الصهيوني في ارضهم ومياههم وكذلك امكان ان يلاقوا هم انفسهم ذات المصير ٠ **ولكن الجنوب فقير مما قد يجعله معرضا لاغراءات العمالة في الاقتصاد الصهيوني او اكثر استجابة لحوافز النزوح اذا لم تعالج المشاكل المزمنة التي يعاني منها فلاحوه** ٠٠ » ٠

الان اكثر من أي وقت مضى يدخل الجنوب تاريخ فلسطين بكل حيثياته وابعاده مما يحتم بالتالي ان يتحول التعامل العربي معه من مستوى منطقة محرومة في قطر عربي الى مستوى التعامل مع القضية الفلسطينية بكل ابعادها المصيرية ٠ وهنا يصبح الكلام عن برنامج انمائي عربي للجنوب يحقق شروطا جديدة على مستوى الاطر التي تنفذه والسياسة التي تحكمه والقوى العربية التي تدعمه يصبح هذا الكلام موازيا في الاهمية للكلام عن الدعم العربي للثورة الفلسطينية وتأمين استمرارها بما ترتب لها في اعناق العرب من حقوق وواجبات قدمت كفاء لها دم شهدائها على طريق الكرامة العربية ٠

هوامش

١ ـ ينقل السيد محسن الامين في كتابه (خطط جبل عامل) عن ابي الفدا في تاريخه قوله : واما بنو عاملة فهم ايضا من القبائل اليمانية التي خرجت الى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة ٠ ويؤكد السيد الامين ان قبيلة عاملة العربية كانت قبل الاسلام في حكم هرقل ملك الروم وان ذكرها جاء في غزوة تبوك فقال المؤرخون بلغ النبي (ص) ان هرقل اجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان ٠ وعندما يعد صاحب التحفة الازهرية العامليين في مقابل العرب يرد السيد الامين مؤكدا عراقة العامليين في العروبة بدليل انهم من نسل عاملة بن سبأ ٠ وان عاداتهم هي العادات العربية المعروفة وان لغتهم هي أقرب الى الفصحى ٠٠ ويقول انهم عرب صميمون عريقون في العروبة واعرق فيها من جميع سكان المنطقة ٠

٢ ـ جاء في المذكرة التي رفعها السيد عبد الحسين شرف الدين الى اللجنة :

٠٠٠ أما بعد فانني اؤكد الحديث الذي اوردته واخي الامام الشيخ حسين فضية واسجل في هذه الوثيقة خلاصة الرأي الذي أدلينا به عشية الاجتماع ، منعا لكل لبس لدى المترجم ودفعا لاي دس من الذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، واليكم ذكرا في هذه البنود : **اولا:** لا نرضى بغير استقلال سوريا التام الناجز ، بحدودها الطبيعية التي تضم قسميها الجنوبي (فلسطين) والغربي (لبنان) وكل ما يعرف ببر الشام دون حماية او وصاية ٠ **ثانيا :** تكون الحكومة ملكية ، ذات عدالة ومساواة ، يستوي فيها جميع الناس كافة ، في الحقوق والواجبات ٠ **ثالثا :** الامير فيصل ، هو مرشح العرب الطبيعي لملك سورية لما له من جهاد في سبيل القضية العربية ٠ **رابعا :** لا حق اطلاقا لما تدعيه فرنسا في اي بقعة من سورية ،

ولا نقبل اي مساعدة منها · الخ ·· اما مؤتمر الجحير فقد انعقد في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وكان اهم مقرراته هو ان (المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية ، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكا على سورية ·· ورفض الدخول تحت حماية او انتداب الفرنسيين) · وانتخب السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين لحمل المقررات الى دمشق ·· (محمد جابر ال صفا ـ تاريخ جبل عامل)·

٣ ـ يقول محمد كرد علي في خطط الشام نقلا عن الهمذاني : واما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر الى ان قال وجبل الجليل واهلها قوم من عاملة·

ويقول اليعقوبي : وجبل الجليل واهله قوم من عاملة · وينقل السيد محسن الامين في خططه عن الشريف الادريسي المتوفي سنة ١١٨٧ انه قال عن صيدا ان لها اربعة أقاليم ·· اقليم جزين واقليم السرية وهو اقليم جليل واقليم كفرفيلا واقليم الرامي ··

٤ ـ البقاع وجبل عامل من ١٥١٦ الى عام ١٦٦٠ جزء من ولاية دمشق الى ان استحدثت ولاية صيدا واصبح جبل عامل تابعا لها بينما ظل البقاع تابعا لولاية دمشق ·

معـــين بســـيسو

دفـــاتر فـــلسطينية "٤"

الدفتر السادس

بدأنا العمل ٠

جاء الرفاق الاردنيون المنفيون من الاردن وعلى رأسهم الرفيق فخري مرقة ، وفور وصولهم قدموا انفسهم للحزب وقدمهم الحزب للجماهير ٠

كان فخري مرقة بيده اليمنى التي يهزها دائما حينما يتكلم ، بعينيه اللتيـــن تلمعان بحب فوق الوصف لفقراء الناس وللاشياء الصغيرة البسيطة في حياتهم ٠ فخري مرقة كان نبع ماء تفجر في الحزب ٠ وفي اللقاءات الوطنية كان صوته هو الذي يحسم بمسؤولية وتواضع وحنان العديد من القضايا ٠

حينما كنا ننام معا في حجرة واحدة ، كان يصحو عند الخامسة تماما ، يرتدي ثيابه ويبدأ يسير في الحجرة واصحوا على خبطات حذائه فيعتذر ويقول :

ـ آسف ولكن هذا ما علمتني اياه العسكرية ٠

كان يحب الشيخ حسن سلامة بدمه وكان فخري مرقة بالنسبة للشيخ مثل يده وقلبـــه ٠

□

النضال اليومي للحزب ، كان يتجه اساسا الى تكوين الجبهة الوطنية المتحـدة العريضة ، هذه الجبهة الوطنية التي كانت تضم العشرات من الوطنيين عـــلى اختلاف انتماءاتهم السياسية ، كانت هي القوة السياسية الرئيسـية في قطـــاع

غزة ، والتي تصدت لقيادة النضال السياسي بعد اسقاط مؤامرة التدويل وعـودة الادارة المصرية الى قطاع غزة ٠

كنا قد عدنا جميعا الى مدارس الوكالة ، وبالمساندة الشجاعة لخليل عويضة ٠ وعدت ناظرا لمدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ٠

□

قررت مع صهباء البربري ، ان نعلن خطوبتنا رسميا ٠ ولكن والدتها كانت تقيم في القاهرة ، وطلبت ان اذهب اليها٠ انا الممنوع من السفر الا كمعتقل في قطار ٠ وتوسط بعض الاصدقاء لدى الحاكم الاداري العام ، فأعطتني المباحث ، تصريحا بالسفر لمدة ثلاثة ايام ٠

وسافرت للقاهرة ، مصطحبا شرطي مباحث ـ ربما ارسلوه كشـاهد زواج ـ ولقد كان شكله غريبا وهو يصعد ورائي الدرج ، الى شقة والدة خطيبتي ، وهـو يحمل باقة كبيرة من القرنفل الاحمر ٠٠ اشتريتها فأصر على حملها ٠٠٠

شرطي مباحث ، يحمل باقة قرنفل ٠٠٠؟

تم اعلان الخطوبة ، ووضعت الخاتم في اصبعي ، ومضينا الى مطعم صغير ، وكان المناضل العراقي نوري عبد الرزاق حسين هو الشاهد الوحيد ، كان وجوده هو هدية الحزب الشيوعي العراقي لي ٠

في هذا الوقت ، صدر لي عن دار الفكر في القاهرة ملحمة :

« مارد من السنابل » :

ـ قد اقبلوا فلا مساومه

المجد للمقاومـــه

كتب مقدمة الملحمة الدكتور عبد العظيم انيس ٠

وديوان (الاردن على الصليب) :

ـ انا مصلوب اغرد

ولعمان ونابلس واربد

وكتب مقدمته الدكتور عبد الرحمن شقير ، ورصد ثمنـه لمسـاندة المعتقليـن الاردنيين ٠

□

اعلنت المخابرات فجأة عن اكتشاف مؤامرة لالحاق قطاع غزة بالاردن ، وقالت المخابرات ، ان الذي كشف المؤامرة هو : مصطفى ابو مدين · وان رأس المؤامرة : سعدي الشوا ، وانه يتصل بالملك حسين عن طريق حابس المجالي ·

المخابرات تريدها محاكمة سرية ولكن الحزب رفض ومعه القوى الوطنية وطالب بمحاكمة علنية ، ما دام هناك مؤامرة ·

وبالفعل تمت المحاكمة العلنية في قاعة مدرسة فلسطين الثانوية الرسمية، وكان يرأس المحكمة العسكرية : محمد المهدي حميدة · وحكم على سعدي الشوا بالاعدام ·

بعد ذلك بشهور ، انتقل محمد المهدي حميدة ، كمدير عام للمباحث الى وظيفة اخرى هي : هندسة الغارات الدموية على مدارس الوطنيين ، في حملة اصطياد علنية لرؤوسهم ·

حينما اعلنوا الجمهورية العربية المتحدة ، كنا اول من قاد التظاهرات في قطاع غزة ، تأييدا لها ولم نكن نتصور ونحن ملء الشوارع نتظاهر من اجلها ، انه سيأتي وقت قريب ، توضع فيه كل القوى الديمقراطية والوطنية والشيوعية ، في بانيو مليء بماء النار ·

وكالصياد الذي يعود لا يحمل سمكا في سلته لبيته ، ولكنه يملأ سلته بالزنبق البري من شاطىء غزة ، كنا نعود الى ثورة ١٤ تموز · كانت عطر الزنبق البري الوحيد الذي يفوح وسط حقل العقارب الذي وضعنا فيه ···

ولحسن حظ الرفيق فايز الوحيدي ، انه مات مكرما من الحزب والجماهير ، قبل هجمة الهكسوس الجدد ·

بدأت الغارات الاعلامية ضد القوى الديمقراطية والشيوعية تجتاح كقطعان من الجراد كل شيء اخضر في الوطن العربي ·

فالمباحثات بين انور السادات ومحمد امين العالم ، كمندوب عن الحزب الشيوعي المصري ، قد فشلت ، كان المطلوب من الحزب الشيوعي المصري ان يحل نفسه ـ ما دام كل شيء على ما يرام ···؟ ورفض محمود امين العالم ، لا لان كل شيء على ما يرام ، بل لان احدا لا يملك حق حل حزب شيوعي · والنتيجة بالطبع كانت الغارة على الحزب الشيوعي المصري ، والقبض على اعضائه في اول يناير ١٩٥٩ ·

وبدأوا يفتحون في القاهرة ، ملف الشيوعيين والديمقراطيين في قطاع غزة ·

الهواء ينقل بذور جوز الهند الى الضفة الاخرى في الشاطىء الآخر ، والهواء الذي ينقل البذور ، ينقل ايضا ، بذور اصوات البلطجية · وانتقل « الصوت »

صوت « احمد سعيد » الى هواء قطاع غزة ٠

محمد المهدي حميدة ، الذي كان يجلس في استراحته على شاطىء غزة ، والى جواره كلبه وسلة مليئة بالسردين الخارج لتوه من الشبكة ، السمك الذي كان لا يزال يرتعش ، فيمسك محمد المهدي حميدة ، بالسمكة التي تكاد تنط من يده ، ويلقمها لكلبه ٠٠٠

كان ـ سمكة القرش ـ هذا ، يريد ان يفعل بنا ، ما كان يفعله بالسمك ، ان يلقمنا لافواه كل القوى الفاشية والتي كان اشدها عداء ، « العقائديون الفاشيون » وفلول الاخوان المسلمين ٠

الدم والحديد والنار ، اصبح ضد الشيوعيين والديمقراطيين ، والامة العربية الواحدة يجب ان تتوجه ضدهم :

بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

هكذا كانوا يصرخون في ساحات المدارس ، في حجرات الدراسة ، ويهدد بعض الطلاب الذين جندتهم المباحث والمخابرات ـ ودخلت اليهم من خلال الفم الجائع ـ مدرسيهم من الشيوعيين والوطنيين ، داخل حجرات الدراسة ٠ غير ان تهديد المدرسين بواسطة بعض طلابهم لم يعد يكفي ، ولم تعد تكفي ايضا كتابة الشعار المشؤوم فوق اللوح او فوق الحائط :

بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

وبدأوا يستدعون المدرسين والطلاب الى مكاتب المباحث والمخابرات ، ويطلبون منهم ، اعلان استنكار الشيوعية في الجرائد ٠٠٠ او في ساحات المدارس امام الطلاب ؟

في الباص ، او في التاكسي ، كان يتبعك دائما احد المباحث ، يأخذ مكانه الى جانبك او الى جانب السائق ، او احد الركاب ، ويرفع صوته بلا مناسبة :

ـ لقد القوا القبض على احد الشيوعيين وهو يحاول ان ينسف تمثال الجندي المجهول ٠٠٠ ؟

ثم يلتفت اليك وامام ركاب التاكسي او الباص ويسألك ، وعيناه تكادان تلدغا وجهك :

ـ هل انت شيوعي ٠٠٠؟

وتكتم البصقة ، وتهبط من الباص او التاكسي ، ولكنه يهبط ويمضي وراءك ٠٠ كل هذا الجراد الذي انطلق من آذانهم وعيونهم وافواههم لم تكن له نتيجة ، كان عضا في الهواء ٠

واتخذوا اسلوبا جديدا غريبا ، لم تكن تعرفه المدارس في تاريخها ٠

فجأة ٠٠٠ تكسر بوابة مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ، مجموعة تحمل الحجارة واغصان الخروع ، وتقتحم ساحة المدرسة وهي تصرخ :

ـ يسقط عبد الكريم قاسم ٠

ولماذا يهتف بسقوط قائد ثورة ، في مدرسة تحمل اسم صلاح الدين الايوبي ؟

جاءني البواب « ابو سليم » ، وبعض المدرسين ، اتضحت المؤامرة تماما ، فأصدرت على الفور قرارا للمدرسين باغلاق الفصول الدراسية على الطلاب ، ومنعهم من الخروج ٠

كان بعض المباحث مع التظاهرة ، وبعض الطلاب من مدرسة الزيتون الاعدادية للاجئين ، التي انطلقت منها تلك المجموعة من الطلاب ، فانضم اليهم عند بوابة المدرسة شرطة المباحث والمخابرات وبعض العقائديين والاخوان المسلمين وقادوهم الى مدرسة صلاح الدين الاعدادية ٠ الى مدرسة « الكبش الشيوعي » ٠

كانت المباحث والمخابرات تريد بأي ثمن ان يشتبك « المتظاهرون » مع الطلاب ، ويقترف شرطة المباحث والمخابرات مذبحتهم ٠

دخلت مكتبي ، واغلق ابو سليم باب المكتب ، ووقف امامه ، ووقف معه بعض المدرسين ٠

وبدأت الحجارة تنهال على نوافذ مكتبي ٠٠٠ فتحطمت ٠٠٠ وتجمعوا حول النافذة وهم يلوحون بالعصي ، ويصرخون :

ـ اهتف معنا بسقوط عبد الكريم قاسم ٠

ويكسرون الباب ويدخلون ٠

ويتوقفون عند باب المكتب ولم يكونوا يدرون ما هي خطتهم المقبلة ٠

امام ترددهم الذي دام لحظات خرجت بهدوء من بينهم ٠٠٠ فتبعوني الى الساحة ٠٠٠ وحملني احدهم على كتفيه ، بينما صاح آخر :

ـ اهتف بسقوط عبد الكريم قاسم ٠

ـ اهتف بسقوط الشيوعية ٠

قبل اربع سنوات ، كنت مرفوعا فوق كتفين ٠٠٠ يسقط الرفيق حسني بـلال لينقذني من الرصاص ٠٠٠ قبل اربع سنوات ٠٠٠

ويستعجلني احدهم :

ـ لماذا لا تهتف بسقوط الشيوعية ، وسقوط عبد الكريم قاسم ٠٠٠؟

شرطي مباحث يفح في اذن احد الطلاب ، ويبلغني الفحيح :

ـ انه شيوعي ٠٠٠

الموقف يزداد سوءا ٠٠٠ وصرخات طلابي تشق زجاج النوافذ وتصل الـي كقطرات الندى ، كتيار من النسيم ٠

كانت الجريمة فوق اطراف عصيهم ٠٠٠ وفوق طوب القرميد الذي يحملونه ٠٠ وفي عيونهم الزجاجية ٠ ويضيق علي الجنزير الذي ضربوه حولي ٠٠٠

وفجأة ، يخرج شرطي المباحث مسدسه ، ويطلق رصاصة فوق رأسي ، كانت لديه تعليماته وكانت الرصاصة اشارة بدء الهجوم علي ٠

فوجيء المتظاهرون ، بطلقة المسدس ، وانفتحت ثغرة في الدائرة ، كانت تكفي لكي اندفع منها وانطلق اركض بكل قواي ٠

فوجئوا بهروبي ، وفوجئت الشرطة ، وما اسرع ما انطلقـوا ورائـي وهـم يقذفونني بالحجارة ويصرخون :

ـ امسكوه ٠٠٠

ولكنني كنت قد بلغت البوابة ، واندفعت منها الى الشارع ، ودخلت بـاب اول بيت وجدته مفتوحا واغلقت الباب ورائي ٠٠٠ كنت اسمع صراخهم وهم يقتربون من البيت ، وكان بيت الطبيب ـ صالح مطر ـ وانا مدين لهذا الرجل الطيـب بحياتي ـ وسلام عليه اينما كان ٠ فحينما بدأ (المتظاهرون) ، يقذفون نوافـذ البيت بالحجارة ، ويحطمون الزجاج ويدقون بعصيهم على الباب ، حمل كل مـا يمكن حمله هو وزوجته ووضعاه خلف الباب الذي راح يهتز تحت ضربات العصي وقضبان الحديد ٠ طلب الي ان اصعد الى الدور الثاني ٠

ـ لو اقتحموا الباب تستطيع ان تهرب من فوق السطح ٠ سطوح البيوت فـي حارة الدرج ، ملتصقة ببعضها البعض ، وكأنها سقف بيت واحد ٠

وراح الدكتور ـ صالح مطر ـ يتصل بالمسؤولين ٠٠٠ كانوا يعرفون انني في بيته ، فلم يردوا عليه الا بعد ساعة ، وظنوا ان « متظاهريهم » تمكنوا من اقتحام البيت والاجهاز علي ٠

ولكن خروج الجيران من بيوتهم ، ومنظر شرطة المباحث والمخابرات بين هـذه الجوقة من المتظاهرين ، جعلت شرطة المباحث والمخابرات تبتعد كأنها تراقـب ، وترددت الجوقة ٠

فوجىء كامل حسين قائد المخابرات بالدكتور صالح مطر ، وهو يبلغه انني في بيته ، وهناك متظاهرون يريدون كسر البـاب ، وكان اول سؤال يسـأله كامل حسين :

ـ هل هو بخير ٠٠٠؟

وكان جواب الدكتور صالح مطر :

ـ انه لم يصب حتى بخدش ٠

ولم يكن يعرف ان هذه الجملة قد ازعجت قائد المخابرات كثيرا ٠

ـ لم يكن يريدني مخدوشا ، ولكنه كان يريدني جثة ٠

وارسل كامل حسين احد ضباطه « سعيد يحيى » ـ هذا الضابط فيما بعد قامر بنقود المخابرات وزور شيكات ٠٠٠ وطردوه ـ وجاء الى بيت الدكتور صالـح مطر ، لاصطحابي الى مكتبه ٠

الضابط وصل ٠ واختفى المتظاهرون في غمضة عين ٠

واخذ يفحصني بعينيه :

ـ عجيب ، انك لم تصب حتى بحجر ٠

واركبني الى جانبه في سيارته وهو يقول :

ـ لن نمر بالشارع الرئيسي ، انك تعرف لماذا ٠٠٠؟

وكنت اعرف ان ضابط المخابرات ، اصبح يهددني بالجماهير ٠٠٠؟

اول ما وصلت مكتب قائد المخابرات صاح :

ـ لقد انتهيت ٠

ويتردد كامل حسين لحظات قبل ان يقول :

ـ اسمع ، هذه المرة افلت ، في المرة القادمة لن تفلت ٠

ونظر الى الراديو فوق مكتبه وقال :

ـ انني اتلقى تعليماتي من الراديو ٠

وكان راديو القاهرة ، في كل نشراته الاخبارية ، يعلن عن اصطياد الشيوعيين في الشوارع ٠

ـ اذهب الى بيتك ، ولا تخرج ابدا ، يمكن ان استدعيك في اية لحظة ٠

امام بيت عمي عاصم ، حيث كنت اقيم ، رابط شرطي مباحث ، وشرطي مخابرات ، كان كل واحد يراقب الآخر ، وهما معا يراقبانني ٠

بعد الغروب ـ كانت خالتي ـ (وظيفة) تغلق الباب ، وتضع وراءه طاولة ضخمة ٠ وترقد فوق كرسي الى جوار التليفون ، امام باب حجرتي حتى الصباح ٠ وكنت اجلس مع عمي عاصم ، كل واحد منا ينظر الى الآخر ولا يتكلم ٠

في اليوم التالي ، انتقلت الغارة من مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ، الى كافة مدارس القطاع ، ووصلت الى مدارس البنات ايضا ٠

بعض الطالبات والمدرسات العقائديات ، في مدرسة الزهراء الثانوية الرسمية ، وصل الصوت اليهن ايضا ، فتنادين لجر مدرساتهن من ضفائرهن ٠

ضربن دائرة حول صهباء البربري ورحن يهتفن بسقوط الشيوعية ٠

غزة التي ترتفع حجارة بيوتها بين كتفي زيتونة ، غزة الصدفة التي كانت تأوي اليها السفن الآتية من كل البحار ، غزة التي كان لاهلها دائما عرسهم الواحد وجنازتهم الواحدة ، غزة التي كانت تفرش الزنبق والريحان تحت اقدام علمائها ، وتحترم الكتاب ، كما تحترم قرص الشمس ٠ حولوها في يناير وفبراير ومارس وابريل ١٩٥٩ ، الى اسطبل للسكاكين ومسدسات المباحث وهراوات المخابرات والاخوان المسلمين والشوفينيين ٠ وجعلوا بعض الطلاب يبصقون على ايدي مدرسيهم الذين علموهم بتلك الايدي ٠

الكرنفال بالملابس العادية ضد الشيوعيين والوطنيين ، من اجل ان تستكمل المذبحة كل تضاريس وجهها القبيح ، كان لا بد من تظاهرة خاصة جدا ، يقوم بها الاخوان المسلمون في شوارع غزة ٠

فور انطلاق الحملة الصليبية ، استولى الاخوان المسلمون على المآذن في غزة وخان يونس ورفح ودير البلح ٠

صعد احدهم درج المئذنة وفوقها ، بدل ان يصيح الله اكبر ، كان يصرخ :

ـ تسقط الشيوعية ٠

ذات يوم مشؤوم من ابريل ١٩٥٩ ، رفعوا المصاحف فوق ايديهم ، المصاحف التي لم يرفعوها ابدا ضد حلف بغداد ، ولا في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي ، لم يرفعوها من اجل عودة الادارة المصرية لقطاع غزة ، ولا من اجل الجمهورية

العربية المتحدة ، ولا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ٠

ها هم يرفعون المصاحف في ايديهم الآن ويصرخون :

ـ قرآنكم في خطر ، تسقط الشيوعية ٠

والقرآن لا يكون في خطر ، الا حينما يرفعه هؤلاء ، الذين قبلوا ان يدخلوا بمصاحفهم ، الحجرة النجسة ، لمدير المباحث ومدير المخابرات ، حيث قام الاثنان بتنظيم تظاهرة حملة المصاحف في شوارع غزة ٠ واقتربت المؤامرة من دورها النهائي ٠

استدعت ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين : خليل عويضة ، وقدمت له قائمة بأسماء المدرسين في الوكالة ، والذين يجب طردهم من المدارس ، حتى تتوقف التظاهرات ٠٠٠؟

ورفض خليل عويضة ، ان يوقع على حد السكين ٠ ولم يكتف بهذا الرفض ، بل طالب المسؤولين بحماية المدارس من حجارة البلطجية ، وحمل ادارة الحاكم الاداري العام ، مسؤولية المحافظة على النظام ٠

وخرج خليل عويضة ، واضيف اسمه الى قائمة المطلوب طردهم واعتقالهم ٠

□

وانت محاصر في حجرتك ٠ عيون المباحث والمخابرات مصوبة اليك كفوهات المسدسات ٠ يأتي اليك صوت البحر فتذهب اليه ٠

البحر دائما يضع « طاقية الاخفاء » ، على رأس المطارد ويخفيه عن العيون ٠

وكنت امضي الى البحر ٠ اتذكر وانا في العاشرة من عمري ، حينما كنا نمضي الصيف على شاطىء البحر في خيمة ، كنت اتبع شبكات الصيادين ٠ يقعدون فوق ركبهم على شط البحر ، والشبكة تتهدل فوق ذراعهم ، وينظرون للبحر ٠ وآخذ مكاني الى جانب الصياد ، وانظر انا الآخر الى البحر ٠ فجأة تلمع قوالب الفضة المخضبة بعروق الذهب في الموجة ، وينهض الصياد ٠٠٠ يمضي في الماء حتى وسطه ٠٠٠ وهو يرفع شبكته ثم يفردها ٠٠٠

ويسحبها ويعود بها الى الشاطىء ٠٠٠ مثقلة بفضة البحر ٠٠٠

ذات يوم قررت ان اكون صيادا ، وبعد الحاح ، اشترت لي خالتي ـ مريم ـ شبكة صغيرة ٠ ولم اكتف بالشبكة ، فطالبت بثوب الصياد ، وبالحبل الذي يلفه حول وسطه ، فيصبح للصياد ذلك العب ، الذي يضع فيه السمك ٠

ولبست ثوب الكتان ، وحزمت وسطي بقطعة حبل ، ومضيت بالشبكة ٠ طال

انتظاري ، وانا انظر الى البحر ، ولم تلمع قوالب الفضة في الموج · وبقيت في مكاني ، حتى بدأت الشمس تسقط في البحر · كان يعز علي ان اعود هكذا الى خيمتنا ··· وعبي فارغ ···

مر احد الصيادين ، كان يعرف عائلتي ، نظر الى الشبكة ، كانت ناشفة تماما ، ولم يتكلم · اخرج ثلاث سمكات من عبه ، ووضعها في عبي ، وابتسم ومضى··

القيت الشبكة في الماء لتبتل ووضعت فيها بعض عشب البحر ، ومضيت اركض الى الخيمة ···

يا الله ···

لا حد للمقاومة التي تعطيها لك الطفولة التي تفوح منها رائحة البحر · ولكن عملية الصيد الكبرى ، تم تنفيذها في منتصف ليل ٢٣ـ٢٤ ابريل ١٩٥٩ ·

عند منتصف الليل تماما ، طرقوا الباب ، ورفضت خالتي ـ وظيفة ـ ان تفتح · صاحت من وراء الباب وهي لا تدري ماذا تقول :

ـ عودوا في الصباح ···؟

وبدأوا يدقون الباب بكعوب بنادقهم ·

وتقدمت منها :

ـ لا فائدة ··· لا بد ان نفتح الباب ، ونعرف ماذا يريدون ·

كنت اعرف تماما ماذا يريدون ···

وفتح عمي الباب ، فاندفعوا منه · كانوا جنودا في ثياب الميدان ، الخوذات الفولاذية تغطي رؤوسهم ، والبنادق في ايديهم ، ضابطهم كان يشهر مسدسا · كانوا كمن يقتحمون كيبوتسا ·

من هول المنظر ، سقطت خالتي فوق الارض ، ومنعوني من الوصول اليها · احاطوا بي وطلبوا مني الخروج معهم ·

كان عمي قد سقط الى جانبها وصرخت :

ـ اطلب الدكتور حيدر عبد الشافي فورا ·

ولكن احد الجنود ، اقتلع التليفون من مكانه فوق الطاولة ، والقى به فوق البلاط فتحطم ··

وماتت خالتي ـ وظيفة ـ وانا لا ازال عند باب البيت ، لم اركب الجيب العسكري بعد ··· ماتت بالذبحة الصدرية ·

وحينما اسرع الدكتور حيدر عبد الشافي ، بعد ان كلمه عمي عاصم من تليفون الجيران ، كان قلبها قد توقف ٠٠ هذا القلب الذي كان طول الوقت ، طائر النورس الذي يرفرف فوق رأسي في زنزانتي في السجن الحربي في القاهرة ، فكلما كان حمزة البسيوني يصرخ :

ـ استنكر الشيوعية ٠

كان صوت قلب خالتي ـ حيث تركته ملقى فوق البلاط ، يطغى على صوت حمزة البسيوني ، يدق :

ـ لا تدعهم يقتلوني مرة ثانية بالذبحة الصدرية ٠

ولم امكنهم من قتلها مرة ثانية ٠٠

في ١٩٥٩/٤/٢٧ ، اي بعد اعتقالي بثلاثة ايام ، تم طرد ابي وامي واخوتي من الكويت ٠٠ مع العشرات من المدرسين والموظفين ٠٠٠

وهكذا قتلوا خالتي ، وطردوا اسرتي ، واعتقلوا خطيبتي ، واعتقلوني ٠

الدفتر السابع

مستطيلات ومربعات من الطوب الاصفر ، يحيط بها سور من الطوب نفسه ٠٠٠ وفي كل زاوية من زوايا السور ، يرتفع برج (الطابية) يشبه المئذنة ، وفوقها يقف طول الليل حارس ، يراقب ساحة السجن والسور ويصرخ في صوت ممطوط :

ـ نمرة واحد تمام ٠

ويجيبه صوت الحارس في الطابية الثانية :

ـ نمرة ٢ تمام ٠

وينتقل الصوت من الطابية الثانية الى الطابية الثالثة والرابعة ٠ ويستمر الزعيق حتى الفجر ٠

من تلك البوابة ، دخل اللوري المغطى الى ساحة السجن الحربي ، وكان تحت مظلته المعتقلون الفلسطينيون من قطاع غزة ٠

هبطنا من اللوري واحدا بعد الآخر ٠ كانوا مستعدين لاستقبالنا ٠ احاط بنا حرس السجن الحربي وثلاثة كلاب ـ عرفنا فيما بعد انهما كلبتان : « جولدا » و « عنايات » ، وكلب يدعى : « لاكي » ؟

ـ حظا سعيدا في السجن الحربي ٠

اثنين ... اثنين ... اوقفونا في طابور · رفيقي في الصف الاول كان خليل عويضة : المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين · ووراثي كان نائبه : فريد ابو وردة ... وفي آخر الطابور كانت صهباء البربري ـ كانت اول فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي ·

ـ انتبـاه ...

يصرخ قائد الحرس ، كان برتبة انباشي ، نحيلا كالكرباج ، وجهه طويل حاد كالناب · ولكن الحرس كانوا ينادونه : حضرة الصول ؟· بدأت دورة لاكي وجولدا وعنايات حولنا · اكتفى الكلب والكلبتان بشمنا هذه المرة ·

ـ انتبـاه ...

لا تدري ماذا تفعل ، ولكنك تنتبه ·

ـ ضم القدمين · لا تلتفت · انظر الى الامام ·

وننظر الى الامام ...

كأن بعض الجنود يركضون في دائرة في ساحة السجن ، وكل جندي قد علق حذاءه في عنقه · وهكذا كانوا يؤدبون الجنود الذين « يشاغبون » ، يركضون حفاة ، واحذيتهم معلقة في رقابهم ··؟

ان حزيران ١٩٦٧ ، يقدم اوراق اعتماده كسفير فوق العادة ·

ويظهر ـ حمزة البسيوني ـ قائد السجن الحربي ، تهيج الكلبتان ، ويندفع اليه لاكي ، فيقفز فوق ركبتيه · يتحول الحرس فور ظهوره الى اعمدة من الطوب الاصفر ـ حتى جلد السجانين في السجن الحربي يأخذ مع مرور الايام ، لون طوب السجن ·

يتقدم « الصول » امين منه :

ـ تمام يا جناب الباشا ·

ويتقدم « جناب الباشا » من الطابور ، طويلا ممتلئا ، عريض الكتفين ، اشقر الشعر ، بعينين زرقاوين ـ للجلادين ايضا عيون زرقاء ·

يستعرضنا « حمزة البسيوني » · يفحصنا بعينيه ، كأنه يشمنا · يتوقف عند صهباء البربري ويصيح :

ـ ماذا تفعلين ... بينهم ...؟

ـ اسأل الذين اعتقلوني ·

ـ انني لا احتفظ بنساء في السجن الحربي ٠٠٠؟

ولكنه احتفظ بصهباء البربري اربعة اشهر في زنزانة انفرادية ٠

ـ انتبـاه ٠٠٠

وننتبه ٠ ننظر الى الامام ٠ وما يزال طابور الجنود ، يدور ، والاحذية ما زالت تتدلـى من رقابهـم ، ونفاجأ بوجود حديقـة كبيرة في مواجهة مكتـب حمـزة البسيوني ٠

لماذا يحتاج هذا الجلاد الى حديقة ـ وسط هذه السلخانة ٠٠٠؟ ولكنها كانت حديقة بلا عصافير ٠ فالحدأة وحدها هي التي تحلق في فضاء السجن الحربي ٠ في وقت توزيع التعيين ـ عشاء المسجونين ـ ويحمل السجانون جرادل اللحم ، تنقض الحدأة ، تلقم قطعة لحم من الجردل وترتفع بها ٠ ولا يتحرك السجان :

ـ انها تتناول عشاءها هي الاخرى ٠

صورة ستظل ملتصقة ابدا في عيوننا ٠

احد المعتقلين الشيوعيين كان من المجندين المصريين في الجيش ـ كانوا قـد ضربوه على رأسه حتى شقوه ٠ فراحوا يعالجونه بصبغ جرح رأسه «بالميكروكروم الاحمر » فقط ولا يربطون الجرح ٠

ـ ولماذا الشاش ٠٠٠؟

اجل ولماذا الشاش ، مرة كان المتطوع عائدا الى العنبر مع سجانه ، جـــرح رأسه مفتوح ، الميكروكروم الاحمر ٠٠٠ يصبغ رأسه ، انقضت حدأة ، فوق رأس المعتقل ، ضربته بمنقارها وارتفعت ، ورفع السجان كرباجه تحية لها ٠

ـ قدم لهم عشاء جيدا يا « امين » ٠ انهم ضيوف ٠

وكانوا قد اعدوا لنا ، مائدة تليق بضيوف فلسطينيين ٠ فما ان دخلنا بوابـة العنبر ـ الذي خصص لنا ـ واغلـق الباب الحديـد وراءنا حتى بدأت حفلـة العشـاء ٠٠٠؟

انهال السجانون فوق رؤوسنا بالكرابيج ، وعلى رأسهم « الصول امين » ، هاجت الكلبتان جولدا وعنايات ، من صوت الكرابيج المختلطة بصرخاتنا ، وجن الكلب لاكي ٠

قعدنا فوق ركبنا على الارض ، رأس كل واحد منا بين يديه ، وعليه ان لا يرفع عينيه ابدا عن حذائه ٠ خلع كل واحد منا حذاءه ، ووضعه بين ركبتيه ، وعليك ان لا تلتفت الى الوراء او الى اليمين او الى اليسار ٠

ماكينة حلاقة في يد السجان حلقت آلاف الرؤوس قبلنا ، قد حفيت امواسهـــا تماما ، فكانت تقتلع شعرنا خصلا خصلا ٠٠ وتمزق جلود رؤوسنا ٠ الماكينة في رأسك ، والكرباج فوق ظهرك ، والدم يسيل من جلد رأسك ٠٠٠ وفوق عينيك ، ولا تستطيع رفع يدك ، حتى لمسح دمك عن وجهك ٠

بعد عملية سلخ الرأس ، يتقدم كل معتقل من طاولة خشبية وراءها ســجان ــ يعرف الكتابة والقراءة ــ ربما علموه الابجدية لهذا الغرض فقط ٠

ــ ضع كل شيء على الطاولة ، كل شيء ٠

الساعة والخاتم ٠٠ جنيها او اثنين ، من كان معه منديلا ، وضع اشياءه فيه ، ومن لم يكن يملك منديلا كومها فوق الطاولة ٠

وتبدأ عملية الاستجواب :

ــ اســمك ٠

ــ خ٠ش ٠

ويسقط الكرباج فوق وجهه :

ــ قول افندم يا ابن الكلب ٠

وبعد ان تقول اسمك وبعدها كلمة « افندم » ، يسقط كرباج آخر ٠

ــ بتشتغل ايه ٠٠؟

● مدرس يا « افندم » ٠

وترتفع صرخة السجان :

ــ مدرس ٠٠؟ يعني شيوعي يا ابن الكلب ٠

وتسقط الكرابيج ، وتنقض عليك الكلبة « جولدا »٠

□

ينتهي استجواب المعتقل الاول ، فيدفعه ، سجانان ، يرافقهما الكلــب لاكــي ، يطلب منه ان يركض ، وهما وراءه بالكرباجين وبأنياب الكلب لاكي ، حتــى باب زنزانته ٠

ــ اسمك ٠ وبتشتغل ايه ٠٠؟

● طالب يا « افندم » ٠

ـ طالب ٠٠؟ يعني شيوعي ٠٠ يا ابن الكلب ٠٠ شيوعي كمان ٠

ـ اسمـك ٠٠؟

● عبد المجيد كحيل يا « افندم » ٠

ـ بتشتغل ايه ٠؟

● بائع خضار يا « افندم » ٠

ويقف السجان ، وبكفه المشحوذة كالسكين ، يلطم عبد المجيد كحيل فوق وجهه وهو يصرخ :

ـ بائع خضار يا ابن الكلب ٠ بتعمل ايه بين المدرسين والطلاب ٠ بتعلمهـم الشيوعية ٠٠؟

وينهال عليه السجانون بكرابيجهم ، حتى يسقط فوق الارض ٠٠٠

(لابن بائع الخضار ـ عبد المجيد كحيل ـ ولد يتعلم في جامعـة موسكـو الآن)٠

هكذا سكنا الدور الثاني والاخير في عنبر « ج » في السجن الحربي ٠ كـل معتقل في زنزانة انفرادية ، لا يعرف من المعتقل في الزنزانة الى يمينـه او الى يسـاره ٠

عرفت بعد عشرة ايام ، ان على يميني كان « خ٠ش » وعلى يساري : فريد ابو وردة ٠ لقد رأيت احد السجانين يمسح كفه فوق حائط زنزانتي وكانت مصبوغـة بدم فريد ابو وردة ٠

طلبوا منا ، خلع قمصاننا ، ورفع ايدينا ووضعها فوق الحائط ٠

فور ان يسقط الكرباج فوق ظهرك ، يقفز الكلب لاكي ، حتى يصل الى كتفيك ٠٠ ويعضك ٠٠ في الكرباج الثاني يعضك من ظهرك ٠٠ وفي الكرباج الثالث من ساقيك ٠ دربوه على العض دون ان تسيل قطرة من الدم ٠ يمتلىء جسد المعتقـل بالكدمات ، فلا يستطيع النوم ، وهذا هو المطلوب تماما ٠

تقف في زاوية من الزنزانة ، لقد طلب منك السجان ان تظل واقفا ٠ يغلـق الباب ، لكي تصل اليك الصرخات من الزنازين الاخرى ، مختلطة بعواء الجوقة : لاكي وجولدا وعنايات ٠

الزنزانة خالية تماما ٠ كل الاثاث ، هو جردل البول ، وبلا غطاء ٠ اثـاث الزنزانة هو المعتقل نفسه ٠

□

من ناظور الزنزانة ، يطل السجان ويصرخ :

ـ انت واقف يا ابن الكلب · اقعد ·

تقعـــد ·

ـ انت قاعد يا ابن الكلب · قف ·

تقـــف ·

ـ انت نايم يا ابن الكلب · اصح ·

وتصحـــو ·

ـ انت صاحي يا ابن الكلب · نم

تنـــام ·

هكذا تقف وتقعد ، وتقعد وتقف ، تغمض عينيك وتصحو ، وتغمض عينيك حتى الخامسة صباحا · حينما يفتح السجان باب الزنزانة قليلا ، فتمد يدك وتتنـــاول « القروانة » ، وفوقها رغيف ، ويغلق باب الزنزانة ·

تلتهم الرغيف وحبات الفول المسوس ، وتحس بالعطش ··· ولكن كوب المـاء يأتي بعد ساعتين ، وثلاث ساعات او لا يأتي على حسب مزاج السجان ·

رائحة البول تملأ الزنزانة · تريد ان تفعل شيئا ، فتبدأ في استكشاف جدران الزنزانة وبابها الحديد · هذه هي جزيرة الفلسطيني : اربع شجرات من الطوب الاصفر المدهونة بالشيد الابيض ، والسماء هي باب الحديد ·

بعض الاسماء فوق الجدران ، بعض صور الطيور والمراكب وتواريخ الدخول الى السجن الحربي ، تفتش في الحيطان الاربعة فوق تاريخ خروج واحد ، فـلا تجـــد ·

انك في السجن الحربي ·

في اليوم السابع ، سمحوا لنا باخراج جردل البول · كان قد امتلأ ، ولم نعد نستطيع النوم من التعذيب المتواصل ومن رائحة البول ·

عرفنا فيما بعد ، ان اخراج جردل البول ، وتقديم الماء لنا ، ثلاثة اكواب كـل يوم ، كان بفضل فلسطينيين من قطاع غزة : الحاج محمد ابو دقة ـ كان تاجـر حشيش وتاب · وارغمه بعض ضباط المباحث والمخابرات على العودة الى مهنتـه القديمة ، وحينما رفض ـ اعتقلوه · والثاني كان : محمود ابو حصيرة ـ رئيس ميناء غزة ـ اكتشف تلاعب المباحث وبعض ضباط الادارة وبعض التجار بأوراق

الجمرك ، وعمليات التهريب ، ولما تكلم ، اعتقلوه هو الآخر ٠

لقد دفع الاثنان لحرس السجن ولضابط العنبر ولحمزة البسيوني مبالغ كبيرة ، لكي يوقفوا عملية التعذيب ، ويرفعوا عنا الكرابيج والكلاب ٠

بعد الدفع خف الضرب قليلا ٠ وصار الماء يجيئنا كوبا مع الغذاء ، وكوبا آخر عند العشاء ٠ ولكن الضرب كان يشتد ، حينما كان ضابط العنبر ، يقوم بزيارتنا، وكان على الحاج محمد ابو دقة ، ومحمود ابو حصيرة ، ان يدفعا الكثير للضابط، لكي يغض النظر عن تعذيبنا ولو لايام ٠٠

لقد بلغ بعضنا حافة الموت ٠ اكثر من اسبوعين متواصلين من التجويع واليقظة الدائمة والتعذيب ٠

« بنيامين » يهودي ، هرب من اسرائيل ، ولجأ الى مصر ، فاعتقلته المخابرات ، ووضعته في السجن الحربي ٠

قال لي :

ـ انه كان يريد ان يرى « الاهرام » ، و « ابو الهول » فاذا به يرى كيف يعذب الفلسطينيون حتى الموت ٠

كان بنيامين يوزع علينا الماء

ـ اشـرب ٠

وحتى آخر قطرة ، تشرب كوب الماء ٠٠٠ تقدم له الكوب بامتنان ، ويرفض ان تقول له « افندم » ؟

ـ انني معتقل مثلكم ٠

ويقدم كوبا آخر من الماء وهو يقول :

ـ رش وجهك ٠٠٠

وترش وجهك بالماء ، لاول مرة منذ اسبوعين ٠

ويخرج بنيامين من جيبه سيجارة ، ويشعلها ويقدمها لي :

ـ دخن ٠٠٠ ارسلها لك الحاج محمد ابو دقة ٠

رائحة دخان السيجارة ملء الهواء ٠٠٠ ويغلق الباب ـ العبور العظيم ـ تريد ان تحمي من الهواء طرفها المشتعل ، حتى برموش عينيك، بعد اسبوعين تدخل هذه العروس زنزانتك ، العروس ذات التاج من النار ٠ ولكن بعد النفس الاول ، تحس بأن كل شيء

يدور حولك · الحيطان والباب وجسدك اخذ ينتفض ، تمسك بالحائط ، وتجلس في ركن الزنزانة · تلفك سحابة ، الغيبوبة اللذيذة ··· التي تجعلك تعيش خارج الزنزانة ··· تحس بنشوة عارمة ··· كأنك تضع كل البرق في كأسك وتشربه ، كما يقول العزيز « بابلو نيرودا » ·

□

سمحوا لنا اخيرا وفي اليوم الثلاثين ، من وجودنا في السجن الحربي ، بأن نحمل جرادل البول ونذهب للمراحيض · نفرغ الجرادل ونغسلها ···

كانت المسافة اقل من عشرين مترا ، بين الزنازين ودورة المياه ، ولكننا صرنا نمشي ·

في السجن الحربي عليك ان تنسى قدميك ويديك وعينيك واسمك · فأنت رقم الزنزانة التي تسكنها ·

ـ تتذكر ·

كان يوم اعتقالنا هو آخر يوم لالغاء العملة المصرية من فئة الخمسين والمائة جنيه ، ومع شرطة المباحث كانت اوراق بنكنوت المخابرات والمباحث والتجار ·

□

ضابط مصري ، حارب في بورسعيد ، وحينما لم يعد لديه ذخيرة راح يوزع المنشورات ، واعتقلوه · ما دام ضابطا يعرف قيمة المنشورات ، فلا بد ان يكون شيوعيا ··· دائما ترتبط الشيوعية بالنسبة لهم « بالورق » وهكذا اعتقلوه · وحينما عرف بوجودنا ، طلب زيارتنا ، ووافق الحرس والصول (امين) · « فمنير موافي » ، الضابط المصري ، هو ضابط ، رغم انه معتقل ·

شكرا للبيروقراطية ···

« منير موافي » ، احضر معه : « الها عجيبا » ، حينما جاء لزيارتنا : راديو ترانزستور ·

واجتمعنا في زنزانة : خليل عويضة ·

صوت احمد سعيد يرتفع :

ـ معتقلون فلسطينيون في مصر ··· يا اذاعة ١٤ تموز ١٩٥٨ ؟ يا اذاعة عبد الكريم قاسم ··· اسمعوا ايها العرب ··· اسمعوا ··· مصر تعتقل الفلسطينيين ··· اسمعوا ···؟!

موسيقى حماسية ترتفع ··· وقد يقتنع الملايين من عرب « صوت العرب »

بواسطة الموسيقى والاناشيد بأنه لا يوجد معتقل فلسطيني في السجن الحربي ، الا اننا كنا في زنزانة ، ونعرف جيدا اننا معتقلون ٠

يصرخ خليل عويضة :

ـ كذاب ٠٠٠ كذاب ٠٠٠ لا بد ان يقدم للمحاكمة ٠٠٠ نحن هنا ٠٠٠

ولكن من يقدم العواء للمحاكمة يا عزيزي خليل عويضة ٠٠٠؟

□

في اليوم الثامن والثلاثين رأيت الهواء ، رأيته وامسكت به ، رأيت الشمس ، فأخفيت وجهي بين يدي ٠٠ لقد طلعت وغابت بعيدا عنا ٠٠٠ لايام طويلة ٠

السجان يدفعني امامه لمكتب حمزة البسيوني وهو يقول :

ـ حذار ان ترفع عينيك للشمس دفعة واحدة ٠٠٠

وضعت في قدمي ، حذائي ٠٠٠ ومضيت ٠٠٠ وبعد ما يقرب من اربعين يوما ، ينمو شعرك قليلا ٠٠٠ ولكن وجهك ، يصبح لا مأوى له ابدا ٠٠٠ انك تمشي به ، متشردا ، طول الوقت ٠ وحينما تضعه في حقيبتك ـ تضع وجهك ـ مع القميص والجوارب وبعض الاوراق ـ يقولون :

ـ انك جاسوس او مهرب ٠

وكنت اهرب وجهي دائما ٠ وبمقاييسهم كنت عميلا ٠ استخدم ـ راديو ترانزستور ـ يقول لي : انني لم اعتقل ابدا ، لم يقتلوا خالتي ، ولم يطردوا امي وابي واخوتي ، ولم يجروا عروسي للسجن الحربي ٠٠٠

□

بواسطة قريب لوالدة صهباء البربري ، سمحوا لها بزيارتنا ٠٠٠ ولم تكد تعرفنا ٠٠٠ لقد نقص وزننا كثيرا ، منها عرفت انهم طردوا امي وابي واخوتي ، فسافروا الى الاردن ٠ والدي كلمها بالتليفون وقال انه سيحضر للقاهرة للبحث عني ٠ لم تكن تعرف في ذلك الوقت اين نحن ٠ لم يعترفوا اننا في السجن الحربي الا بعد شهرين ٠

الفرحة كانت في السجائر التي حملتها معها ، سمح الضابط ، بعد ان اخذت منه والدة صهباء البربري : تليفون بيته وعنوانه ٠٠٠؟ بأن اجمل السجائر الى العنبر ، وفوق السجائر كانت علبة كبريت كاملة ٠٠٠ كنا نقسم عود الكبريت الى قسمين ٠

الزيارة في مكتب ضابط السجن ، جعلت السجان يغير سلوكه معي ٠٠٠ حينما طلبت منه ، ان يسمح لي بتوزيع السجائر على المعتقلين ، لم يتردد ، واول زنزانة دخلتها ، كانت زنزانة ـ خليل عويضة ـ لم يدخن منذ ثمانية وثلاثين يوما ٠

ودخن العنبر في ذلك اليوم ٠ وكان السماح بالتدخين بشارة كبرى ٠

بعد ايام صار ضابط السجن ينادي ـ خليل عويضة ـ استاذ خليل ـ واستاذ فريد ـ واستاذ معين ايضا ٠

ولم تقترب منا الكلاب بعد ذلك ٠

البعض خيل اليه انهم سيطلقون سراحنا ٠٠٠؟ وما اسرع ما جاءت الدفعة الثانية من المعتقلين من قطاع غزة ٠ شرطة المباحث والمخابرات اصبحت تنام في آذان الناس ٠

□

٠٠٠ وزارني ابي اخيرا ، ورغم الكارثة التي حلت ، فلقد كان هو ٠٠٠ هو ـ المشرد العظيم ـ الواقف ابدا ـ وغير القابل للسقوط ٠

حدثني ، كيف طلبوا منهم مغادرة الكويت فورا ، وفي اول طائرة :

ـ ولكن الى اين ٠٠٠؟

● هذا شأنك انت ٠٠٠

ولم يكونوا يملكون غير وثائق سفر صادرة من القطاع ، وقد انتهت مدتها ٠٠ لا بأس ، وضعوهم في الطائرة ٠٠٠

ـ اسرة بأكملها ـ بلا نقود وبلا جوازات سفر ، منعوها من العودة لقطاع غزة ٠٠٠ وهكذا وجدوا انفسهم في مطار قلنديا ٠

لحسن حظهم ، ان مطرودين اردنيين وفلسطينيين ، كانوا معهم على الطائرة نفسها ، معتقلين شيوعيين ووطنيين ، فالتفوا حول تلك الاسرة ٠ فليرصع الندى دائما اسماءهم ٠

ـ طلبوا مني مغادرة القاهرة فورا ٠ سبعة ايام حتى سمحوا لي بزيارة واحدة لك ولمدة نصف ساعة ٠ لا تهتم ٠٠٠ سوف اسافر بالباخرة من الاسكندرية الى بيروت ، هناك امك واخوتك ٠٠٠ ليست المرة الاولى التي نطرد فيها ٠٠

□

يلتف حولك المعتقلون ، ويسألونك عن اخبار غزة ، فتحدثهم عن اخبار المطرودين من الكويت · ولكننا كنا ندخن ، ومسموح لنا ببعض الزيارات ، والكلب « لاكي » اصبح يألفنا ، والكلبة عنايات حبلى ·

وسمحوا لي بزيارة ـ صهباء البربري ـ في العنبر الآخر · كنا في بعض الاحيان نتناول طعام الغذاء معا ·

حولنا زنزانة الى مطبخ ، وكان عبد المجيد كحيل ، ، « طباخ المعتقلين » ، كانت لنا جميعا « حياة عامة » · كل الحوالات المالية والسجائر توزع على الجميع ·

ـ اننا نشتري حياتنا بالمال ·

هكذا كان يقول لنا الحاج ـ محمد أبو دقة ـ الذي كان يدفع الكثير ، ولا يطلب منا الا القليل · عن طريق معتقل فلسطيني عادي مشبوه اسمه ـأبواحمدـ كان يريد أن يبتزنا هو الاخر ، انتقلت أخبارنا في السجن الحربي ـ الى المباحث والمخابرات في غزة · فطالبوا بنقلنا من السجن الحربي· اعترف ـجناب الباشاـ « حمزة البسيوني » فيما بعد ، للحاج محمد أبو دقة ، أن المخابرات في غزة ، أطلقت يده تماما بالنسبة لنا ـ أباحتنا له ـ وانه ببساطة كان مشغولا بأشياء اخرى ، فنسينا ، وحينما تذكرنا ، فات الوقت ·

□

السجان ، أصبح يحمل رسائلي الى صهباء البربري · والسجان دائما ـ هو بوسطجي ـ السجين ·

ـ رسالة من الزجاجة ·

وأعرف انها من صهباء البربري · كان السجان يسمي المرأة زجاجة ·

ـ زجاجة ماذا ··· ؟

ويقول وهو يضحك :

ـ زجاجة ياسمين ·

ولكن بعد اربعة أشهر ، قاموا بترحيل « الزجاجة » الى سجن النساء في القناطر الخيرية ، حيث كانت هناك : الرسامة « انجي افلاطون » ، والممثلة محسنة توفيق ، وفاطمة زكي ، ثريا ابراهيم ، ثريا أدهم ، ثريا حبشي ، سعاد بطرس ، اميمة ابو النصر ، انتصار خطاب واخريات ·

□

والى القلب ، وجه فخري مكي نصل السكين ٠

ذات يوم جاء السجان ، الى حجرة ـ خليل عويضة ـ وفي يده رسالة ، وقال :

ـ أين فخري مكي ٠؟

خليل عويضة كان قد طرده من زنزانته ، لسوء سلوكه ٠ سألته لماذا يسأل عنه ؟ ، وضحك وقال :

ـ قال لي حضرة الضابط ، أن أعيد له هذه الرسالة وأقول له :

● كلها واشرب ماءها ٠

وفتحت الرسالة وقرأتها ٠٠٠ وسقطت فوق السرير ، في حجرة خليل عويضة ٠ كنت أسمي سريره : عرش لومومبا ٠

وناولته الرسالة المشؤومة ٠

كانت موجهة من فخري مكي، الى منير الريس ، وهو يعلن له في الرسالة ، انه على استعداد ليعلن براءته من الشيوعية ولكن حينما يفرج عنه ويصل غزة ، فهو يخاف منا ـ اي من المعتقلين ـ لو استنكر الشيوعية في السجن الحربي ٠

وجمعت قيادة الحزب في زنزانة ، وقرأت عليهم رسالة فخري مكي لمنير الريس ، فصدر القرار بطرده من الحزب ٠

وتم ترحيلنا من السجن الحربي ، الى معتقل الواحات الخارجة ، في النصف الثاني من عام ١٩٦٠ ٠ حينما جمعونا في ساحة السجن ، ظن بعض المعتقلين ، أنه الافراج ٠

نمر هنيهة ، حينما رأى الحرس بثيابهم السوداء امام عربات اللوري في ساحة السجن الحربي قال :

ـ هذه الغربان ، لن تقودنا الى غزة ٠

وبالفعل فهذه الغربان ، لم تقدنا لغزة ، ولكن الى محطة القاهرة ، الى عربة قطار ، حتى بلغنا مدينة أسيوط ، ومنها ركبنا اللوريات ، الى معتقل الواحات الخارجة ٠

في عربة القطار ، لا أدري كيف داهمتني ، قصة « هوارد فاست » ـ سيلاس تمبرمان ـ فرحت أحكيها للرفاق ٠

كان استاذا جامعيا ، ورفض خلال ـ حملة مكارثي ـ أن يخضع لتعليمات المكارثيين ٠ طفله الوحيد كان ينتظره وراء نافذة ، وقد ألصق وجهه بزجاجها ٠

ويرفع أحد المكارثيين يده بحجر ، ويضرب وجه الطفل ٠٠٠ خلف الزجاج ٠٠٠ ويمتلىء وجه الطفل بشظايا الزجاج ، ويمتلىء فمـــه ، وتمتلىء عيناه ٠٠ ويمتلىء وجهه بالدم ٠

انهم يجعلونك تحب الشيوعية أكثر ، والتي تكلف كل هذا الثمن الباهظ من التضحية ٠

ـ جملة واحدة وتخرج ٠ قل انك لست شيوعيا ٠ قلها ، أو أكتبها ، لا فرق ٠

وماذا يضير الذي يقول انه ليس شيوعيا ، أن يكتب هذه الجملة ، ما الفرق بين الهواء والورق ، حينما يتم استنكار الشيوعية ؟

□

في مايو ١٩٦٠ خرجت من السجن الحربي الدفعة الاولى ، كانـــوا اربعة ، وخرجت ـ صهباء البربري ـ من سجن القناطر الخيرية ـ بعد أن أمضت ١٣ شهرا ٠

وبعد ثلاثة أشهر ـ في أغسطس ١٩٦٠ ، تم ترحيلنا من السجن الحربي الى سجن الواحات ٠

اليزابيت ماتيو

اسرائيل وجنوب افريقيا "٢"

٦ ـ العلاقات الدبلوماسية والقنصلية

افتتحت جنوب افريقيا منذ عام ١٩٤٩ دار مفوضية في بريتوريا وقنصلية عامة في جوهانسبورغ · في عام ١٩٦١ ، وبعد ان قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الجمهورية العربية المتحدة ، وبعد ان انفصلت عن الكمنولث حاولت جمهورية جنوب افريقيا توطيد علاقاتها مع اسرائيل · ومع ذلك ، لم تبق اسرائيل في البعثة القنصلية سوى قائم بالاعمال · فقد كان همها في ذلك الوقت ، هو اقامة علاقات صداقة مع الدول الافريقية · ولكن تثبيت العلاقات بين البلدين ظهر بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ عبر ارتفاع مستوى التمثيل الاسرائيلي وتعيين قائم بالاعمال له صفة السفير عام ١٩٦٩ · وفي نيسان زادت اسرائيل عدد اعضاء قنصليتها العامة · وبعد حرب تشرين ـ اكتوبر قررت رفع بعثتها الدبلوماسية الى درجة السفارة · واصبح القنصل العام ، السيد يتسحاق اونا ، اول سفير لاسرائيل لدى بريتوريا ·

وفي المقابل ، اتخذت جنوب افريقيا اجراءات مماثلة عندما اقامت قنصلية عامة في تل ابيب عام ١٩٧١ ، رفعتها الى درجة السفارة عام ١٩٧٥ ·

ـ تصويت اسرائيل في منظمة الامم المتحدة منذ ١٩٧٣ (القرارات التي تدين نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا) ·

القرار رقم (٢٨)

٣٠٥٥ غائب

★ هذا هو الجزء الثاني من بحث اليزابيت ماتيو ، الذي نشر الجزء الاول منه في العدد الماضي من شؤون فلسطينية · وقد صدرت هذه الدراسة اساسا عن منشورات فرنسا ، البلاد العربية · باريس ١٩٧٧ ·

٣١٥١ أ غائب

٣١٥١ ب غائب

٣١٥١ ج غائب

٣١٥١ د امتناع

٣١٥١ هـ امتناع

٣١٥١ و غائب

القرار رقم (٢٩)

٣٣٢٤ أ لا تصوت

٣٣٢٤ ب غائب

٣٣٢٤ ج غائب

٣٣٢٤ د امتناع

٣٣٢٤ هـ تصويت ضد

القرار رقم (٣٠)

٣٤١١ أ لا تصوت

٣٤١١ ب لا تصوت

٣٤١١ ج غائب

٣٤١١ د غائب

٣٤١١ هـ لا تصوت

٣٤١١ و امتناع

٣٤١١ ز تصويت ضد

٧ ـ العلاقات الاقتصادية

التبادل التجاري

ازداد حجم التبادل بين اسرائيل وجنوب افريقيا (٥٥) بشكل مذهل بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٤ ، وخاصة بعد حرب ١٩٦٧ · يشير الجدول ادناه الى هذا التطور حتى عام ١٩٧٤ وهي السنة الاخيرة المرصودة في الاحصاءات الرسمية ·

السنة	التصدير الاسرائيلي نحو جنوب افريقيا ★	الاستيراد الاسرائيلي من جنوب افريقيا ★
١٩٦٥	٢ر٧	٤ر٣
١٩٦٦	٢ر٣	٤ر٥
١٩٦٧	٤ر٠	٣ر٤
١٩٦٨	٥ر٧	٥ر٢
١٩٦٩	٨ر٢	٥ر٨
١٩٧٠	١٠ر٧	١٠ر٢
١٩٧١	٩ر٤	٨ر١
١٩٧٢	٨ر٨	١١ر٦
١٩٧٣	١٢ر٠	٣٤ر٣
١٩٧٤	٢٨ر٧	٤٣ر١

★ بملايين الدولارات ٠

هذه الارقام تصدر عن الصندوق القومي الدولي (واشنطن) وهي موضوعة على اساس احصاءات الحكومة الاسرائيلية ٠ اما احصاءات جنوب افريقيا ، فانها تقلل من حجم التبادل مع اسرائيل ٠ ولكنها تظهر رغم ذلك الاتجاه نفسه للتزايد السريع في حجم التبادل ٠

ويشير هذا الجدول الى ان الميزان التجاري هو في مجمله ، لمصلحة جنوب افريقيا ٠ ولكننا نستطيع ان نعتبر ان الحكومة الاسرائيلية تعوض عن هذا الوضع في التسهيلات الممنوحة للطائفة اليهودية في جنوب افريقيا لارسال الحوالات النقدية الضخمة وفي توظيف رؤوس الاموال الجنوب افريقية على اراضيها ٠

ويجب الملاحظة هنا ، ان الماس الخام ، الذي يأتي على رأس المنتوجات التي تستوردها اسرائيل من جنوب افريقيا لا تدخل في ارقام احصاءات التبادل بين البلدين ٠ فعمليات الشـــراء تتم عبر منظمة البيـــع المركزيـــة ، مركزها لندن ، وهي فرع لشركة دو بيرز التي تنتمي الى الاتحاد العملاق للشركة الانكلو ـ اميركية (اوبنهايمر) ، المنتج العالمي الاول للماس الخام الذي يستغل مناجم ناميبيا ٠

١٩٦٧

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بذلت جهود كبيرة في سبيل توطيد العلاقات الموجودة وتركيز بنيانها ٠ في اواخر ١٩٦٧ ، بعثت وزارة الاقتصاد والصناعة الاسرائيلية ممثلا الى بريتوريا لهذا الهدف ، رافقه ممثلان عن المشاريع التجارية وشركات النقل البحري ٠

١٩٦٨

في كانون الاول ، اسست رابطة الصداقة الاسرائيلية ـ الجنوب افريقية ، التي تضم

بين اعضائها رجال سياسة وخبراء ورجال اعمال · في نيسان عقد في القدس مؤتمر الصهاينة اصحاب الملايين · اشتركت فيه بعثة جنوب افريقية مهمة · وفي هذه المناسبة ، اعلن وزير التجارة الاسرائيلي ، اميتي بن جوزف ، ان اسرائيل ستستورد من جنوب افريقيا ، الصوف والمنسوجات والملابس والمنتوجات الكيماوية والصيدلية الى جانب الماس الصناعي ·

في المقابل تحتل **جنوب افريقيا المرتبة الاولى في زبائن اسرائيل في القارة الافريقية** · ولعبت الجمعية الاسرائيلية ـ الجنوب افريقية للتجارة والصناعة ، التي انبثقت عن لقاء اصحاب الملايين ، الدور الاول في هذا التطور ·

١٩٦٩

يحضر رجال اعمال من جنوب افريقيا الاجتماع الاول للمجلس الاقتصادي الاسرائيلي الذي يرأسه رئيس الـ I.S.A.T.A. السيد لوبنر · وفي آب ، يقام اسبوع اسرائيل في جنوب افريقيا ·

تقوم ٤ بواخر تابعة للشركة الاسرائيلية للملاحة البحرية « تسيم » برحلات منتظمة بين جنوب افريقيا واليابان ، نظرا الى ارتفاع نقل البضائع بعد حرب ١٩٦٧ بنسبة ٥٠٪ على هذا الخط · وادى تنامي الحركة السياحية بين البلدين الى انشاء مكتب سياحي اسرائيلي في جنوب افريقيا وهو الاول من نوعه في القارة الافريقية ·

١٩٧٠

في تموز ، يعقد اتفاق بين مؤسستين رسميتين : الـ I.D.C. الجنوب افريقيه والبنك الخارجي الاسرائيلي ، ينص على فتح اعتماد مقداره ١٠ر٧ ملايين راند لرفع مستوى تصدير رؤوس الاموال الجنوب افريقية الى اسرائيل ·

١٩٧١

اتجهت الى اسرائيل بعثة جنوب افريقية مهمة ، مؤلفة من ممثلي اهم شركات الصناعة الثقيلة والبناء والمسابك وممثلي مصرفي ستاندارد وبنك بركيز الدولي ·

عينت اسرائيل اول ممثل دائم لمصرف « يافت » في جنوب افريقيا في سبيل تشجيع التبادل التجاري في ميادين المعادن والمنتوجات النصف مصنعة ·

١٩٧٢

توطيد العلاقات المالية باشتراك مصرف لومي ـ نيويورك ـ وهو فرع للمصرف الام نفسه في تل ابيب ـ في اتحاد المصارف التي تقدم قرضا لحساب وزارة المال في جنوب افريقيا ·

١٩٧٣

خلال الاشهر التي سبقت حرب تشرين ـ اكتوبر ، كانت العلاقات التجارية قد تدعمت بصورة كبيرة ، لكن الحرب سجلت منعطفا مهما في هذا التطور · ونشير الى ان رئيس

بعثة جنوب افريقيا في لقاء اصحاب الملايين اعلن عام ١٩٧٣ عن مخطط تستعين بـــه شركات جنوب افريقيـا في اسرائيـل للتغلب بطريقة ملتوية على العقوبات الاقتصاديـــة التي تفرضها عليها بعض الدول الافريقية ٠

١٩٧٤

انشئت في تل ابيب غرفة تجارة اسرائيلية ـ جنوب افريقية ، تنتسب اليها حوالي مئة شركة اسرائيلية ونتيجة هذا النجاح ، انشئت غرفة تجارة جنوب افريقية ـ اسرائيلية بعد فترة وجيزة ، في جوهانسبورغ ٠

وفي العام نفسه ، اقامت اسرائيل وجنوب افريقيا ، حملة مشتركة في بريطانيا لتنمية مبيعات البرتقال وعصير البرتقال المدموغة Jaffa و Outspan

ـ في ايار ، يرفع الحد الاقصى للاستثمارات الجنوب افريقية المباشرة في اسرائيل ، من ٧ الى ٢٠ مليون راند ٠ ويعلن السفير الاسرائيلي في جنوب افريقيا : « اذا وحدنا قوانا ، ومع توفر المواد الاولية بكثرة في جنوب افريقيا ، والامكانيات التقنية الاسرائيلية ، سيمكننا حقا ان ننجز الكثير ٠ »

ـ تعلـن شركـــة كور عن عزمها عـــلى انشـاء معمل للمنتوجات الكيمائية فـــي جنوب افريقيا في احد مناطق الحدود قرب احد المفردات ٠ (البانتوستان) ٠

١٩٧٥

يصف وزير التجارة والصناعة الاسرائيلي جنوب افريقيا بانها « شريك تجاري مميز » ويعلن ان الصادرات الاسرائيلية استفادت من تسهيلات خاصة ٠

١٩٧٦

ورد في صحيفة « هآرتس » (٢ اذار ١٩٧٦) ، اثر زيارة قام بها صناعيون من جنوب افريقيا الى اسرائيل ان « اقطاب الصناعة الجنوب افريقيين ، ابـدوا اهتماما بالغا للتعاون الوثيق مع الصناعات الاسرائيلية ٠ وركزوا اهتمامهم بصورة خاصة على الوضع المميز التي تنعم به اسرائيل في علاقاتها مع السوق الاوروبية المشتركة ، وعلى بنود الاتفاق التجاري الذي عقد مع الولايات المتحدة الاميركية ٠ »

ونقرأ في صحيفة « يديعوت احرونوت » خبرا حول اهتمـــام روديسيا بالشاحنات الاسرائيلية الضخمة لاستبدال النقل عن طريق السكك الحديدية التي قطعت اثر اعلان المقاطعة الاقتصادية من قبل الموزامبيق والمحادثات حول هذا الموضوع جارية بين شركتي ميفالييي ليلند آشود ٠

ومن المفيد هنا ، التأكيد على ناحيتين في هذا التعاون الاقتصادي ، تتجاوزان العلاقة الثنائية بين الحكومتين ٠

١ ـ خلال مؤتمر الصهاينة اصحاب الملايين عام ١٩٧٤ ، كشف رئيس بعثة جنـوب افريقيا عن نية **الشركات الجنوب افريقية في استخدام اسرائيل للتحايل على العقوبات الموضوعة من قبل بعض الدول الافريقية** ٠ وتتم العملية عبر ارسال المنتوجات نصف المصنعة الى اسرائيل حيث ينتهي انجازها وتحمل علامة « صنع اسرائيل » قبل ان يتـم تسويقها ٠

وهكذا ، وظفت شركة جنوب افريقية مبلغ ٤٠٠ الف ليرة في معمل اسرائيلي للمنسوجات القطنية الملونة والتي تخصص ٦٠٪ من انتاجها للسوق الافريقي · (وهناك مشاريع اتفاق من النوع نفسه مع ٦ اول مشاريع صناعية اخرى) ·

٢ ـ وعلى النحو نفسه ، يأمل نظام التمييز العنصري في جنوب افريقيا ان يستخدم الاتفاق المبرم بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة على الصعيد الاقتصادي والصناعي والعلمي في سبيل ادخال منتوجاته ، بدون ضرائب الى بلدان السوق المشتركة ·

ان اتفاق التعاون الذي عقده رئيس الوزراء فورستر خلال زيارته لاسرائيل في نيسان ١٩٧٦ اعطى اندفاعا جيدا للتبادل التجاري بين البلدين · وينص هذا الاتفاق على تشجيع تبادل البعثات التجارية بين البلدين وزيادة صادرات المواد الاولية الجنوب افريقية الى اسرائيل وخاصة الفحم عن طريق الميناء الجديد في ريتشارد بيي ·

الاستثمارات

والى جانب ازدياد التبادل التجاري ، ازداد حجم الاستثمارات الجنوب افريقية في اسرائيل بوتيرة سريعة خلال السنوات العشر الاخيرة ، وبصورة خاصة منذ عام ١٩٧٣ · وشجع هذا التزايد ، قرار حكومة جنوب افريقيا في ايار ١٩٧١ الذي يدعو الى الليونة في مراقبة استثمارات الشركات الجنوب افريقية المباشرة في اسرائيل ، والذي يرفع الحد الاقصى للتوظيف الى ١٠ ملايين راند · وفي ١٩٧٤ ، رفع هذا الحد الى ٢٠ مليون راند ، من المفروض ان يصل الى ٣٢ مليون راند عام ١٩٧٧ · وفي المقابل ، تتوجه الرساميل الاسرائيلية بدورها نحو جنوب افريقيا بشكل توظيفات مباشرة او قروض · وقد افتتح المصرفان الاسرائيليان « جافت » و « لومي » ، فروعا في جنوب افريقيا عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٣ ·

توظف الرساميل مباشرة ، بصورة اساسية ، في مشاريع مشتركة تقوم بها الشركات العامة والخاصة · ويبدي الاسرائيليون اعجابهم بوفرة الايدي العاملة الرخيصة في جنوب افريقيا ·

ومن المنتظر ان تنتج عن الاتفاق المعقود ابان زيارة فورستر الى اسرائيل امور عديدة : فقد اعلنت شركات جنوب افريقية عديدة ، مساهمة في مشاريع مشتركة ، عن ارادتها في التوسع ·

ورغم ان الحجم الحالي للاستثمارات غير معروف بشكل دقيق ، الا انه لدينا بعض المعلومات حول المشاريع التالية :

● تساهم شركة صناعة الانابيب الفولاذية التابعة للشركات الافريقية المتحدة مع شركة الشرق الاوسط للانابيب في حيفا ، في انشاء مصنع · (الكلفة : ٢٥٠ الف راند)·

● اشتركت المؤسسة الافريقية ـ الاسرائيلية للاستثمار ، ويملك الجنوب افريقيون ٢٥٪ من اسهمها ، في تنفيذ مشروع في فنزويلا تموله جزئيا مؤسسة جنوب افريقيا لتطوير الصناعة (؟)

● انشأت مجموعة (ديزيري كلوثينغ) (ملبوسات ديزيري) في مدينة كاب مصنع منسوجات في اسرائيل باسم « سسيل نيتز » (منسوجات سسيل) ·

● وظفت شركات جنوب افريقية لن يعلن عن اسمها ، مبلغ ٤٠٠ الف جنيه استرليني في معمل اسرائيلي للمنسوجات القطنية الملونة المخصصة للسود في جنوب افريقيا ولدول افريقيا المستقلة ٠

● اشتركت شركة اسكور (للحديد والصلب) مع مؤسسة كور الصناعية التي تملكها الهستدروت في انشاء معمل اسكور الذي يحتكر توزيع الصلب في اسرائيل ٠ تملك شركة كور ٥٠٪ من الاسهم واسكور ٤٩٪ ٠ تخطط اسكور لبناء مصنع صلب قرب غزة وقد وظفت الان رساميل كبيرة في مركز كبير لتوزيع الصلب ٠

● اما شركة « دوربيل » ، وهي احدى شركات جنوب افريقيا للصناعات الميكانيكية الثقيلة ، فقد انشأت بالاشتراك مع الشركة الاسرائيلية « كور » فرعا يختص بمشاريع الابنية الصناعية ٠ وتم تلزيم هذه الشركة الجديدة مشروع بناء خزانات من الصلب مخصصة للمشاريع الزراعية في اسرائيل ، قيمته ٩ر٢ مليون راند ٠

● تقوم حاليا شركة جنوب افريقيا للسكك الحديدية بالاشتراك مع شركتي « دورمان لونغ » و « يونيون كارياج » ، ببناء خط للسكك الحديدية يمتد حتى ميناء ايلات على البحر الاحمر ٠

● ومن ضمن المشاريع الاخرى : بناية من ٢٦ طابقا في تل ابيب ، مجمع صناعي بتروكيمائي في حيفا ، مجمع صناعي قرب تل ابيب ، مصانع مختلفة ، مشاركة في اعادة تجهيز ميناء ايلات والموانىء الاسرائيلية الاخرى ٠

● في حزيران ١٩٧٤ ، اجرت شركة « كور » اول استثمار لها في جنوب افريقيا بالاشتراك مع مجموعة جنوب افريقية في بناء مصنع للمنتوجات الكيماوية الزراعية في منطقة على حدود الترنسكاي وباستطاعة هذا المصنع تغطية حاجات جنوب افريقيا والمناطق المجاورة ، وايضا « بلاد اقل قربا » ، من ناحية المبيدات الزراعية ٠

● اسست شركة اسرائيلية اخرى للمنتوجات الكيماوية ، فرعا لها في جنوب افريقيا لصناعة علف الماشية ، تملك الشركة الاسرائيلية « آسيا » ٢٥٪ من اسهمها وحق الخيار على الاسهم الباقية ٠

● كما ان هناك مشروعا تبنته شركة « تاويران » ، المصنع الاسرائيلي الاول للوازم الالكترونية الحديثة ، لبناء مصنع بقيمة ١ر٧ مليون راند في منطقة روسلين حدودية ، لصناعة الاجهزة الالكترونية ٠

واسرائيل تعير اهتماما بالغا لـ « تنمية » البانتوستانات » الافريقية ، واشتركت بعثة اسرائيلية في مؤتمر دام ثلاثة ايام ، في مدينة « امتاتا » في الترنسكاي ، نيسان ١٩٧٦ ٠

وتشير الصحافة الاسرائيلية الى بعض المعلومات الحديثة حول توسيع نطاق التعاون الاقتصادي بين اسرائيل وجنوب افريقيا ٠

« يديعوت احرونوت » (١٢ تشرين الاول ١٩٧٦)

تشير الى ان عددا كبيرا من المؤسسات الاسرائيلية تبحث « جديا ودون ضجة » في

تكثيف العلاقات الاقتصادية مع جنوب افريقيا : وانشطها في هذا الميدان هي شركة « آسيا ـ معباروث » (ويملكها الكيبوتز الذي يحمل الاسم نفسه) · وهي تفكر في زيادة حجم مبيعاتها لجنوب افريقيا من انتاجها المكون من مواد غذائية للمواشي بنسبة سنوية تساوي ٢٠٪ ·

وتؤكد هذه الصحيفة ان ١٥٠ مزارعا من جنوب افريقيا اتوا في الفترة الاخيرة على دفعات مؤلفة من ٢٠ مزارع ، للاستعلام في اسرائيل نفسها ···

« يديعوت احرونوت » (٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٦)

تتحدث عن شركة جديدة مختلطة « د· ا· ا· » انشأتها المؤسسة الاسرائيلية « نيتافيم » والشركة الجنوب افريقية « اكريبلز » ، في سبيل بيع تقنية جديدة للري « قطرة قطرة » ، في اوروبا والولايات المتحدة واميركا اللاتينية وفي اماكن اخرى · هذه التقنية وضعت في اسرائيل وطبقت بنجاح في جنوب افريقيا · وشركة «د·ا·أ» الجديدة مسجلة في هولندا ويبلغ رأسمالها ١ر٢٥ مليون دولار اميركي ·

« معاريف » (٩ كانون الاول ١٩٧٦)

تعلن ان مؤسسة « تاديران » وهي احدى اهم المؤسسات في اسرائيل ـ بنت مصنعا في روزالين قرب بريتوريا بالاشتراك مع مجموعة « كالن » الجنوب افريقية · والشركة الجديدة التي تحمل اسم « كونسولديتد باور » ستصنع الادوات الكهربائية وتستورد من اسرائيل الاجهزة المعقدة (التي من المحتمل ان تكون مخصصة لتجهيز الشرطة للملاحقات والمعارك الليلية واجهزة رصد المخابرات الهاتفية · الخ ···) ·

التبادل العلمي والتقني

جرى كذلك ، تدعيم العلاقات بين البلدين في المجالات البحثية التي تدور حول الزراعة والمباني والبناء والمنتوجات الكيماوية والسماد والالكترون والطيران ، الخ ·

ومنذ عام ١٩٧٢ تمت تبادل الخبراء والاخصائيين · وصلت الى اسرائيل عام ١٩٧٣ بعثة جنوب افريقية ١٥ عضوا لدراسة طرق انشاء المدن الجديدة ومخططات الاصلاح المدينية ومخططات التشييد المستعملة ومفهوم المباني الصناعية ·

عام ١٩٧٥ ، أسست لجنة جنوب افريقية لمعهد وايزمان : كانت اولى مهماتها هو العمل ـ بالتعاون مع مجلس جنوب افريقيا للابحاث العلمية والصناعية ـ على تنظيم مؤتمرات شارك فيها خبراء من جنوب افريقيا ومن معهد وايزمان في اسرائيل نفسها ·

وتدعيم التعاون العلمي والتقني كان احد اهداف الاتفاق الذي عقده رئيس الوزراء فورستر خلال زيارته الى اسرائيل ·

وتقوم شركة الطيران الاسرائيلية « العال » برحلات منظمة بين البلدين · وارتفع عدد الرحلات الى ثلاث رحلات اسبوعية في تشرين الثاني ١٩٧٣ بعد ان كانت رحلتان فقط في عام ١٩٦٨ · اما المواصلات البحرية ، فتؤمنها الشركة الاسرائيلية « تسيم » ·

« يديعوت احرونوت » (٢٢ ايار ١٩٧٥)

« ليس سرا ان علماء جنوب افريقيا هم على علاقة وثيقة مع زملائهم الاسرائيليين في ميادين عديدة ٠٠٠ ويطبق هذا التحديد خاصة في معهد بوتسوانا الجيولوجي ، في مديرية الفيزياء النووية التابعة لجامعة جوهانسبورغ والمديرية الخاصة بدراسة النظائر المشعة الصلبة التابعة لمعهد وايزمان في ريفوهوت » ٠

التعاون العسكري

يرجع التعاون العسكري بين البلدين الى بداية نشوء دولة اسرائيل ٠ فقد قاتل الى جانب الصهاينة ، بعد تشرين الثاني ١٩٤٧ ، بضع مئات من المتطوعين الجنوب افريقيين، وبعثت لهم جنوب افريقيا خلال حرب ١٩٤٨ المؤن والادوية ومساعدات اخرى ٠ وكان اول طيار قتل خلال المعارك في صفوف القوات الاسرائيلية ، متطوع جنوب افريقي ٠

حرب ١٩٦٧

تكثفت الاتصالات العسكرية بين البلدين خلال حرب ١٩٦٧ وبعدها ٠ وفيما كانت جنوب افريقيا تعلن عن حيادها ، كانت تساند المجهود الحربي الاسرائيلي ولو فقط عبر مرونتها في مراقبة القوانين المتعلقة بنقل الرساميل ٠ ويقال ان حجم هذه الرساميل المرسلة الى اسرائيل والذي لن يعلن عنه رسميا ، قد يزيد على ٢١ مليون راند ٠ كما برهنت مؤسسة بنك الدم الرسمية وغيرها من المؤسسات ٠٠٠ عن تأييد الاوساط البيضاء لاسرائيل ومساعدتها لها ٠

حرب ١٩٧٣

سجل تأييد نظام بريتوريا لاسرائيل خلال حرب ١٩٧٣ منعطفا جديدا في تطور العلاقات بين البلدين ٠ فقد رفعت بريتوريا العوائق المالية في وجه التحويل السريع للاموال المجموعة الى اسرائيل ، وقد يكون حجمها حوالي ٣٠ مليون راند ٠

كما ذهب الى اسرائيل خلال الحرب وبعدها ، مئات المتطوعين الجنوب افريقيين للمشاركة في القتال او في مهمات اخرى ٠ يقدر احد المقالات عدد الذين خدموا في القوات الاسرائيلية بـ ١٥٠٠ متطوع جنوب افريقي ٠ كما اتجه مئات المتطوعين الى اسرائيل بعد الحرب للحلول مكان عمال الكيبوتزات الذين كانوا مجندين ٠

ولكن دور جنوب افريقيا خلال حرب ١٩٧٣ كان اهم من ذلك كله ٠ اعلنت الحكومة المصرية ان طائرة مقاتلة من طراز « ميراج » ، اصلها جنوب افريقي ، قد اسقطت على جبهة السويس ، ولمح مقال في صحيفة « ديلي تلغراف » اللندنية ، ان جنوب افريقيا بعثت عددا من الطائرات المقاتلة عن طريق جزر الازور ، لمساعدة اسرائيل ٠

تسليم الاسلحة

تشير بعض المعلومات ان مساعدة جنوب افريقيا لاسرائيل خلال الحروب المتتالية ،

ظهرت ايضا عبر تأمين التجهيزات العسكرية · ففي كانون الثاني ١٩٧٠ ، اشارت «الوكالة التلغرافية اليهودية » الى ان جنوب افريقيا صدرت الى اسرائيل دبابات ضخمة وزنها ٦٥ طنا ، مصنوعة حسب النوع البريطاني « شيفتين » · رفض وزير الخارجية الاسرائيلي التعليق على هذا الخبر الذي كذبه المبعوث الاسرائيلي لدى منظمة الامم المتحدة ··

وفي اوائل الستينات ، حصلت جنوب افريقيا من شركة بلجيكية على رخصة تصنيع البندقية ـ الرشاشة من نوع « عوزي » التي اصبحت اليوم جزءا من اسلحة جيش جنوب افريقيا ·

وكانت جنوب افريقيا تود منذ وقت طويل شراء طائرات عسكرية من اسرائيل · فقد اجريت اتصالات عام ١٩٦٧ بين الصناعة الجوية الاسرائيلية وشركة « اطلس ايركرفت كوربوريشن » الجنوب افريقية لبحث امكانية استيراد جنوب افريقيا طائرات اسرائيلية من النوع الجديد «عرفاه» المدروسة خصيصا لمقاومة العمليات التمردية· ·اجريت التجارب على طائرات « عرفاه » في جنوب افريقيا ، ومن المحتمل جدا ان تكون بريتوريا قد اشترت عددا منها ·

معلومات اخرى تقول ان اسرائيل تجهز بريتوريا ايضا بالصواريخ بحر ـ بحر من نوع « كابرييل » من صنع اسرائيلي واعلنت « الديلي تلغراف » اللندنية ان هناك ٦ قواعد صواريخ قيد البناء في جنوب افريقيا ستجهز على الارجح بصواريخ « كابرييل » ·

ويشير مقال حديث في صحيفة « هيرالد تربيون انترناشنال » (١٧ كانون الثاني ١٩٧٧) الى ان مجموع صادرات الاسلحة الاسرائيلية الى الخارج ارتفعت عام ١٩٧٦ الى ٣٢٠ مليون دولار مقابل ما معدله ٦٠ مليون دولار سنويا قبل ١٩٧٣ · ومجموعة الالات المعروضة تتألف من الاسلحة الخفيفة (بنادق على انواعها) والصواريخ (كابرييل وشافير) كما تتناول الاسلحة المضادة للدروع واجهزة الاتصالات العسكرية· وتظهر جنوب افريقيا في لائحة الزبائن (الى جانب ايران وتايوان والشيلي وغيرها من بلدان اميركا اللاتينية) · وخلال زيارة فورستر الى اسرائيل بحث موضوع بيع الطائرة الاسرائيلية القتالية كفير لجنوب افريقيا ·

التبادل على مستوى التكنولوجيا العسكرية

ان استفادة جنوب افريقيا من تجربة اسرائيل على صعيد **التقنيات المستخدمة في محاربة التمرد واستعمال الاسلحة الحديثة المتطورة** ، تشكل دون شك احد اخطر نواحي التعاون العسكري بين البلدين ·

ففي حزيران ١٩٦٧ ، توجهت الى اسرائيل بعثة جنوب افريقية لدراسة استعمال بعض الاسلحة ودراسة خطة الحرب الخاطفة التي لجأت اليها اسرائيل في حرب الايام الستة ··· كما توجه رئيس اركان الجيش الاسرائيلي بعد الحرب الى جنوب افريقيا لالقاء محاضرات امام الضباط والاركان في هذا البلد فيعطيهم « دروسا » جنتها اسرائيل من تجاربها ···

وكشف الجنرال مئير عميت الرئيس السابق للاستخبارات الاسرائيلية ـ رئيس مجمع « كور » حاليا ـ خلال جولة قام بها في جنوب افريقيا ان الضباط الاسرائيليين يترددون بانتظام الى جنوب افريقيا لتدريب الضباط المحليين على اساليب الحرب الحديثة وتقنية مكافحة اعمال التمرد · واعلن الجنرال عميت رغم رفضه

الادلاء بمزيد من التفاصيل ، ان قوات الدفاع في جنوب افريقيا تستفيد من التجارب والمعلومات التقنية الاسرائيلية في ميدان صناعة الاجهزة الالكترونية للاستعمال العسكري ٠

التعاون العملياتي

في نهاية الفصل التاسع حول التطورات الحديثة للتحالف الاســـرائيلي ـ الجنوب افريقي ، نورد بعض المعلومات حول دور اسرائيل في تحضير الهجوم على انغولا ودور المرتزقة الاسرائيليين ضد المناضلين السود في ناميبيا والزمبابوي (روديسيا) ٠

٩ ـ التطورات الحديثة في الحلف الاسرائيلي ـ الجنوب افريقي

اذا كانت علاقة القرابة بين الدولتين ـ في نشأتهما ، وعقيدتهما وطبيعتهما العنصرية المعلنة ـ تظهر في اوجه التشابه في بنيانهما وسياستهما ، وادت الى تدعيم مستمر فـي العلاقات بينهما ، فهي تنجلي بوضوح اكبر في فترة السنوات الثلاثة الاخيرة ٠

والنظامان يواجهان اوضاعا داخلية متأزمة وعزلة من قبل المنطقة التي تحيط بهمـا والمجتمع الدولي ٠ ومن الطبيعي ان يقارن القادة في جنوب افريقيا واسرائيل مشاكلهم وينسقوا جهودهم مؤكدين اصرارهم في محاولة الابقاء على انظمة « الشعوب المنفصلة » ٠

لا يسعنا هنا الا ان نعرض هذه الاوضاع بسرعة ونشير بشكل عابر الى بعض النواحي المهمة في هذا التعاون ومخاطره ٠

الوضع الداخلي

ان الوضع الداخلي هو في حالة تأزم مستمر في الحالتين ٠ وفي الحالتين تزداد التناقضات الداخلية للنظام نفسه ٠

في جنوب افريقيا ، يواجه التصنيع السريع نقصا في الايدي العاملة المختصة ، (فالتشريع « للاحتفاظ بالوظائف » يؤدي الى انعدام الاعداد المهني في صفوف الافريقيين) ، وصعوبة وجود اسواق خارجية (نظرا الى ضيق السوق الداخلي ٠٠٠) : وهنا تكمن مصلحة جنوب افريقيا في التعاون مع اسرائيل لتأمين الاسواق عن طريقها ٠

وترجع اسباب الازمة الاقتصادية اساسا الى انخفاض سعر الذهب والتزايد الفاحش في النفقات العسكرية وانعكاس سياسة تأييد التضخم الاقتصادي الذي يتبعه نظام التمييز العنصري ٠

مصادر صحيفة « الفاينانشل ميل » (جوهانسبورغ) تقول ان الناتج القومي الاجمالي انخفض بنسبة ٤٪ (للشخص الواحد) خلال ١٩٧٥ ٠(٥٦) كما ازدادت البطالة بشكل ملفت للنظر اذ كانت تطال ٥٥٠ الف افريقي في منتصف ١٩٧٦ ، مما يفسر احدى نواحي تسرع الحكومة في منحها « الاستقلال » للبانتوستان ، فيصبح بامكانها امتصاص جزء من النتائج الاجتماعية والسياسية لهذا الوضع ٠

العلاج : نداء عاجل يطالب بالقروض والاستثمارات الاجنبية ٠ وسجل دخول الرسامين رقما قياسيا عام ١٩٧٦ اذ وصل الى ١٧٧٤ مليون راند (منها ١٢٦٣ مليون طويلة الاجل)٠

اما القروض في سوق الدولارات الاوروبية ، فبلغت ٣٥٠ مليون دولار عام ١٩٧٦ (مقابل ٣٢١ عام ١٩٧٥) · ولكن صعوبات جنوب افريقيا للحصول على هذه القروض تتكاثر يوميا ، وهناك الكثير من الدلائل التي تشير الى قلق المستثمرين المتزايد بعد فشل اعتداء جنوب افريقيا على انغولا · ومع صعوبة المقاومة الافريقية في جنوب افريقيا نفسها ·

اما فيما يتعلق باسرائيل ، فيعطي مقال حديث لامون كابيليوك تحت عنوان « الاقتصاد الاسرائيلي يغوص في الازمة · » (٥٧) معلومات دقيقة حول : غلاء المعيشة (حيث انخفضت القوة الشرائية لليرة الاسرائيلية خمسة اضعاف على ما كانت عليه عام ١٩٧٠) : التخفيضات المتتالية (التي اضاعت لليرة منذ حزيران ١٩٧٥ ، ٢٥٪ من قيمتها) ، عجز ميزان المدفوعات (الذي ضرب الرقم القياسي العالمي : ٤ ملايين دولار عام ١٩٧٦ مقابل ٣ر٧ مليون دولار عام ١٩٧٥) · ونجد في المرتبة الاولى لهذا التدهور الاقتصادي الازدياد المذهل للنفقات العسكرية (حوالي ٤٠٪ من الميزانية ·) · والعلاج الاساسي يكمن في المساعدة الاميركية التي سجلت هي ايضا ارتفاعا منظورا : ٧ مليارات دولار منذ ١٩٧٣ · ومنها ٤ر٢ مليارات للسنتين الاخيرتين « لولا المساعدة الاميركية التي اخذت حجما لا مثيل له في السنوات الاخيرة ، لانهار الاقتصاد الاسرائيلي · »

هذا القول ، ترجمه رئيس الوزراء رابين ، على النحو التالي : « ··· **في السنوات القادمة ، سنتمكن من الوصول الى المرحلة الامنية المطلقة ، ولكننا سنصلها راكعين** » · (٥٨)

لكن الاقتصاديين الاسرائيليين يخشون انخفاض هذه المساعدة بشكل ملحوظ في السنوات القادمة ، رغم انها تبدو مؤمنة في الوقت الحاضر ·

تمتص الصناعات الحربية جزءا كبيرا من البطالة ، وهذه الظاهرة محدودة ايضا نظرا لانخفاض الهجرة · والجدير بالذكر ان الاحصاءات لا تتناول العمال العرب في الاراضي المحتلة وقد عرضنا في وقت سابق شروطهم على صعيد سوق العمل ·

وبما يخص اسرائيل ، لا يمكننا ان نعالج الوضع الداخلي دون الاشارة الى تناقضين اساسيين :

١ ـ لقد اشرنا سابقا الى التناقض الناجم عن استغلال الايدي العاملة العربية ، والذي ينجلي في الواقع في التعارض بين المثل الاعلى « للعمل اليهودي » الذي اعلنه الصهاينة وتكوين طبقة من « الافندية » حاليا · ويضاف الى ذلك الممارسات في السوق السوداء ، وجو الفساد وموجة الفضائح المالية التي هزت البلد ·

٢ ـ انقلاب النسب المقلق في الهجرة الى اسرائيل ومنها · في نظام يستند على التدفق المستمر للمهاجرين الجدد الذي يشجعه قانون العودة والامتيازات المقدمة للمهاجرين الجدد · ولكن ومنذ ١٩٦٦ انخفض تيار الهجرة بصورة شبه مستمرة بينما يتضخم الاتجاه المعاكس (الهجرة نحو الولايات المتحدة ، وكندا والمغرب حديثا ···) ·

وامام اهمية الظاهرة (ينعتها بعض القادة « بالكارثة » و « والفضيحة القومية ») يتساءل الصحفي بواز افرون (« يديعوت احرونوت » ، ١١ شباط ١٩٧٧) : « ··· ما هي العاهة التي يعاني منها الاقتصاد الاسرائيلي ، فيعطي انطباعا انه يختنق وانه محكوم في اجل قصير ، الى حد يجعل العديد من الناس يفقدون الامل ويهاجرون ···؟ » ·

ويؤكد هذا التناقض الظاهري : « ان الاعلام الاسرائيلي يستخدم دائما حجة ضرورة توسيع الحدود لحل مشكلة اندماج المهاجرين وامكانية استيعاب عدد آخر في « اسرائيل الكبرى » التي اعيد تكوينها ... الذي يحصل في الواقع ، هو العكس تماما . فقد تأكد اتجاه الهجرة المضادة وانخفضت الهجرة الى اسرائيل في الوقت نفسه الذي توسعت فيه الحدود (اي بعد حرب ١٩٦٧) » .

التنازل للمتطرفين

ان عددا متزايدا من السكان البيض في جنوب افريقيا ومن السكان اليهود الاسرائيليين يعون طبيعة النظام الجائر لا بل الانتحاري ويرغبون في التغيير . ولكن ، وفي الحالتين ، تبقى سيطرة عناصر اليمين المتطرف الذين يمثلون خاصية النظام ، متينة .

لذلك رأينا السيد فورستر يؤيد بعزم ، رغم الضغوط التي مارسها عليه الليبراليون من ناحية ورجال الاعمال « المعتدلون » من ناحية اخرى ، موقف نائب وزير البانتوستانات الذي اعلن « ... السود هم مواطنون في بلد آخر ، وليس هناك اي مجال للبحث اطلاقا في حصولهم على الحقوق السياسية او في اشتراكهم في الحكم مع البيض في منطقة البيض ... ويمكن ان يؤدي الايمان بعدم التمييز الى امور خطيرة جدا . وهذا معناه ان مواطني الترنسكاي سيتمكنوا من القدوم الى (كيب تاون) كما يريدون وعندما يريدون ... » (٥٩) .

كذلك اثبتت حكومة رابين عجزها امام تحركات التجمعات اليمينية المتطرفة التي تؤيدها الاحزاب الدينية : في اقامتها « مستوطنات متوحشة » (يعترف بها رسميا فيما بعد) او في استفزازات الحاخام لفينغر في الخليل ، وايضا عندما لم تتخذ هذه الحكومة اي موقف ضد متصرف لواء الشمال ـ الجليل (بعد تقريره الشهير الذي جعل يوري افنيري يقارنه « بحاكم مقاطعة نازية في الثلاثينات ») رغم مطالبة السكان العرب في هذه المنطقة باستقالته .

في ٢٠ كانون الاول ١٩٧٦ ، خرج اليمين المتدين من الحكومة واعلن موعد مسبق للانتخابات في ايار ١٩٧٧ . وحاليا لا تشير تصريحات ممثلي الحكومة المؤقتة (التي ترفض اي شكل من اشكال الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية) وقادة الجيش (الذين ينادون مرة اخرى ، بحرب وقائية) على اي بادرة في مراجعة السياسة العدوانية وضم الاراضي التي اتبعت حتى تاريخ يومنا هذا .

العزلة الدولية

منذ ١٩٧٣ ، ورغم جميع الجهود التي بذلت لشق الصفوف بين السكان المسيطر عليهم ، وبين ممثليهم الشرعيين ، او الدول التي تساندهم ، لم تحصد جنوب افريقيا واسرائيل الا ازدياد الادانة من قبل الرأي العام الدولي .

ـ عام ١٩٧٥ ، اعلن عدم صحة تمثيل بعثة جنوب افريقيا لسكان جمهورية جنوب افريقية ، واستبعدت عن دورة الجمعية العمومية لمنظمة الامم المتحدة . ولم يعق طرد حكومة بريتوريا من المجتمع الدولي الا حق الفيتو الذي تتمتع به القوى الغربية في مجلس الامن .

ـ في آذار ١٩٧٦ ، انتهى اعتداء جنوب افريقيا على الاراضي الانغولية الى فشل تام ، وتعرضت حكومة بريتوريا مرة اخرى لادانة مجلس الامن (٣١ اذار ١٩٧٦) نتيجة اعتدائها واستعمال اراضي ناميبيا الدولية لـ « اعداد اعمال استفزازية وعدوانية ضد الدول المجاورة » ٠

ـ في صيف ١٩٧٦ ، برهن امتناع معظم البلدان الافريقية عن الاشتراك في الالعاب الاولمبية في مونريال ، فشل محاولات جنوب افريقيا في اقامة « حوار » مع بعض الدول الافريقية متجاهلة الممثلين الحقيقيين للسكان السود في جنوب افريقيا ٠٠٠

اما الحكومة الاسرائيلية ، فقد وجهت لها ضربتان قاسيتان :

ـ دعوة السيد ياسر عرفات الى عرض وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية في الامم المتحدة ، والامتداد الطبيعي لهذا الحدث :

اكتسبت منظمة التحرير الفلسطينية وضع مراقب لدى الامم المتحدة والاعتراف الخطي في النصوص الرسمية لضرورة مشاركة م٠ت٠ف في اي مفاوضات للبحث عن حل في الشرق الاوسط ٠

ـ قرار ١٠ كانون الاول ١٩٧٥ الذي يدين الصهيونية ٠

لم تنجح جميع الحملات التي قام بها الصهاينة بمناسبة عملية عنتيبي (واستغلالها المضخم عن طريق الصحافة ، والسينما ٠٠٠) و بمناسبة حرب لبنان نفسها (حيث رأى الاسرائيليون وسيلة لاضعاف م٠ت٠ف وصفتها التمثيلية) في منع الاتجاه نحو مؤتمر سلام حيث يصعب على الاسرائيليين المعارضة اللامتناهية لتمثيل فلسطيني حقيقي ٠

زيارة فورستر الى اسرائيل : توثيق الحلف

سجل هذا الحدث منعطفا بقدر ما كان مناسبة لتوسيع نطاق العلاقات وجعلها رسمية بينما كانت حتى هذه الزيارة لا تزال سرية ويجري التقليل من حجمها من قبل الحكومتين٠

وهذه المبادرة مرتبطة مباشرة بالظروف (الداخلية والدولية) المذكورة اعلاه ٠ وقد سبقتها زيارات اخرى على مستوى عال : زيارة الجنرال موشي دايان ، والجنرال مئير عميت (الرئيس السابق للاستخبارات الاسرائيلية) ، والجنرال حاييم هرتزوغ (وهو الآن المندوب الدائم لاسرائيل في منظمة الامم المتحدة) الى جنوب افريقيا ٠ وفي المقابل زار اسرائيل وزير الداخلية والاعلام في جنوب افريقيا ، والجنرال فان دين برغ مسؤول الـ B.O.S.S المشؤوم ٠

وقد علقت الصحافة العالمية باسهاب على اللقاء الرسمي فورستر ـ رابين والاتفاقات الناتجة عنه ، بخلاف الزيارات السابقة ٠

ابتهجت صحافة جنوب افريقيا علنا : « يبدو جليا ان الميثاق هذا يتجاوز كثيرا اتفاقات التعاون والتبادل التجاري التي تنهي عادة الزيارة الرسمية التي تقوم بها شخصية ما الى بلد صديق ٠٠٠ ويتناول هذا الميثاق بشكل اساسي تبادل المواد الاولية ومعلومات البلدين التقنية العسكرية التي يحتاجانها بشدة ٠ فهو مسألة بقاء بالنسبة لهما ٠ وهنا يكمن الدافع الاقوى ٠٠٠ » (٦٠) ٠

« لا يمكن نفي وهج الانتصار الذي احرزه السيد فورستر هذا الاسبوع ... فهو ، عندما وقع علنا ، ميثاقا اقتصاديا وعلميا وصناعيا مع اسرائيل ، ذهب ابعد من الاعتراف الرسمي بعلاقات كانت قد تدعمت على كل حال . فقد ربح لقضية جنوب افريقيا صديقا علنيا وحليفا صريحا في وقت يواجه فيه بلدنا عالما تزداد معارضته وقارة افريقية سوداء في موقف عدائي متزايد » . (٦١)

اما الصحافة الاسرائيلية ، فقد عبرت عن ارتياحها في لهجة اكثر اعتدالا ، وكشفت عن بعض الحرج في اقوال سفير اسرائيل في جنوب افريقيا ، ي اونا ، في المقابلة المشار اليها اعلاه : « ... اظن ان نتائج زيارة السيد فورستر ستكون خيرة لاسرائيل خاصة على الصعيد الاقتصادي . وايضا على صعيد التسهيلات التي ستمنح للطائفة اليهودية الجنوب افريقية للاشتراك بصورة انشط من الماضي عن طريق الاستثمارات والوسائل الاخرى في مساعدة اسرائيل لحل مشاكلها الاقتصادية ... ونعلم انه سيكون لها في المقابل ، ردات فعل سلبية .... واظن ان النتائج الايجابية ستفوق النتائج الاخرى في آخر المطاف ... » (٦٢)

وحاولت الصحافة الغربية تقدير مضمون الاتفاقات المعقودة :

صحيفة « نيويورك تايمز » ، ١٧ **نيسان** ١٩٧٦ . « ان الرسميين الاسرائيليين يبدون ارتياحا كبيرا لهذه الزيارة . وينتظرون من الاتفاق المعقود تكثيفها سريعا للتبادل بين البلدين ، فتأتي جنوب افريقيا بالمواد الاولية وتؤمن اسرائيل الموظفين المختصين وذلك في اطار مشاريع مشتركة . كما يتوقعون تعاونا وثيقا على صعيد الابحاث العلمية .

« ومن المرتقب ايضا ازديادا مهما في شحنات الاسلحة . ويبدو ان جنوب افريقيا مستعدة لتمويل الصناعة الحربية الاسرائيلية وتبدي اهتماما في شراء الطائرة الاسرائيلية النفاثة « كفير » . وفي المقابل ، تؤمن جنوب افريقيا حاجة اسرائيل في مادة الاورانيوم .

« ومهما كانت البنود الدقيقة للاتفاق الموقع ، فهو يأتي ترسيخا لتوسيع نطاق التبادل بين بلدين معزولين ديبلوماسيا ومحاطين بدول معادية ... وتستند علاقاتهما على الوضع المتشابه وعلى اعتبارات علمية اقتصادية ، عسكرية وسياسية » .

صحيفة « تايمز » اللندنية ، ٣ **نيسان** ١٩٧٦ . « تعاني جنوب افريقيا من بعض الصعوبات في تأمين الاسلحة الحديثة نتيجة الحظر المضروب عليها : فاسرائيل هي احدى الدول القليلة التي يمكن ان تؤمنها لها وايضا ان تفيدها من التجربة التي اكتسبتها في حروبها ضد العرب ... وتماثلت جنوب افريقيا باسرائيل اكثر فأكثر خلال السنوات الاخيرة ، ويجري التركيز على التشابه بين تطور النظام الصهيوني وتطور النظام الافريقاني » .

صحيفة « لوموند » ، ١٥ **نيسان** ١٩٧٦ ، تعطي الايضاحات التالية : « ... ارتفع حجم مبيعات الاسلحة الاسرائيلية الى جنوب افريقيا من ٣ر٤٥ ملايين دولار منذ ٨ سنوات الى اكثر من ٤٣ مليون دولار حاليا . وهناك آراء حول احتمال تأمين اسرائيل اجهزة حربية معقدة لجنوب افريقيا ، وحتى الطائرات » .

صحيفة « البرافدا » السوفياتية تدين « ... التواطؤ بين تل ابيب وبريتوريا الموجه ضد حركات التحرر العربية والافريقية ... » وتؤكد ان « ... الاسرائيليين يودون بيع طائرتهم المقاتلة « كفير » لجنوب افريقيا بينما تهتم الدولة الصهيونية خاصة في ان تمدها

بريتوريا بالمواد الاولية ومنها الاورانيوم ، وهذا دليل واضح على بذل جهود الطرفين الصهيوني والعنصري لصناعة الاسلحة النووية » ٠

وتوافق هذه المهمة ، مهمة الـ A.N.C. (٦٣) التي اصدرت بيانا عند اعلان زيارة فورستر ، تقول فيه :

« هذه الزيارة هي برهان ونهاية عملية تعاون طويلة بين البلدين والتي تشكل خطرا كبيرا يهدد السلام العالمي : اسرائيل في الشرق الاوسط وجنوب افريقيا للقارة الافريقية ٠ هذه الزيارة تؤكد التعاون الوثيق بين البلدين على الصعيد الاقتصادي والسياسي والعسكري ، **وليس لدينا اي شك في ان هذا التعاون يمتد ايضا الى الصعيد النووي** ، بهدف الاعداد للحرب ضد البلاد المجاورة ، ولمواجهة حركات التحرر القومية » ٠

التعبئة العسكرية المكثفة

في الوقت الذي تعمق فيه التعاون العسكري بين الدولتين ، عملتا على زيادة امكانياتهما في هذا المضمار بشكل واسع جدا ٠

فالنفقات العسكرية الجنوب افريقية التي كانت عام ١٩٧٤ عشرة اضعاف ما كانت عليه عام ١٩٦٠ ، تضاعفت ثلاث مرات منذ هذا التاريخ (٧٤) فأصبحت قيمتها ١٣٥٠ مليون راند لعامي ٧٦ ـ ١٩٧٧ بعد ان كانت ٦٩٤ مليون راند لفترة ١٩٧٤ـ١٩٧٥ ٠ وقد اقتربت جنوب افريقيا من هدفها بفضل التوظيفات الاجنبية والتبادل التكنولوجي وشراء رخص التصنيع وهو **الاكتفاء الذاتي في ميدان انتاج الاسلحة والذخائر ، بما فيها الصواريخ والغازات الحربية ، الخ** ٠ ذلك دون ان تستغني عن الواردات الاجنبية (خاصة في مجال البحرية) ٠

وقد عرضت الحكومة الجنوب افريقية عام ١٩٧٦ « قانون الدفاع » على التصويت ٠ يمنحها هذا القانون ، حرية زج قواتها العسكرية « في اي مكان جنوب الخط الاستوائي » تحت شعار الدفاع الوقائي او تبعا لنظام « ملاحقة الارهابيين » ٠

واستطاع اللوبي المؤيد للصهيونية بعد مراوغات عديدة وضغوط ساهمت في فعاليتها المرحلة الانتخابية في الولايات المتحدة ، احراز مساعدة عسكرية اميركية لاسرائيل لا مثيل لها (تمت على شكل هبات وديون لتمويل شحنات الاسلحة التي وافق عليها « الكنغرس »٠ وهذا العتاد الذي جهزت او وعدت به اسرائيل يتشكل من الاجهزة المتطورة ، القنابل الموجهة بالليزر ، الطائرات العمودية المزودة بالصواريخ المضادة للدروع ، الرادارات الحديثة جدا لاستخدامها في القتال الليلي والتي لا تركب فقط على الطائرات بل ايضا على الزوارق والمدافع ، الخ) ٠ وقد سلمت اول ثلاث نماذج من الطائرة الاميركية « ف ١٥ » ـ من اصل ٢٥ طائرة ـ في اواخر ١٩٧٦ ٠ ويعتبر الاخصائيون الحربيون في اسرائيل ، ان ميزة هذه الطائرات هي « توسيع النطاق الهجومي الاسرائيلي » الى مسافة ابعد بكثير من حدودها ٠٠٠ (في الوقت نفسه ، كان الجنرال غور يصرح ان العربية السعودية هي احدى البلاد التي تواجهها اسرائيل مباشرة) ٠ ومرة اخرى ، نرى ان الكيان الصهيوني يفضل الاعتماد على تفوقه العسكري بدلا من البحث عن سبيل للتعايش مع جيرانه على اسس القرارات الدولية ٠٠٠

« تنبأ الجنرال ياريف ، الرئيس السابق لاجهزة المخابرات ، انه يمكن ان تنشب الحرب في آخر ١٩٧٧ او اول ١٩٧٨ لان العرب يضعون شروطا لا يمكن ان تقبلها اسرائيل · وأكد السيد رابين ورئيس الاركان غور ، ان اسرائيل هي اقوى مما كانت عليه قبل حـــرب ١٩٧٣ ومستعدة اكثر من اعدائها العرب · ونشرت مجلة الجيش مذكرة من الجنـــرال تال ، احد اهم الاستراتيجيين الاسرائيليين ومستشار وزير الدفـــاع · يعلـــن فيهـا ان السياسة الوحيدة التي يحتمل ان تؤمن النصر في الحرب القادمة نظرا الى اختلال ميزان القوى من الناحية العددية ، هي الهجوم الوقائي » · (٦٤)

وتحاول دولة اسرائيل ، مثلها مثل جنوب افريقيا ، ان تؤمن نوعا من الاستقـــلال النسبي على صعيد تموينها العسكري ولذلك تكثف صناعتها الحربية ·

وبلغت قيمة صادرات الاسلحة الاسرائيلية ٥ مرات ما كانت عليه عام ١٩٧٣ ، فانتقلت من معدل ٦٠ مليون دولار في السنة قبل ١٩٧٣ الى ٣٢٠ مليـون دولار عـــام ١٩٧٦ · وتتراوح مجموعة الاسلحة المعروضة من الاسلحة الخفيفة مثل البنادق الرشاشة « عوزي » الى الطائرات المقاتلة « كفير » ، مرورا بالصواريخ (« غابرييـــل » و « شافيـر ») · والزبائن الاساسيون هم جنوب افريقيا ، ايران ، تيوان ، الشيلي وبعض دول اميركا اللاتينية الاخرى ··· هل بدأ تطور صناعة الاسلحة المدهش في اسرائيـــل وطاقاتهـــا الحربية ، يقلق الولايات المتحدة الاميركية ؟ ··· فالادارة الجديدة ، في نفس الوقت الذي اعطت لقادة تل ابيب التأكيدات حول التأييد الاميركي ، قررت ان تمانع :

– في بيع اسرائيل قنابل انشطارية (التي استعملت في فيتنام) ذات قوى مدمـــرة يزيد في فعاليتها كونها تبيد اوكسيجين الهواء على مسافات واسعة ·

– وفي تسليم اسرائيل لحكومة « الاكوادور » الطائرات الاسرائيلية الصنع من طراز « كفير » ، « المحسنة » بجهاز صنع اميركي ·

الخيار النووي

ان الناحية المقلقة جدا في سياسة التعبئة العسكرية المكثفة للنظامين ، هـــي دون شك الجهد المبذول في تكوين سريع لطاقة نووية هجومية ·

منذ وقت طويل ، تقدم جنوب افريقيا واسرائيل على ابحاث نووية ، بصورة شبـــه سرية ، وبمساعدة القوى الغربية · وتلمح الحكومتان الى انهما لا تستبعدان اللجوء الى السلاح النووي · لم توقع اي منهما معاهدة الحد من الاسلحة النووية · واختارتا حاليا الاعلان عن قدرتهما النووية علنا لتكفلا تفوقا عسكريا « مطلقا » ، وايضا في سبيل اخافة الدول العربية والافريقية ·

اصبح اول محرك نووي جنوب افريقي جاهزا للعمل في نيسان ، واعلن رئيس الوزراء فيرفورد يوم تدشينه : « ان جنوب افريقيا هي احد اول منتجي الاورانيوم في العالـم · ويجب على جنوب افريقيا ان تبحث في طرق استعمالـــه لغايـــات سلميـة **وليس فقـــط عسكريا** » ··· (٦٥)

ولكن اذا تمتعت جنوب افريقيا بهذه المادة بالرساميل بصورة وفيرة ، كان ينقصهـــا الخبراء · فوجدتهم اساسا عبر تعاونها الوثيق مع المانيا الاتحادية ·

ويتردد اسم ف٠ج٠ ستراوس ، سبق ان كان وزير البحث في حكومة بون ، دائما في الاتفاقات المعقودة والتي تعقد حاليا ، بين جنوب افريقيا والمانيا الاتحادية ٠ وفي عام ١٩٧٥ ، نشرت الـ A.N.C. وثيقة تفضح مدى هذا التعاون واستمراريته ٠ كما اثار بيع فرنسا محركين نووين لمراكز توليد الطاقة الكهربائية ، لحكومة بريتوريا (مشروع كوبرغ ، وآخر لم يعرف مركزه) ، ردات فعل كثيرة لانه يمكن استخدامها لانتاج مادة البلوتونيوم المستخدمة لاهداف عسكرية ٠ ومن هذه الناحية ، فانشاء بليندابا لزيادة مركبات الاورانيوم على اساس رخصة انتاج المانية الاصل (« جت ـ نوزل ») ، هي مقلقة للغاية ٠ وتشير الوثيقة نفسها ، ان شركات المانية غربية هي التي صممت هذا المركز الصناعي وانجزت الجزء الاكبر منه وجهزته تنفيذا لمشروع من الحلف الاطلسي ، غايته لا يمكن ان تكون الا عسكرية » ٠ (٦٦)

وما ان انتهت حملة السويس ، حتى شرعت الحكومة الاسرائيلية في بناء محرك نووي في النقب ، وفي حين كانت الاتفاقات المعقودة مع فرنسا تشير الى مساهمة جنوب افريقيا ٠ وايد الوزير الالماني ستراوس بشدة مشروع القوة الضاربة الاسرائيلية ٠

تعلن صحيفة « لوموند » الصادرة في تاريخ ١٢ تموز ١٩٧٥ : « يقول الصحفي تاد تزولك ان اجهزة الاستخبارات الاميركية مدت اسرائيل بمساعدات مهمة جدا ، منذ بعض السنوات ، لتأييد جهودها في امتلاك الاسلحة النووية ٠ وكانت الادارة الاميركية تحت حكم ايزنهاور عام ١٩٥٦ قد وكلت السيد انكلتون ، الرئيس السابق لاجهزة الاستخبارات، تقديم « التأييد التكنولوجي » للخبراء الاسرائيليين في مركز ديمونا النووي ، وقد ارسل سريا الى ديمونا عدد كبير من علماء الذرة المتفوقين » ٠

ولكن ، لم يعلن الكيان الصهيوني علنا عن « الخيار النووي » الا منذ ١٩٧٤ ، حيث نرى رئيس الدولة الاسرائيلية نفسه يتكلم عن الموضوع ٠

في ١٩٧٥ ، علقت صحيفة « هآرتس » اليومية ، على مقال للدكتور داوتي ، رئيس فرع العلاقات الدولية للجامعة العبرية في القدس ، يقول فيه : « اذا لم تؤمن اسرائيل امكانية « الانتقام النووي » تكون قد ارتكبت خطأ لا يغتفر في وقت يتبدل فيه ميزان القوى التقليدية لغير مصلحتها ٠٠٠٠ » وينهي بالدعوة الى وضع برنامج طارىء يبحث في اللجوء الى الاسلحة النووية حتى « في ظروف اقل خطورة » ، ولا يستبعد « استخدامها الانتحاري » من قبل اسرائيل ٠٠٠ (٦٧)

وفي ٢٩ حزيران ١٩٧٥ ، تنشر صحيفة « هآرتس » نفسها ، مقالا لشلومو اهارونسن يؤكد فيه « ضرورة اعادة النظر في الموقع الستراتيجي ـ السياسي الاسرائيلي » : « ان السلاح النووي هو احدى الوسائل التي يمكنها ان تنهي آمال العرب في النصر النهائي على اسرائيل ٠٠٠ ان عددا كافيا من القنابل الذرية يمكنها ان تحدث اضرارا بالغة في جميع العواصم العربية ، وان تسبب في انهيار سد اسوان ٠ ومع كمية اكبر ، بامكاننا اصابة المدن المتوسطة الحجم والمنشآت النفطية ٠٠٠ » ٠

يقدر « براين بكيت » في مجلة « ميدل ايست انترناشونال » تشرين الثاني ١٩٧٦ ، مستندا على مراجع عديدة ، ان مجموعة الاسلحة النووية الاسرائيلية الحالية تبلغ من ١٣ الى ٢٠ قنبلة من نوع قنابل هيروشيما ٠ ويأخذ بعين الاعتبار بعض النواحي التقنية ليؤكد ان لهذه « القوى الضاربة » فعالية اساسية كوسيلة ضغط في يد اسرائيل على الولايات المتحدة ٠

وعلينا ان نفهم اتفاق التعاون التقني والعلمي الذي عقد مؤخرا بين جنوب افريقيا واسرائيل وجميع العلاقات الثنائية التي يقوم بها كل منهما مع دول تبدي استعدادها لمساعدتهم في تأسيس « قدرة نووية » ، من هذا المنظار الذي يظهر ازدواجية الهدف ٠

تأييد الغرب

ان المرحلة التاريخية التي اوصلت كلا من جمهورية جنوب افريقيا والدولة اليهودية للمطالبة « بالاستقلال » عن الدولة المنتدبة ـ بريطانيا ـ لم تحدث اي انفصام في علاقتهما بالعالم الغربي ، وخاصة مع الولايات المتحدة التي ترأست ما يسمى « بالعالم الحر » ٠

لم يكن بامكان اي من الدولتين البقاء ، سياسيا واقتصاديا ، ولا امتلاك قوى عسكرية ضخمة كالتي تتمتع بها ، لولا تأييد الدول الغربية النشيط والمستمر ٠

ظهر هذا التأييد على الصعيد الديبلوماسي عبر التصويت في منظمة الامم المتحدة واستخدام حق الفيتو في مجلس الامن كلما دار البحث حول اتخاذ عقوبات فعلية ضد نظام التمييز العنصري او حول الاعتراف الفعلي بحقوق الفلسطينيين ٠ بل تبين التأييد الغربي في الحالتين في المساعدة الاقتصادية والعسكرية الحاسمة من خلال التبادلات الثنائية او عبر هيئات دولية ٠

ولدى جنوب افريقيا ضمانتان اساسيتان للحصول على هذا التأييد :

توافر المواد الاولية المرغوبة بشكل خاص (الاورانيوم) وموقعها الستراتيجي ٠

تسجل الشركات المتعددة الجنسيات والحكومات التي توظف اموالها في صناعات او مناجم جنوب افريقيا (وناميبيا) ارباحا استثنائية (معدل الربح : ١٥ الى ٢٠٪) ، نتيجة الاجور المنخفضة المدفوعة للعمال الافريقيين ٠ لذلك تتدفق رؤوس الاموال الاجنبية وقد وصل حجمها الى ٢ر١ مليار دولار للسنة الضريبية ١٩٧٤ـ١٩٧٥ فقط ، بعد ان مرت بين ١٩٦٨ و ١٩٧٤ من ٦ر٤ الى ١٠ر٩ مليار دولار ٠ ولا تزال المصالح البريطانية ، تمثل اكبر حجم (٥٨٪ من المجموع) ، لكن قيمة الاستثمارات الاميركية تزداد بمعدل ٢٠٪ سنويا منذ ١٩٧٢ ٠

ولهذا التدخل الاقتصادي اهمية حاسمة بالنسبة لحكومة جنوب افريقيا ليس فقط من ناحية التصنيع الذي يعطي لها الدور المحدود في المنطقة ، بل ايضا من ناحية الاهمية السياسية الاكيدة ٠ فالمستثمرين الذين يستمتعون بفوائد مهمة من جراء هذا التعاون يتمنون بالطبع بقاء هذا النظام وازدهاره ٠ وقد توسعت امكانيات الحلف الاطلسي العسكرية بشكل يتيح له التدخل في حال وجود تهديد حقيقي لهذا النظام ٠ ويهدف عدد كبير من التدخلات الغربية في منطقة افريقيا الجنوبية ـ عن طريق « تنازلات » او تهديدات صريحة بالتدخل العسكري ـ الى منع وصول الاكثرية السوداء الى الحكم في دول هذه المنطقة ٠

وتزداد الاهمية السياسية لجنوب افريقيا نتيجة قيامها بدور الحارس لمصالح « العالم الحر » ، ولطريق رأس الرجاء الصالح البحرية الضرورية جدا في تموين اوروبا والولايات المتحدة النفطي ٠ وعلق الجنرال كرولز ، رئيس الاركان السابق للجيش الهولندي ، حول هذا الدور الستراتيجي :

« انني مقتنع اكثر من اي وقت مضى انه ليس من دور جنوب افريقيا ان تتوسل للحصول على تأييد وعلى زوارق واسلحة ، بل على العكس ، يجب على دول الحلف الاطلسي ان تطلب من جنوب افريقيا ان تفعل ما في امكانها للمحافظة على مركزها في القارة الافريقية ، وان تساعد دول اوروبا الغربية والولايات المتحدة ليس فقط في حماية الطرق البحرية ، بل ايضا في منع التغلغل السوفياتي في البلاد الافريقية » · (٦٨)

وتقول مصادر « الحركة المناهضة لنظام التمييز العنصري » في المانيا الاتحادية ، ان المحادثات التي عقدت في مكان ما في منطقة بافيير الالمانية بين السادة كيسنجر وفورستر وشميدت ، تناولت موضوع هذا التعاون الستراتيجي بشكل اساسي · ويقال ان وزير الشؤون الخارجية الاسرائيلي ، ييغال آلون ، اشترك في هذه المحادثات ·

وقد نددت العديد من الهيئات بهذه الوضعية في الساحة الدولية والهيئات هي :

ـ اللجنة الخاصة حول التمييز العنصري ، التابعة للامم المتحدة (٩ ايلول ١٩٧٥) « شيد نظام جنوب افريقيا مجموعة من طرق المواصلات الهاتفية البحرية في صيلفرمين وطورت اسطولها البحري في سبيل توثيق العلاقات العسكرية مع بعض القوى الغربية وحثها على حمايتها ضد غضب الشعب المضطهد » ·

ـ ومؤتمر رؤساء وزارات الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية ابدى قلقه امام : « تزايد نشاطات نظام جنوب افريقيا العسكرية والبحرية في المحيط الهندي جنوب المحيط الاطلسي » ·

ـ المؤتمر الخامس لرؤساء دول وحكومات البلاد غير المنحازة المجتمعين في كولومبو والذين ادانوا : « وجود قواعد عسكرية جنوب افريقية في المنطقة ، وعلى وجه التحديد ، قاعدة سيلفرمان وسيمونزتاون ، ومشروع ادفويت للمواصلات الهاتفية البحرية ، والتعاون العسكري بين نظام بريتوريا واسرائيل وبعض القوى الغربية » ·

اسرائيل

استولت الولايات المتحدة الاميركية شيئا فشيئا على موقع النفوذ البريطاني في الشرق الادنى · ومنذ ايار ١٩٤٨ ، وعد الرئيس ترومان وايزمان بقرض للدولة الجديدة يبلغ مئة مليون دولار واخذت الولايات المتحدة على عاتقها تأمين الدولة اليهودية عسكريا ، وازدادت مساعداتها باستمرار مع مرور الزمن نتيجة ضغوط المنظمات اليهودية واللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة · « ازدادت المطالب الاسرائيلية منذ حرب ١٩٦٧ بشكل مأساوي ··· تنتظر اسرائيل حاليا من الولايات المتحدة مساعدة عسكرية واقتصادية تبلغ قيمتها حوالي ٢ مليار دولار في السنة · ويتضح ان هذه المساعدة لا تكتسب طابع الاستثناء لمواجهة حالة طارئة ، ولكنها ضرورة مستمرة · وهذه القيمة تمثل حوالي نصف مجموع المساعدة الاميركية للخارج ··· » (٦٩)

وهذه المساعدة تمنح تحت شكل هبات وقروض · ويقول الان تيلور (٧٠) انها تكلف كل مواطن اميركي (رجل او امرأة او طفل) اكثر من ١٠ دولارات سنويا · ولكنه يزيد ان الكلفة السياسية لا حساب لها · لان هذه المساعدة تشجع اسرائيل في سياسة الامر الواقع التي تتبعها ، والتي تعني ابعاد واضطهاد الفلسطينيين ، وسياسة التوسع عن

طريق الحرب ، والقمع الممارس على اهالي الاراضي المحتلة · ويحتج تيلور على ان هذه المساعدة مغايرة لروح نصوص الكونغرس التي تشترط منح المساعدة لبلد ما على ضوء احترام هذا الاخير لمبادىء ميثاق الامم المتحدة ·

علق الفرد ليلينتال ، على ضخامة المساعدة الاميركية لاسرائيل قائلا : « تتمتع اسرائيل بوضع مؤات افضل من كونها الولاية الاميركية الحادية والخمسين ، بفضل نشاط فريق التأثير الاكبر نفوذا في واشنطن ، ونتيجة اهتمامات اعضاء الكونغرس الانتخابية » · (٧١)

يذكر الشيخ الاميركي السابق ، وليم فولبرايت ، في مداخلته امام المؤتمر السنوي التاسع والعشرين لمعهد الشرق الاوسط ، ان نصف الواردات الاميركية من النفط والغاز ، خلال فترة العشر سنوات القادمة ، ستأتي من الشرق الاوسط ، ويستخلص قائلا : « ان الموقف الحكيم في هذه الظروف ، هو اعادة النظر في سياستنا الحالية الغامضة والمشككة تجاه الدول العربية المنتجة للنفط ··· والمسألة الوحيدة التي نختلف عليها معهم هي تأييدنا المستمر لاستمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي التي استولت عليها عام ١٩٦٧ ، عن طريق مد اسرائيل بالمساعدات العسكرية ··· » (٧٢)

كما تظهر المساعدات الغربية لاسرائيل ، من خلال العرض الذي تقدمت به دول السوق المشتركة من اجل اشتراك اسرائيل في السوق منذ ٧ حزيران ٦٧ ، من دون اخذ التردد الذي ابداه الخبراء ، بعين الاعتبار (لوموند ١١ـ١٢ حزيران ٦٧) ·

ويجب ان نذكر ايضا ـ الى جانب مساعدات يهود الدياسبورا ـ بأهمية المساعدات الاساسية التي تدفعها المانيا الاتحادية للدولة اليهودية بحجة التعويض عن الاضرار التي تحملها ضحايا الحرب · وفي المقابل ، فقد وقفت دولة اسرائيل دائما الى جانب السياسة الغربية ـ وخاصة الاميركية ـ في كوريا وفيتنام ، الخ · وتبادلت مع هذه القوى المعلومات حول الاسلحة السوفياتية التي غنمتها اسرائيل مقابل اسلحة جديدة · فاسرائيل تقوم بدور الشرطي للحفاظ على المصالح الغربية في الشرق الاوسط ، مثلها مثل جنوب افريقيا في القارة الافريقية ·

وهذه الحجة ، لا اهمية لها الا في اطار الحرب الباردة ، التي يرى فيها المسؤولون عن النظامين ، شرطا للبقاء ··· ويحاولون باستمرار التذكير باهمية دورهم ضمن الجهاز الدفاعي الغربي في كل من منطقتي افريقيا الجنوبية والشرق الاوسط ·

هكذا يصرح ايدلبورغ (الاستاذ في جامعة بار ـ ايلان اليهودية في اسرائيل) انه « ليس هناك سلام حقيقي ممكن بين اميركا الديموقراطية وروسيا الشيوعية · كما هو الحال بين اسرائيل الديموقراطية والدول العربية ··· » ولا يخشى ان يضيف : « ··· ان امن اسرائيل ضروري لامن الولايات المتحدة من الناحية السيكولوجية وايضا من الناحية الجيوسياسية · فاذا سقطت اسرائيل وهي موطن الديمقراطية الوحيد في الشرق الاوسط ستدمر المعنويات الاميركية تماما » · (صحيفة « معاريف » ، ٤ شباط ١٩٧٧) ·

نجد هذا التخوف نفسه في دفاع عن جنوب افريقيا ، نشر في صحيفة « هآرتس » (٨ شباط ١٩٧٧) حيث يعبر كاتبه عن قلقه امام تصريحات مندوب الولايات المتحدة الجديد في الامم المتحدة ، « العبد المبشر » (نعم بهذه العبارة) اندرو ينغ · يعاتب هذا الاخير كونه يتماثل بشكل « عاطفي » مع المناضلين الافريقيين في روديسيا وجنوب

افريقيا ، ويبدي « الاعتبارات الاخلاقية » على متطلبات السياسة الواقعية التي سادت حتى الان ـ والتي يجب ان تسود ، حسب رأيه ـ في السياسة الخارجية الاميركية ... ويعطي هذا الانذار : « ... اذا مورست الضغوط على حكومة جنوب افريقيا . واذا عزلت ، فلن يؤدي هذا الى تبديل سياستها بل الى تصلب موقفها ، وينتج عن ذلك اضعافها على الصعيد الدولي وتفقد بالتالي دورها الستراتيجي المهم في هذه المنطقة من العالم » . في الواقع ، فان هدف السياسة الصهيونية هو تقسيم العالم العربي واجبار دوله على تخصيص مبالغ مهمة لميزانيتها العسكرية بدلا من ان توظفها لانمائها . وفيما هي تشجع ، عن طريق وسائل الاعلام الصهيونية ونفوذها على وسائل الثقافة الجماهيرية في الغرب ، الشعور العنصري المضاد للعرب وتغذي هوس « الازمة » والنقمة على الدول المنتجة للنفط ، يذهب الاسرائيليون الى ابعد من ذلك : يقترحون خدماتهم في حال تدخل عسكري اميركي ... وهكذا اعلن الجنرال كارويشي عام ١٩٧٥ : « يمكن ان يلعب الجيش الاسرائيلي دورا مع القوى التي ستحل المشكلة على الصعيد العسكري .. فلا بد ان تطرح نفسها اية عملية عسكرية اميركية في شبه الجزيرة العربية او في الخليج الفارسي بشكل مختلف تماما ، اذا كان جيش الاسرائيلي على استعداد، ليس بالضرورة للمشاركة في الاستيلاء على الاراضي، بل لمنع الدول العربية التي تنعم بقوى عسكرية ـ مثل مصر ، سوريا ، العراق والى حد ما ، الاردن ـ من التدخل في ساحة العمليات ... » (٧٣)

التعاون على ارض المعركة

ان التحرك المؤيد العفوي الذي دفع جنوب افريقيا الى جانب اسرائيل اثناء حروب ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، ضد « العدو المشترك » يدفع الاسرائيليين اليوم للتدخل بشكل ملموس جدا في المواجهة التي ستتفاقم اكثر واكثر غدا مع حركات التحرر في منطقة افريقيا الجنوبية .

وسنكتفي هنا بسرد الوقائع التالية :

ـ في ٣ نيسان ١٩٧٦ ، اشار مراسل صحيفة « الديلي تلغراف » في جوهانسبورغ ان ضباطا اسرائيليين يساعدون جيش جنوب افريقيا في تحضير الحملة على انغولا . ويشير المصدر نفسه ان الجنرال ر.هـ.د. رودجرز في القوات الجوية الجنوب افريقية اعلن ان احد الاسباب التي ادت الى تسجيل عدد قليل جدا من الضحايا خلال هذه الحملة ، هو الاعتماد الكامل على التقنيات الاسرائيلية في نقل الجنود الجرحى على خط النار ومعالجتهم .

ـ اكد السيد فريدمان ، العضو في المعارضة ضمن البرلمان الاسرائيلي ، في حزيران ١٩٧٦ ، ان مئات الجنود الاسرائيليين يدربون وحدات جيش جنوب افريقيا ويشتركون في مناورات التدريب . (٧٤)

ـ ورد في صحيفة « لوموند » تاريخ ٢٢ آب ١٩٧٦ : « اتهم رئيس منظمة السوابو (٧٥) الجنوب افريقيين بالاستعانة بمرتزقة بريطانيين وجنود اسرائيليين لمراقبة المنطقة الامنية التي تمتد على ٥٠ كلم والتي يحاولون انشاءها على طول الحدود التي تفصلهم عن ناميبيا وانغولا وزامبيا .قال السيد نوجوما « ان هذا الوضع مستمر منذ ٤ سنوات . بدأ الجنوب ـ افريقيون مؤخرا ، استعمال الاسرائيليين لمساعدتهم في مراقبة هذه المنطقة

الحاجزة ، بصفتهم خبراء في حرب الصحراء » ٠

ـ اعلنت صحيفة « يديعوت احرونوت » في آب ١٩٧٦ : « منذ عملية انتيبي والمنظمات الخاصة التي تعمل في جنوب افريقيا وروديسيا تحث وكالات تطويع المرتزقة في بريطانيا ان توظف جنودا اسرائيليين للحفاظ على امن الحدود بين روديسيا والموزامبيق ٠ ويصل اجر الذين يقومون بمهمات القيادة والتدريب الى عشرة آلاف ليرة اسرائيلية شهريا ٠٠٠ وتبحث الاجهزة المختصة في نشر اعلانات في الصحف الاسرائيلية ، تعرض على الذين يحبون الحرب ، عملا ممتازا ٠٠٠ » (٧٦)

ان غارات القصف التي يقوم بها سلاح الجو الروديسي ـ تسانده في ذلك طائرات من جنوب افريقيا وبلدان اخرى ـ على اراضي موزامبيق باسم « حق ملاحقة الارهابيين » تشبه عمليا ، عمليات القوات الجوية الاسرائيلية في قصفها المتواصل منذ سنوات لقرى جنوب لبنان ٠٠٠

« تفرقة صفوف الافريقيين والعرب ٠٠٠ »

في الوقت الذي كان رئيس الوزراء فورستر يزور اسرائيل في نيسان ١٩٧٦ ، اعلنت السيدة جان مارتين سيس ، رئيسة اللجنة الخاصة للامم المتحدة ضد التمييز العنصري حينها ، ووزيرة الشؤون الاجتماعية في جمهورية غينيا حاليا ، اعلنت امام اللجنة بيانا نذكر هنا مقتطفات منه : « منذ ايام قليلة ، اضطررت الى نشر بلاغ صحفي يعبر عن قلقنا العميق امام توطيد العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا ٠ ادانت الجمعية العمومية مرات عديدة ، النظام العنصري في جنوب افريقيا ، ونذكر قرار ١٠ كانون الاول ١٩٧٥ ٠ ومع ذلك ، وبعد شهر واحد من اعتماد هذا القرار ، رفعت جنوب افريقيا مستوى تمثيلها الديبلوماسي في اسرائيل من القنصلية العامة الى درجة سفارة ٠ وفي ٢٦ آذار ١٩٧٦ ، قام السيد مولدر ، وزير الداخلية والاعلام في حكومة جنوب افريقيا ، بزيارة اسرائيل ٠٠٠ تلتها زيارة رئيس الوزراء فورستر ٠

منذ ايام قليلة جدا ، بحث مجلس الامن على التوالي شكوى قدمتها الدول العربية ضد اسرائيل وشكوى قدمتها الدول الافريقية ضد نظام جنوب افريقيا ٠ فما الذي جعل حاليا اسرائيل ، التي تواصل احتلالها لاراضي واقعة في شمال شرق افريقيا ، ونظام جنوب افريقيا الذي يواصل من جهته احتلاله غير الشرعي في اقصى جنوب القارة الافريقية ، تشعران بضرورة محادثات قمة ؟ هناك سببان اساسيان :

سأستشهد هنا ، في سبيل التذكير ، بالملخص الذي بثته اذاعة القدس في ١٨ كانون الثاني ١٩٧٦ :

اعلن وزير الشؤون الخارجية (الاسرائيلي) اثناء جلسة المجلس التي عقدت اليوم ، ان الموقف المتحفظ الذي خرج به مؤتمر دول الوحدة الافريقية حول موضوع انغولا ، يمثل نجاح دول المعسكر المعتدل في القارة ٠ وهذا نجاح للديبلوماسية الاميركية ٠٠٠ وامامنا الآن امل شرعي في ان يؤثر هذا المعسكر المعتدل من الدول الافريقية على العلاقات مع اسرائيل ٠٠٠

فهل يتابع هذان البلدان جهودهما غير المجدية في سبيل تفرقة افريقيا ، آملين في وجود التأييد ؟٠٠٠

في نهاية شهر آذار ، رفع نظام جنوب افريقيا ميزانيته العسكرية بنسبة تزيد عن ٤٠٪ ... وقد قدرت هذه الزيارة ردا مباشرا على ادانة اعتدائه على انغولا ، ذلك رغم الازمة الاقتصادية المهمة التي يعاني منها البلد ٠

ومن مشاريع النظام العنصري ، الحصول على الاعتدة العسكرية الاضافية ، خاصة الزوارق المزودة بالصواريخ والحراقات والطائرات ذات المدى الواسع للعمل ٠ فالوقت الذي اختير لزيارة السيد فورستر الى اسرائيل يشير الى آمال جنوب افريقيا في استعمال اسرائيل لخرق الحصار على الاسلحة المضروب عليها ٠

وقد اكتشفت الحكومتان مصالح مشتركة بينهما ٠ ومنذ بضعة اسابيع فقط ، اعلن الجنرال نيل فبستر ، رئيس القوات المسلحة في جنوب افريقيا ، ان « على الجنوب افريقيين ، ، مثلهم مثل الاسرائيليين ، ان يعتادوا على فكرة الحياة في حالة حرب ، خلال السنوات القادمة ...»

كما اعلن السيد فورستر للصحافة ، في ١٠ نيسان ، ان العلاقات بين جنوب افريقيا واسرائيل لم تكن يوما افضل مما هي عليه ٠ واضاف ان ذلك لن يسيء الى علاقات جنوب افريقيا مع الدول العربية التي تمدها بالنفط ٠

اكتفي هنا بالقول ان اللجنة الخاصة كانت وستبقى يقظة حيال المناورات الهادفة الى التفرقة في صفوف الدول العربية ٠ وكما تعلمون ، لقد اجريت محادثات مع الامين العام لجامعة الدول العربية ولجنتنا مصممة كل التصميم على متابعة جهودها لتأمين حظر نفطي جدي ضد جنوب افريقيا ٠

وبما ان اسرائيل لم تجب على المذكرة التي وجهتها لها اللجنة الخاصة بخصوص تعاونها مع جنوب افريقيا ، علينا ان نتجه الآن الى الجمعية العمومية حتى تتخذ الاجراءات اللازمة ٠

اود فقط ان اجدد امنيتنا في ان تستعمل جميع الحكومات والمنظمات نفوذها لتنهي هذا الحلف وهذا التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا ٠ ويجب ان تبلغ الحكومة الاسرائيلية بعبارات واضحة ان الحكومات والشعوب المعادية للعنصرية ـ اي الانسانية بأجمعها تقريبا ـ لا يمكنها ان تتقبل ولا ان تتجاهل العلاقات التي تقيمها مع النظام العنصري في جنوب افريقيا ، منتهكة بذلك قرارات منظمة الامم المتحدة » ٠ (٧٧)

ان مؤتمر القمة العربي الافريقي الذي عقد في القاهرة اوائل آذار ١٩٧٧ عبر عن وعي العرب والافريقيين المتزايد « لوحدة المصير » ، خاصة امام التهديد الذي يتمثل في جنوب افريقيا واسرائيل ٠

وهذا التضامن عبر عن نفسه بالمساعدة الملموسة ـ وليس الجديدة ـ التي قدمتها بعض الدول العربية المنتجة للنفط ، للدول الافريقية التي تبحث بصعوبة عن طريقها للتقدم والنمو ٠

خلاصة

ان صلة القرابة التي تتضح امام اعيننا بعد المعطيات التي وردت ، سلطت عليها الاضواء مرة اخرى الادانة التي وجهتها لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة

للحكومات الثلاث التي تشكل كما سماها بعض المعلقين السياسيين « الثـــلاثي غير المقدس » وهي : جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل ٠

وفي ظل شروط كهذه ، يدفعنا التضامن اولا الى جانب الشعوب المضطهدة من قبـــل نظام التمييز العنصري والنظام الصهيوني ، والى جانب الشعوب المهددة مباشرة بمطامع الجنوب افريقيين والاسرائيليين ٠ فتوسيع نطاق التعاون المستمر بين النظامين يزيد الخطر الذي يمثلانه ٠

لكن هذا الاهتمام لا ينفي قلقنا على السكان البيض في جنوب افريقيا واليهود فـــي اسرائيل ، وهم ضحايا السياسة المتبعة باسمهم ٠ نحن نعلم النضال الشجاع الذي تقوم به بعض الشخصيات والمجموعات التي لا تزال اقليات ضمن هذه الطوائف ، في سبيل شق طريق السلام عبر تطبيق العدالة ٠

ولكننا نترك الكلمة النهائية للشعوب التي تناضل في سبيل الحرية والكرامة ، عبر هذا النداء الذي اذاعته الـ ANC في نيسان ١٩٧٦ : « نطلب من جميـــع الديموقراطييـــن واللاعنصريين واصدقاء السلام ان يعيروا اهتماما كبيرا للتعاون الستراتيجي بين اسرائيل وجنوب افريقيا ، ان يفضحوه وان يعملوا كل ما في الامكان لاحباطه وان يواجهوا بحزم كل اجراء مؤيد للعنصريين في البلدين » ٠

ترجمة : جاكلين فرهود

هوامش :

(٥٥) ان معظم الارقام والوقائع المشار اليها في الفصول التي تتناول العـــلاقات الاقتصادية والتعاون العسكري مأخوذة من تقرير الامم المتحدة تاريخ ١٣ ايلول ١٩٧٦ ٠

(٥٦) صحيفة « فاينانشل ميل » جوهانسبورغ ٦ نيسان ١٩٧٦ ٠

(٥٧) صحيفة « لوموند ديبلوماتيك » ، كانون الثاني ١٩٧٧ ، ٠٩ كابيليوك : « الاقتصاد الاسرائيلي يغوص في الازمة » ٠

(٥٨) المرجع السابق

(٥٩) لوموند ، ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٦ ٠

(٦٠) صحيفة « ذي ستار » ، جوهانسبورغ ، ١٧ نيسان ١٩٧٦ ٠

(٦١) صحيفة « راند ديلي ميل » ، ١٥ نيسان ١٩٧٦ ٠

(٦٢) ستيفنس والمسيري ٠ المرجع المذكور سابقا ٠ صفحة ١٧٢ ٠

(٦٣) الـ ANC حكومة تحرير جنوب افريقيا ٠

(٦٤) صحيفة « لندن تايمز » ٣١ كانون الاول ١٩٧٦ ٠ مذكور في نشرة اورابيـــا عدد ٧١ ٠

(٦٥) « استراتيجية الدفاع في جنوب افريقيا » ٩ ٠ مينتي ٠ الصفحة ٩ ٠

(٦٦) تقرير الحكومة المناهضة للتمييز العنصري في المانيا الاتحادية ٠

(٦٧) صحيفة « هآرتس » ٢ حزيران ١٩٧٥ · مذكور في نشرة اورابيا عدد ٤٢ ·

(٦٨) هـ·ج· كرولز ـ « تحذير للحلف الاطلسي » · يذكره فريدمان ، وثيقة الامم المتحدة ، ٢٠ـ١٩٧٤ ·

(٦٩) دان جليون ، مجلة « ميدل ايست انترناشونال ، كانون الثاني ١٩٧٧ ، مذكور في اورابيا عدد ٧١ ·

(٧٠) استاذ العلاقات الدولية في الجامعة الاميركية في واشنطن ، في كتاب « معنى المساعدة الاميركية لاسرائيل » ·

(٧١) يشير اليه ج· روبرت · مجلة « ميدل ايست انترناشيونال » آب ١٩٧٤ ·

(٧٢) وليم فولبرايت ، « المصالح الاميركية في الشرق الاوسط » · مجلة « ميدل ايست انترناشونال ، كانون الاول ١٩٧٥ ، مذكور في نشرة اورابيا عدد ٥٢ ·

(٧٣) صحيفة «معاريف» ١٠ كانون الاول ١٩٧٥ · مذكورة في نشرة اورابيا العدد ٣٣ ·

(٧٤) تقرير اللجنة الخاصة للامم المتحدة ضد التمييز العنصري « العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا » صفحة ١٦ ·

(٧٥) Swapo : حركة تحرر شعب ناميبيا ·

(٧٦) صحيفة « يديعوت احرونوت » ٢١ تموز ١٩٧٦ · مذكور في نشرة اورابيا عدد ٦٣

(٧٧) وثيقة الامم المتحدة : بيان سعادة السيدة سيس (غينيا) ، رئيسة اللجنة الخاصة للامم المتحدة ضد التمييز العنصري ·

مناقشات

نـــزيـــه أبونضـــال

الإرهاب والإرهاب الأوروبّي

الخوف من التصنيفات الشائعة : مع الارهاب ، أو ضد الارهاب ، يبعد الكثيرين عن مناقشة هذه المسألة ، رغم انها قد باتت اكثر من ظاهرة ، من ظواهر هذا العصر ٠
ومرد الحرج في تناول موضوع الارهاب عائد في تقديري الى عاملين :

الاول : هو اختلاط اشكال الارهاب في الوعي العام ، فعمليات خطف الطائرات تساوي عمليات العنف التي تقوم بها المجموعات والفصائل المختلفة داخل المعسكر الرأسمالي : بادر ـ ماينهوف المانيا ، الجيش الاحمر اليابان ، الفصائل اليسارية الحمراء في ايطاليا وفرنسا الخ ٠٠ هذا الاختلاط تصنعه وتقوده بذكاء أجهزة الاعلام البرجوازية وحلفاؤها وامتداداتها في انحاء العالم ٠ وهذا الموقف يتقاطع مع التنديد المستمر الذي يعلنه اليسار الرسمي دولا وأحزابا ، ضد العنف والارهاب ٠

الثاني : ان معظم المفكرين التقدميين خاضعون امـــا لنمط الاخلاقيات البرجوازية الدارجة التي تتأذى من أعمال العنف والقتل ، واما لانها لا تود ان تسجل موقفا يتعارض مع قناعاتها العامة والسلفية في الغالب حول دور الارهاب الفردي ، الذي يناقض دور الحزب الجماهيري كما قال لينين في سياق محدد ، وهي ايضا ، لا تود الاعلان عن موقف يصب في طاحونة الاعلام البرجوازي ٠٠ مع النظام الرأسمالي الالماني مثلا ، وضد جماعة بادر ـ ماينهوف ٠

ونتيجة هذين العاملين يتحرج الكتاب والمفكرون التقدميون من تناول موضوع الارهاب ، مما يعني ترك المجال كاملا ومفتوحا لتشويهات الاعلام البرجوازي المستمرة ٠ مما ينقل المسألة بمجموعها الى « مانشيتات » الاثارة الصحفية ، وصور عائلة « شلاير » المنكوبة ، ودون ان يقترب احد من الدوافع الموضوعية التي تقف خلف عمليات العنف والارهاب ، أو تفسر مغزى استمرار هذه الجماعات « الارهابية » وتناميها وانتشارها في مختلف البلاد الرأسمالية ٠

وحين ننتقل الى الجانب الاخر من الصورة ، وحيث تمارس الاجهـــزة والسلطـــات الرأسمالية ارهابها اليومي والمبرمج ، والذي أخذ أبشع اشكاله بتصفية عـدد مـــن قادة

جماعة بادر ـ ماينهوف في المعتقل الالماني ، فان ردود الفعل على هذه الجريمة ، لا يكاد يذكر باستثناء بعض التعبيرات العصبية العنيفة التي نفذتها مجموعات يسارية صغيرة في ايطاليا وتركيا وفرنسا بالاضافة الى المانيا ، والسبب مرة ثانية عدم الرغبة ، والتحرج في تناول موضوع الارهاب · اضف الى ذلك ان المفكرين والقوى السياسية التقدمية تعتقد بان موقفها المعارض من الرأسمالية العالمية والامبريالية هو شهادة كافية ، لا تحتاج معها الى تنديد جديد بهذه الانظمة وبارهابها المتواصل ، خاصة والموضوع متعلق بهذا « الارهاب المخجل » ·

ونتيجة هذا **الشلل** في الموقف مرة ثانية ، هو اعطاء هذه الانظمة مشروعية الارهاب والقتل ، ولتواصل احكام قبضتها على الاوضاع وبما يحفظ للطبقات الحاكمة الاستمرار في عمليات نهبها واستغلالها ،محليا وعالميا ، ولامد طويل قادم ·

المصالح العليا للرأسمالية تلتقي في كل مكان من العالم لمواجهة مجموعة « ارهابية » · « الدول » تلتقي وتنسق وتتبادل الخبرات والمعلومات والامكانيات ، و « الانتربول » يحمل الصور والقوائم ويوزعها على اعضائه في انحاء العالم ·· الحدود والمطارات والموانىء شبكات هائلة لاصطياد اولئك الذين يعكرون مزاج هذا العصر وامنه و « رفاهيته » المستقرة ، والقيم « الديمقراطية » السائدة فيه ·

ورغم ذلك كله ، وفي مواجهته لا يرتفع صوت ، بسبب هذا الشلل وهذا الحرج الذي يسببه الارهاب ·

□

نحن بداية سنخرج من اسار الخلط الشائع لاشكال الارهاب ، ونقرر **رفضنا** لعمليات خطف الطائرات التي تهدد بقتل الركاب وتصفيتهم · على الرغم من ان اية جماعة لم تقم حتى الان بتنفيذ تهديدها بقتل الرهائن · ولهذا دلالة كبيرة ، لا تحب اجهزة الاعلام البرجوازي الاقتراب منها ·

بعد ذلك تبقى عمليات العنف التي تنفذها المجموعات اليسارية داخل الدول الرأسمالية، وهذا هو موضوع بحثنا هنا ·

ان تحديد موقف مبدئي من عمليات العنف داخل المعسكر الاوروبي والرأسمالي العالمي ، لا بد ان يرتبط بفهم مسبق لبنية النظام الرأسمالي بصورته الراهنة ، لا ان نلبسه احكاما مسبقة لظروف اوروبا والنظام الرأسمالي العالمي في اواخر القرن الماضي وبدايات هذا القرن ·

فحين تنبأ « **البيان** » ودعا البروليتاريا الاوروبية « لدك كل النظام الاجتماعي القائم بالعنف » · وهتف : « فلترتعش الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية · فليس للبروليتاريا ما تفقده سوى قيودها واغلالها » (١) · حين فعل « البيان » ذلك كانت صورة الوضع الاجتماعي والاقتصادي الاوروبي جد مختلفة ، كما كانت نذر الثورة الطبقية الشاملة تتجلى بصورة مباشرة عبر العديد من الظواهر المتفجرة : الازمات التجارية الدورية ، وحيث « ينقض على المجتمع وباء فيض الانتاج ··· فيرتمي المجتمع فجأة في

(١) ماركس ـ انجلز ـ البيان الشيوعي ـ مختارات ـ المجلد الاول ص ٩٦ دار التقدم ـ موسكو ·

حالة همجية ، حتى ليخيل للمرء ان هناك مجاعة او حربا طاحنة تقطع عن المجتمع وسائل معيشته ووسائل رزقه ، وكأنما الصناعة والتجارة اتى عليهما الخراب والدمار » (٢)·

فكيف تتغلب البرجوازية على ذلك كله ؟·

يجيب البيان : « تتغلب بالتدمير القسري لمقدار من القوى المنتجة من جهة ، وبالاستيلاء على اسواق جديدة وزيادة استثمار الاسواق القديمة من جهة اخرى · بماذا اذن ؟ بتحضير ازمات اعم وأهول » (٣) ·

والنتيجة ان العامل « لا ينفك يهوي في انحطاط ، الى ان ينزل الى مستوى هو ادنى واحط من شروط حياة طبقته : ويسقط الشغيل في مهاوي الفاقة ، ويزداد الفقر والاملاق بسرعة تفوق سرعة ازدياد السكان ونمو الثروة » (٤) ·

وعلى قاعدة توالي الازمات ، والانحدار المريع في ظروف البروليتاريا يتضخم على الدوام « جيش العمال الاحتياطي » وتتعاظم نذر الثورة مع هذه الملايين البروليتارية الجائعة لتعصف باسس المجتمع القديم ، وتدك اركانه بالعنف الثوري · على ارضية مثل هذا التشكل يكون الموقف الماركسي الصحيح ، باندفاع الشيوعيين في صلب الثورة البروليتارية « لتنظيم البروليتاريين وهدم سيادة البرجوازية ، واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية » (٥) ·

في ظل مثل هذه الاوضاع ليس هناك مجال او ضرورة ، لاعمال العنف التي تنفذها مجموعات او عناصر خارج اطار الاندفاع الثوري للجماهير العمالية ، وخارج اطار برنامجها · ويقينا ان اعمال العنف الفردي في مثل تلك الاوضاع تلحق ضررا بالغا بالحركة الثورية العامة ، وتعطي اجهزة القمع البرجوازية ذرائع جديدة لتصعيد اشكال بطشها وتنكيلها بمجموع القوى الثورية · على الرغم من ان اجهزة القمع البرجوازية لن تترك سلاحا الا وستستخدمه في **اللحظات الحاسمة** دفاعا عن مصالحها وامتيازاتها · فتكون الخطيئة اذن ان يعجل العنف الفردي بتصعيد عمليات القمع البرجوازية قبل ان تستكمل البروليتاريا الثورية المنظمة استعداداتها للاطاحة بالسلطة الطبقية ·

فهل احكامنا على العنف الفردي في مثل تلك الاوضاع الثورية هي نفس احكامنا على العنف الذي يمارس في الدول الرأسمالية هذه الايام ؟

ان شرط الاجابة بنعم تفترض اساسا ان تكون اوضاع الرأسمالية الاوروبية في اواخر القرن الماضي ، وبداية القرن الحالي ، اوضاعا متشابهة · فهل هي كذلك ، حتى بخطوطها العامة والرئيسية ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال لنستعرض موقف لينين من الارهاب الفردي في اطار سياقه التاريخي المحدد ·

لم تكن ولادة الحركة الارهابية في روسيا بقرار ارادي ، يؤمن باستخدام الارهاب كوسيلة للتغيير وللاطاحة بالقيصرية ، وانما نشأ الارهاب هناك كردة فعل عنيفة ضد مصادرة كافة الحريات الديمقراطية ، حتى بمفهومها البرجوازي الشكلي ، وضد اعمال البطش

---

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ و ٥٨ ·
(٣) المصدر السابق ص ٥٨ ·
(٤) المصدر السابق ص ٦٥ ·
(٥) المصدر السابق ص ٦٧و ٦٨ ·

والتنكيل التي كانت تمارسها « الاوكرانا » القيصرية ضد اي شكل من اشكال المعارضة ، او حتى تلك التي تنادي بالاصلاح والتغيير · كانت البداية عام ١٨٧٠ حين تشكلت جمعية ادبية فلسفية في روسيا متأثرة بأفكار باكونين وهرزن وغيرهما من المفكرين الـــروس والغربيين ، وأخذت تدعو لاجراء اصلاحات سياسية واجتماعية داخل المجتمع الروسي ، الا ان هذه الدعوة ووجهت بعمليات قمع شرسة وعنيفة من « الاوكرانا » الروسية ، ممـا اضطر اعضاءها الى النزول تحت الارض ، وتنظيم قواهم مـن جديد ، كمـــا استمروا باتصالاتهم بجماهير الطلاب والمثقفين والعمال والفلاحين ، لنشر افكارهـــم ومبادئهم · واستمرت مطاردة اعضاء الجمعية من قبل « الاوكرانا » في كل مكان ، حيث كان المعتقلون يتعرضون لابشع اشكال التعذيب واكثرها وحشية ، ومات سبعون واحـــدا منهم تحت التعذيب وفي ظل الظروف السيئة في السجون القيصرية وفي سيبيريا ·

وفقط بعد ثماني سنوات من عمليات المطاردة والقتل والتعذيب قررت الجمعية انشاء فرع للعمل الارهابي للرد على عمليات القمع الوحشية التي تنفذها اجهزة السلطة القيصرية ·

كما قامت الجمعية بطبع آلاف المنشورات والبيانات بالاضافة الى جريدتهـــم « الارض والحرية » وتوزيعها في كل مكان ·

وبدأت بسلسلة من العمليات الارهابية والاغتيالات حتى توصلوا الى اغتيـال القيصـر نفسه في ١٣ مارس ١٨٨١ م ، وكان عدد الذين حولوا الى سيبيريا قبل هذا التاريخ وخلال سنة واحدة فقط اثني عشر الف معتقل من مختلف القوى السياسية ·

وكانت آخر عملياتهم الكبيرة اطلاق النار على رئيس الوزراء عام ١٩١١ ، الا ان قواهم كانت قد ضعفت نتيجة الضربات المتلاحقة · جاء ★ تشكيل منظمة « زيمليا اي فوليا » اي « الارض والحرية » في عام ١٨٧٦ ، وكانت هذه المنظمة ترى بالفلاحين القوة الثوريـــة الاساسية في روسيا ، وحاولوا استنهاض الفلاحين للانتفاض على القيصرية وقامـــوا بسلسلة من الانتفاضات والعمليات الثورية في عدد من المحافظات الروسية ·

الا ان عمليات القمع العنيفة التي جوبهت بها المنظمة واخفاقها في العمل الثوري بيـن الفلاحين دفعها الى تشكيل فرقة من الارهابيين بين صفوفها كما اسلفنا ، وقـد ادى هـذا الوضع الى حدوث انقسام داخل المنظمة : « نارودنايا فوليا » اي « ارادة الشعب » التي سلكت طريق الارهاب و « تشيرني بيريديل » اي « التقسيم الاسود » التي ظلت متمسكـة بمواقف « الارض والحرية » ، ومن بين صفوف هؤلاء خرج مؤسسو اول منظمة ماركسية روسية فرقة « تحرير العمل » عام ١٨٨٣ ومن هؤلاء : بليخانوف واكسيلرود وزاسوليتش·

التقاء لينين اللاحق بفرقة « تحرير العمل » يعكس من احد جوانبه الخلاف النظـري والسياسي مع « نارودنايا فوليا » ورغم ذلك نجد لينين وهـــو ينتقد جوهـــر النظريـة النارودنية ويصفها بعدم الاستناد الى نظرية ثورية اصلا ، وانها « لم تعرف او لم تستطع ربط حركتها ربطا وثيقا بالنضال الطبقي في داخل المجتمع الرأسمالي » · (٦) رغم ذلـك

★ المعلومات الواردة عن حركة الارهاب في روسيا مأخوذة عن مقال سابق للكاتـب منشور في جريدة فتح الاسبوعية ٢٣ ايلول ١٩٧١ العدد ٣٠٤ ·

★ المعلومات الواردة هنا مأخوذة عن هامش رقم (٧٩) ص ٦٣٣ وهامش رقـم (١٥٣) ص ٦٥٥ من المختارات ـ لينين ـ المجلد الاول ـ دار التقدم موسكو ١٩٧١ ·

(٦) لينين ـ ما العمل ـ المختارات ـ المجلد الاول ص ٣٠٠ ·

نجده يرد على من يتهم « الايسكرا » بأنها جريدة جماعة « النارودنايا فوليا » فيقول : « وغني عن القول اننا لم نر في هذا الاتهام غير نوع من المديح ، اذ انه هل وجد اشتراكي ديمقراطي جدير بهذا الاسم لم يتهمه الاقتصاديون بالسير على خطى « النارودنايا فوليا » · هذه المنظمة يصفها لينين بتلك « المنظمة الرائعة التي كانت لدى الثوريين في العقد الثامن والتي ينبغي لها ان تكون نموذجا نحتذيه جميعا » · ويضيف : « ان كل اتجاه ثوري شرط ان يقصد فعلا القيام بنضال جدي ؛ لا يمكنه ان يستغني عن مثل هذه المنظمة · فجماعة « نارودنايا فوليا » لم تخطىء اذ دأبت على ان تجذب الى منظمتها جميع الساخطين وعلى ان توجه هذه المنظمة الى النضال الحازم ضد الحكم المطلق ، بل انما كان ذلك ، بالعكس مأثرتها التاريخية العظمى » (٧) ·

في مجال آخر يعترف لينين « **في بداية نشاطنا ، اضطررنا في اغلب الاحيان الى الدفاع عن حقنا في الوجود في غمرة النضال ضد انصار « نارودنايا فوليا »** ، الذين كانوا يعنون « بالسياسة » نشاطا منفصلا عن الحركة العمالية ، ويحصرون السياسة في التآمر فقط » (٨) (التشديد من عندنا) ·

يلاحظ مما تقدم ان انتقادات لينين لارهاب النارودنيين منصب اساسا على برنامجهم السياسي ، فيما « اشاد باحترام كبير بما اظهره اعضاء « نارودنايا فوليا » من البسالة في النضال ضد القيصرية ، كما اشاد بما اظهروه من براعة في فن النشاط السري والتنظيم المبني على المركزية الصارمة » (٩) ·

هذه الاشادة تتم في غمرة صراع لينين السياسية مع القوى والتنظيمات الاخرى وفي السنوات التي سبقت انتفاضة ١٩٠٥ ، وحيث روسيا تمور بمخاضات الثورة الاتية ، ولينين يقاتل بكل ما يملك من قوة من اجل انتصار برنامج الطبقة العاملة ، على برامج كافة القوى السياسية في الساحة ، وفي مقدمتهم منظمة « نارودنايا فوليا » «الارهابية» !!

□

والآن ما هو المشهد الذي يرتسم امامنا في اوروبا اليوم مقابل (اوروبا البيان الشيوعي) التي تعصف فيها الازمات الاقتصادية ونذر الثورة البروليتارية الكاسحة ؟

اوروبا اليوم ، وفي ظل وحدة وتكافل النظام الرأسمالي العالمي ، بقيادة الامبريالية الامريكية ، تجاوزت الى حد بعيد الازمات الدورية الطاحنة ·

الولايات المتحدة تعرف كيف ولماذا تمد يد العون للجنيه الاسترليني المتدهور ، ولماذا تسهم في اعادة بناء المانيا اقتصاديا وعلى النمط الرأسمالي ، وكذلك اليابان ·

ان العملية هنا تتجاوز مسألة الاستثمارات الامريكية وما تحققه من أرباح ، لانها تتصل بالمصالح الاستراتيجية العليا لمجموع النظام الرأسمالي العالمي ، وضرورة الحفاظ عليه في وجه النموذج الاشتراكي ، وتهديدات الثورة الطبقية الكامنة · الملايين من « جيش العمال الاحتياطي » والبروليتارية الاوروبية الجائعة كفت منذ زمن ان تكون ملايين **اوروبية** تدخل في صلب علاقات الانتاج داخل المجتمعات الرأسمالية · لقد توزع فائض

---

(٧) المصدر السابق ص ٣٠٠ ·

(٨) لينين ـ المهمات الملحة لحركتنا ـ المختارات ـ المجلد الاول ص ١٤٧ ·

(٩) المصدر السابق هامش ٧٩ ص ٦٣٤ ·

النهب الامبريالي لتحسين شروط الحياة والعمل بالنسبة للعامل الاوروبي ، وامتصاص عوامل التفجير الثوري الملحقة باحتياجات العامل للرغيف والدواء ، مطالب العامل الاوروبي اليوم تتصل بامتلاك السيارة والتلفزيون والمسكن اللائق ، وهذه تشكل دوافع لنضالات اصلاحية لكنها لن تفجر حربا طبقية دامية ضد المستغلين ٠

« جيش العمال الاحتياطي » اليوم داخل الدول الرأسمالية هو تلك الملايين المسحوقة من افريقيا السوداء والمغرب العربي والهند والباكستان وتركيا وامريكا اللاتينية ٠٠ هذه الملايين التي تسعى لتحسين شروط حياتها المادية بالتدافع باتجاه العواصم الاوروبية والمدن الصناعية ٠

أيد عامله رخيصة من مختلف انحاء العالم الثالث توفر للرأسمالي الصناعي « فائض قيمه » مرتفعا ، مقابل منح العامل الاجنبي دخلا مرتفعا نسبيا بالقياس الى شروط حياته السابقة ٠ وملايين العمال الاجانب في اوروبا والذين تحسنت شروط حياتهم نسبيا عنها في مواطنهم السابقة الا انهم يعيشون في ظروف حياتية قاسية لا توفر لهم الحد الادنى من شروط الحياة الانسانية الكريمة ٠

هذه الملايين هي المهيأة على ضوء اوضاعها ان تكون مادة الثورة ، الا ان وجودها كجسم اجنبي غريب يخضع لشروط « الاقامة » و « الترحيل » في ظل القوانين السائدة في معاملة الغرباء يضعف كثيرا دور هذه الملايين المسحوقة ، ويحول بينها وبين الانخراط في العمل السياسي والنضالي الذي تخوضه الاحزاب والقوى السياسية الاوروبية ٠

النظام الرأسمالي العالمي لا يزال اليوم راسخا وقويا ، والى أمد طويل قادم وفي ظل استمرار الشروط القائمة ، سيظل راسخا وقويا ٠٠ على الاقل بعيدا عن الحروب الطبقية الدامية بين الملايين البروليتارية الجائعة وبين حفنة من المستغلين الجشعين واجهزة قمعهم ٠

« الاسترخاء » الديمقراطي في الدول الرأسمالية تعبير موضوعي عن قوة هذه الانظمة٠٠ ففتائل التفجير الثوري منزوعة بفعل الاسترخاء الاقتصادي (بغض النظر عن اسبابه)٠

دعهم يتكلمون ودعنا نعمل ، ولا بأس من بعض التنازلات الاصلاحية بين الحين والآخر حفاظا على الامن الاجتماعي ٠٠ ولكن حذار من العنف ٠ فان اذرع انظمة البرجوازية طويلة وقادرة وقوية وتستطيع الوصول حتى الى معتقلات « الارهابيين » وتصفيتهم !!

لتكن اللعبة هي الديمقراطية اذن ، وهذه برلمانات الشعب مفتوحة للجميع ، فلتحملكم اصوات الشعب الى برلمانات الشعب ، ومنها لاستلام السلطة السياسية بدون عنف او ارهاب او ثورة ؟! البرجوازية تضع شروطا « عادلة » للعبة ، وتسمح للجميع بممارستها « بحرية » ، والسباق مفتوح للجميع بحقوق متساوية ٠

لكن البرجوازية الذكية تخفي وراء ظهرها ورقتين ، تستطيع ان تحسم بهما الامور عند الضرورة :

الاولى : ان تلغي بعض شروط اللعبة الديمقراطية او أن تلغي الديمقراطية بمجموعها ، سيقولون في اللحظة الحاسمة والمناسبة : يكفي هذا لقد لهونا بما فيه الكفاية وعلى قوات الجيش والامن واجهزة القمع ان تخلي الملعب من المشاغبين الذين يتآمرون على « مصلحة الوطن العليا » ٠

واحة الديمقراطية الامريكية قدمت نموذجها « المكارثي » منذ وقت مبكر ·

ولا زالت الديمقراطية هناك تسمح لك بأن تعارض او حتى تنتقد رئيس الولايات المتحدة الامريكية !! ولكن ان تكون شيوعيا او تدعو للشيوعية فهذا تهديد مباشر وخطير لمصالح الوطن العليا ، والبرجوازية هي الحارس الامين على هذه المصالح وبما فيها مصالح الزنوج العليا ·

الثانية : ان البرجوازية ليست وحدها في « معركة » الديمقراطية ، فالنظام الرأسمالي العالمي كله متضامن متكافل لحماية الانظمة الرأسمالية ، مهما كان من خلافات بينها ، الا انها في مواجهة اي تهديد فعلي ، فانها تعرف جيدا كيف تحمي مصالحها المشتركة وتحافظ على سلامة النظام الرأسمالي العالمي ، لتحول دون الانفراد بأحد اطرافه والاطاحة به ·

الا ان النقطة الحاسمة في اللعبة الديمقراطية لا تتصل بتلك الاوراق التي تخفيها البرجوازية وراء ظهرها ، لكنها تتصل اساسا بالقاعدة التي تجري عليها اللعبة نفسها · فاذا كان الناخب الاوروبي يعطي صوته لانظمة برجوازية قامت بالفعل بتحسين شروط حياته المعيشية ، فان مرد هذا التحسين اساسا هو عمليات النهب والاستغلال التي تقوم بها المؤسسات والاحتكارات الرأسمالية لشعوب العالم الثالث ، وللايين العمال البائسين المستوردين للآلة الصناعية الاوروبية ·

هذا الوضع ينقل المسألة من جانبها الاقتصادي الاوروبي المباشر الى المجال السياسي والى الدور الذي يلعبه النظام في اطار المعسكر الرأسمالي بقيادة الامبريالية الامريكية او بالتبعية المباشرة اقتصاديا وسياسيا للولايات المتحدة · وسنكتشف بعد قليل ان ظاهرات العنف الاوروبي تتصل مباشرة بهذا الوضع ، وهذه التبعية ·

كيف تتم اذن مجابهة هذه الانظمة الرأسمالية ؟

بالطبع لن نجيب نحن على هذا السؤال ، ولكننا سنرى الاجابة العملية التي قدمتها « المعارضة » الاوروبية ، ممثلة بالاشتراكيين وخصوصا الشيوعيين ·

على ارضية الاسترخاء الديمقراطي والاقتصادي ، كيفت الاحزاب الشيوعية الاوروبية برامجها السياسية بمقتضى الحال ، وبما هو مفيد في معركة التنافس على اصوات الناخبين ، وفي هذا السياق اجرت سلسلة من « التحالفات التاريخية » مع الاشتراكيات الاوروبية ، ولم تلبث ان بدأت عدا عكسيا « مراجعا » للمبادىء والاسس الماركسية ، كان آخرها على الصعيد النظري الغاء مقولة دكتاتورية البروليتاريا من قبل اكبر الاحزاب الشيوعية الاوروبية ، واشاعة مقولة الشيوعية الاوروبية على الصعيد السياسي ، مما دفع الاتحاد السوفياتي والعديد من الاحزاب الشيوعية في العالم الى توجيه انتقادات نظرية وسياسية لمواقف هذه الاحزاب وبرامجها ·

التراجعات السياسية والنظرية التي اقدمت عليها الاحزاب الشيوعية الاوروبية منحتها مزيدا من القوة على المستوى الانتخابي وعززت مواقعها في اوساط طبقية متعددة ، الا ان الثمن الذي دفعته مقابل ذلك كان غاليا : فقد بدأت تفقد لونها الشيوعي وتمايزها الطبقي باعتبارها حزب البروليتاريا الثوري · ان الاسماء لا تخيف البرجوازية انما البرامج السياسية هي التي تعنيها وتتعامل معها · اليست الاحزاب **الاشتراكية** هي التي تجلس الآن في قمة السلطة في عدد كبير من الدول الرأسمالية الاوروبية ·

وفي اطار مثل هذه المعادلة ، الا يحق لنا ان نخشى اذا استمرت هذه التراجعات

السياسية والنظرية ان يصبح الشيوعيون مقبولين جدا حتى من قبل البرجوازية ، ما دامت برامج هذه الاحزاب لا تهدد مصالحهم وامتيازاتهم بل تتكيف مع واقع التركيب الاقتصادي في الانظمة الرأسمالية ٠

وهل يجوز مثلا حتى من باب « التاكتيك » ان يتضمن برنامج الحزب الشيوعي الايطالي نصا على ان تبقى ايطاليا في حلف الاطلسي ٠ بقيادة الامبريالية الامريكية ؟

نحن لا نريد ان نبالغ في حجم التراجعات النظرية والسياسية التي اقدمت عليها الشيوعية الاوروبية حتى الآن ، فهي تقف في الخندق التقدمي المعادي للامبريالية وللرأسمالية العالمي ، وهي تدعم بقوة حركات التحرر والنضال الوطني على الصعيد العالمي ، وخاصة حركة الكفاح الفلسطيني المسلح ، نحن اذن لسنا في مجال توجيه انتقادات مجانية ، لكننا نريد عبر تحديدنا للارضية التي تقف عليها « المعارضة » الشيوعية الاوروبية ان نكشف دوافع انتقال قوى يسارية اوروبية اخرى الى ارضية مغايرة ، ترفض لعبة الديمقراطية البرجوازية ٠ وتنتهج العنف وسيلة اساسية لمجابهة انظمة الرأسمالية المتحالفة تحت قيادة الولايات المتحدة ٠

□

يحلو للصحافة البرجوازية عادة ، وهي بصدد تفسير ظاهرة ما ، ان تعقد سلسلة من المقارنات ، بين عدة ظواهر ، لتكتشف دافعا مشتركا بينها ، وهي تصيغ بلباقة وذكاء منطقا شكليا ، يوصلها الى هدفها المحدد اساسا ، وموقفها المسبق من هذه الظاهرة ٠

ظواهر العنف التي نحن بصددها الآن كما ترى الصحافة البرجوازية ولدت في المانيا وايطاليا واليابان ، وهذه الدول ذات الماضي النازي والفاشي خرجت مهزومة من الحرب العالمية الثانية ٠

هل تريد هذه الصحف القول بان العنف الثوري في هذه الدول قد ولد في رحم العنف الفاشي وكرد فعل للهزيمة ضد الامبريالية الامريكية ؟ لا ٠٠ انها اكثر ذكاء من ان تقول ذلك ، لكنها تصوغ المقدمات (المنطقية) التي توصل تشويهاتها للرأي العام ، وهي تبدو في غاية الموضوعية والالتزام بالتحليل والمعلومات ٠

هكذا ينتقل ذهن المتلقي للاعلام البرجوازي من تحديد العوامل الموضوعية المباشرة للعنف الموجه ضد الامبريالية الامريكية الى ايحاءات تتصل بالعنف الفاشي وبالثأر والانتقام من هزيمة بعيدة ٠ ولكن ماذا تقول الحقائق ؟ وما هي الدوافع الفعلية لحركة العنف التي يشهدها العالم الصناعي ؟

ولدت حركة بادر ـ ماينهوف في غمار المظاهرات والاضرابات التي شهدتها الجامعات الالمانية في عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، وكانت شرارة الانطلاق شعار : « لا للاساتذة النازيين » ، والشعار موجه كما هو واضح ضد الاساتذة المعروفين بماضيهم النازي ، والذين عادوا بعد الحرب يطبقون اساليبهم القديمة باستخدام السلطة الجامعية ٠ النظام الالماني واجه التحرك الطلابي بكثير من العنف مستخدما كل قواه السياسية والجامعية والبوليسية ٠ مما فاقم الاضرابات والمظاهرات ، وأخذ الاتهام بالنازية يوجه لسلطة القمع والارهاب الالمانية نفسها ، خاصة بعد « التحالف المقدس » بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الديمقراطي المسيحي ، وهما اكبر قوتين سياسيتين في المانيا ، فغاب

اي شكل من اشكال المعارضة السياسية الديمقراطية لاجراءات الحكومة الالمانية · مما دفع الحركة الطلابية الجامعية الى جانب عدد من القوى السياسية الاخرى لتقوم بدور المعارضة والنضال السياسي ·

وهكذا شهد هذان العامان سلسلة مظاهرات واضرابات ضد زيـــارة نائب الرئيـس الامريكي السابق همفري ، وضد زيارة شاه ايران والامبراطورة ، وعديد من مظاهـــرات التأييد للثورة الفيتنامية ، الى جانب المطالب الجامعية المختلفة ·

البوليس الالماني يغتال الطالب « بينو اوهنسبورغ » ، وهذا يعني تصعيد المجابهة الى اشكال عنف اعلى ·

« غودرون اينسلين » التي تم قتلها يوم ١٨ تشرين الاول من هذا العام في زنزانتهـا المنفردة والمعزولة في سجن « شتامهايم » صرخت يوم اغتيال « بينو » عام ١٩٦٧ : « انهم يريدون قتلنا جميعا ·· لا سبيل الى الحوار معهم ·· انهم من رعيل « اوسفيتز » ·· علينا ان نتهيأ لمقاومتهم · علينا انتجابه عنفهم بالعنف » تلك لم تكن صرخة حرب فقط ، كانت تصويرا صادقا لطبيعة النظام الالماني « لا سبيل الى الحوار معهم ، لانهم يريدون قتلنا جميعا » ·· لا شك ان « غوردون اينسلين » قد تذكرت كلماتها هذه حين امتدت ايدي القتلة الى زنزانتها ، لتشنقها حتى الموت ·

عمليات العنف التي نفذتها جماعة بادر ـ ماينهوف والتي ستعرف في عام ١٩٧٠ باسم الجبهة الالمانية للجيش الاحمر ، تكشف طبيعة الدوافع الموضوعية التي تحرك هذه الجماعة كما تحدد اهدافها : ٣ نيسان ١٩٦٨ تم تنفيذ اول عملية باحراق مجمعين تجاريين مـن اكبر مجمعات مدينة فرانكفورت ·

هذه العملية دفعت البعض لربط جماعة بادر ـ ماينهوف بالفيلسوف هربرت ماركـوز ومدرسته الفلسفية في فرانكفورت التي تنادي بوجود ارهاب مصدره « دوامة الاستهلاك للاستهلاك » التي تتحكم بانسان المجتمعات الصناعية المتقدمة · وان الطلبة كما يعلـــن ماركوز « هم المرشحون لكونهم يؤلفون ضمير المجتمع الواعي للاخطار الاستهلاكية لقيادة الناس نحو الانتفاضة الثورية » ·

ولكن ماذا يقول بادر نفسه :

« لقد حاولت الجماعة ان تخلق علاقات طيبة مع الطبقة العمالية ولكنهـــا فشلت ، لان العمال غير مهيئين للقبول بهذا النوع من العمل الثوري الذي يريد ان يعيد **تنظيم الجماهير** وان دور الجماعة **دور عابر** بانتظار تحرر البروليتاريا الالمانية من قمع الفاشية لها » هذا مـا نقله سارتر عن لسان بادر بعد مقابلة معه في سجنه استمرت حوالي ساعتين ·

ويضيف سارتر : « ان بادر وجماعته عملوا على تأسيس تعاون فعال مع العالم الثالث، العرب والاميركيين الجنوبيين » ·

هذه السطور القليلة تلخص جوهر الموقف النظري والسياسي للجبهة الالمانية للجيـش الاحمـــر :

العالم الصناعي راسخ وقوي ومستقر وخاصة في المانيا واليابان ، ولا يعاني من أيـة تهديدات ثورية من قبل البروليتاريه (المرفهه) بفائض استغلال شعوب العالم الثالث ·

المجابهة اذن لا بد ان تنطلق من هذا الفهم ، خاصة بعد ان ثبت بالتجربة فشل تحريك الطبقة العاملة الالمانية ٠

الاسلوب : **توجيه ضربة مزدوجة للنظام الرأسمالي العالمي لتحقيق هدف تكتيكي هام وصولا للهدف الاستراتيجي** ٠

الضربة المزدوجة هي العمليات الثورية التي تقوم بها حركات التحرير وقوى الثورة في العالم الثالث « ضد الامبريالية والرأسمالية والصهيونية » كما تحددها بيانات الجبهة الالمانية للجيش الاحمر ٠ الضربة الثانية يوجهها ثوار المدن في العالم الصناعي لهز الانظمة الرأسمالية وارباكها ، وايقاظ الوعي الثوري لدى البروليتاريا الصناعية ٠

ان تصعيد هذا النضال المشترك وتحقيق انجازات فعلية عن طريقه خاصة بالنسبة للعالم الثالث ، سيؤدي الى تقليص عمليات النهب التي يغدق بواسطتها العالم الرأسمالي على عماله ، اي نزع « **الرافع الايرلندي** » الذي سبق لماركس التنبيه اليه ٠

هذه الضربة المزدوجة ، تحقق **الدور العابر** الذي تحدث عنه « بادر » أي تحرر البروليتاريه الاوروبية الصناعية من قبضة الفاشية والنظام الرأسمالي العالمي ٠

وذلك وصولا الى الهدف الاستراتيجي بأن تتولى البروليتاريا عملية الاطاحة بالسلطة الطبقية واستلام السلطة السياسية ٠ (ماذا لو تصورنا للحظات ان الاحزاب الشيوعية والقوى الثورية في جميع انحاء العالم ومدعومة بالمعسكر الاشتراكي قد نفذت بتنسيق مشترك مثل هذا البرنامج ؟! الا يقرب ذلك نهاية الامبريالية والرأسمالية والصهيونية في وقت مبكر ؟) وفي مقابل هذا التصور حين نتذكر ان « تاكتيك » احد الاحزاب الشيوعية الاوروبية الكبرى يدعو الى بقاء بلده في حلف الاطلسي ، فألا يبدو العنف الثوري في مدن الصناعة الرأسمالية هو الوسيلة الفعلية المتاحة لهز اركان النظام الرأسمالي ؟ ومحاربة الامبريالية ؟ في مطلع ايار ١٩٧٢ أقدم الكاتب الياباني « يوكيو ميشيما » على الانتحار مع اثنين من اتباعه على طريقة « سابوكو » بعرض دموي رهيب ٠

« ميشيما » ترك رسالة يقول فيها بأنه انتحر ورفاقه اعتراضا على الوجود الامريكي الاقتصادي والعسكري في اليابان ٠

« الجيش الاحمر الياباني » فضل الانتحار على طريقته ، وهو يجابه الامبريالية والرأسمالية والصهيونية ٠

بعد ايلول ١٩٧٠ الجبهة الالمانية للجيش الاحمر تنفذ احدى عشر عملية كبيرة فتصيب القواعد الامريكية في مدينتي فرانكفورت وهيدلبرغ ودار سبرنغر للنشر والدوائر الرسمية في نوسداو ولاس ــ غونس واكثر من ستة مصارف ٠ كما نفذت الجماعة سلسلة من عمليات الاغتيال ، وأخذ عدد من الرهائن من بين كبار الشخصيات السياسية والمالية وذلك بهدف الافراج عن رفاقهم المعتقلين ٠ هذا الالحاح المتواصل للافراج عن المعتقلين ليس من باب الاخلاص والوفاء للرفاق وانما بالاساس لانقاذ المعتقلين من جنون محقق ٠

البرجوازية الالمانية (الديمقراطية) افردت لكل عضو من الجبهة الالمانية للجيش الاحمر زنزانة خاصة في سجن شتوتغرت ــ شتامهايم يصفها سارتر كما يلي :

« زنزانة منفردة ، جدرانها وسقفها مدهونة كلها باللون الابيض ، ولا يسمع فيها اي صوت باستثناء وقع اقدام الحراس الذين يأتون بالطعام ثلاث مرات كل يوم ، وتبقى

الزنزانة مضاءة طوال النهار » و « الليل كذلك مما يحولها الى اداة تعذيب قمعية تهدد عقل الموقوفين وتوازنهم النفساني » كما يقول كلاوس كروامان محامي المعتقلين في مذكرتـــه الاحتجاجيـــة ٠

ومن أجل الخلاص من هذه الاوضاع لجأ المعتقلون مرارا لاستخدام السلاح الوحيد الممكن وهو الاضراب عن الطعام ، وكان آخرها الامتناع عن الطعام والشراب طيلة ثلاثة اسابيع ابتداء من اواخر حزيران الماضي ٠

ورغم كل هذه الترتيبات الديمقراطية المعدة للمعتقلين ، فان الهر « هلموت شميت » يجرؤ على الكذب الوقح بأن المعتقلين كانوا يمتلكون في زنزاناتهم هذه ، المسدسات واجهـــزة الراديو ووسائل اتصال سلكية او لاسلكية اتفق المعتقلون خلالها على عملية الانتحـــار الجماعي !!

ولكن هل هذه هي الخاتمة التي تنتظر بعض الرتوش بالقاء القبض على ١٦ عضوا من المنظمة يجري البحث عنهم ، ثم يقفل الستار عن العنف الثوري في مدن الصناعة الالمانية عـلى الاقـــل ؟

التقديرات الاخيرة لعدد اعضاء الجبهة الالمانية للجيش الاحمر تشير بأن عددهم يراوح بين ١٢٠٠ ــ ٢٠٠٠ عضو (١٠) ٠ وفي استقصاءات للرأي العام الالماني اظهرت ان ٤٢٪ مع اطلاق السجناء مقابل الافراج عن الرهائن في مقديشو ، مقابل ٤٢٪ برفض اطـــلاق السجناء (١١) ٠

الهر هلموت شميت يعلن أمام البرلمان الالماني ان « الارهاب لم يمت لا في المانيا ولا في بقية انحاء العالم » ٠ ويدعو في مؤتمر صحفي الى « وحدة عالمية تشارك فيها جميع الدول والانظمة الديمقراطية » وذلك « لمواجهة وحدة المنظمات الارهابية التي تعمل من واقـــع ايديولوجي واحد ، وبنفس الاساليب والشروط » واذا لم يحدث ذلك فستبقى « هذه الظاهرة الشاذة « ميكروب » العصر الذي يهدد المجتمع الانساني بالقتل والتدمير » (١٢) ٠

العنف الثوري ما زال مطروحا على جدول اعمال المستقبل داخل العالم الصناعي ،وفي كل مكان ٠ وسيتخذ اشكالا اشد عنفا ، ان قـــتل المعتقلين قـــد انهى حتى مفاوضـــات المتحاربيـــن ٠

---

(١٠) النهار العربي والدولي العدد ٢٦ السبت ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٧ بعض المعلومات الواردة في هذا المقال مستقاة من هذا العدد ٠

(١١) الحوادث اللبنانية العدد ١٠٩٤ الجمعة ٢٨ تشرين الاول ١٩٧٧ ٠

(١٢) الجديد اللبنانية العدد ٤٩٨ تاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩٧٧ ٠

رسائل

رسالة بون

العنف وفلسطين والتأليف

تعرضت المانيا الاتحادية في الفترة الاخيرة لموجة قوية من اعمال العنف قتل على اثرها احد كبار رجال القضاء ، احد اعضاء مجلس ادارة دريز دنار بنك Dresdner Bank واخيرا شلاير،رئيس اتحاد الصناعة الالماني ومؤسسة « ارباب العمل » . ثم قامت مجموعة (من العرب كما ذكرت بعض المصادر) باختطاف طائرة المانية قبل مقتل شلاير ، وانتهت العملية بمقتل ثلاثة من افراد المجموعة وقبطان الطائرة . واخيرا لقي ثلاثة من المعتقلين حتفهم في سجنهم . ويهدف هذا التقرير الى طرح ابعاد موجة العنف هذه وخاصة الفترة التي تلت اختطاف شلاير ومن البديهي ان يركز التقرير **على تاثير هذه الحوادث على موقف الحكومة والشعب في المانيا الاتحادية من قضية فلسطين ومنظمة التحرير الفلسطينية .**

وسيتناول هذا التقرير ايضا « معرض الكتاب » الذي أقيم في مدينة فرانكفورت في شهر اكتوبر ليتعرض للتواجد العربي والصهيوني والى عدم تواجد منظمة التحرير الفلسطينية والى الندوة التي أقيمت في هذه المناسبة والتي شاركت فيها فيليتسيا لانجر وغيرها من الكتاب المعادين للصهيونية .

اعمال العنف في المانيا الاتحادية وتاثيرها على القضية الفلسطينية :

في الاسابيع الاخيرة وبالتحديد منذ ٥-٩-١٩٧٧ ، اليوم الذي اختطف فيه شلاير من قبل الذين يسمون انفسهم « بمجموعة الجيش الاحمر » والذين يسمون من قبل السلطات ووسائل الاعلام في المانيا الاتحادية « بعصابة بادر - ماينهوف الاجرامية » ، منذ ذلك اليوم اصبحت عملية الاختطاف هذه الشغل الشاغل لاجهزة الحكومة المختلفة ووسائل الاعلام والمواطنين بصورة عامة . وقد ازداد التوتر بعد ان تمت عملية اختطاف الطائرة « لاندسهوت » من أربعة اشخاص عرب طالبوا بالافراج عن ١١ معتقلا من « مجموعة الجيش الاحمر » ومعتقلين فلسطينيين من تركيا . واخيرا وعلى اثر اقتحام مجموعة خاصة من شرطة الحدود الالمانية الاتحادية للطائرة في عاصمة الصومال خفت حدة التوتر لتعود وتتصاعد على اثر مصرع ثلاثة من القياديين

المعتقلين في السجن ومن ثم على اثر مقتل شلاير والذي وجدت جثته في احدى السيارات في فرنسا · وعلى اثر هذه الحوادث توجهت الانظار الى مصرع المعتقلين الثلاثة والذي نتج وبناء على تصريحات الحكومة من خلال انتحارهم والذي تم في حالتين باستعمال المسدسات داخل السجن · وهنا طرحت الكثير من الاسئلة : كيف دخلت المسدسات الى اخطر واحدث سجن في المانيا الاتحادية ؟ كيف استطاع المعتقلون معرفة نبأ فشل عملية اختطاف الطائرة وذلك رغم القرار بعزلهم عن محاميهم والعالم الخارجي نهائيا ؟ والخ من الاسئلة التي سببت استقالة وزير عدل دويلة بادن فورتمبورج وحيث يوجد هذا السجن · هذا بالاضافة الى ان « اليسار الجديد » في اوروبا قام بمظاهرات صاخبة في ايطاليا وغيرها ضد المؤسسات الالمانية وذلك لانهم يعتقدون ان المعتقلين قتلوا من قبل السلطات الالمانية ·

الامر الذي يجب التأكيد عليه هو ان مسألة العنف تعتبر بالنسبة لحكومة المانيا الاتحادية قضية اساسية · ليس لانها تقلل هيبة الدولة وتعرض حياة كبار رجال المال والدولة للخطر فحسب ، وانما ايضا لان اغلبية الشعب تطالب الحكومة بالضرب بيد من حديد ، وبما ان يوم الانتخابات البرلمانية هو يوم العقاب والثواب بالنسبة للاحزاب ، فهي تعمل كل وسعها لكي تزايد على بعضها الاخر ولتضرب بكل ما لديها من وسائل ضد اعمال العنف · ولهذه القضية الاساسية أبعاد على المستوى الداخلي والخارجي · وبخصوص الناحية الداخلية فقد أقر البرلمان الالماني الاتحادي وبموافقة جميع الاحزاب الممثلة في البرلمان عدة قوانين « لمواجهة الارهاب » ، كما قامت بعض وسائل الاعلام ، وعلى رأسها صحف ملك الصحافة أكسيل شبرنجر والمعروف بصهيونيته وبعدائه لكل القوى التقدمية في المانيا والعالم ، بشن حملة على من سمتهم « بآباء الارهاب » وعلى « المتعاطفين مع الارهاب » وكان من ضمن من تعرض لهذه الحملة ، والتي شارك فيها بعض رجال التلفزيون ، كتاب مشهورين امثال هاينريش بول الذي حاز على جائزة نوبل للادب · ولم تتورع وسائل الاعلام هذه عن مهاجمة فيلي براند ، رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم ، لان موقفه من اعمال العنف كان : « لا للارهاب ·· ولكن » ·

ومن الممكن اختصار الحوار الذي يدور في المانيا الاتحادية حول مسألة العنف بين الاغلبية الساحقة والاقلية على الشكل التالي : الاغلبية تطالب بمواجهة العنف بكل الوسائل وبدون اي تحفظات ، والاقلية المتواجدة بحجم كبير في الجامعات واوساط المثقفين تطالب ايضا بمواجهته ولكن بدون المساس بالقوانين او تعديلها بشكل يعرض المواطن للضياع ، كما ان هذا الطرف يحاول ان يبحث عن اسباب هذه الظاهرة الاجتماعية ويطالب باجراء الاصلاحات كحل كما ويتهم الطرف الاول باستغلالها لتقوية نفوذ اليمين ·

هناك ايضا بعض « الاحزاب » اليسارية والمعادية للامبريالية والصهيونية والمعروفة بمجموعات « الكاف » وهو الحرف الاول لاسمائها وهو اختصار « كومينستسن » (شيوعية) والتي تعاملها السلطة « كمجموعات متقاربة من الارهابيين » ·

وقد طالب الحزب المسيحي الديمقراطي بمنع هذه « الاحزاب » · وعلى اي حال لا تشكل هذه المجموعات من الناحية العددية قوة تذكر وذلك لانها لم تتمكن من دخول صفوف الطبقة العمالية ·

من المؤكد ان ظاهرة العنف في المانيا الاتحادية لم تترك اثارا ايجابية على تطور اليسار في المانيا الاتحادية ، خاصة وان

اليسار هنا ، وخلافا مثلا لايطاليا وفرنسا ما زال في مرحلة الطفولة · وبما ان القوى اليسارية والمعادية للاستعمار تعتبر الحليف الطبيعي لحركات التحرر في العالم الثالث ومن ضمنها الثورة الفلسطينية ، فقد انعكس ذلك بشكل او بآخر على النشاطات المتعلقة بالقضية الفلسطينية · واذا نظرنا مثلا الى احد القوانين الذي اقر في البرلمان الالماني الاتحادي «لمحاربة الارهاب » فاننا نستطيع ان نتصور الصعوبات التي قد يواجهها العمل لنصرة قضية الشعب الفلسطيني · فقانون (88A) يعرض حتى ـ وكما قال النائب البرلماني الاشتراكي مانفريد كوبك في مجلة الشتيرن ٢٠ـ١٠ـ١٩٧٧ ـ من يناقش مسألة العنف للعقوبة ، وبما ان حركات التحرر في العالم الثالث تنطلق من حق النضال ضد الاحتلال والاستعمار ، فمن البديهي ان يصطدم الذين يدعمون هذه الحركات بصعوبات جمة ·

الاهم من القوانين هذه هو الجو العام الخانق ومعاداة اغلبية الشعب الناتجة عن حملات اعلامية واسعة النطاق لكل عمل سياسي لا يسير بشكل مطلق مع الاتجاه الرسمي وتأثير ذلك مثلا على القيام بمحاضرات لنصرة قضية فلسطين · والجدير بالذكر ان الحملات الاعلامية كانت في السابق تستغل كل عملية عنف لتربطها بالفلسطينيين ، واصبحت هناك علاقة ميكانيكية بين اي عنف والفلسطينيين حتى ولو لم يكن لهم من قريب او بعيد أية صلة بها · وكل حادث من هذه الحوادث وبغض النظر عن من يقف خلفه بسبب زيادة نقمة أغلبية الشعب الالماني المعبأ على المقاومة الفلسطينية والفلسطينيين بصورة عامة ·

أما على الصعيد الخارجي فقد اكدت عمليات العنف الاخيرة ان الحكومة الالمانية لا تستطيع ان تواجهها الا بالتعاون مع الدول الاخرى والمؤسسات الاجنبية ·

ونظرا لان بعض الدول العربية تعاونت الى أبعد الحدود مع الحكومة الالمانية ، فقد تعففت وسائل الاعلام هذه المرة عن شن حملة على العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، بل بالعكس فقد قام المستشار الالماني المتحفظ ـ ورغم غرابة ذلك بالنسبة للتقاليد في المانيا الاتحادية ـ بمعانقة سفير الصومال · وبالرغم من ان الصومال حصلت مقابل جهودها (وكما اشارت بعض المصادر والتصريحات غير الرسمية) على معدات عسكرية من بريطانيا تمولها المانيا الاتحادية الا أن سماح الصومال لشرطة الحدود الالمانية باقتحام الطائرة على اراضيها جعل وسائل الاعلام وعلى غير عادتها تكيل المديح للعرب بدون استثناء · كما اكد وزير الدولة فيشنفسكي ، الذي اخذ يتباهى في احد البرامج التلفزيونية بعلاقاته الشخصية القوية مع الكثير من السياسيين العرب ، وبأن التعاون مع الدول العربية كان على احسن ما يرام ، وقد كان هذا الوزير يتحرك بطائرة خاصة من أجل الافراج عن الرهائن · وفي خطاب المستشار هلموت شميدت في البرلمان والذي اذيع ونشر في كافة وسائل الاعلام وجه شكر حكومته لياسر عرفات لانه ادان خطف الطائرات ، ولاول مرة ـ ولو بعد تردد قصير ـ صفق اعضاء مجلس النواب لياسر عرفات ·

كما قام التلفزيون الالماني وفي خلال اسبوع واحد وبعد اختطاف شلايار بعرض فيلمين لصالح القضية الفلسطينية وكان الاول لقاء طويلا مع ياسر عرفات والثاني من انتاج اسرائيلية من اعضاء راكاح · والغريب ان الفيلم الثاني عرض لاول مرة في التلفزيون الالماني رغم انه انتج في عام ١٩٧٤ · من هنا نلاحظ ان الاعلام يحاول ان يقترب ولو ببطء من موقف المجموعة الاوروبية التي وان كانت لم تعترف بعد بمنظمة التحرير الفلسطينية ،

الا انها على الاقل اصبحت تعترف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني وتطالب بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، وقد كانت هذه الدول من بين اعضاء هيئة الامم الذين ادانوا اقامة المستعمرات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة في ٢٧-١٠-١٩٧٧ · اذن كان لا بد ان يغير الاعلام موقفه المعادي للقضية الفلسطينية وان يوضح للشعب لماذا غيرت حكومته موقفها من الشعب الفلسطيني ، وذلك يتطلب على الاقل اظهار جانب من الحق الفلسطيني مع عدم المساس بالكيان الصهيوني في اطار حدود عام ١٩٦٧ ·

ولكن الموقف المعادي لبعض الدول العربية للعمليات الاخيرة وادانة منظمة التحرير الفلسطينية لذلك لم يمنع بعض الصحف من استغلال هذه العمليات لمهاجمة منظمة التحرير الفلسطينية · فقد كتبت هارالد فوكي في جريدة فرانكفورتر الجمانية تسايتنغ (Frankfurter Allgemeine Zeitung) ٢٦-١٠-١٩٧٧ - والتي تعبر عن لسان حال الاحتكارات الكبيرة حول الحوار الاوروبي العربي ومطالبة الدول العربية لدول المجموعة الاوروبية بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، بأن قائد هذه المنظمة ياسر عرفات يتزعم بنفس الوقت « العصابة الارهابية » فتح والتي حملها فوكي مسؤولية القيام بعمليات ارهابية من ضمنها عملية ميونيخ عام ١٩٧٢ · واضاف فوكي في تعليقه الطويل على الصفحة الاولى ان تكتيك منظمة التحرير الفلسطينية هو ان يقوم الزعماء الفلسطينيون علنا بادانة العمليات الاجرامية التي يقوم بها الفلسطينيون وذلك لان مصالح المنظمة كانت ستتعرض للضرر لو ان رئيس هيئتها التنفيذية ايد عملية اختطاف الطائرة الالمانية « لاند سهوت » ولهذا ادان عرفات العملية · ولكن عرفات واليمن الجنوبية وليبيا والعراق لم يتخذوا اية اجراءات ضد زعيم الارهاب وديع حداد ، ويقول انه على العكس من ذلك فقد قاموا بدعمه · ثم يؤيد الصحفي الحوار العربي الاوروبي ويؤكد على اهميته، ولكنه يقول ان الدول الاوروبية يجب ان تتحدث لغة واضحة ولن تقول للدول العربية « « ان العديد من القياديين الفلسطينيين وعلى رأسهم ياسر عرفات لا يناضلون من أجل الحرية فهم زعماء عصابات ارهابية ، وان هذه المجموعات الارهابية تعرض أمن الديموقراطيات الغربية للخطر » ·

ورغم ان هذا الصحفي المحافظ المعروف بعدائه للمنظمة وباعجابه بالكتائب لا يعبر عن اتجاه وسائل الاعلام العام في الوقت الحالي ، الا انه يجب ان لا يغيب عن البال ان هناك احتياطيا كبيرا من أمثاله وسيصولون ويجولون اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكن من الصعب في هذه المرحلة التي تبحث فيها الحكومة الالمانية وبأي ثمن عن حلفاء لحل مشكلة العنف وبعد ان صفق البرلمان الالماني لياسر عرفات ان تختار وسائل الاعلام هذا الوقت لكي تشن حملة على منظمة التحرير الفلسطينية ·

وبغض النظر عن مسألة العنف التي تعتبر ثانوية من وجهة النظر العربية فهناك انتصارات كبيرة حققتها م·ت·ف على المستوى العالمي والدبلوماسي ولم يعد بمقدور دول المجموعة الاوروبية التي تحرص بالدرجة الاولى على مصالحها الاقتصادية في الشرق الاوسط ان تراهن على الكيان الصهيوني فقط ، خاصة وان انحسار الغطاء عن سياسته التوسعية العنصرية والهجومية اصبح يصعب التضامن معه وحتى من أقرب الحكومات اليه ·

ويمكننا ان نقارن موقف المجموعة الاوروبية ، من منظمة التحرير الفلسطينية

بموقفها من حركات التحرر في المنطقة الجنوبية في افريقيا ، فهي من جهة تتعامل عسكريا واقتصاديا مع حكومتي جنوب افريقيا وروديسيا العنصريتين لانها لا تريد ان تخسر نفوذها الحالي ، ولكنها بنفس الوقت لا تريد ان تقطع الحبل مع حركات التحرر في هذه المنطقة لانها لا تريد ان تعرض مصالحها هذه في المستقبل للضياع ، هذا طبعا مع مراعاة اهتمامها بالتضامن الافريقي مع حركات التحرر ومع مراعاة امكانية زيادة نفوذ الاتحاد السوفييتي في حالة تحيزها المطلق للعنصرية ٠

حوار في ظل « معرض الكتاب » في مدينة فرانكفورت

يعتبر معرض الكتاب الذي يقام سنويا في اكتوبر في مدينة فرانكفورت من أهم المجالات الثقافية على الصعيد الاوروبي والعالمي ٠ وفي هذا العام شاركت ٤٥٠٦ دار نشر ومن بينها ٤٣٠٢ دار نشر اجنبية بعرض ٢٧٩٠٠٠٠ كتاب ٠ ويبلغ عدد زوار هذا المعرض الذي يستمر من ١٢ الى ١٧ اكتوبر عشرات الالاف ومن البديهي ان تحرص معظم الدول والمؤسسات والمنظمات على الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية لكي توصل ما يهمها الى الرأي العام العالمي ٠ وقد شاركت ضمن الدول الـ ٧٥ التي شاركت في هذا المعرض كل من مصر ، ليبيا ، الكويت ، العراق ، والجزائر ٠

وقد لمس المهتم بمشاكل المنطقة العربية ان المعرض الاسرائيلي كان يبلغ من الناحية الكمية ثلاثة او اربعة اضعاف مجموع المعارض العربية المذكورة ٠ ومن الناحية النوعية فقد عرضت الدول العربية ما توفر لديها من الكتب باستثناء ما ندر باللغة العربية ، بينما عرضت اسرائيل كتبها بلغات اجنبية مختلفة ٠ هذا وقد وضعت في المعرض الاسرائيلي بعض الخرائط القديمة التي تهدف الى اظهار فلسطين كأنها دولة اليهود التاريخية واحتوى المعرض على عدة كتب لدايان ، جولدا ماير وبيجن ٠ وبعض الكتب التي تحاول اظهار بطولات الجيش الاسرائيلي ومن ضمنها كتب حول عملية عينتبة ٠

ومن الملفت للنظر ان م٠ت٠ف لم تكن ممثلة في هذا المعرض الهام وذلك بالرغم من حجم ما نشر حول قضيتنا وخاصة من مركز الابحاث الفلسطيني ومؤسسات الدراسات الفلسطينية وغيرها وبالرغم من توفر عدد كبير من هذه الكتب بلغات اجنبية عديدة ومن ضمنها اللغة الالمانية ٠ لا شك ان تواجدنا في هذا المعرض كان سيفتح امام العمل الفلسطيني ابوابا جديدة ٠ ومن الجدير بالذكر ان العديد من المنظمات الصغيرة ، مثل منظمة الطلبة الايرانيين او جمعية المحافظة على الشعوب المعرضة للانقراض ، كانت متواجدة في هذا المعرض ٠ لقد كانت فلسطين في فرانكفورت « لاجئة » فبدل ان تحتل الموقع الذي يتناسب مع مستواها السياسي والثقافي وقفت مجموعة من شباب « جمعية نصرة فلسطين » لتبيع كتبا وضعت على طاولة في احد الممرات خارج قاعات المعرض !!

وقد شاركت « دار نشر العالم الثالث » Progress Dritte Welt _ بمعرض فرانكفورت وكانت هذه الدار قد اصدرت عدة كتب معادية للصهيونية من ضمنها : هالشتاين : « لا سلام حول اسرائيل » ، فيليتسيا لانغر : « بأم عيني » ، اسرائيل شاحاك : « غير اليهود في الدولة اليهودية» وستقوم في القريب باصدار دراسة هانسي مندس حول تل الزعتر ٠ وقد قامت دار النشر هذه بالدعوة لندوة شارك فيها الكتاب : فيليتسيا لانغر ، ارسن فريد ،

هالشتاين ومايون اوفنبرج وكان موضوع الندوة يدور حول «الصعوبات التي يواجهها الكتاب المعادون للصهيونية في المانيا الاتحادية » ٠

وقبل ان تبدأ الندوة اجتمعت مجموعة من الشباب بفيليتسيا التي تتكلم العربية بلهجة فلسطينية دارجة وقالت انها تعلمت العربية من السجناء ومن امهاتهم خاصة ٠

وحدثت الشباب عن بطولات شعبنا في الارض المحتلة وعن ضرورة زيادة تضامننا مع المعتقلين لان التضامن بالنسبة لهم « أهم من الماء » ٠ وقالت ان أساليب الصهيونية الفاشية في التعذيب لم تعد سرا بعد ان نشرت مجلة شتيرن الالمانية والصانداي تايمز البريطانية مختصرا عنها ولكني « استطيع ان اؤكد لكم انه كلما ازدادت هذه الاساليب وحشية كلما ازداد الشعب الفلسطيني بطولة ومقاومة » ٠

وفي اثناء الندوة تحدث المشاركون فيها عن تجاربهم مع دور النشر ووسائل الاعلام وذلك بعد ان قدموا ملخصا حول تطورهم الى كتاب معادين للصهيونية ٠

وذكر اريس فريد الشاعر والكاتب المشهور الذي يكتب في اللغة الالمانية والذي ترجم شكسبير الى اللغة الالمانية ، انه من عائلة يهودية نمساوية ، ولكن عائلته كانت من اليهود « الاندماجيين » اي انها كانت منخرطة في المجتمع النمساوي ، ولكن بعد ان احتل هتلر النمسا قتل والده في معتقلات التعذيب النازية ، ولجأ اريس فريد هاربا من النازية الى انجلترا حيث كان يتعاطف في البداية مع فكرة الدولة اليهودية ٠ وعندما اتضح له ان هذه الدولة قامت على اشلاء حقوق الشعب الفلسطيني بدأ يكتب ضد الصهيونية ونشر عدة قصائد من ضمنها « اسمعي يا اسرائيل » والتي يقول فيها « لقد كنت واحدا منكم عندما كنتم مظلومين ، ولكن وبعد ان اصبحتم ظالمين فأنا اصبحت ضدكم » ومن الاقوال المشهورة له وصفه للمفرطين في حب الصهيونية في اوروبا « بأنهم لا ساميون يحبون اليهود » لانهم استبدلوا كره اليهود بكره العرب ٠ واضاف اريس فريد ان هذا التحول الى عداء الصهيونية ينطبق ايضا على اسرائيل شاحاك الذي هاجر الى فلسطين لانه كان صهيونيا متدينا ٠ فقد بدأ عداء شاحاك للصهيونية على اثر حادث معين ، وكان ذلك عندما اراد ان يستعمل هاتف احد الاسرائيليين من اجل مساعدة احد المارة الذي كان بحالة اعياء ومرض شديدة ٠ ووافق الاسرائيلي على ذلك ولكنه عاد ورفض عندما علم ان المريض عربي فلسطيني ٠

واضاف اريس فريد ان كتاباته كانت في السابق وقبل ان يبدأ بنشر قصائده ضد الصهيونية تحظى باهتمام شديد من الصحف ، الاذاعة والتلفزيون ، ولكنها قاطعته وبشكل شبه كامل بعد صدورها واخيرا فقد وجد صعوبات كبيرة في نشر كتاب يتضمن مجموعة من قصائده المعادية للصهيونية ٠

وذكر الاستاذ هالشتاين انه مواطن سويسري وكان يعمل كصحفي في احدى الصحف الاسرائيلية وكانت هذه الصحيفة كمعظم الصحف الاسرائيلية متطرفة في تعاطفها مع الصهيونية وكان ذلك ينطبق عليه ايضا ٠ ولكنه وبعد زيارة لمخيمات اللاجئين شرع في نقد الصهيونية فمنعته الصحيفة من نشر اي مقال يتعلق بالشرق الاوسط ولم يتمكن من نشر اي مقال في اية صحيفة اخرى ، مما اضطره ان يعتزل مهنة الصحافة وينخرط في العمل الاكاديمي ٠ وعندما اراد اصدار كتابه « لا سلام حول اسرائيل » في دار نشر معروفة ٠ (Fiselier) طلبوا منه اجراء

بعض التعديلات التي سيقترحها احد الصحفيين الصهاينة ولكن هذا رفض حتى مجرد قراءة الكتاب بعد ان رأى صورة الغلاف وهي صورة للاجئين يحملون امتعتهم فوق جسر السبيه في عام ١٩٦٧٠ ثم نشر الكتاب ولكن دار النشر عادت واوقفت بيع الكتاب ثم قامت احدى دور نشر العالم الثالث بنشر نسخة جديدة من الكتاب ٠

ثم تحدث ماريو اوفنبرج وهو اسرائيلي من مجموعة ماتسبن عن تطوره من جندي اسرائيلي شارك في حرب ١٩٦٧ الى كاتب معاد للصهيونية وذلك بعد ان تبين له ان حرب ١٩٦٧ لم تكن حربا دفاعية وانما توسعية وهجومية ٠

واخيرا تحدثت فيلتيسيا لانغر وقالت انها نظيفة جدا ، فهي لم تكن في يوم من الايام صهيونية ٠ واضافت بأنها تكتب عن اوضاع المعتقلين وتدافع عنهم ليس لانها تحترم نضال الشعب الفلسطيني فحسب ، وانما ايضا لانها تحب اليهود ولانها تعتقد ان الصهيونية ليست فكرة عدائية ضد الفلسطينيين فقط وانما ضد اليهود ايضا ، فهي لا تشكل حلا للمسألة اليهودية التي لا يمكن ان تحل من خلال اعمال فاشستية ضد الشعب الفلسطيني ٠ وهنا علق اريس فريد « كانت الحركة الصهيونية في السابق تقول ليهود العالم ان اسرائيل هي الضمانة الوحيدة لسلامتهم ولكنها وعلى اثر الحروب المتوالية التي ورطت فيها اليهود في فلسطين بدأت تطالب اليهود بأن يقاتلوا ويموتوا لكي تبقى اسرائيل ٠

واصلت لانغر حديثها حول الارهاب الصهيوني ونضال شعبنا في المعتقلات الصهيونية ونظرا لان هذه المعلومات نشرت في كتابيها « بأم عيني » و « اولئك اخوتي » فسأكتفي بالاشارة الى حادثة وقعت في معرض فرانكفورت ٠ ذكرت لانغر ان كتبها ترجمت الى سبع لغات ولكنها لم تقرأ بشكل اوسع في اسرائيل نفسها وذلك للصمت المقصود الذي لاقته هذه الكتب في وسائل الاعلام الصهيونية ٠ ولهذا قررت ان تقوم بدعاية لكتابها امام المعرض الاسرائيلي في فرانكفورت فأرادت ان تتصور امامه وهي تحمل كتاب « بأم عيني » الذي صدر بالالمانية ٠ وقالت لموظفي المعرض الاسرائيلي انكم منعتموني من عمل دعاية في اسرائيل فسأفعل ذلك هنا ، ولكن هؤلاء منعوها ايضا في فرانكفورت وهددوها بالضرب ٠ لم تفاجأ المرأة التي تعلمت العربية من امهات السجناء بتعرضها للضرب ، فهي تعلم تماما ماذا تعني الديمقراطية بالنسبة لارهاب الفكر الصهيوني ، ولكنها ارادت ان تكشف حقيقة هذه الايديولوجية للرأي العام في اوروبا ، وكان لها ما ارادت ٠

حكم عبد الهادي

رسالة واشنطن

البيان السوفياتي ـ الاميركي المشترك وورقة العمل الأميركية ـ الاسرائيلية

اثار البيان السوفيتي ـ الامريكي المشترك الذي صدر بتاريخ ٢ـ١٠ـ١٩٧٧ عاصفة من الاحتجاج والاستنكار من قبل المنظمات والجمعيات اليهودية والصهيونية، واعضاء الكونجرس الامريكي المؤيدين لاسرائيل ٠ ولقد ركزت معظم الانتقادات

على ادخال كلمة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » في البيان والاشارة الى ضرورة مشاركة ممثلي الشعب الفلسطيني في مؤتمر السلام ، واعتبرت المنظمات اليهودية بان هذه العبارات تعني تغيرا جذريا في موقف الادارة الامريكية وتعني الاعتراف بحق منظمة التحرير والشعب الفلسطيني في المشاركة في المفاوضات ٠

وركز كل من السناتور هنري جاكسون والسناتور دانيال مونياهان (واشنطن بوست ٤-١٠-٧٧) في نقدهما للرئيس كارتر بأنه سمح لعودة النفوذ السوفيتي للمنطقة عن طريق اصدار مثل هذا البيان المشترك ، كما انتقد النائب سيدني يتس (واشنطن بوست ٢-١٠-٧٧) والنائب جوناثان بنجهام الرئيس كارتر ، وقام بنجهام بتوجيه رسالة الى الرئيس كارتر يحتج فيها على تغير السياسة الامريكية ٠

كما قام رئيس حزب اتحاد العمال الامريكي جورج ميني (نيويورك تايمز ٣-١٠-٧٧) بمهاجمة الرئيس كارتر واتهمه بانه يفرض حلا على المنطقة مما يتعارض مع مصالح اسرائيل ٠

وهاجمت معظم المنظمات اليهودية الرئيس كارتر بعنف ، وذكر رئيس مجلس المنظمات اليهودية الرابي الكسندر شندلر (واشنطن بوست ٢-١٠-٧٧) بأن الجالية اليهودية الامريكية « غاضبة جدا وغير سعيدة جدا » لموقف الادارة الامريكية ، كما اتهمت منظمة بناي بريث (واشنطن بوست ٤-١٠-٧٧) الادارة الامريكية بانها اتخذت موقفا مؤيدا للعرب ، وبأن البيان المشترك يعتبر «تغيرا مشينا وخطيرا » ، كما اعلن المجلس الامريكي اليهودي بان البيان المشترك يعتبر تغيرا رئيسيا في السياسة الامريكية، وان الاشارة الى « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » معناها موافقة الادارة الامريكية على اشراك الفلسطينيين في مؤتمر السلام ، ومعناه فرض حل على المنطقة دون استشارة اسرائيل ٠

وانتقدت الصحف الامريكية الرئيسية البيان المشترك ، وذكرت جريدة واشنطن بوست ٤-١٠-٧٧ بأن البيان يعيد للسوفيت نفوذهم في المنطقة ، كما انه يثير غضب المنظمات اليهودية الامريكية واسرائيل بسبب اشارته « للحقوق المشروعة للفلسطينيين » وهذا لا يساعد على ايجاد حلول للمشاكل ٠ كما انتقد الصحفي اليهودي جوزيف كرافت الادارة الامريكية لاصدار مثل هذا البيان وذكر بان الرئيس كارتر عقد الامور مرة اخرى٠

ولم تتراجع الادارة الامريكية عن موقفها ، فاعلن وزير الخارجية فانس بأن البيان يتضمن امورا ايجابية خاصة فيما يتعلق باسرائيل وباقامة علاقات طبيعية مع الدول العربية ، كما اكد المتحدث باسم الرئيس كارتر (٤-١٠-٧٧) بأن البيان المشترك لا يعني تغيرا في السياسة الامريكية ٠

وأما الرئيس كارتر فذكر في خطابه في الامم المتحدة (٤-١٠-٧٧) نفس الموقف ، واشار الى ضرورة حل « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » من أجل احلال السلام في المنطقة ، ولكنه اكد بأن امريكا لا تريد فرض حل على المنطقة٠ وأكد بأنه اذا توفرت النية الحسنة لدى جميع الاطراف فيمكن عقد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي ٠ وذكر بانه لا تزال هناك عقبات اجرائية قبل عقد المؤتمر (وهي اشارة الى ان تمثيل منظمة التحرير لا يزال مشكلة) ٠

وبذلك لم تتراجع الادارة الامريكية امام الهجوم الصهيوني العنيف الذي بدأ يزداد حدة ٠ وركزت المنظمات اليهودية هجومها على مستشار الرئيس كارتر برجنسكي واتهمته بأنه هو الذي كتب

مسودة بيانات وزارة الخارجية الامريكية التي انتقدت اسرائيل ٠

من الواضح بأن الخلافات بين الرئيس كارتر والادارة الامريكية من جهة والمنظمات اليهودية والصهيونية من جهة اخرى قد اتخذت طابع العلانية وازداد حدة ، وسيكون لهذا اثره على الرأي العام الامريكي الذي بدأ يشعر بان المنظمات اليهودية الامريكية تعارض السياسة الامريكية الحالية ٠

ومن جهة اخرى تقوم بعض الشخصيات الاسرائيلية المؤيدة لشعب فلسطين بجولة اعلامية في امريكا ، ومنها الدكتور اسرائيل شاهاك رئيس لجنة حقوق الانسان الاسرائيلية الذي القى محاضرات في عدد من المدن والجامعات الامريكية مركزا على مخالفات اسرائيل لحقوق الانسان وقيامها بتعذيب المعتقلين العرب ومصادرة الاراضي وغيرها من الاعمال العدوانية ٠

وذكر شاهاك في محاضرة بمدينة واشنطن (بتاريخ ٢-١٠-٧٧) بشأن حكومة منياحيم بيجن ، بسبب خلفيتها السياسية ونظرتها العنصرية والعسكرية للعرب وبسبب الاوضاع الاقتصادية في اسرائيل ستقوم بحرب جديدة يكون هدفها احتلال اجزاء من شرق الاردن ، خاصة وان بيجن يؤمن بان العرب يفهمون لغة العنف فقط ، كما ان سياسة بيجن تهدف الى تمزيق كل من سوريا ولبنان وخلق كيانات محلية طائفية تحت سيطرة اسرائيل ٠ واما الفلسطينيون فينظر بيجن اليهم نظرة عملية ويؤمن بأنه يمكن السيطرة عليهم خاصة من الضفة وغزة واستخدامهم كأيدي عاملة لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي ٠

ونشرت جريدة جروسالم بوست (٢٦ - ١٠-٧٧) مقالا لقيادات الجيش الاسرائيلي اكدت صحة هذه الاراء ، اشار مقال الجنرال مايز اميت (رئيس المخابرات الاسرائيلية السابق) الى ان اسرائيل تفكر في عملية عسكرية ضد ابار البترول العربية وبأن الابار هي احدى اهداف الحرب لانها استخدمت كسلاح من قبل العرب ٠ وذكر الجنرال شمويل جونون بأن اسرائيل ستوجه اهتمامها في الحرب القادمة الى الاردن « المملكة المصطنعة » وان الهدف سيكون احتلال الاردن او المنطقة الشمالية منها وذلك لحل المشكلة الفلسطينية واقامة وطن فلسطيني هناك ٠ وذكر المقال بأن مساعد وزير الدفاع الاسرائيلي مردخاي زبوري اكد لاول مرة بان القيادة الاسرائيلية العسكرية وضعت « اهدافا حربية » متعددة ٠

ومن جهة اخرى ستقوم لجنة شؤون اللاجئين في الكونجرس الامريكي التي يرأسها السناتور ادوارد كندي بعقد ندوات لبحث الاوضاع في الضفة الغربية وغزة ، وستقوم بدعوة عدد من رؤساء البلديات للتحدث أمام اللجنة عن أوضاع الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلي وذلك بهدف سماع وجهة النظر الفلسطينية وسيتحدث في اللجنة السيد كريم خلف رئيس بلدية رام الله ، والسيد ابراهيم الدقاق (من القدس) والسيد سليم تماري (جامعة بيرزيت) بالاضافة الى اسرائيل شاهاك ٠

الضغط الصهيوني وتراجع الادارة الامريكية

أمام الضغط والهجوم الصهيوني العنيف تراجع الرئيس كارتر ووافق على ورقة عمل سرية وبيان اسرائيلي - امريكي مشترك بعد اجتماع دام ست ساعات في نيويورك مع دايان بتاريخ ٥-١٠-٧٧ ٠٠ وذكرت جريدة واشنطن بوست بأن المنظمات اليهودية الامريكية اعلنت الانتصار ، والغى اعضاء الكونجرس الامريكي المؤتمر الصحفي الذي كان سيعقد

بتاريخ ٧ـ١٠ـ٧٧ للاحتجاج ضد الرئيس كارتر ، كما سحب ١٥٠ عضوا من اعضاء الكونجرس رسالة الاحتجاج التي كانت ستقدم للرئيس ٠

وأما في الصحافة الامريكية ، فتعرض الرئيس كارتر لنقد عنيف ، من بعض الصحفيين المشهورين ، فكتب وليم سافير (نيويورك تايمز ٦ـ١٠ـ٧٧) بان الادارة الامريكية غبية وبان الرئيس كارتر « يبيع اسرائيل » ويهدد امنها ومصالحها، وطالب بالضغط على كارتر وارغامه على التراجع عن البيان السوفيتي ـ الامريكي، واما الصحفي جورج ويل فكتب في (واشنطن بوست ٦ـ١٠ـ٧٧) متهما كارتر « بالحماقة والجهل » وذكر بأنه من الغباء التعاون مع دولة عدوة (الاتحاد السوفيتي) ضد دولة صديقة (اسرائيل)٠ كما ذكر الصحفي رولاند ايفانز في نفس الجريدة بان القوى المحافظة والمعادية للسوفيت والعرب في الكونجرس الامريكي والتي يتزعمها السناتور مالكوم تجمعت ومارست ضغطا سياسيا كبيرا ضد كارتر بسبب توقيعه البيان السوفيتي الامريكي المشترك ٠ ووصف السناتور البيان بأنه « عمل جنوني » ٠

امام هذا الضغط السياسي العنيف اعلن مستشارو كارتر بانهم تراجعوا لوقف هذه الحرب السياسية عليهم ٠ واكدوا بان السياسة الامريكية تجاه اسرائيل لم تتغير ، وبان الهدف من البيان السوفيتي الامريكي كان لتشجيع السوفيت للضغط على السوريين والفلسطينيين لعدم معارضة مؤتمر جنيف والحل السلمي ٠

وهذا نص البيان الامريكي ـ الاسرائيلي المشترك :

« ان امريكا واسرائيل تتفقان بان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ يبقى الاساس لاعادة عقد مؤتمر السلام بجنيف وبأن جميع الاتفاقيات بينهما حول هذا الموضوع باقية ٠ وقد قدمت اقتراحات لازاحة العقبات البادية امام عقد مؤتمر جنيف ، وسيبلغ دايان حكومته بهذه المقترحات ، كما سيبحث فانس المقترحات مع الاطراف الاخرى وان قبول الاطراف المعنية البيان السوفيتي ـ الامريكي ليس شرطا لعقد وتسيير مؤتمر جنيف » ٠

وذكرت صحيفة نيويورك تايمز بأن الدول العربية لن توافق على هذه المقترحات مما يدل على ان الاتفاق السري الذي تم بين كارتر ودايان يحتوي على تنازلات من الطرف الامريكي ٠ وذكرت الجريدة بأن الاتفاق السري يتضمن حلا اجرائيا لعقد مؤتمر جنيف على اساس اشتراك وفد عربي موحد يضم مصر وسوريا والاردن وبعض الفلسطينيين ٠ وقبل دايان باشتراك فلسطينيين من رؤساء البلديات في الضفة الغربية ، كما قبل بفكرة عقد « مجموعات عمل » بعد افتتاح المؤتمر لمناقشة جميع المشاكل على اساسيين : الاول :مفاوضات ثنائية بين اسرائيل وكل من الدول العربية المعنية على حده (مصر ـ اسرائيل ، سوريا ـ اسرائيل ، الاردن ـ اسرائيل)٠ وذلك لعقد معاهدات سلام وانهاء حالة الحرب ٠ ثم الثاني : مفاوضات مشتركة تعالج قضايا تعويض اللاجئين العرب واليهود ومستقبل الضفة الغربية وغزة ويشارك في هذه المفاوضات فلسطينيون ٠ وذكرت الجريدة بان دايان قبل باشتراك ممثلين من « القيادات الصغيرة وغير المعروفة » من منظمة التحرير في المفاوضات ٠ وذكرت واشنطن بوست بان الاتفاق السري تضمن عدم قبول اسرائيل بمبدأ دولة فلسطينية في الضفة وغزة حتى ولو مرتبطة بالاردن ، كما تضمن وعودا امريكية بعدم استخدام الضغط الاقتصادي او قطع الاسلحة الامريكية عن اسرائيل ٠

وذكرت جريدة نيويورك تايمز بتاريخ

٨ـ١٠ـ٧٧ بان الدول العربية (مصر والاردن) قبلتا بورقة العمل الاسرائيلية الامريكية وان هناك اتجاها من سوريا بقبول الاقتراحات خاصة فيما يتعلق بوفد عربي موحد لحضور مؤتمر جنيف ٠ ويؤكد هذا التصريحات الصادرة عن وزارة الخارجية الامريكية ، التي اشارت الى ان العقبات النهائية في وجه عقد المؤتمر قد ازيحت ٠

واجتمع الرئيس كارتر بتاريخ ٧ـ١٠ـ٧٧ بستة عشر عضوا يهوديا من اعضاء الكونجرس واعتذر امامهم للسيد كوتش المرشح لرئاسة بلدية نيويورك والذي قدم رسالة احتجاج للرئيس كارتر خلال زيارته للامم المتحدة ، واكد كارتر التزامه بدعم اسرائيل وذكر بانه مستعد للقيام « بعمل سياسي انتحاري » على ان يتخلى عن اسرائيل ، واكد بأن البيان السوفيتي ـ الامريكي المشترك لا يعبر عن السياسة الامريكية وليس أساسا للمفاوضات او المباحثات في جنيف ٠

وفي نيويورك ، اعلن زهدي ترزي ممثل منظمة التحرير بتاريخ ٧ـ١٠ـ٧٧ بان المنظمة لا تعارض تمثيل رؤساء البلديات في مؤتمر السلام لان جميع الفلسطينيون اعضاء في منظمة التحرير ، وذكرت جريدة واشنطن بوست بتاريخ ٧ـ١٠ـ٧٧ بانهذا التصريح يعتبر تنازلا جديدا من قبل المنظمة ويفتح الباب امام عقد مؤتمر جنيف لانه يزيح العقبة الاخيرة وهي تمثيل منظمة التحرير ٠

ولكن وزارة الخارجية الامريكية اعلنت مساء ٧ـ١٠ـ٧٧ بانه اذا ارادت المنظمة حضور مؤتمر جنيف فعليها الاعلان علنا بقبول قرار ٢٤٢ والاعتراف بحق اسرائيل في البقاء ، كما ذكرت مصادر مطلعة في الامم المتحدة بان امريكا سوف تصوت ضد اي قرار جديد يقدم لمجلس الامن لتغيير قرار رقم ٢٤٢ ٠

وهكذا نجحت القوى الصهيونية والامريكية المؤيدة لاسرائيل في جعل الرئيس كارتر يتراجع عن التزامه بعبارة « الحقوق المشروعة لشعب فلسطين » لانها فهمت من هذه العبارة التزاما امريكيا بدولة فلسطينية وهذا ما لا يمكن ان تسمح به اسرائيل ٠ واكد دايان ذلك في حديثه الى تلفزيون (A.B.C.) بتاريخ ٩ـ١٠ـ٧٧ بأن اسرائيل لن تسمح بقيام دولة فلسطينية في الضفة لانها ستكون قاعدة تهدد امن وبقاء اسرائيل ، ومن جهة اخرى اكد اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر في نفس البرنامج تمسك مصر بضرورة حضور منظمة التحرير مؤتمر جنيف ٠

فهل هذا التراجع من الرئيس كارتر امام الضغط الصهيوني العنيف مؤقت ؟ ام ان الرئيس كارتر لا يستطيع مواجهة كل هذه القوى وبذلك يضطر الى التراجع وتقديم مزيد من التعهدات لاسرائيل ؟ من الواضح في هذه المرحلة بان كارتر لا يستطيع مواجهة القوى اليهودية وايضا دخول معركة مع انصار اسرائيل في الكونجرس الامريكي وكذلك اعضاء حزبه المناصرين لاسرائيل بالاضافة الى اجهزة الاعلام ٠ كما ان موقفه يتوقف ايضا على صلابة الموقف العربي ووحدته واستمرار التزامه بمنظمة التحرير والحقوق الوطنية لشعب فلسطين ٠

نبيل حاتم

تقارير

انتوني هـ· كوردسمان

ميزان القوى العربي - الاسرائيلي

ظهر هذا المقال بعنوان فرعي « The Arab - Israeli Balance » وعنوان رئيسي « How much is too much ? » في « مجلة القوات المسلحة » — Armed Forces journal — الاميركية عدد اكتوبر (تشرين) ١٩٧٧ لباحث اميركي في الشؤون الاستراتيجية والدفاعية يدعى « انتوني كوردسمان » « Anthony H. Cordesman »، يعمل حاليا كمساعد مدني لنائب وزير الدفاع الاميركي وكسكرتير لمجلس استخبارات الدفاع ، وقد سبق له العمل في ادارات شؤون الامن الدولي ، والناتو ، وفي وكالة ابحاث الدفاع المتقدمة في ايران · واهمية مقاله المطول الذي ننشر ترجمته هنا ، انه يعبر عن تيار في الادارة العسكرية الاميركية يمثله الجنرال « براون » رئيس الاركان المشتركة الاميركية ، يرى في استمرار الدعم العسكري الاميركي الضخم لاسرائيل خطرا على المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، خاصة بعد وصول « بيغن » وحزب « ليكود » الى السلطة في اسرائيل مؤخرا ، ويطالب بتقليص هذا الدعم الذي اخل بميزان القوى العربي — الاسرائيلي على نحو خطير يهدد اية تسوية سلمية معقولة ، خاصة وان حكومة « بيغن » تسعى الى ضم اراضي الضفة الغربية وانشاء « اسرائيل الكبرى » ·

والمقال مليء بالجداول الخاصة بتطورات ميزان القوى العربي — الاسرائيلي منذ حرب ١٩٤٨ حتى الان والتوقعات المستقبلة للقوة الاسرائيلية ، ولذلك فهو في حاجة الى دراسة مفصلة تتناول هذه المعطيات بالبحث والتعليق المفصل الذي لا يتسع له المجال حاليا ، ولذلك يجب النظر اليه بقدر من التحفظ ، خاصة وانه يميل الى التقليل من عناصر القوة العربية والمبالغة في حجم وفاعلية القوة الاسرائيلية ، وان كان يتضمن بطبيعة الحال نقاطا موضوعية بالغة الاهمية في بحث ميزان القوى ، وحقيقة المخاطر التي تواجه العرب عسكريا في المرحلة الراهنة والمقبلة · وعموما فانه من المفيد رغم اي شيء الاطلاع على هذا الرأي الاميركي المعارض لسياسة الدعم المطلق لاسرائيل · نشير الى خطورة نهج التسوية العزلاء من القوة العسكرية التي لجأ اليها النظام المصري ، في الوقت الذي صب فيه العدو الاسرائيلي كل

طاقاته لاعادة التسليح ، وبناء القوة العسكرية القادرة على فرض الشروط الاسرائيلية في معادلة التسوية ٠

البندول يتارجح في الشرق الاوسط :

لقد تبددت آمال الشتاء الماضي في التوصل الى نوع من التسوية السلمية العربية ـ الاسرائيلية ، وتكشف التقارير الصحفية الراهنة بوضوح عن مخاوف متزايدة من نشوب حرب اخرى ٠ وعلى اي حال ، فان عنصر عدم الاستقرار هذه المرة ربما يكون اسرائيل وليس العرب ٠ ذلك انه في حين يركز خبراء الولايات المتحدة انتباههم على نقاط ضعف القادة « المعتدلين » لدول المواجهة العربية ـ السادات ، والاسد ، وحسين ـ نجد السياسة الاسرائيلية تفرخ « مناحم بيغن » ٠ وقد كتب « زئيف شيف »، الذي يعد ابرز المحللين في شؤون الدفاع باسرائيل ، في صحيفة « هآرتس » « لقد توصلت الى استنتاج من خلال ملاحظة بعض التطورات المعينة ٠٠٠ قبل الانتخابات (الاسرائيلية) ان حربا اخرى مع العرب هي مسألة لا يمكن تجنبها في نهاية الامر ٠٠ ان « اسرائيل » يحكمها حزب ليكود ربما يكون من الاسهل عليها الاقتناع بضرورة شن حرب وقائية او على الاقل توجيه ضربة مسبقة ، حال اقدام الجانب الاخر على اتخاذ اية خطوات تهديدية عدائية ٠ اننا يجب ان نكون متأهبين للحرب طوال الوقت » ٠

وكانت النتيجة هي « اسرائيل » متورطة في الضم الدائم لجزء غير معلن عنه من الضفة الغربية ، وذات رغبة مشكوك فيها ، اذا وجدت اصلا ، في التوصل الى تسوية حول الجولان وسيناء ٠

ان حزب « بيغن » ، ليكود ، الذي انبثق من حزب حيروت ، كان ، حتى العام ١٩٦٥ على الاقل ، يطالب بأن تشمل اسرائيل الاردن كله ، استنادا الى الحدود التاريخية لاسرائيل ٠ وقد نص برنامج حزب ليكود في العام ١٩٧٧ على ان « حق الشعب اليهودي في ارض اسرائيل هو حق ابدي غير قابل للتبدل ، وهو ايضا يشكل جزءا مكملا لحقها في الامن والسلام ٠ ومن ثم فان يهودا والسامرة (اي الضفة الغربية بكاملها) لن تسلم مطلقا لادارة اجنبية ، ولن يكون هناك بين البحر والاردن سوى سيادة اسرائيلية » ٠

مخاطرة حرب اخرى

وقد اعطت هذه التغيرات في السياسة الاسرائيلية معنى جديدا ومختلفا لميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ٠ فان الولايات المتحدة قد لا تكون مستمرة في امداد « اسرائيل » التي ستقودها قوتها العسكرية الى « رغبة اسرائيلية » في التوصل الى حل وسط لاجل السلام ٠ وانما يمكن الان ان تجد الولايات المتحدة نفسها تساعد « اسرائيل » التي يمكن ان تستخدم قوتها العسكرية لتأمين سيطرة دائمة على اراض عربية بما يتناقض بصورة مباشرة مع السياسة الاميركية ، وتثبت نفسها في حرب باردة غير محدودة مع العرب ٠ وفي اسوأ الاحوال، ستجد الولايات المتحدة مقيدة بحليف سوف يستخدم قوته العسكرية في محاولة توجيه ضربة مسبقة لتصفية مشكلة منظمة التحرير ، او ليدمر القوى العسكرية العربية وهي لا تزال ضعيفة بعد ٠

وفي الواقع ، قام ، في الماضي ، عدد من مستشاري بيغن الرئيسيين بالبحث بصورة سرية في شأن استفزاز سوريا

للدخول في حـرب تتخذ كمبرر لتدمير قواتها العسكرية ، التي جرى تطويرها ، قبل ان تشكل تهديدا لاسرائيل ولقد بحثوا مؤخرا حربا اخرى محتملة ، كما درسوا القيام بهجمات « لمساندة » المسيحيين اللبنانيين ضد منظمة التحرير ، وقاموا ايضا بدعم فعلي « لاثيوبيا » العدوانية ضد الصومال وثوارها العرب ٠

بـل ان رئيـس الاركان الاسرائيلي « موردخاي غور » الذي يعد معتـــدلا على نحو نسبي ، قد اكد في في خطاب له امام جامعي التبرعات لجمعية النداء اليهودي الموحد (كما جاء في عدد ٨/٣٠ من صحيفة كريستشيان سانيس مورنيتور) انه « اذا وقعت حرب اخرى بين الدول العربية واسرائيل ، يجـب ان يكـــون انتصارنا سريعا وحاسما ، حتى يدرك العالم كله من الذي انتصر ٠٠٠»

ان ما يقترحه الجنرال غور هو ان تشن اسرائيل حربا بأقصى حدة ممكنة لتدمير الجيوش العربية قبل ان يتمكن الغرب من التدخل ٠

ويمكـــن لهـذه المواقف الاسرائيلية الجديدة ان تهدد المصالح الاستراتيجيـة للولايات المتحدة وحلفائها ٠ بل استمرار تصاعد المواجهة بين اسرائيل والعرب يمكن ان يكون له النتائج التالية :

● التهديد بزيادات ، او اجراء زيادات فعلية ، في اسعار النفط ٠

● التلاعب في معدلات انتاج النفط ، وبشكل خاص من قبل السعودية ، الامر الذي يمكن ان يكبـح العرض ويمارس الضغط الاقتصادي على الغرب دون حظر فعلي ٠

● التلاعب في مـا يملكه العرب مـن دولارات او ديون لفرض ضغط سياسي ٠

● القيام بتمويل جديد رئيسي لتطوير قوات دول المواجهة العربية من قبل دول النفط العربية ٠

● اعـادة توجيه السياسـة السورية والمصرية والعودة الى بناء قدرة قتاليـة للحرب ضد اسرائيل ٠

● تقديم مساندة كبيرة لمحاولة منظمة التحرير الرامية الى ابقاء عرب الضفة الغربية « احرارا » وذلك من قبل الدول العربية المحافظة او المعتدلة ٠

● حدوث ضغوط عربية جديدة لمحاولة تحويل لبنان ، الذي ما زال فـي وضـع هش ، الى دولة مواجهة مع اسرائيل ٠

تلك هـي ما يمكـن ان تكـون « الانبـاء الحسنة » الناتجة عن الممارسات الاخيرة لحكومة « بيغن » ٠ اما « الانباء السيئة» فيمكن ان تكون نشوب حرب فعلية ، وان حرباكهذه يمكن ان يكون لها نتائج بالغة السوء :

● حظر نفطي جديد ، خاصة قبل ان يستكمـــل الغرب اعداد احتياطيـــه الاستراتيجي ، مما قد يؤدي الى كسـاد او ركود على نطاق العالم كله ٠ وان الغرب يعتمد حاليا على الورادات النفطية بصورة اكبر بكثير عما كان عليه الحال في العام ١٩٧٣ ، كما ان العرب منظمون بشكل افضل مما كانوا عليه لممارســة حظر يمكن ان يسرع من الاتجاهـــات الراهنة نحو الشيوعية الاوروبية ، ويهدد كل حكومة مؤيـــدة للغرب في العالـــم الثالث ٠

● ومن المستحيل قياس الضرر الذي يمكن ان ينزله العـــرب بالدولار ، او بالنظام المصرفي والنقدي العالمي ، وهم يحاولون ممارسة الضغط على الغرب ، وهم الان يمتلكون القدرة على احداث الاضطراب في التحركات النقدية العالمية كما لو كانوا يسقطون بيتا من الورق ٠

● وحتى حدوث انتصار اسرائيلي سريع وكبير سيؤدي الى ضغوط من اجل قيام الولايات المتحدة بعملية اعادة تزويد اسرائيل بالسلاح ، في الوقت الذي ما زالت فيه القوات الاميركية لم تتخلص بعد من عملية اعادة تزويد اسرائيل بالسلاح التي جرت عقب حرب ١٩٧٣ وما زالت « فرقنا التي يعاد تشكيلها » في اوروبا (اي الفرق التي تختزن اسلحتها في اوروبا لينقل افرادها جوا من الولايات المتحدة عند الحرب) — Reforger divions — ضعيفة الى حد خطير · وسيؤدي جهد اعادة تزويد جديد بالاسلحة الى اسرائيل الى تعطيل وعرقلة مخططات الولايات المتحدة « في التوصل الى وضع جيد » الى أمد غير محدد · والاسوأ من ذلك ان حلفاءنا سيضطرون على التحلل من أي جهد أميركي كهذا · ويمكن لهذا ان يهدد ·

● ان هزيمة عربية جديدة ستؤدي على الارجح الى تطرف العالم العربي بأكمله واجباره على العودة الى الاتحاد السوفييتي باعتباره مصدر تسليحه الرئيسي ·

● لقد كشف مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق ان اسرائيل تمتلك الان ١٢ سلاحا نوويا على الاقل · وهناك نقاش متصاعد في الكونغرس حول امكانية كون هذه الاسلحة قد اعدت باستخدام مواد صواريخ سرقتها اسرائيل من الولايات المتحدة · ويبدو على نحو مؤكد ان كلا من العرب واسرائيل قد امن قدرة حرب كيماوية بيولوجية واسعة · ولا يوجد سبيل لتقدير انماط التصعيد التي ستحدث في حرب مستقبلة ، او للجهود التي سيقوم بها العرب لتطوير اسلحة نووية او اية اسلحة اخرى مضادة للسكان عقب هزيمة اخرى ·

وقد اوضح وزير الخارجية « ديان » على نحو غير مباشر اراءه فيما يتعلق بهذا التطور في حديث ادلى به لصحيفة « جيروساليم دومستيك سيرفس » في اذار (مارس) الماضي قبل ان يصبح وزيرا للخارجية في الحكومة الجديدة ، فقال : « في اعقاب حرب « يوم الغفران » (١٩٧٣) ، ظهر وضع يمتلك فيه العرب كمية كبيرة من الاسلحة الجديدة · ففي العام ١٩٦٧ كانت نسبة القوى بيننا وبين العرب قد قدرت بنسبة واحد الى اثنين·· دبابة اسرائيلية في مواجهة دبابتين عربيتين ، والشيء ذاته في القوة الجوية · وفي حرب يوم الغفران كان هناك نسبة ١ الى ٣ ··· ووفقا لتقارير منشورة ليس فقط في اسرائيل ، وانما في مصادر موثوقة اخرى ، كان لدى اسرائيل نحو ٣٠٠٠ دبابة وكان لدى العرب ما يزيد عن ٥٥٠٠ دبابة · وفي هذا الصباح قرأت في صحيفة اميركية انهم (في الولايات المتحدة) يمتلكون ٩٠٠٠ دبابة · تصور ان اسرائيل لديها ثلث الدبابات التي تمتلكها الولايات المتحدة ، وثلاثة اضعاف ما لدى فرنسا ، وثلاثة اضعاف ما تمتلكه بريطانيا · كيف يمكن لبلد من ٣ ملايين نسمة ان يخوض هذا السباق ضد العرب الذين يمتلكون موارد مالية غير محدودة ، ومصادر سياسية غير محدودة للحصول على الاسلحة ، وموارد بشرية ضخمة ؟

وما اود ان اوضحه انه الى جانب خوضها لهذا السباق ، يجب ان نطور لانفسنا خيارا ، وهو القدرة على انتاج الاسلحة النووية · اننا لا نستطيع ان نواجه كميات الاسلحة التقليدية التي لدى العرب ·· اننا يجب ان نطور هذا (الخيار النووي) بالاضافة الى الاسلحة التقليدية التي لدينا وليس كبديل عنها ، وبواسطة كميات معقولة نحتفظ بها منها حتى يكون لدينا وسائل لقتال العرب

ليس فقط بالاسلحة التقليدية ، وانما بأسلحة نووية ذات نوعية عالية في حالة اذا ما حاولوا غزو اسرائيل وتدميرها ».

وتكتسب هذه الملاحظات معنى اضافيا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التقارير الصحيفة حول التعاون الاسرائيلي مع جنوب افريقيا في تطوير الاسلحة النووية ، وان السلاح النووي الذي كان الافريقيون الجنوبيون سيختبرونه كان اسرائيليا .

● في حين انه كان يمكن للاتحاد السوفياتي ألا يلجأ الى خيار استغلال حرب ، والتركيز على استثمار النتائج ، فاننا لا نملك اي ضمانات بأن هذا سيحدث . ولذلك فان الولايات المتحدة يمكن ان تواجه تدخلا سوفييتيا وضغوطا في شرقي البحر الابيض المتوسط ذات طبيعة ونتائج لا يمكن التكهن بها .

« الطبيعة المتبدلة للقدرات العربية والاسرائيلية »

ان المتغيرات في ميزان القوى التي جرت منذ حرب اكتوبر (تشرين ١) توفر أملا ضئيلا بأن اسرائيل ستردع بالقوة العربية ، وان نتيجة حرب جديدة ستحافظ على الاقل على ماء الوجه او الشرف العربي ، او ان الحرب لن تتصاعد الى اكثر من مستويات اكبر خطورة من حيث الخسائر البشرية والخسائر في المعدات . ذلك لان الدعم الاميركي لاسرائيل منذ حرب اكتوبر قد اوصلها الى وضع تستطيع معه خوض حرب هجومية بحد أدنى من المخاطرة .

ولم تعد اسرائيل دولة صغيرة محاطة من جميع الجهات بجيران لديهم قوات كبيرة . انها دولة عسكرية تخطى نموها العسكري بكثير متطلبات الدفاع . وان الكثير من تفاصيل هذا النمو مخفي عن أعين الرأي العام . فهي تتضمن تغيرات نوعية في التدريب ، واللوجيستيك ، وقدرة العمليات والصيانة ، والتأهب ، والتكنولوجيا ، وهي مسائل مكلفة وهامة في ان واحد ، لكنها لا تسهل مقارنتها مع قدرات الدول العربية المقابلة . أما ارقام القوات الاساسية ، فلا يمكن اخفاؤها ، وقد لخصت مؤخرا في الدراسات الواضحة التي اجرتها منظمة التقييم والبحث التاريخي وشركة التقييم التحليلي. وتوضح نتائج هذه الدراسات ومصادر علمية اخرى الصعود المستمر في قدرات « قوات الدفاع الاسرائيلية » بالمقارنة مع القوات العربية .

« كيف اصبح داود جولياث »

لقد نمت القوة العسكرية الاسرائيلية من « داود » الى « جولياث » خلال الفترة بين العامين ١٩٤٨ و ١٩٧٧ .

« حرب ١٩٤٨ »

لم تشترك في حرب ١٩٤٨ سوى قوات صغيرة .ولم تكن قوات اسرائيل اصغر بكثير من القوات العربية . وفي الواقع ، على حين كان لدى العرب على نحو واضح حوالي ٨٠ دبابة مقابل ٤٠ دبابة اسرائيلية ، كان لدى الاسرائيليين ناقلات جنود مدرعة ، ونصف مجنزرات، وعربات مصفحة مصنعة محليا اكثر (من العرب) وكان لديهم فعليا كتائب « مدرعة » اكثر بنسبة ٥٠٪ تقريبا . كما كان لدى اسرائيل ايضا نحو ٥٥ طائرة قتال مقابل قوة عربية قابلة للانتشار تبلغ ٣٥ طائرة ، على الرغم من ان العرب كان لديهم ٣٥ طائرة « اغراض عامة » مقابل ١٥ طائرة اسرائيلية مماثلة . ومع ذلك كانت هذه الحرب اكثر الحروب في الخسائر البشرية ، فقد قتل وجرح من

الرجال في هذه الحرب اكثر بكثير مما حدث في أية حرب اخرى · (انظر الجدول رقم واحد) ·

« حرب ١٩٥٦ »

يظهر الجدول (رقم ٢) القوات التي اشتركت في حرب ١٩٥٦ · وفي هذه المرة كان الاسرائيليون يعانون من نقص عددي هام ، غير ان هذا النقص تم تعويضه من خلال : ● تأثير القوات البريطانية والفرنسية · ● تفوق التدرّيب الاسرائيلي ونوعية القوة البشرية ، والقيادة · ● « الانخفاض » في القطع والذخيرة لدى القوات المصرية ، وانتقالها الى معدات جديدة غير مستوعبة بعد · ● المبادأة التي حصلت عليها اسرائيل بشنها هجوما مفاجئا ·

● التفوق الاسرائيلي الكبير في الطيارين والتدريب وصيانة الطائرات · وكانت النتيجة خسائر بشرية اسرائيلية رمزية بلغت نحو ١١٠٠ (ما بين قتيل وجريح ومفقود) على حين بلغت الخسائر المصرية (بالمقارنة مع خسارة ٢١ ألفا في حرب ١٩٤٨) ١١٠٠٠ ·

« حرب ١٩٦٧ ·»

ميزان القوى في حرب ١٩٦٧ يظهر في الجدول (رقم ٣) · لقد نمت قوة اسرائيل المدرعة من ٤٠ دبابة (في العام ١٩٥٠) الى ١٠٠٠ دبابة ، على حين نمت الدبابات العربية من ٨٠ دبابة الى ٢٣٣٠ دبابة · وزادت قوة اسرائيل من طائرات القتال من ٥٥ طائرة في العام ١٩٥٠ الى ٢٨٦ طائرة ، مقابل زيادة عربية من ٣٥ طائرة الى عدد يتراوح بين ٥٧٦ و٦٨٢ طائرة ·

وزادت المدفعية من عدد ضئيل الى حد امتلاك العرب حوالي ١٠٠٠ (مدفع) او تقريبا تفوق بنسبة ٥ الى ١ ضد اسرائيل ·

والشيء الغريب تماما ، ان حرب ١٩٦٧ كانت الاولى حيث لم يكن للصورة الشائعة حول « داود » ضد « جولياث » اي معنى ، فالاسرائيليون كانوا يعانون من نقص كمي فعلي · الا ان هذه الحرب اثمرت اعظم واسرع انتصار اسرائيلي · فالمفاجأة الاسرائيلية ، ونوعية القوة البشرية ، والطائرة المتفوقة هزمت العرب في فترة تزيد قليلا عن اسبوع · وقد انزلت كل من الاردن وسوريا باسرائيل خسائر هامة بالمعدات على الرغم من خسائرهم الجوية الاولية · ولقد كانت خسارة مصر لعشر دبابات مقابل دبابة اسرائيلية واحدة ، والخسائر الجوية العربية الضخمة في اليوم الاول للحرب هي التي جعلت « جولياث » اضعف بكثير من « داود » ·

«نفقات الدفاع في الفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧»

يمكن ان تكون صورة داود مضللة خلال هذه الفترة كلها · فلقد انفقت اسرائيل قدرا كبيرا من المال في تطوير نوعية قوتها البشرية ، على حين اشترى العرب معدات · ويظهر الجدول البياني (رقم ٤) نفقات الدفاع لدى كل جانب ، وهو يفسر الى حد بعيد لماذا كان للنقص في معدات اسرائيل تأثير فعلي ضئيل على القدرات القتالية في الحروب ·

« اثر حرب اكتوبر »

يظهر ميزان القوى للشرق الاوسط في حرب اكتوبر ١٩٧٣ في الجدول (رقم ٥)

ومن الجدول المذكور يتبين ان الطرفين ضاعفا قواتهما تقريبا منذ العام ١٩٦٧، واصبح العرب قادرين على استخدام قوة من الدبابات تعادل قوة حلف « الناتو » المعدة في المنطقة الوسطى (من اوروبا) ٠

استمرت حرب اكتوبر فترة اطول من صراع ١٩٦٧ ، غير انها اثمرت زيادة في الخسائر لدى الطرفين اقل بكثير مما كان يمكن توقعه ٠ ومع حرب ١٩٧٣ ، اصبحت اسرائيل قادرة على الاعتماد على طائرات الصف الاول الاميركية ، وعلى دبابات اميركية اقل قابلية للاصابة من الاسلحة القديمة ، الا انها وفرت حماية لاطقمها على نحو افضل ٠ وعلى نحو مماثل ، لم يصب العرب بالانهيار على أي جبهة ، ولم يعانوا كما عانى المصريون في العام ١٩٦٧ ٠

ونتيجة لذلك ، كانت الخسائر في الافراد محدودة ، ولتوضيح ذلك ، فلقد قتل وجرح من الرجال خلال الحرب الاهلية في لبنان عدد اكبر ممن قتلوا او جرحوا في الحروب العربية ـ الاسرائيلية الاربع ٠

ولم تكن الخسائر في المعدات في ١٩٧٣ اكبر على نحو نسبي من الخسائر في ١٩٦٧ ، وكانت اصغر بالنسبة لعدد الدبابات والطائرات التي اشتركت في العديد من معارك الحرب العالمية الثانية ٠

وفي الحقيقة لقد خسر سلاح الطيران الاسرائيلي عددا اقل من الطائرات ـ طلعة مما خسرت الولايات المتحدة في فيتنام (اي عددا اقل من الطائرات بالنسبة لعدد الطلعات) ٠

« عملية استعادة القوى الاسرائيلية والعربية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦ »

لقد عوض كل من اسرائيل والدول العربية خسائرهم في ١٩٧٣ مع العام ١٩٧٦ ٠ ومن الصعب مقارنة نسب القوات وبنيتها نظرا لان الاسلحة قد تغيرت كثيرا من حرب الى اخرى ، غير ان الجدول (رقم ٦) يظهر ان الميزان حتى تغير لصالح اسرائيل منذ حرب اكتوبر ٠

وما لا تظهره هذه الجداول ان اسرائيل يمكن ان تكون قد صححت الكثير من نقاط الضعف الخطرة التي كشفت عنها حرب اكتوبر دون دعم اميركي ٠

وقد اظهرت كتابات خبراء الدفاع الاسرائيليين كزئيف شيف ، وغيره من المراسلين العسكريين الاسرائيليين ، انه في حين كان الجنود والطيارون والبحارة الاسرائيليون بارزين في قدراتهم ، فلقد فشلت « قوات الدفاع الاسرائيلية » في الحفاظ على استعدادها خلال فترة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ٠

● عمليا لم يستخدم الاسرائيليون اسلحتهم المضادة للدبابات ٠ ومعظم صواريخهم الموجهة ضد الدبابات كانت مختزنة ٠ ولم يكونوا منظمين او مدربين او مجهزين لمساندة المدرعات بالمشاة المحمولة ٠

● كانت صيانة معدات القوات الاحتياطية سيئة ٠ والكثير منها (اي وحدات الاحتياطي) مزودة على نحو ملائم بالمؤن ٠ كما كانت الذخيرة واجهزة اللاسلكي ، وغيرها من الامدادات الاساسية ، ناقصة ٠

● لم يكن للقيادة العليا اركان فعلية للتخطيط للحرب او مقر للقيادة والسيطرة ٠ وتم ارتجال هذا كله خلال الحرب مع وسائل اتصال غير كافية وقدرة ضعيفة على استخدام انظمة الاستطلاع بفاعلية ٠

● لم يكن الجيش الاسرائيلي مدربا على نحو ملائم في العمليات المشتركة ، وكان الضباط والمجندون المسؤولون اساسا عن تهديف المدفعية وادارة النيران كانوا في مرتبة تعبئة متدنية وذوي تدريب ضعيف والكثير من الوحدات لم يكن لديها افراد من هؤلاء خلال الحرب نظرا لانهم لم يكونوا قادرين على « الاندماج » بها خلال القتال ·

● تم التغاضي عن هبوط تدريب التعبئة الشامل الى مستويات متدنية ، كما كان هناك هبوط في النوعية بشكل خطير ·

● لم تكن وحدات الجيش مدربة جيدا على الدفاع الجوي ، رغم ان بعض الوحدات حققت ارقاما قياسية فردية متفوقة في اسقاط الطائرات العربية ·

● ما اطلق عليه « الحواجز الدفاعية» على طول قناة السويس ومرتفعات الجولان لم تكن موجودة الا على الورق فقط · ومعظمها لم يكن لديه اي قدرة مضادة للدبابات ، ولديها دعم مدفعي ضعيف · كما كانت تفتقد الى القوة البشرية بسبب العطلة ، غير ان الشيء الاهم انها كانت ضعيفة التجهيز بالقوة النارية ·

● كان تنظيم الاستخبارات الميدانية والاستطلاع ضعيفا وسيء الارتباط بنظام القيادة الاسرائيلية · ولقد كان لدى الاستخباراتبعض القدرات البشرية الجيدة ولكنها لم تكن منظمة للحرب المدرعة ·

● كانت قدرات الهندسة القتالية للقوات الاسرائيلية سيئة التنظيم ، والعناصر الرئيسية فيها لم تختبر مطلقا على نحو جيد في الميدان ، والمعدات الاساسية ، مثل المعدات الخاصة بعبور القناة، فشلت في اوقات حرجة من القتال·

● تغاضت « قوات الدفاع الاسرائيلية » عن هبوط مخزونها من الذخيرة الى مستوى منخفض بشكل خطير · والاكثر اهمية من ذلك انها فشلت في تنظيم اسلوب يمكن ان يتم به توزيع واقتصاد الذخيرة بفاعلية · ولقد استخدمت كميات كبيرة من الذخيرة والذخائر الجوية بغير فاعلية ، على حين كانت وحدات اساسية تعاني من نقص في الذخيرة ·

● لم تكن القوة الجوية الاسرائيلية والجيش مدربين على اسكات الدفاع الجوي ابان القتال · فقد كانا يعتمدان على الضربات الجوية المسبقة · ولم يتم تدريب ملائم على استخدام معدات ووسائل التشويش الالكتروني المضاد التي زودتها بها الولايات المتحدة، ولم يكن لديه محللون مدربون للتخطيط الهجومي · وفي النتيجة فان كثيرا من طلعات الاسكات (للدفاع الجوي) ذهبت سدى ، وارتجل الطيارون الاسرائيليون تكتيكات اختراق كانت عادة فاشلة ·

● لم يتدرب سلاح الطيران الاسرائيلي على مهاجمة اهداف مدافع عنها ،كما كان تدريبه ضعيفا في مهاجمة المدرعات العربية · ولقد تقبلت قياداته ادعاءات الطيارين عن انزالهم تدميرا كبيرا بالخصم ، ولكن العديد من كتابات ما بعد الحرب تكشف عن العديد من الطلعات كانت غير فعالة · وذهبت سدى ·

● لم يكن للسلاح الجوي الاسرائيلي اي مركز لادارة معركة جوية فعلية لمهمات الهجوم الجوي · ولم يكن قادرا على استخدام معلومات الاستطلاع بفاعلية ، ولم يكن قادرا على توفير مساندة للطيارين في الطيران عبر ممرات اختراق امنة ·

● برهنت تكتيكات الدفاع وادارة المقاتلات الاسرائيلية عن كفاءة ممتازة ، الا انها لم تكن معدة للتعامل مع اعداد كبيرة من المقاتلات العربية ، وبالتالي ، فان نظام الدفاع المذكور كان معرضا للوصول

بسهولة الى نقطة يصبح بعدها يعمل بما يفوق طاقته العملية القصوى ، وهو الامر الذي كان يترك الطيارين الاسرائيليين يعملون في اوضاع تفتقر الى القدر الكافي من التحكم والانذار اللازمين لهما · لكن اسرائيل كانت قادرة على معالجة هذه المشكلات بسرعة وقد بدأت ذلك مباشرة عقب انتهاء حرب اكتوبر ·

وكان استيعاب اسرائيل لدروس الحرب سريعا وفعالا ، ومع حلول العام ١٩٧٦ ، كانت معظم المشكلات الرئيسية قد ازيلت ·

ولسوء الحظ ، ان هذه الاصلاحات الاسرائيلية لم يرافقها فهم عام اسرائيلي او اميركي لحقيقة ان كثير من مشكلات اسرائيل في حرب اكتوبر كانت نابعة عن نواقص ذاتية وليس نتيجة تحسينات في التخطيط العربي او الاسلحة العربية ·وان الكثير من المذكرات الخاصة التي ستعلن عن هذه المشكلات تكتب حاليا ، او انها محتجزة في الرقابة الاسرائيلية · وهناك ايضا اسباب سياسية بديهية لتجاهل سياسيين اسرائيليين ، كشمعون بيريز ، لعوامل كهذه ولتأكيد على ان « الميزة النوعية لشعب متفان على الارض يمكن ان تقاوم بالطبيعة المتقدمة للغاية الاسلحة الحديثة » ·

وان الحديث عن ميزة تفوق عربي تصل لنسبة ٣ الى ١ ، حديث اكثر جاذبية عن التحدث عن ضعف فريق المتحدث·وبالتالي فان مخططات متطلبات « قوات الدفاع الاسرائيلية » ، او مخططات المساعدة العسكرية الاميركية ، لا تأخذان بعين الاعتبار الى أي حد يمكن ان تؤثر اصلاحات اسرائيلية كتلك في تبديل ميزان القوى لصالح اسرائيل ·

وبالمقابل ، لايزال ينقصهم تدريب وقيادة جوية فعالة ، واجهزة سيطرة واتصالات ، والكمية الكبيرة التي لديهم من أسلحة الدفاع الجوي لم تربط او تنظم في جهاز فعال ، كما انهم لا يزالون غير قادرين على التدريب بفاعلية على حرب المناورة المدرعة وتفتقد طائراتهم عموما الى الصواريخ جو ـ جو الحديثة ومعدات الهجوم الالكترونية، كما انهم يفتقدون الاسلحة الحديثة المضادة للدبابات ويعتمدون على صواريخ سوفييتية موجهة مضادة للدبابات ذات اداء منخفض ·

« التحسينات في المعدات منذ الحرب »

ان انتشار الاسلحة الجديدة منذ انتهاء الحرب اتاح لاسرائيل معالجة معظم عدم التوازن في اسلحتها المشتركة · وتحصل اسرائيل على اعداد كبيرة من المدفعية والصواريخ للدبابات ، ودفاعات جوية وبرية مطورة الى حد بعيد ، ووسائل مساعدة على الاختراق ، واسلحة اخماد وسائل الدفاع الجوي ، وذخيرة جوية قانصة للدبابات ضرورية لاستعادة فاعلية سلاحها الجوي · وبالمقابل ، لم يتمكن العرب حتى الان الا من اجراء تطويرات محدودة في قوتهم ، وما زالوا يفتقدون المعدات التي يحتاجونها · ولقد كانت هناك وعود بمساعدة مصر من قبل السعودية ، غير ان دعما كهذا لم يتحقق حتى الان · ومن ثم فان ميزان شحنات الاسلحة يبدو الان لصالح اسرائيل ·

« ميزان القوى الراهن »

وقد ادت هذه التغيرات الى وجود ميزان قوى جديد في الشرق الاوسط · وهناك تقديران للقوة العربية · الاول ، الذي يمثل التقدير الذي يستخدمه معظم خبراء الولايات المتحدة ، يقارن اسرائيل في مواجهة مصر وسوريا · وهو يفترض ان الاردن لن يستخدم غير قوات رمزية ، كما حدث في اكتوبر ١٩٧٣ ، بدلا من

المخاطرة بتدمير قواته · وهو يفترض ايضا ان القوة الاجمالية التى يمكن للعرب ان يستخدموها ، من المستبعد ان تتجاوز القوة المصرية السورية مجتمعة ، نظرا لان العديد من القوات المصرية والسورية (التي تظهرها الجداول) غير قابلة للدخول في العمليات بسبب الخدمة او الصيانة ، او غير جاهزة للقتال بسبب التدريب والتأهب او مقيدة بدواع أمنية · وعلى نحو مماثل ، فان اقطارا مثل العراق والعربية السعودية يمكنها ان تستخدم وحدات او حتى فيالق ، ولكن ليس جيوشا بأكملها · وباستثناء بعض الفرق العراقية فان الجيوش العربية الاخرى تفتقد الى التدريب والخبرة والضباط وضباط الصف الاكفاء ، وهي تفتقد الى انظمة لوجيستيكية فعالة بما فيها خدمات الدعم والمساندة والامداد والتموين ، والى التوحيد (في الاسلحة والمعدات الخ) ، والى القيادة والسيطرة الكافية · على النقيض من ذلك ، فان اسرائيل تحتفظ عمليا بمجمل بنية قوتها متأهبة للقتال ، وطورتها بهدف تحقيق درجة اعلى من التوحيد (في الاسلحة والمعدات الخ) ، وليس لديها سوى القليل من الثغرات النوعية الضخمة التي تعاني منها الجيوش العربية ·

« التطلعات الاسرائيلية للعام ١٩٨٠ »

وعلى الرغم من ان اسرائيل تستخدم مقياسا مختلفا للغاية في طلب الدعم من الولايات المتحدة عما تستخدمه الاخيرة ، الان تقييم الدولتين لاهداف تخطيط الحرب هو على الارجح تقييم متطابق ·

ذلك لان اسرائيل في طلبها للمساعدة العسكرية الاميركية تدخل في اعتبارها كل القوات العربية الرئيسية ، وليس فقط تلك التي تشكل التهديد العسكري الرئيسي لها · ومن ثم كانت النتيجة هي تعريف لمتطلبات « الدفاع » العسكرية يعطي لاسرائيل ايضا القدرة على شن هجمات خاطفة ضد مصر ، وسوريا ، والاردن ، او لبنان قبل ان تتمكن القوى العظمى من التدخل ، او قبل ان يكون لحظر نفطي اي اثر · وهذه المتطلبات الدفاعية مرتفعة الى حد انها ستجعل اسرائيل في مأمن نسبي من تهديدات الولايات المتحدة بعدم اعادة امدادها بالاسلحة كما فعلت عقب حرب اكتوبر · ولقد تم تقديم اهداف القوة الاسرائيلية لاول مرة في طلب قدم في العام ١٩٧٤ لمزيد من الدعم الاميركي في خطة اطلق عليها « ماتمون ب » · ولم يتم الاعلان عن هذه الاهداف بشكل كامل ، ولكنها تقارب المستويات التي يظهرها الجدول (رقم ٧) ·

ولم تقبل الولايات المتحدة مطلقا بوجهة نظر « ماتمون ب » من حيث التهديد او من حيث متطلبات دعم القوة الاسرائيلية · ولكنها في الوقت نفسه لم تستوعب الاختلافات النوعية بين القوات الاسرائيلية والعربية ، واختارت بدلا من ذلك ان تحدد متطلبات الدعم استنادا على تقدير الولايات المتحدة لمستقبل القوة العسكرية لدول المواجهة العربية ، اي للتهديد الرئيسي لاسرائيل · ولم يتم الاعلان عن هذه المخططات التي توصلت اليها الولايات المتحدة في شحنات الاسلحة لاسرائيل ، والناتجة عن هذه التقديرات ، وتمت عملية اعادة تفاوض بخصوصها ، ورغم ذلك فانها لا تزال شيئا لا يصدق · كما يظهر الجدول (رقم ٩) الخاص بتقدير متطلبات المساعدة العسكرية الموضوع على اساس تحليل الولايات المتحدة لميزان القوى ·

ولكي تتضح لنا الصورة الفعلية لهذه المتطلبات ، نقول ان اسرائيل تريد نفس عدد الدبابات المتوسطة تقريبا ، خلال ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦ ، الذي ستحافظ عليه الولايات المتحدة في الفرق الاميركية

الموجودة في حلف الناتو · ومن ثم لم يكن رئيس هيئة رؤساء الاركان المشتركة ، الجنرال جورج براون ، يلقي الكلام جزافا في ملاحظاته التي غالبا ما فسرت على نحو خاطىء حول الضغوط التي ستفرضها متطلبات اسرائيلية كهذه على تجهيز القوات الاميركية بالمعدات ومدى تأهبها القتالي · وليس من الواضح الى اي حد من الكميات الاسرائيلية المطلوبة ستتجاوب الولايات المتحدة، او كيف ستؤدي مشتريات الاسلحة العربية المتعددة الى تعديل قوة دول المواجهة · ولكن تقديرا متحفظا يوضح ان اسرائيل قد تتمكن من التوصل الى تكافؤ تقريبي مع مصر وسوريا في قوتهما البرية معا · وان لدى اسرائيل حاليا حواجز دفاعية وخطوط دفاع حقيقية ، على خلاف تلك الدفاعات « الورقية » التي كانت تمتلكها قبل حرب اكتوبر · وهذا سيزيد الى حد بعيد من قدرة اسرائيل الهجومية·

الرصاصات الهجومية في مواجهة الدفاعية

ولا توجد بالطبع طريقة سهلة لتقرير متطلبات الدعم الاميركي لاسرائيل ، او لوضع تمييز ذي معنى بين الاسلحة « الهجومية » و « الدفاعية » · لانه حتى حاجز دفاعي محصن انما يحرر القوات للمهام الهجومية · وان طائرة بعيدة المدى يمكنها ان تقصف حشود قوات معادية في المؤخرة ، ويمكنها « دفاعيا » ان تحطم هجوما للعدو ، كما يمكن استخدامها لمساندة هجوم مدرع داخل اراضي العدو ·

ان المعضلة في كيفية تحديد الدعم الاميركي لاسرائيل ليست بالتالي نوع الاسلحة ، وانما :

● فيما لو ان المساعدة الاميركية الى « قوات الدفاع الاسرائيلية » تتناسب مع المساعدة العربية والسوفييتية لدول المواجهة ·

● فيما لو ان كمية الاسلحة تتجاوز ما هو ضروري للدفاع الاسرائيلي ·

● فيما لو يتم توفير حركية زائدة للحركة الهجومية الاسرائيلية ·

● فيما لو يتم توفير القدرة « لقوات الدفاع الاسرائيلية » على اجتياح العدو ودفاعاته ·

● فيما لو يتم توفير قدرة تفوق المطلوب لسلاح الطيران الاسرائيلي لاسكات الدفاعات الجوية المعادية ·

● الى اي حد يؤثر الدعم على قدرة « قوات الدفاع الاسرائيلية » في تنفيذ اختراقات برية وجوية في عمق المناطق المعادية ·

● الى أي مدى من الحرية تستطيع اسرائيل الاعتماد على اعادة الامداد الاميركي ، وعلى دعم القوى الكبرى ·

وحاليا لا تتوفر طريقة للقيام بمثل التقدير في ضوء المعطيات المتوفرة حول المساعدة العسكرية الاميركية · لان ذلك يتطلب توفر معطيات عن شحنات الاسلحة ، والمعلومات المعلنة تظهر فقط الكميات بالدولارات، وهي معطيات تعطي منظورا ضيقا لاثر الدعم الاميركي على ميزان القوى ·

وبلغة الدولارات يبدو برنامج الدعم الاميركي لاسرائيل ليس متحيزا لها بشكل ضخم ، لانه على الرغم من حصول اسرائيل على مساعدات ضخمة بعد حرب اكتوبر ، فان الاردن ايضا حصل على مساعدات هامة ، كما انه تم في الفترة بين ١٩٥٠ و١٩٧٦ شحن معدات عسكرية ومساعدة الى العربية السعودية تبلغ قيمتها تقريبا ضعفي قيمة المعدات التي شحنت الى اسرائيل· وقد سلمت معظم هذه المساعدات في السنوات القليلة الماضية ، كما اعلنت الولايات المتحدة مؤخرا عن مبيعات اسلحة

تبلغ قيمتها ٢٥٠ مليون دولار لمصر · وبالاضافة الى ذلك ، فان مبيعات الاسلحة الاميركية الى اسرائيل تشكل جزءا محدودا نسبيا من اجمالي مبيعات الاسلحة الاميركية في العالم · ولكن ، التقديرات السابقة لميزان القوى توضح ان الدعم الاميركي للدول العربية لن يكون له سوى تأثير ضئيل على الفاعلية العربية · كما ان كميات الاسلحة التي تكشفها الجداول المذكورة توضح ان الدعم الاميركي المخطط سيذهب الى مدى أبعد بكثير من ضمان أمن اسرائيل · وعلى نحو اكثر تحديدا ، فانه يظهر ان الولايات المتحدة ستخلق « اسرائيل » تتمتع بكل القدرات اللازمة لشن حرب هجومية ·

● فسوف يكون لاسرائيل الاسلحة الكافية لتغطية الجبهة الاردنية وفي الوقت ذاته شن هجوم على سوريا ومصر · انها ستحصل بذلك على قدرة خوض حرب سريعة وانزال الهزيمة بالجيوش العربية قبل ان تتمكن القوى العظمى من التدخل ·

● وسوف يكون لاسرائيل كل الحركية اللازمة للمشاة والمدفعية لاختراق الجيوش العربية او الالتفاف حولها ، وتطويقها وتدميرها بالكامل ·

● التطويرات التي جرت في قوة المدفعية الاسرائيلية والقوة الهجومية الجوية ستسمح « لقوات الدفاع الاسرائيلية » باسكات الدفاعات العربية المضادة للدبابات وانظمة الدفاع الجوي العربية ·

● وسوف تتيح التطويرات التي تمت في كل من المعدات والتخطيط الاسرائيلي استخداما فعالا للوسائل الاميركية المضادة للالكترونيات والذخيرة الدقيقة التوجيه ، والاسلحة المضادة للدبابات وغيرها من العديد من التطويرات في التكنولوجيا العسكرية الاميركية التي جرت عقب ١٩٧٣ ، والتي لا تظهر في اي جداول لميزان القوى ·

● وقد ازالت الحركية والانظمة اللوجيستيكية الاسرائيلية نقاط الضعف التي كانت قائمة في قدرات الاسناد اللوجيستيكي بعيدة المدى في العام ١٩٧٣ · ولدى اسرائيل حاليا ايضا معدات الهندسة القتالية اللازمة للتحرك بسرعة عبر القناة والموانع البرية ·

● وان اسرائيل تمتلك حاليا ما قدره ٣٠ يوما من الذخيرة على الاقل · ومن المرجح ان يكون لديها اكثر من ذلك بكثير · وان كل شحنة اسلحة اميركية جديدة تحرر اسرائيل من الاعتماد على اعادة الامداد الاميركي · وهذا يخفض باستمرار من قدرة الولايات المتحدة على التحكم في الممارسات الاسرائيلية ·

وعلى النقيض ، فان العرب في وضع مغاير كثيرا · فسوريا غارقة في لبنان · والجيش المصري حصل فقط على حد ادنى من اعادة الامداد بالاسلحة منذ العام ١٩٧٤ ، والكثير من معداته شارف على نهاية خدمته العملية ، او اصبحت ذات قيمة عملياتية مشكوك فيها · وليبيا والعراق اكثر بعدا عن دول المواجهة عما هو معتاد · لقد تحسن العرب على وجه التأكيد منذ ١٩٧٣ ، ولكن بالسرعة التي تحسنت بها اوضاع اسرائيل ·

« الميزان النقدي »

وتصبح هذه الاتجاهات اكثر وضوحا لصالح اسرائيل عندما نقوم بمقارنة نفقات الدفاع والمساعدات العسكرية التي يحصل عليها كل طرف · وان مقارنات كهذه توفر مقياسا افضل للاتجاه الشامل في القدرة العسكرية عن تقديرات تزايد

الاسلحة غير الدقيقة المتوفرة ، وتتضمن هذه التقديرات الموارد التي تذهب الى عوامل كالتدريب ، والتأهب ، والقيادة ، والسيطرة ، واللوجيستيك ، والحواجز الدفاعية وغيرها من العوامل غير الملموسة ٠

لقد انتقلت اسرائيل من موقع ادنى من الدول العربية بنسبة ٢ الى ١ في نفقات الدفاع على القوات الحاضرة الى ميزانية دفاع اكبر بكثير من ميزانية خصومها العرب الرئيسيين مجتمعين ٠ وتعد هذه الارقام اكثر تأثيرا عندما نتذكر ان اسرائيل تنفق اموالها بفاعلية اكبر من الدول العربية ٠

لقد انتقلت اسرائيل من مجتمع كان ينفق ما بين ٨ و ١٣٪ من اجمالي ناتجه القومي على الدفاع في فترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ الى مجتمع انفق ما بين ١٧ الى ٣٠٪ في فترة ٦٧ ـ ٧٣ ، وهي الآن تنفق حوالي ٤٥٪ منه ٠ وحققت اسرائيل مستويات في القوة البشرية القابلة للتعبئة تقارب مستوى مصر تقريبا ، رغم ان عدد سكان مصر يفوق عدد سكان اسرائيل بكثير ٠ وهذا تورط لا يصدق بالنسبة لاي مجتمع ٠

كما حصلت اسرائيل ايضا على دعم عسكري اكثر من ذلك الذي حصلت عليه دول المواجهة العربية ٠ فالمساعدة العسكرية الاميركية لاسرائيل اكبر بكثير من الدعم السوفييتي للدول العربية بعد حرب اكتوبر ، وكمية اكبر من الدعم الاميركي كانت على شكل هبات منه على شكل قروض ٠ ويبدو ان هذا الوضع سيستمر على الاغلب الا اذا بدأت دول النفط العربية في تنفيذ وعودها لمصر ، وسوريا ، والاردن ٠ ومما يؤسف له ، ان نفقات الدفاع هذه ، ومتطلبات الدعم الاسرائيلية من الولايات المتحدة الناتجة عنها ، هي ثمرة لا يمكن تجنبها لتأكيد اسرائيل الراهن على تطوير القدرة العسكرية لتحقيق « حلول حاسمة » في هزيمة القوات العربية وتدميرها قبل ان تتمكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي من التدخل ٠ وهي ايضا ثمرة التركيز الاسرائيلي على التهديد العربي الشامل ، وافتقاد الرغبة في الاخذ بعين الاعتبار نقاط الضعف النوعية الرئيسية في القوات العربية او مواجهة المسؤولية السياسية في الاعتراف بسوء استعداد اسرائيل للحرب في العام ١٩٧٣ ٠ ومن الامور شبه المؤكدة ان اسرائيل قادرة على تخفيض جدي لنفقات الدفاع هذه اذا كانت راغبة في القبول بموقف دفاعي ، وان المتطلبات للدعم الاميركي يمكن ان تخفض الى حد ابعد اذا ما اخذت نقاط الضعف العربية ودرجة التجديد لدى القوات العربية في فترة ما بعد الحرب في الاعتبار ٠ وهناك بعض الاسرائيليين على الاقل يشاركون في الرأي بأنه يمكن اجراء تخفيض في نفقات الدفاع والمساعدات دون الاعتماد على استراتيجية نووية ، كما اقترح « ديان » ٠ فلقد لاحظ « ابراهام شفاتيرز » في تعليقه على آراء « ديان » ان « ما هو مهم في هذا المبدأ ليس بالضرورة كل تفضيل ٠٠٠ اذا تأملنا في « الجبر » الذي يتضمنه اقتراح « ديان » ، في مواجهة « الحساب » ، فاننا نحصل على المعادلة التالية :

تخفيض في حدة الصراع الى مستوى مقبول (عبر تنازلات في الارض لسوريا ومصر) كرادع ذو مصداقية ضد الحروب الشاملة زائد ان خوض حرب غير شاملة يساوي امنا معقولا بثمن معقول ٠ والمعادلة يمكن ان تتوازن بالدرجة نفسها اذا ٠٠٠ كانت المصداقية لا تستند على الاسلحة النووية وانما على حلف دفاعي مع الولايات المتحدة » ٠

« بيريز ورابين ضد بيغن »

وهذه الاتجاهات في الدعم الاميركي يمكن ان تكون قد مثلت مخاطرات عسكرية ضئيلة في ظل حكم « رابين » او « بيريز » ، ويمكن ان تكون قد ساهمت في السلام · ولقد اعتبر الرأي العام الاسرائيلي ان ضعف « رابين » وتردده في اتخاذ القرارات قد نجم جزئيا عن خوف الحكومة الاسرائيلية في ان تكون تابعة ، ووحيدة بالاضافة الى خوفها من الكثافة العربية · كما خشيت اسرائيل من محاولة اميركية للحلول محل السوفييت في الدعم العسكري للعرب · ومن ثم كان الامداد الاميركي المفرط بالمعدات العسكرية يعد تعويضا معقولا للمرونة في المفاوضات · ولقد اعلن السادات انه لا يمانع اي مستوى من الدعم تحصل عليه اسرائيل طالما ان ذلك يحسن المناخ للمفاوضات ·

بعد سقوط رابين ، اعتبر معظم الخبراء الاميركيين ان بيريز يمتلك القوة للحلول محله كرجل يثق فيه الجيش والشعب للتفاوض · وكان بامكان بيريز ، كمحافظ ، ان يتقرب تدريجيا من منظمة التحرير ، ويقدم التنازلات في مرتفعات الجولان التي تسمح بها قوة اسرائيل العسكرية المتزايدة · ولكن اسرائيل اختارت بيغن ، واسرائيل مناحم بيغن ليست اسرائيل اسحق رابين او شمعون بيريز · بيغن سياسي بارع ، ولكنه ايضا قائد رجال عصابات قاس قبل تشكيل دولة اسرائيل ، وتأييده الشديد لاسرائيل كبرى ، تضم اراض عربية ، يروق للمجموعات الدينية المحافظة وجماهير الاسرائيليين غير الاوربيين الذين يقعون في الطرف الادنى من الهرم الاقتصادي ، والكتلة الكبيرة من الاسرائيليين المهتمين بأمن الدولة المستقبلي · ويمكن ان يكون انتخابه قد حول استعداد الولايات المتحدة لامداد اسرائيل بالسلاح الى مشكلة امن قومي رئيسية ·

الانجراف نحو عائق « دائم »

ان من المبادىء الدبلوماسية المعروفة ان الامم ليس لها تحالفات دائمة ، وانما هنالك مصالح دائمة · وفي الحقيقة ، ليس للولايات المتحدة مصالح دائمة في اسرائيل ، وانها يمكن ان تكون الآن تحصل على شيء يقارب العائق امام مصالحها الى حد خطير · اذ انه يمكن ان يكون انتصار ليكود قد ربط الولايات المتحدة في حلف مع اسرائيل ينتهك المبادىء التقليدية للسياسة الواقعية والجغرافية السياسية ·

ومع ذلك ، فان هناك ثلاثة اسباب رئيسية لعدم اقدام الولايات المتحدة على تغيير سياستها وقطع مساعداتها عن اسرائيل كرد فعل لانتخاب بيغن وهي : الاخلاقية ، التاريخ ، والسياسة الداخلية·

والسبب الاخلاقي يتعدى كثيرا مسألة عزل اسرائيل الاستراتيجية ووصفها كديمقراطية « صغيرة » · فالغرب يسيطر عليه شعور جماعي بالذنب تجاه « معسكرات الابادة الجماعية » التي نظمتها المانيا النازية ، والولايات المتحدة لديها شعور خاص بالذنب في هذا الصدد نظرا لموقفها اللامبالي تجاه المصاعب التي واجهها اليهود الاوروبيون قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها في بعض الاحيان· والسبب التاريخي تشكل نتيجة للقلق الاميركي في فترة ما بعد الحرب عن هذا الشعور بالذنب ، وعن عزلة اسرائيل ، ووضعها العسكري الذي كان سيئا ، فقد اضحت الولايات المتحدة هي الحامية الحتمية تقريبا لاسرائيل بعد انهيار قوة بريطانيا وفرنسا في الشرق الاوسط ·

وادى هذا بدوره الى وضع اصبحت فيه اسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة في الحصول على المعدات والامدادات العسكرية ، وهذا الاعتماد يربط الولايات المتحدة حاليا باسرائيل بواجبات اخلاقية اضافية ٠

وان الضغوط السياسية الداخلية هي ثمرة الاخلاقية ، والتاريخ ، وانحياز العديد من اليهود الاميركيين الى جانب اسرائيل ٠ وهذا الانحياز هو نتيجة عوامل ثقافية ودينية ، وهو ايضا تراث « معسكرات الابادة الجماعية » والتعرض لمعاداة السامية ٠ وهو انحياز خلق من الخوف والعاطفة بالاضافة الى روابط عرقية طبيعية ٠

وتربط هذه العوامل الثلاثة ، مجتمعة، الولايات المتحدة حاليا بما كان سيعتبر واحدة من العلاقات الاستراتيجية غير المرغوب فيها الى مدى بعيد في التاريخ ، لولا تلك العوامل ٠

والادارة الاميركية ذات قدرة محدودة في مرونتها ٠ ففي الكونغرس واحدة من اكثر مجموعات « اللوبي » فاعلية في السياسة الاميركية ٠ ومن شبه المؤكد ان هذه المجموعة كانت من الاسباب التي دفعت الرئيس الاميركي كارتر مؤخرا للقول بأن الولايات المتحدة لن تستخدم المساعدة العسكرية لممارسة الضغط على حكومة بيغن ، وليست هي مصالح الولايات المتحدة ٠

● الكونغرس اقل قدرة من الادارة الاميركية على تغيير سياسة الولايات المتحدة ، وهو متردد كثيرا في البحث في الدعم الاميركي لاسرائيل بتفصيل واقعي٠

● الجماعة الاميركية اليهودية ـ او ذلك الجزء غير المحدد فيها الذي يرغب في تعريف نفسه بكونه سياسيا مؤيدا لاسرائيل ـ تبدو مصممة ان يكون رد فعلها مبنيا على الخوف بدلا من الفكر ٠ فانها ليس فقط لا تدرس العلاقات الاميركية الاسرائيلية باستقلالية كافية ، وانما هي ايضا ميالة الى المغالاة في رد الفعل امام اية محاولة للقيام بذلك من قبل آخرين ، وبعض المجموعات اليهودية الاميركية المتطرفة تبدو دائما مستعدة لاستخدام معاداة السامية و « الابادة الجماعية » كعصا معنوية ٠

وهذا الشلل هو ايضا حلقة مفرغة ٠ فانه يتطلب الكثير من الشجاعة المعنوية من قبل الادارة لممارسة ضغط على اتجاهات بيغن العسكرية ، دون دعم الكونغرس او اليهود الاميركيين ٠ ويمكن للكونغرس ان يتقبل قيادة الادارة (ولكنه نادرا ما يسبقها) ، وهو اكثر تعرضا للضغوط السياسية من اليهود الاميركيين٠ واليهود الاميركيون ، عادة ، هم من اكثر المجموعات السياسية في الولايات المتحدة ثقافة ومعرفة ٠ غير انهم في هذه الحالة يفتقدون القيادة والمعلومات عن الادارة والكونغرس ٠

ولسوء الحظ ، فان بيغن على الاغلب يعرف كيف يستغل الشلل الاميركي كأي سياسي في التاريخ الاسرائيلي ٠ كما انه يبدو مفتقدا الى الروح العملية والتحفظ اللذين يتميز بهما بيريز ٠ وعلى حين كانت اكثرية عمالية تعني غالبا انه سيكون هناك حدود حادة لمدى تجاوزات اسرائيل في علاقاتها بالولايات المتحدة ، فان تصريحات بيغن العلنية اظهرت بوضوح انه ينوي اساءة استخدام التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي ليحكم السيطرة بشكل دائم على مدن واراضي الضفة الغربية ، التي لا تبدي اي رغبة في ان تكون جزءا من اسرائيل ٠

ولسوء الحظ ، فان بيغن يمكن ان

يذهب الى ابعد من ذلك بكثيـــر ، وان يحاول فعليا التوصل الى التدميـــــر السياسي والعسكري لمنظمة التحريـــر ايضا · وعلى حين ان بيغن يمكن له ان يدمر او لا يدمر اول امل حقيقي لاسرائيل في السلام اثناء قيامه بذلك العمل ، فانه قد بدأ فعلا في الحاق الضرر بشكل جدي بالمصالح الاميركية ·

جدول رقم (١)

نتيجة حرب ١٩٤٨

١ ـ القوى التقريبية ١٥ ايار ١٩٤٨		القوات الميدانية المتواجهة (١) تشرين الاول ١٩٤٨
اسرائيل	٣٤ر٤٠٠	٤٥ر٠٠٠ (٢)
العـــرب	٤٢ر٠٠٠	٥٥ر٠٠٠ (٣)
جيش التحرير العربي	٥ر٥٠٠	٣ر٠٠٠
جيش الانقاذ	٥ر٠٠٠	٥ر٠٠٠
لبـــنان	٢ر٠٠٠	٢ر٠٠٠
سوريا	٥ر٠٠٠	٥ر٠٠٠
الاردن	٧ر٥٠٠	١٠ر٠٠٠
مصـــر	٧ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠
العـــراق	١٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠

ب ـ تقديرات الخسائر

	قتـلى	جـرحى	المجموع
اسرائيل	٦ر٠٠٠	١٥ر٠٠٠	٢١ر٠٠٠
العـــرب	١٥ر٠٠٠	٢٥ر٠٠٠	٤٠ر٠٠٠

(١) استثني وحدات الدفاع الوطني الاسرائيلية والفلسطينية

(٢) ٩٠ الـف معبأيـن وتحـت السـلاح

(٣) المصـــدر : دوبـوي ، النصـــر المتملـــص

جدول رقم (٢)

نتيجة حرب ١٩٥٦
قـــوة القـوات البرية التقريبية
حملة السويس ـ سيناء ، ١٩٥٦

	مصر	اسرائيل	بريطانيا	فرنسا
القوات الميدانية	١٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	١٣٥٠٠	٨٥٠٠
دبابـــات	٥٣٠	٤٠٠	؟	؟
ناقلات جنود مدرعة	٢٠٠	٤٥٠	؟	؟
قطع مدفعية	٥٠٠	١٥٠	؟	؟
مدافع مضادة للدبابات		٠	؟	؟
ذاتيـة الحـركة	٥٠			
طائرات قتال	٢٥٥	١٥٥	٧٠	٤٥

تقديرات الخسائر
حملة السويس ـ سيناء ، ١٩٥٦

اصابات الافراد

	قتـلى	جرحى	اسرى/مفقودين	المجموع
مصر ضد اسرائيل	١٠٠٠	٤٠٠٠	٦٠٠٠	١١٠٠٠
مصر ضد الحلفاء	٦٥٠	٩٠٠	١٨٥	١٧٣٥
المجموع	١٦٥٠	٤٩٠٠	٦١٨٥	١٢٧٣٥
اسرائيل	١٨٩	٨٩٩	٤	١٠٩٢
بريطانيا	١٦	٩٦	٠	١١٢
فرنسـا	١٠	٣٣	٠	٤٣

خسائر الطائرات

اسرائيل		
مصـــر	١٥	
بريطانيا	٢١٥	(٢٠٠ على الارض)
فرنسـا	٤	
المصدر : دوبوي ، النصر المتلص	١	

جدول رقم (٣)

نفقات الدفاع كنسبة مئوية في اجمالي الناتج القومي

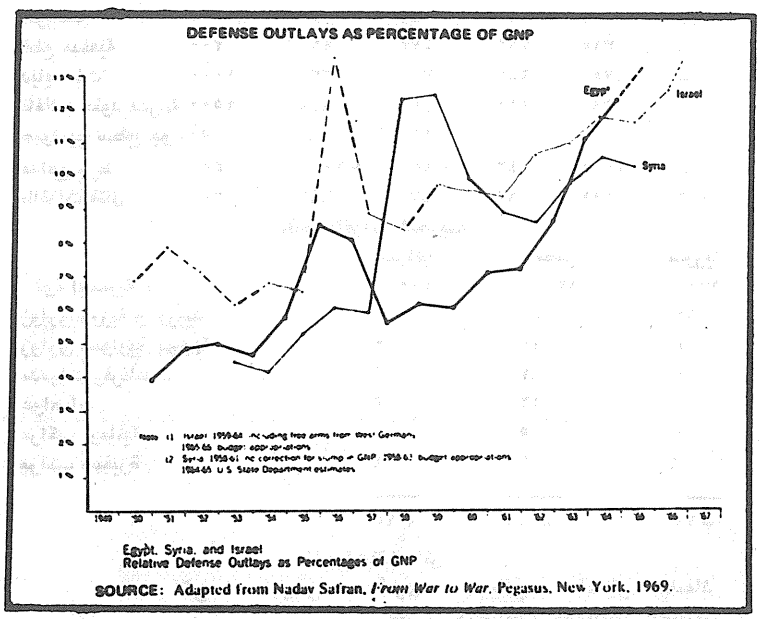

Egypt, Syria, and Israel
Relative Defense Outlays as Percentages of GNP

SOURCE: Adapted from Nadav Safran, *From War to War*, Pegasus, New York, 1969.

ملاحظة : (١) اسرائيل ١٩٥٩ ـ ٦٤ تضم الاسلحة دون مقابل من المانيا الغربية ١٩٦٥ ـ ٦٦ مخصصات الموازنة

(٢) سوريا ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ دون تعديل للانتقاص في مجمل الناتج القومي ١٩٥٨ ـ ٦١ مخصصات الموازنة

١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ تقديرات وزارة الخارجية الاميركية

مصر ، سوريا ، واسرائيل

نفقات الدفاع النسبية كنسبة مئوية في اجمالي الناتج القومي ·

المصدر : لقتبست من ناداق سافران ، من حرب الى حرب ، بيفاسوكه ، نيويورك. ١٩٦٩ ·

جدول رقم (٤)

نتيجة حرب ١٩٦٧

القوة التقريبية البرية والجوية

	اسرائيل	العرب	مصر	الاردن	سوريا	العراق
القـوة البشـرية	٢٥٠٠٠٠	٣٢٩٠٠٠	٢١٠٠٠٠	٥٥٠٠٠	٦٣٠٠٠	ـ
المعباة العملياتية						
الويـــة	٢٥	٤٢	٢٢	١٠	١٢	ـ
قطع مدفعية	٢٠٠	٩٦٠	٥٧٥	٢٦٣	٣١٥	ـ
دبابـــات	١٠٠٠	٢٣٣٠	١٣٠٠	٢٨٧	٧٥٠	ـ
ناقلات جنود مدرعة	١٥٠٠	١٨٤٥	١٠٥٠	٢١٠	٥٨٥	ـ
صواريخ سطح جو	٥٠	١٦٠	١٦٠	٠	٠	ـ
مدافع م/ط	٥٥٠	٢٠٠٠ +	٩٥٠	١٤٣	١٠٠٠	ـ
طائرات قتال	٢٨٦	٦٨٢	٤٣١	١٨	١٢٧	١٠٦

تقدير القوات البحريـة

	اسرائيل	مصر	سوريا
القوة البشرية	٤٠٠٠٠	١٣٠٠٠	١٠٠٠
زوارق دورية وطوربيد	٩	٤٤	١٧
زوارق صواريخ موجهة	٠	١٨	٤
مدمرات وفرقاطات	٣	٧	٠
غواصات	٣	١٢	٠
مراكب برمائية	٠	٥	٠
مراكب صغيرة	؟	؟	؟
	١٥ +	٨٦ +	٢١ +

تقديرات الخسائر

	قتلى	جرحى	اسرى مفقودين	اجمالي الاصابات	خسائر الدبابات	خسائر الطائرات
اسرائيل	٩٨٣	٤٥١٧	١٥	٥٥١٥	٣٩٤	٤٠
ضد مصر	٣٠٣	١٤٥٠	١١	١٧٦٤	١٢٢	
ضد الاردن	٥٥٣	٢٤٤٢	ـ	٢٩٩٥	١١٢	
ضد سوريا	١٢٧	٦٢٥	٤	٧٥٦	١٦٠	
العـرب	٤٢٩٦	٦١٢١	٧٥٥٠	١٧٩٦٧	٩٦٥	٤٤٤
مصر	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٤٩٩٠	١٢٩٨٠	٧٠٠	٣٥٦
الاردن	٦٩٦	٤٢١	٢٠٠٠	٣١١٧	١٧٩	١٨
سوريا	٦٠٠	٧٠٠	٧٥٠	١٨٧٠	٨٦	٥٥
العـراق	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٥

المصدر : دوبوي ، النصر المتلص

جدول رقم (٥)

نتيجة حرب ١٩٧٣

تقديرات القوات البـرية

	اسرائيل	مجموع القوات العربيه المشاركه	اجمالي القوة العربية
القوة البشرية			
المتوفرة في الجيش	٣١٠ر٠٠٠	٥٠٥ر٠٠٠	٦٥٠ر٠٠٠
فرق دبابات/مدرعة	٧	٥	٨
سرق مشاة/ميكانيكية	–	١١	١٨
الوية مستقلة	١٨	٤٦	٤٧
دبابات متوسطة	٢٠٠٠	٤٨٤١	٦١٣١
ناقلات جنود مدرعة	٤٠٠٠	٤٣٢٠	٥٨٧٠
مدفعية (تزيد عن ١٠٠ ملم)	٥٧٠	٢٠٥٥	٢٨٨٥
مدفعية صاروخية	–	٩٠	٩٠
هاونات (تزيد عن ١٠٠ ملم)	٣٧٥	+ ٦٥٠	+ ٦٥٠
منصات اطلاق صواريخ سطح ـ سطح	–	٤٢	٤٢
منصات اطلاق صواريخ سطح ـ جو	٧٥	١٢٨٠	١٢٨٠
صواريخ ستريلا	–	٣٠٠٠	٣٠٠٠
مدافع م/ط	١٠٠٠	+ ٣٦٥٠	+ ٣٦٥٠
صواريخ م/د موجهة	٢٨٠	١٢٠٠	١٢٠٠
قاذف م/د	٦٥٠	+ ٥٣٠٠	+ ٥٣٠٠
مدافع م/د	–	+ ٢٢٠٠	+ ٢٢٠٠

تقديرات خسائـر

	القوات البريـة اســـرائيل	مجموع العرب
الافراد قتلى	٢٨٣٨	٨٥٢٨
جرحى	٨٨٠٠	١٩٥٤٩
اسرى او مفقودين	٥٠٨	٨٥٥١
دبابـات	٨٤٠	٢٥٥٤
ناقلات جنود مدرعـة	٤٠٠	+ ٨٥٠
قطع مدفعيـــة	؟	+ ٥٥٠
بطاريات صواريخ سطح ـ جـو	—	٤٧
طائرات	١٠٢	٣٦٠
هليكوبتر	؟	٥٥
مراكب بحريـــة	١	١٥

جدول رقم ٦

ممتلكات المعدات العسكرية الرئيسية في الشرق الاوسط

	اسرائيل			
	قبل اكتوبر ٧٣	خسائر اكتوبر ٧٣	مجموع ١٩٧٦	قبل اكتوبر ٧٣
دبابات متوسطة	١٧٠٠	[٨١٠	٢٢٦٠	١٥٠٠
عربات مدرعة	٣٠٠٠	[	٣٣٠٠	١١٠٠
مدفعية ميدان	٥٥٠	غ٠م٠	٧١٠	٩٠٠
غواصات	٣	٠	٢	—
مدمرات	١	٠	٠	—
زوارق صواريخ	١٣	٠	١٨	٨
قاذفات	١٢	٠	١٠	غ٠م٠
قاذفات مقاتلة	٣٠٨	٧٩	٣٨٠	١١٠
طائرات معترضة	٥٩	١١	٤٧	٢٠٠
طائرات استطلاع	٦	٠	٦	—

غ٠م٠ : الرقم غير متوفر

المصدر : المسح الاستراتيجي : ١٩٧٤ لندن : المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ، ٧٥

جدور رقم ٧

تقديرات اوضاع القوة الاسرائيلية المستهدفة

	١٩٧٦	تقديرات ١٩٨٠	تقديرات ١٩٨٦
فرق مدرعة	٨	١١	١٣
ألوية ميكانيكية	٩	١٠	١٢
دبابات	٢٢٠٠	٣٣٠٠	٥٠٠٠
ناقلات جنود مدرعة	٣٣٠٠	٩٢٠٠	١١٠٠٠
صواريخ موجهة م/د	١٠٠	٥٠٠	٩٠٠
كتائب صواريخ سطح سطح		٤	٦
كتائب مدفعية	٣٠	٤٠	٥٠
طائرات قتال نفاثة	٥٥٠	٦٥٠	٧٥٠
هليكوبتر هجومية		٣٠	٨٠
طائرات نقل	٦٠	٩٠	١١٠
بطاريات صواريخ سطح جو	١٥	٣٠	٥٠
زوارق صواريخ	١٨	٢٤	٣٠

المصدر : التقييمات التحليلية

سوريـــــا		مصـــــر		
خسائر اكتوبر ٧٣	مجموع ١٩٧٦	قبل اكتوبر ٧٣	خسائر اكتوبر ٧٣	مجموع ١٩٧٦
[	١٩٥٠	١٨٥٠	[	١٩٢٠
	١٠٥٠		٩٠٠	
[	١١٥٠	٢٠٠٠	[	٢٥٠٠
غ٠م٠	٨٠٠	١٤٠٠	غ٠م٠	١٥٠٠
—	—	١٢	٠	١٢
—	—	٥	٠	٥
٥	٦	٩	٣	١٦
٠	غ٠م٠	٣٠	٠	٣٠
[	١٥٠	١٨٠	[	١٤٠
	١٦٥		١٨٢	
[	٢٥٠	٢١٠	[	٢٥٠
—	—	—	—	—

جدول رقم (٨)

متطلبات اسرائيلية توضيحية
لانظمة الاسلحـــة الاميركيـــة : ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦

الـدروع والمدفعية	١٩٧٦	اضافية حتى العام ١٩٨٠	اضافية حتى العام ١٩٨٦
دبابات متوسطة (م ـ ٦٠ ، اكس ام ـ ١)	٥٤٠	١٨٠٠	٩٠٠
قاذفات صواريخ م/د (تاو)	٣٠٠	٣٠٠	٣٠٠
مدافع هاوتزر (م ـ ١٠٩ ١٥٥ ملم ، ١٧٥ملم)	١١٠	٤٥٠	٢٢٥
ناقلات جنود مدرعة (م ـ ١١٣ ١)	٥٠٠	٥٩٠٠	٢٨٠٠
طـــائرات			
ف ـ ٤ (فانتوم)	٥٠	٢٥	—
أ ـ ٤ (سكايهوك)	٢٠٠	—	—
ف ـ ١٥ (ايفل)	١٥	٣٥	—
ف ـ ١٦	—	—	٢٠٠
هليكوبتر (كوبرا ، الخ)	٢٠	١٠٠	١٥٠
طائرات نقل (ك سي ـ ١٣٥ ، ك سي ـ ١٣٠ الخ)	٢٥	٧٥	٢٥
صواريـــخ			
بطاريات سطح ـ جو (هوك ، تشابارال، سام ـ د (١)	١٥	٢٠	٣٠
كتائب / صواريخ سطح ـ سطح (لانسي)	—	٤٠٠/٤	٤٠٠/٤
سفن ومراكب بحرية			
زوارق صواريخ	—	٦	٥
سفـن اخـرى	—	٢	—

(١) تفترض حلول سام ـ د محل هوك ـ ١ وهوك ٢ مع العام ١٩٨٦

المصدر : التقييمات التحليلية .

جدول رقم (٩)

	تقدير ميزان القوى العربي الاسرائيلي				
	اســـــرائيل		مصـر وسوريـــا		
	تقديرات (أ)	محتمل (ب)	تقديرات (أ)	اسوا حالة (ج	
القوة البشرية الاجمالية	٢٠٠ر٤٨٧	–	٦٨٢٤٠٠	–	
القوات البرية					
القوة البشرية الاجمالية	٠٠٠ر٤٥٠		٥٩٣٠٠٠		
دبابات متوسطة	–	٣٢٤٠ـ٥٠٤٠	٥١٨٠	٥٧١٠	
مدفعية (١٠٠ ملم +)	–	٦٧٢ ـ ١١٢٠	٢٥٢٠	٣١٠٠	
ناقلات جنود مدرعة	–	٩٢٤٠ـ١٠٠٠٠	٤٤٤٠	٤٩٠٠	
صواريخ موجهة م/د	٥٠٠	٦٠٠ ـ ٩٠٠	١٩٠٠	–	
منصات اطلاق صواريخ/صواريخ سطح سطح ٢٤/		–	١٢٧٠/٧٦	/٩٩	
بطاريات/ منصات اطلاق صواريخ سطح جو ٣٠/١٨٠	٣٠	ـ ٥٠/	١٦٥٦/٢٧٦	١٨٢٤/٣٠٤	
مدافع م/ط	١١٨٠	–	٥٠٠٠	–	
سلاح الجـــو					
القوة البشرية الاجمالية	٠٠٠ر٣٠	–	٦٦٠٠٠	–	
طائرات قتالية نفاثة	٦٥٠	٧٥٠	١١١٤	١٤٥٠	
طيارين	١٠٠٠	١٢٠٠	١٦٥٠	–	
طائرات استـطلاع	١٢	–	٣٢	–	
البحريـــة					
اجمالي القوة البشرية	٧٢٠٠	–	٢٣٤٠٠	–	
مدمرات وفرقاطات	٢	–	٥	١٠	
زوارق صواريخ	٢٤	٢٩	٣٢	٤٢	
غواصات	٣	٥	١٢	١٢	

(أ) التقديرات تستند على أرقام الميز ان العسكري : ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ (لندن : المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ،

(ب) الارقام المحتملة لاسرائيـــل تتضمن مستويات عالية من الانتاج من برامج انتاج الاسلحة المحلية ٠

(ج) تقديرات اسوأ حالة مبنية على زيادات خطية على تقديرات ١٩٨٠ ٠ (د) تضم افراد الدفاع الجوي ٠

جدول رقم ١٠

برامج المساعدة الاميركية والسوفياتية للشرق الاوسط : ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥
(بملايين الدولارات الاميركية)

	المساعدة الاميركية	المساعدة السوفياتية	
	لاسرائيل	لمصـر	لسوريـا
هبـــات	١٥٥٠	١٥٠	٢٥٠
قـــروض	٩٨٣	٤٨٥	٨٦٥
المجمـوع	٢٥٣٣	٦٣٥	١١١٥

المصدر : مخصصات وزارة الدفـــاع للسنة المالية ١٩٧٦ (هـ ٠ ر ٠ ٩٨٦١) ، الجلسة الاولى للجنة المخصصات فـــي مجلس الشيوخ الاميركي ، الكونغرس الـ٩٤ (١٩٧٥) ، ومبيعات الاسلحة الخارجية وحقائق المساعدات العسكرية (نوفمبـر ١٩٧٥) ، مراقب ادارة البيانات ، دس ٠٩٩

١٩٨٠						
مصـــر		سوريـــا		الاردن		
تقديـرات (أ)	اسوأ حالة (ج)	تقديرات (أ)	اسوأ حالة (ج)	تقديرات (أ)	اسوأ حالة (ج)	
٤١٠٠٠٠		٢٧٢٤٠٠		٧٥ر٠٠٠		
٣٥٣٠٠٠ (د)		٢٤٠٠٠٠		٦٧١٠٠		
٢٤٢٠	٢٦٧٠	٢٦٧٠	٣٠٤٠	٥٤٠	٦٠٠	
١٥٦٠	١٩٠٠	٩٦٠	١٢٠٠	٢٥٠	٤٦٠	
٣٠٠٠	٢٣٠٠	١٤٤٠	١٦٠٠	٥٣٠	٨٨٠	
١٢٠٠	–	٧٠٠	–	–	–	
٦٠٠/٣٦	/٤٤	٦٧٠/٤٠	/٥٠	–	•	
١٢٠٠/٢٠٠	١٣٢٠/٢٢٠	٤٥٦/٧٦	٥٠٤/٨٤	–	٣٦/٦	
٣٠٠٠٠	–	٢٠٠٠		٢٢٠	٤٠٠	
٣٦٠٠٠	–	٣٠٠٠٠ (د)	–	٧٣٠٠	–	
٥٨٦	٧٦٠	٥٢٨	٦٩٠	٧٦	١٣٠	
٩٠٠	–	٧٥٠	–	١٨٠	–	
١٢	–	٢٠	–	٤	–	
٢١٠٠٠	–	٢٤٠٠	–	٢٧٥		
٥	٨	٠	٢	٠	٠	
١٦	٢٤	١٦	١٨	١٢	١٥	
١٢	١٢	٠	٠	٠	٠	

١٩٧٦) افيـــاشن ويك انـــد سبيس تكنولوجي ٠

المصدر : التقييمات التحليلية

المساعدة السوفياتية / الاميركية

المجموع	
٤٠٠	٢٦ ٪
١٣٥٠	١٣٧ ٪
١٧٥٠	٦٩ ٪

ترجمة وتقديم : محمود عزمي

شهريات

المناطق المحتلة

النشاط الاستيطاني

طغت على النشاط الاستيطاني مؤخرا خلافات بين جوش ايمونيم وحكومة الليكود ، ما لبثت بعد ذلك ان وجدت لها حلا يتمثل في الاتفاق على اقامة ست مستوطنات تخص جوش ايمونيم حتى نهاية هذا العام ضمن معسكرات الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية · وقد جرى في هذه الفترة ايضا الاحتفال بتدشين مستوطنة في سيناء ، وعد مناحيم بيجن بالاقامة فيها بعد اعتزاله الحياة السياسية ! كما ووافقت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان على تعزيز المستوطنات في المناطق المحتلة بمشاريع صناعية ·

عقب فوز الليكود في الانتخابات الاخيرة استبشر جوش ايمونيم خيرا ، الا ان واقع مجيء الليكود حمل بين ثناياه الى جانب تباشير الامل بتحقيق ما يريدهجوش ايمونيم اضعافا لقوته· ذلك ان ال «جوش» ظهر عقب حرب اوكتوبر كرد فعل على ظهور مشروع التسوية وما يحمل في طياته من احتمالات للتنازل عن مناطق عربية ، وانضوى تحت لوائه جماعات متطرفة تعود اصولها الى الشريحتين اليمينية والدينية · ولم تكن قوته تكمن في حجمه او نشاط اعضائه بقدر ما تكمن في القوى السياسية الداعمة له ، والتمزقات الداخلية التي كانت تعصف بحزب العمل، فقد استمد قوته من الليكود بشكل علني ، والحزب الوطني الديني المفدال بشكل ضمني « وعلى استحياء » لكونه شريكا في الائتلاف الحكومي الذي يقوده التجمع العمالي ، كما ان الصراع بين بيرس ورابين ، واستغلال بيرس للجوش اكثر من مرة ، كاحراج لرابين ، صب ايضا في قوة جوش ايمونيم ·

ومع انتصار الليكود وتسلمه الحكم في اسرائيل ، تراجعت قوة الجوش ، وغدت محدودة الوزن في خريطة القوى السياسية الاسرائيلية · وعلى الرغم من ذلك فانه وجد في انتصار الليكود الامل بالبدء بنشاط استيطاني واسع في المناطق المحتلة خاصة وان الطرفين ينطلقان من ارضية سياسية واحدة · الا ان الخلافات بدأت تظهر بينهما بعد وقت قصير حول مسألة التنفيذ · فالليكود ، كسلطة ، اخذ يشدد على مبدأ الاستيطان ، ويخضع التنفيذ ، للاعتبارات السياسية والدولية ، وفق رؤيته ، واختلف الجوش معه في مسألة التنفيذ ، مديرا ظهره لاية اعتبارات سياسية ، بصيغة حركة شعبية ، ولدت بالاساس كرد فعل على « الاعتبارات السياسية » التي تمخضت عنها حرب أوكتوبر ·

ومن الواضح ان الليكود ، خلافا لحزب العمل ، لا يجد صعوبة تذكر في التغلب على جوش ايمونيم ، الا ان مشاركته له في اعماله منذ العام ١٩٧٤ ؛ وتعاطفه معه من حيث المبدأ ، يحولان دون التصدي له · وقد حاول الليكود استرضاء الجوش واخضاعه لقرارات الحكومة ، من خلال الاعتراف بالمستوطنات التي كان قد اقامها بشكل « غير شرعي » ابان حكم التجمع العمالي ، ودفع مبلغ ست ملايين ليرة لجوش ايمونيم ! واقامة عدد من المستوطنات في المناطق خلال الفترة القصيرة من حكمه ، بيد ان ذلك لم يرض الجوش بما فيه الكفاية ، حيث اخذ ينتقد الحكومة ويعلن انه سيقيم ١١ مستوطنة في يوم واحد في الضفة الغربية قبل نهاية هذا العام ، وانه سينتهج الاسلوب الذي سار عليه ابان حكم التجمع العمالي ، بتأييد من الليكود · وعندما ازداد ضغط الجوش على الحكومة ، هدد بيجن سكرتارية الجوش بانه سيقدم استقالته الى رئيس الدولة في حال الاستمرار في تحدي حكومته ، وبعد ذلك اتحد الطرفان على صيغة لازالة الخلافات بينهما حين اتفقا على اقامة ست مستوطنات تابعة لجوش ايمونيم داخل معسكرات الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية ، حتى نهاية هذا العام ، على ان يعتبر المستوطنون كـ « مستخدمين لدى الجيش » ·

وقد جرى بالفعل في الثاني من اوكتوبر اقامة نواة استيطانية تحمل اسم « نواة شومرون » داخل احدى معسكرات الجيش الاسرائيلي في الضفة ·

وواجه هذا الاتفاق انتقادات شديدة في الصحف الاسرائيلية ، فقد اعتبره البعض « جريمة » بحق الجيش الاسرائيلي ، وتمحورت الانتقادات حول زج الجيش الاسرائيلي في السياسة ، وتساءل بعض المعلقين الاسرائيليين هل هنالك من يتوقع من هذه المجموعات « المجبولة على التعصب والتبشر » ان لا تبث بافكارها ومعتقداتها داخل الوحدات التي ستقيم بينها ، وما هي عقوبة اللقاءات السياسية بين تلك الوحدات ، مع العلم ان التعليمات العسكرية تحظر اي نشاط سياسي داخل اطار الجيش ، وما هو مصير الجنود والضباط الذين لهم افكار تتناقض وافكار مجموعات جوش ايمونيم ؟ وهل سيسمح لهم باجراء لقاءات واجتماعات كما يفعل افراد جوش ايمونيم ، بينما اعتبر البعض الاخر هذا الاتفاق « مؤشرا لبداية انحلال الجيش الاسرائيلي وحله الى وحدات سياسية حزبية » ورأي فيه « اهانة للزى الذي امتص دماء كثيرة في الدفاع عن حرية اسرائيل » ·

ويبدو ان هذا الاتفاق لم يرق لقسم من غلاة المستوطنين في جوش ايمونيم ، حين خرجوا عليه ، وتوجهوا نحو مدينة اريحا لاقامة مستوطنة عند ابوابها ، وعندما تصدت لهم قوات الاحتلال ، تراجعوا الى الخلف واقاموا مخيمات لهم على طريق القدس ـ اريحا · كما وجرت محاولة اخرى قامت بها نواة تابعة لجوش ايمونيم حين ضربت خيامها بالقرب من مستوطنة عفره في الضفة الغربية ، فتصدت لها قوات الاحتلال وازالت الخيام ·

وازاء النشاط المحموم لجوش ايمونيم والسياسة الاستيطانية الرسمية ، تشكلت للمرة الاولى في اسرائيل حركة غير حزبية في الحرم الجامعي في القدس تطلق على نفسها اسم « الحركة من اجل صهيونية اخرى » تضع نصب اعينها هدف الوقوف في وجه جوش ايمونيم باعتباره يلحق الضرر باسرائيل وبجهود السلام · وعقدت هذه الحركة اجتماعا في كيبوتس « نحشون » بالقرب من الطريق المؤدية الى القدس من السهل الساحلي ،

حضره قرابة ثلاثة الاف شخص ، شجب المتحدثون فيه نشاط جوش ايمونيم و « سياسة الضم الزاحف » ٠

كما ونشط اعضاء من عشرة كيبوتسات في النقب الغربي ، بالتصدي لسياسة الاستيطان في المناطق المحتلة ، فقد اغتنم هؤلاء ويقدر عددهم بـ ١٥٠ شخصا فرصة قيام بيجن عند اواخر شهر ايلول الماضي بزيارة مستوطنة يميت في شمال سيناء ، وقاموا بتظاهرة هناك ، رافعين شعارات تشجب الضم وسلب سكان سيناء اراضيهم ، الا ان مستوطني يميت اعتدوا عليهم ومزقوا شعاراتهم ، ونشب اشتباك بالايدي بين الطرفين ٠ ووزع اعضاء الكيبوتسات بيانا هناك جاء فيه ان « الاستيطان في المناطق يغلق الباب امام خيارات السلام ، لان المستوطنات التي يزورها بيجن شيدت على اراض جرى احتلالها في حرب الايام الستة ، وان اسرائيل لم تخرج للحرب بهدف احتلال الاراضي » وجاء ايضا ان « جوش ايمونيم يشكل رأس سهم لكل اعمال الضم على حساب الشعب الاخر » ٠

وفي التاسع والعشرين من شهر ايلول احتفل عدد من المسؤولين الاسرائيليين وعلى رأسهم مناحيم بيجن بتدشين مستوطنة « نؤوت سيناي » وتحويلها الى مستوطنة مدنية ٠ وهي تابعة لشبيبة بيطار وتقع الى الشمال من العريش ٠ واثناء الاحتفال ، لحق اعضاء الكيبوتسات ببيجن ، وتظاهروا ثانية شاجبين تدشين المستوطنة ، وحدث اشتباك آخر بينهم وبين المستوطنين ، وتدخلت الشرطة وفصلت بين الفريقين ٠

بيد ان الاهم من ذلك ، جملة وردت في الكلمة التي القاها مناحيم بيجن ، وهي انه « عندما يستقيل من الحكومة والحياة العامة، سيقيم فيمستوطنة نؤوت سيناي»٠

ومن ناحية اخرى ، اتخذت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان خطواتلتعزيز المستوطنات القائمة ، حين صادقت في الحادي عشر من اوكتوبر الماضي على اقامة مشاريع صناعية واسعة في عدد من المستوطنات في المناطق المحتلة ، ومن بينها الون موريه وعفره في الضفة الغربية ورمات هجولان في هضبة الجولان « ويميت في شمال سيناء ، كما وصادقت على اقامة مركز صناعي في غور الاردن مع مبان صناعية تحتل مساحة ٢٥٠٠ متر مربع ٠

شهوة الاستيلاء على المسجد الاقصى

وسط هوس النشاط الاستيطاني في المناطق المحتلة وعلى رأسها الضفة الغربية ، والمشاريع الاستيطانية المستقبلية الهادفة الى تهويد تلك المناطق على المدى البعيد ، اخذت انظار البعض من غلاة المستوطنين تتطلع نحو المسجد الاقصى ،في محاولة لتقسيمه تمهيدا للاستيلاء عليه ٠ فقد اعلن الحاخام الرئيسي شلومو جورين في اوائل شهر اوكتوبر الماضي في مؤتمر صحفي خصصه للتحدث حول موقفه من اداء فرائض الصلاة داخل الحرم الذي يحتضن المسجد الاقصى ، اعلن انه يمتلك خرائط للحرم ، وانه حدد اماكن معينة في منطقة الحرم يسمح لليهود اداء الصلوات فيها ، واضاف ان الحظر المفروض الان على اليهود بخصوص اداء فرائض الصلاة داخل الحرم ، يفسره العرب « كتنازل » ودعا الى عدم التنازل عن مكان « قدس الاقداس » باعتبار انه « لا توجد قوة في العالم يمكنها ان تسلبنا حقنا في الاستيطان في جميع ارجاء ارض اسرائيل وفق ما تمليه علينا التوراة ٠ ان فريضة استيطان ارض اسرائيل تضاهي جميع الفرائض في التوراة » ٠

ورد على الحاخام جورين الشيخ حلمي

المحتسب باسم المجلس الاسلامي في القدس ببيان ركز فيه على شجب ومهاجمة تصريح جورين ، والتأكيد على ان الحرم الشريف مع كل معالمه وابنيته هو مسجد اسلامي منذ ١٤٠٠ سنة وبالتالي فانه لا يحق لاحد غير المسلمين اداء الصلاة داخله ، وانتهى البيان بالتأكيد على ان « للحرم الشريف رب يحميه » ٠

ومن الجدير بالذكر والطريف معا ، ان نذكر هنا ان الدين اليهودي الذي تغلفت به الحركة الصهيونية لتبرير مطالبها في اقامة وطن قومي لليهود في « ارض اسرائيل » التي تختلف التيارات الصهيونية على تحديد حدودها ، هو العامل الاساسي في منع يد التوسع من الامتداد حتى الآن لتطول منطقة الحرم ! ذلك ان الشرع اليهودي يحرم على كل يهودي مؤمن ، مجرد دخول بيت المقدس اي منطقة الحرم بعد خراب الهيكل الثاني باي حال من الاحوال ، ويجيز دخوله في حالة واحدة صعبة المنال ، ومستحيلة في الواقع : ظهور المسيح الموعود ٠ وبما ان المسيح لم يظهر بعد ، فان دخول اليهودي منطقة الحرم مخالف للشرع ، وينطوي على « تدنيس قدس الاقداس » ٠ ومما يسترعي

الملاحظة ان اليهود الذين هرعوا منذ سقوط القدس العربية في حرب ١٩٦٧ الى المسجد الاقصى وتجولوا في ساحة الحرم باعداد كبيرة هم فئة اللادينيين ، وليسوا من فئة المتدينين المتمسكين باهداب الشريعة اليهودية ٠ ففي اعقاب سقوط القدس عقد كبار الحاخامين في اسرائيل « مؤتمر التوراة الشفهية » بحضور كل من كبير حاخامي الطائفة الاشكنازية وكبير حاخامي الطائفة الاسفارادية ، وقرر المؤتمرون ، تمشيا مع الشريعة اليهودية ، تحريم منطقة بيت المقدس ، ومنع اليهود من دخولها ، وبالفعل علقت لافتات بهذا المعنى حول المنطقة ، ولم يأخذ المؤتمرون باجتهاد الحاخام جورين ـ كان يشغل منصب الحاخام الرئيسي للجيش الاسرائيلي ـ القاضي بالسماح لليهود باداء الصلاة في اماكن معينة من الحرم بعد تطهير كل من يدخلها بالماء ٠

الا انه على الرغم من قرار مجلس الحاخامين ، فقد تعرض المسجد الاقصى لمحاولات عدة قام بها شبيبة « بيطار » التابعة لحركة « حيروت » لدخوله بهدف الصلاة فيه والمطالبة بعد ذلك بتقسيمه ثم الاستيلاء عليه ٠ وجرى في احدى المحاولات اشتباك بين حراس المسجد وتلك المجموعة ادى الى ايقاف افرادها وتقديمهم للمحكمة ، وجاء في حيثيات الحكم الصادر بحق هؤلاء انه يحق لكل يهودي اداء فرائض الصلاة في المسجد الاقصى ! الامر الذي اثار الفئات الدينية في اسرائيل حيث اخذت تبدي سخطها واحتجاجها على القرار ، ولم تهدأ الا بعد ان اصدرت المحكمة العليا قرارا بالغاء القرار انف الذكر ٠

واذا كان الليكود الحاكم متماثل في نظرته تجاه الحرم مع نظرة شبيبة « بيطار » التابعة له ، الا انه يخشى من الاقدام على خطوات لتغيير الوضع الراهن في الحرم بفضل عاملين ، الاول ، التخوف من ردات الفعل في العالم الاسلامي ،

والثاني وربما يكون الاهم ، التخوف من سقوط الحكومة ، ذلك ان الليكود يتزعم حكومة ائتلافية يشترك فيها حزبان دينيان ، اجودات يسرائيل والمفدال ٠ وقد حرص اتباع الحزب الاول على عدم الاقتراب مطلقا من منطقة الحرم منذ سقوط القدس، كما ان اتباع الحزب الثاني لم يدخلوا الحرم ، وان كان بين صفوفه من يئن تحت التناقض القوي بين شهوة التوسع والرغبة في الحفاظ على الشرع ٠ ولعل في قول احد حاخامي المفدال ما يشير الى وطأة

هذا التناقض الفريد من نوعه ، حين ذكر ان الحاخام جورين لا يملك صلاحية البت في هذا الموضوع « ولا يحق لغير السنهدرين البت في موضوعات مبدأية من هذا النوع · ولكن لو كنا على استعداد للميل لقبول تفسير الحاخام جورين بخصوص الصلاة في الحرم ، المعتمد على مسح المنطقة ، فانه من اللائق ان نبقي شيئا ما لعهد مجيء المسيح ···» .

ويبدو ان الحاخام جورين ، حين لمس مدى معارضة الفئات الدينية في اسرائيل لتصريحه وحراجة موقف حكومة الليكود تجاه الحرم ، عاد وتراجع في مقابلة اذاعية عن اقواله في مؤتمره الصحفي ، فانكر ان يكون قد اعد خطة لتحديد اماكن للصلاة داخل الحرم لليهود « في الوقت الحاضر » مشيرا الى ما يمثله الحرم من حساسية في العلاقات العربية الاسرائيلية ·

رؤساء البلديات وقضية التمثيل الفلسطيني

عقب اعلان الاقتراح الاميركي الذي يدعو الى حل « عقدة » التمثيل الفلسطيني بواسطة رؤساء بلديات وشخصيات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ليقوموا بدور تمثيل الشعب الفلسطيني في مؤتمر جنيف، تلقفت الصحف الاسرائيلية الاقتراح ، واخذت تنشر اسماء وصور الاشخاص الذين يمكن ان تناط بهم مسؤولية تمثيل الفلسطينيين ، مع تحليل مواقف كل شخص وسرد تاريخ حياته ·

ومن الواضح ان الاقتراح الاميركي يستهدف قبل كل شيء الطعن بحق م·ت·ف· بتمثيل الشعب الفلسطيني ، واحداث بلبلة في صفوف رؤساء البلديات المعروفين بتعاطفهم مع م·ت·ف· وقد واجه رؤساء البلذيات الاقتراح الاميركي بطريقتين : الاول ، الاعلان في الصحف الصادرة في الضفة الغربية عن « تأييدهم غير المحدود لمنظمة التحرير الفلسطينية » مركزين على انها هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني · كما واشارت الصحف الاسرائيلية ان رؤساء بلديات نابلس ، طولكرم ، الخليل، رام الله ، البيرة ، اريحا ، حلحول ، وقلقيلية اعلنوا عن تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ورفضهم القيام بدور « تمثيل الفلسطينيين في جنيف » واشترط بعض هؤلاء القيام بالدور فقط في حال موافقة م·ت·ف· على ذلك وضمن وفدها مثل رئيس بلدية طولكرم حلمي حنون الذي قال « اذا ما وافقت م·ت·ف· على ان يكون عدد من رؤساء البلديات اعضاء في بعثة م·ت·ف· فان رؤساء البلديات لا يعارضون ذلك » كما ان رئيس بلدية الخليل فهد قواسمه اشار الى استعداد رؤساء البلديات للمساهمة في تمثيل الفلسطينيين في حال موافقة م·ت·ف· فقط « واذا لم توافق م·ت·ف· فلن نوافق نحن ايضا » ·

والثاني ، اجراء مشاورات بين رؤساء البلديات للرد على الاقتراح الاميركي ·

واشارت الصحف الاسرائيلية ان المشاورات اسفرت عن قرار بارسال مذكرة الى الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة « تتضمن رفض الاقتراح » · ولم يكشف النقاب عن صيغة المذكرة ، الا ان الصحف اشارت الى ان رؤساء البلديات « لا يعتبرون انفسهم ممثلين للفلسطينيين، وان م·ت·ف· فقط هي المخولة بتمثيلهم ، ونقلت عن بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس قوله « اننا رؤساء بلديات ، ولسنا رجال سياسة · ليس في نيتنا ان نكون بديلا لمنظمة التحرير الفلسطينية

التي تعتبر الهيئة الوحيدة الممثلة لنا » ٠

تخبط جماعة « البديل » الهزيل

في الوقت الذي رفض فيه رؤساء البلديات والشخصيات الوطنية في الضفة الغربية الاقتراح الاميركي الذي يستهدف الطعن في حق تمثيل م٠ت٠ف٠ للشعب الفلسطيني ، تحرك نفر من المجبولين على عداء شعبهم ، في الضفة الغربية ، بدعم من سلطات الاحتلال واطراف عربية، في نشاط اتخذ مسارين يصبان في الجهود المعادية للنضال الوطني للشعب الفلسطيني ٠

يتمثل المسار الاول في اقدام عدد من الاشخاص على تقديم مذكرة الى سلطات الاحتلال تطالب فيها باقامة ادارة ذاتية في الضفة الغربية ٠ ووقع على المذكرة اربعة اشخاص هم : محمد دودين موظف في وزارة الزراعة في الخليل ، وبرهان الجعبري ابن الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل سابقا ، وعبد الوهاب زاهدة صحفي من الخليل ومراسل التلفزيون الاسرائيلي باللغة العربية ، وعبد النور جنحو من رام الله الذي برأته محكمة اسرائيلية مؤخرا من جريمة قتل بتوصية من اجهزة المخابرات الاسرائيلية٠ وعرض الاربعة في مذكرتهم قائمة اسماء شخصيات من الضفة رشحوها لتسلم مهام رئيسية في الادارة الذاتية المقترحة، ومن بين الاسماء المطروحة ، ناصر الدين النشاشيبي ، المقيم في مصر والذي يقوم بين الحين والآخر بزيارة الضفة الغربية، وقد رشحه الاربعة في منصب « مستشار عام للضفة » !

ومن الجدير بالذكر ان الصحف الاسرائيلية اشارت الى ان برهان الجعبري هرع بعد تقديم المذكرة الى سلطات الحكم العسكري ، وطلب منها سحب توقيعه وفسرت ذلك بأنه « يخشى من ان يؤدي تقديم المذكرة الى الحاق الاذى بالاردن » ٠ وافادت انه بعث بعد ذلك برسالة الى الملك حسين تحمل بالاضافة الى توقيعه ، توقيع ابيه يطلب فيها معرفة موقف الاردن من فكرة الادارة الذاتية ٠

ويتمثل المسار الثاني في محاولة برهان الجعبري ومصطفى دودين وهو وزير سابق في الحكومة الاردنية ، وبعض الاشخاص ، عقد مؤتمر في الخليل يضم قرابة ٣٠ شخصية ٠ وكان من المقرر عقد المؤتمر في الرابع عشر من اوكتوبر الماضي ٠ وجرى حديث كثير حوله في الصحف الاسرائيلية قبل انعقاده ، مشيرا الى انه يهدف الى « معارضة قيادة م٠ت٠ف٠ الراهنة ودعم تدخل الاردن في كل مرحلة من مراحل المفاوضات مع اسرائيل حول مستقبل الضفة الغربية » ٠

ولما حان موعد انعقاد المؤتمر ، لم يجد المبادرون لعقده في القاعة ، الا انفسهم ولم يكن امام هؤلاء من خيار الا الغاء المؤتمر بعد ان روجوا له من خلال وسائل الاعلام الاسرائيلية ٠

وترجع المصادر الاسرائيلية سبب الفشل الى « تكاسل » المبادرين له ، وانطلاقهم من « مصالحهم الشخصية الضيقة » وافتقارهم الى اي رصيد شعبي ، والى خوف الشخصيات المتعاطفة معهم من المجاهرة برأيها ضد م٠ت٠ف٠

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

أ ـ الاستعداد لاعادة تنظيم الجهاز العسكري الاسرائيلي

بدأت وزارة الدفاع الاسرائيلية تستعد لعملية تغيير واسعة النطاق داخل الجيش الاسرائيلي · وستشمل عملية التغيير هذه ، اعادة تنظيم الجيش وكذلك انشاء بعض القيادات الجديدة ، مثل قيادة للقوات البرية ، وكذلك اجراء تغييرات في مناصب ضباط الاركان ، استعدادا لاختيار رئيس جديد للاركان ، خلفا للجنرال مردخاي غور ، الذي تنتهي فترة خدمته خلال الربيع القادم · وتم في هذا الصدد تعيين الجنرال رفائيل ايتان (رفول) رئيسا لشعبة العمليات والتي تدعى ايضا شعبة الاركان العامة ، وهو المنصب الثاني بعد رئيس الاركان وذلك استعدادا لتعيينه رئيسا للاركان حسب تفسيرات الكثير من المعلقين الاسرائيليين · كما تم تعيين الجنرال افيجدور بن غال قائدا للمنطقة الشمالية ، واعطاء الجنرال يكوثئيل ادام اجازة دراسية في الولايات المتحدة ، بعد ان كان يشغل منصب رئيس شعبة العمليات · وقد بادر الى كل هذه التعيينات وزير الدفاع وايزمن حيث وضع الجنرال ايتان في مكان يستطيع منه « القفز » الى منصب رئيس الاركان ، بعد ان يكون قد اكتسب خبرة ادارية وتخطيطية في الاركان العامة ، بالاضافة الى خبرته الميدانية الطويلة (يديعوت احرونوت ، ٢٣ـ٨ـ٧٧) ·

ويعتبر تعيين الجنرال افيجدور بن غال قائدا للمنطقة الشمالية ، اول حدث من نوعه في تاريخ الجيش الاسرائيلي ، حيث يتم تعيين ضابط صغير نسبيا ، (٤١سنة) في هذا المنصب العالي · وفي نية وزارة الدفاع في المستقبل تعيين ضباط آخرين من ابناء جيل بن غال ، من الذين اكتسبوا خبرة قتالية طويلة ، ليحتلوا مناصب عليا في الجيش · وسيتم اختيار رئيس الاركان الذي سيأتي بعد رئيس الاركان الحالي ، من بين هذه الطبقة من الضباط (المصدر نفسه) ·

رئيس الاركان المقبل

ان احد القرارات الهامة التي يطلب من وزير الدفاع إتخاذها خلال الاشهر القريبة ، هو فيما يتعلق بتعيين رئيس الاركان القادم ، وهو الشخص الذي سيوصي به امام الحكومة الاسرائيلية ليكون رئيس الاركان الحادي عشر · وقد اعتقد الكثيرون ان وايزمن سيجري هذه التغييرات خلال هذه السنة ، اي قبل انتهاء السنة الرابعة لخدمة غور ، وذلك اثر خلافات في الرأي بينهما حول العديد من القضايا ، ولكن يبدو انهما توصلا الى نوع من التفاهم وصيغة للعمل ، مما ادى الى تأجيل التعيينات ، بما في ذلك تعيين بديل لغور نفسه ·

هناك قضية رئيسية تواجه وزارة الدفاع

حول كيفية تعيين رئيس الاركان ، فهل يتم تعيينه من بين جنرالات الجيش الذين يعملون في الخدمة النظامية ، او يجري خرق هذا التقليد والبحث عن ضابط من بين جنرالات الاحتياط · ويعتقد اصحاب الرأي القائل انه يجب تعيين ضابط من الاحتياط ، انهم لن يجدوا شخصا ملائما وناضجا اكثر من بقية المرشحين الاخرين فحسب ، وانما سيقنع هذا التعيين الجنرالات في الجيش الاسرائيلي الذين يعتبرون انفسهم مرشحين لمنصب رئيس الاركان ، بعدم ترك الجيش عندما يتم اختيار زميلهم الذي يساويهم لهذا المنصب (زئيف شيف ـ هارتس ٢٦ـ٨ـ٧٧) · وقد حدث في تاريخ الجيش الاسرائيلي مثل هذا ، عندما ترك كل من يسرائيل طال ويتسحاق حوفي الجيش لعدم تعيينهما في منصب رئيس الاركان ، بعد ان كانا مرشحين بل تم تعيين ضابط في الاحتياط وهو رئيس الاركان الحالي ·

لقد وردت ثلاثة اسماء من جنرالات الاحتياط ، كمرشحين لهذا المنصب ، وهم الجنرال يتسحاق حوفي الذي كان مساعدا لوايزمن عندما كان يعمل رئيسا لشعبة العمليات · وكان دايان قبل حرب « يوم الغفران » يعتبر حوفي احد المرشحين لمنصب رئيس الاركان ، ولكنهم اخبروه بعد الحرب ان ترشيحه قد ابطل · وبعد ان اوصى دايان بتعيين غور رئيسا للاركان ترك حوفي الجيش الاسرائيلي ·· والمرشح الثاني ، هو يسرائيل طال ، الذي كان نائبا لرئيس الاركان ورئيسا لشعبة العمليات اثناء حرب ١٩٧٣ · واما الثالث فهو وزير الزراعة الحالي الجنرال (احتياط) اريئيل شارون ، وهو يعتبر اقل حظا من غيره لتولي هذا المنصب (المصدر نفسه) ·

هذا ويتوقع ان يتدخل عدد من الوزراء في عملية تعيين رئيس الاركان ، وخاصة كل من دايان وشارون ، كما سيكون لدى رئيس الحكومة اشياء كثيرة يقولها بهذا الصدد ، لان هذه هي المرة الاولى التي سيعين فيها ليكود رئيسا للاركان · ولكن العرف والقانون في اسرائيل ينصان على ان وزير الدفاع هو الشخص الذي يوصي امام الحكومة بالشخص الذي سيعين في هذا المنصب · وتشير المصادر الاسرائيلية الى ان مرحلة التخبط لدى وايزمن بالنسبة لتعيين رئيس جديد للاركان سواء « من الداخل » او « من الخارج » قد انتهت · فيقول المقربون منه ، انه اذا لم يحدث شيء غير عادي فان رئيس الاركان القادم سيكون من الجنرالات في الخدمة النظامية · والمرشحان الرئيسيان لهذا المنصب هما الجنرال رفائيل ايتان ، والجنرال هرتسل شفير ، قائد المنطقة الجنوبية ·وهناك ايضا مرشح ثالث وهو الجنرال يكوتئيل ادام ، الذي كان يشغل حتى الفترة الاخيرة منصب رئيس شعبة الاركان العامة · ولكنه اعطي مؤخرا اجازة دراسية · وهناك اثنان من هؤلاء الثلاثة تسلما وظيفة رئيس شعبة الاركان العامة ، حيث ان هناك تقليدا متبعا في الجيش الاسرائيلي ، هو ان يتسلم المرشح لرئاسة الاركان هذا المنصب ، بعد ان يكون قد تسلم وظيفة رئيس شعبة الاركان العامة ، ولكن الرئيس الحالي للاركان غور ، كان اول ضابط يتسلم الاركان العامة ، دون ان يشغل منصب رئيس شعبة الاركان (هآرتس ٢٣ـ٨ـ٧٧) ·

في اعقاب التغييرات التي حدثت في وزارة الدفاع ، طلب الجنرال رفائيل ايتان من وزير الدفاع العمل على تعيينه رئيسا لشعبة الاركان العامة ، ولو لفترة قصيرة نسبيا قبل ان يتخذ القرار بشأن رئيس الاركان القادم · وقد وافق وزير الدفاع على ذلك في اعقاب موافقة رئيس

الاركان ، مردخاي غور · وكان الجنرال رفائيل ايتان الملقب (رفول) وهو المرشح الاكثر حظا في تسلم رئاسة الاركان قد ولد عام ١٩٢٩ في فلسطين بمستوطنة تل عدشيم ، والتحق بالبالماخ عندما كان عمره ١٧ سنة · اشترك في حرب ١٩٤٨ مع لواء هرئيتل في فك الحصار عن القدس وجرح في معركة القطمون · وفي عام ١٩٤٩ ترك الخدمة العسكرية وعاد الى الحياة المدنية وبعد ١٨ شهرا عاد مرة اخرى الى الجيش · وفي عام ١٩٥٣ ترك الجيش ثانية ثم عاد اليه عام ١٩٥٥ ، وعين قائدا لاحدى كتائب المظليين ، وفي عام ١٩٥٦ عين قائدا لوحدة من المظليين حاربت في ممر المتلا في سيناء · وانهى عام ١٩٥٨ دورة للقيادة والاركان ثم سافر بعدها للدراسة في الخارج · كما انه التحق بجامعة تل ابيب خلال خدمته العسكرية حيث درس تاريخ الشرق الاوسط وشمال افريقيا ومن ثم التاريخ العسكري ، وكذلك درس في جامعة حيفا العلوم السياسية ·

والتحق خلال عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ بكلية الامن القومي · وعام ١٩٦٤ عين قائدا للواء المظليين ، حيث قاتل خلال حرب حزيران ١٩٦٧ في منطقة رفح وغزة وخان يونس ، ثم عمل خلال عامي ٦٧ـ١٩٦٨ قائدا في منطقة غور الاردن ، حيث اشترك في القتال ضد الفدائيين ، وفي عام ١٩٦٨ عين قائدا للمظليين وقاد في تلك السنة الغارة على مطار بيروت الدولي · وعين خلال حرب يوم الغفران قائدا لاحدى الفرق في الجولان حيث رقي الى رتبة لواء ، وفي ١٥ـ٤ـ١٩٧٤ عين قائدا للمنطقة الشمالية (هآرتس ٢٣ـ٨ـ٧٧)·

الاعتبارات في تعيين رئيس الاركان

يرى البعض ان هناك مسألة هامة ستحدد الى حد كبير قرار وزير الدفاع تتعلق بالمرحلة المقبلة التي تتوقع اسرائيل ان تدخلها ، وهل ستزج خلال السنوات الثلاث او الاربع القادمة في حرب جديدة ويجب الاخذ بالحسبان احتمال قلب الاوضاع رأسا على عقب كما حدث في اعقاب حرب الايام الستة ، عندما كانت هناك ثقة كبيرة بان رئيس الاركان الذي سيأتي بعد اسحاق رابين ، سيعمل فقط على بناء الجيش الاسرائيلي · ولكن لم تطل الايام حتى زج الجيش الاسرائيلي تحت قيادة بارليف ، في حرب استنزاف مربكة ومعقدة من الناحية العسكرية والسياسية على السواء · ويرى زئيف شيف ، المعلق العسكري لصحيفة هآرتس (٢٦ـ٨ـ٧٧) انه يجب توافر ثلاث مزايا في رئيس الاركان المقبل : اولها ان يكون صاحب وعي عسكري يستطيع بواسطته ان يبني جيشا قادرا على الاستمرار في المحافظة على الفجوة النوعية بين اسرائيل والعرب حتى خلال الثمانينات ، والثانية ان يكون قائدا وزعيما دون اي منازع على كافة الاسلحة ، والثالثة ان يكون قائدا له رؤية استراتيجية شاملة ، ويستطيع ان يعمل بنجاح مع القيادة السياسية ـ الامنة ·

وكان هناك من انتقد الاسلوب الذي اخذ الجيش يتبعه ، منذ حرب « يوم الغفران » ، في تعيين رئيس الاركان من ضباط الاحتياط وليس من الضباط النظاميين · فأشار البعض الى ان الجنرالات الذين يخدمون في الجيش النظامي الان ، هم الضباط الذين رعاهم الجنرالات الذين يخدمون في الاحتياط ، وانه من الافضل للقيادة ان تغير هذا الاسلوب حتى لا يترك الجنرالات في الخدمة النظامية الجيش قبل المواعيد المناسبة · وذكر ايضا ان جنرالات الاحتياط المرشحين حاليا ، كانوا مرشحين في الماضي ولكن لم يقع الاختيار عليهم

لاسباب معقولة وان هذه الاسباب لا تزال قائمة بالنسبة لهم · واشار المعلق اريه اراد الى ان المرشحين لمنصب رئاسة الاركان من الاحتياط ، لا يتفوقون على هؤلاء الموجودين في الخدمة النظامية وان هؤلاء الجنرالات (الاحتياطيين) هم من الذين تساقطوا في حرب يوم الغفران وانهم يتحملون جميعا وكل واحد على حدة ، مسؤولية « التقصير » الاسرائيلي خلال تلك الحرب · كما ان منصب رئاسة الاركان يفترض ان يكون رئيس الاركان من الضباط الذين يعرفون ماذا يجري داخل الجيش · ولخص اراد رأيه بقوله : « المقصود هو اعطاء دم جديد للقيادة العليا وليس نبيذا معتقا » (دافار ٢-٩-٧٧) ·

التغييرات في وزارة الدفاع والجيش

تم مؤخرا تعيين مردخاي تسيبوري نائبا لوزير الدفاع · وتحدث تسيبوري عن التغيرات في وزارة الدفاع وفي الجيش ، فأشار الى انه تم رسم خط واضح بين المجالات المدنية والسياسية وبين المجالات العسكرية ، وان القيادة السياسية المدنية ستتدخل قليلا بما يجري داخل الاركان العامة · كما اشار تسيبوري الى ان الجهد المشترك لكل من وزارة الدفاع والجيش الاسرائيلي سيتركز في المجال العسكري فقط ، واما القضايا السياسية فتبحث في اطار الحكومة · وبالنسبة للقضايا التي تتعلق بالجانب العسكري فتم بحثها لدى وزارة الدفاع · وهذا الامر لم يكن قائما في السابق ، اذ لم تكن وزارة الدفاع تشرف كثيرا على القضايا المتعلقة بالجيش ، حيث كانت الاركان العامة وخاصة رئيس الاركان في عهد وزير الدفاع السابق ، شمعون بيرس ، تتمتع بحرية عمل واسعة · اما الان فقد راح العسكريون يشعرون ان حرية عملهم ومجالها آخذة في التقلص · ونظرا لهذه الاسباب فان رئيس الاركان لم يعد يظهر الا قليلا في المناسبات التي تحمل طابعا سياسيا (مثل المحادثات التي جرت مع وزير الخارجية الاميركي) (معاريف ١٦-٩-٧٧) ·

ويشير نائب وزير الدفاع ، الى انه ستتخذ في بداية العام القادم عدة قرارات ستؤدي الى تغيرات جذرية في الجيش الاسرائيلي · كما جرت بالفعل بعض التغيرات في وزارة الدفاع ، مثل الغاء وظيفة المستشارين كمستشار الوزير للشؤون السياسية ، والصناعة والاستيطان · وفي مجال الاستعداد لاجراء تغييرات جوهرية في الجيش ، كشف نائب الوزير عن وجود طاقم خاص في وزارة الدفاع ، يعمل الان على بلورة « اهداف الحرب الاسرائيلية » · وكان بعضهم قد انتقد في الماضي عدم وجود تحديد دقيق لاهداف الحرب ، من قبل جميع الحكومات الاسرائيلية · ونتيجة لهذا فقد خرج الجيش الاسرائيلي الى الحروب في الماضي (حرب الايام الستة وحرب يوم الغفران) دون اهداف كهذه ·

كما تجري عملية بلورة « انظمة » وزير الدفاع ، على غرار ما هو موجود في انكلترا (انظمة الملك) وفي الولايات المتحدة (تعليمات وزارة الدفاع) · وفي اسرائيل توجد تعليمات القيادة العليا واوامر الاركان العامة ، التي شكلت اسبابا للتداخل في مجالات الاختصاص ما بين القيادة المدنية والجيش · ولهذا فهناك طاقم خاص بصدد ايجاد صيغة « انظمة وزير الدفاع » · (المصدر نفسه) ·

تعيين الجنرال طال ، لاعادة تنظيم الجيش

عين وزير الدفاع وايزمان الجنرال

(احتياط) يسرائيل طال ليقوم بدراسة امكانية اعادة تنظيم الاركان العامة وكذلك تقديم توصياته بالنسبة لامكانية انشاء قيادة للقوات البرية · وكان الجنرال شموئيل غونين ، قائد المنطقة الجنوبية خلال حرب ١٩٧٣ ، قد اجرى مثل هذه الدراسة قبل حوالي سنتين ، واوصى بانشاء مثل هذه القيادة ، الا ان الاركان العامة (وخاصة رئيس الاركان غور) رفضها في حينه · ويعتبر قرار وزير الدفاع هذا اول بادرة من نوعها منذ تأسيس الجيش الاسرائيلي ، حيث يعين شخص من خارج الخدمة النظامية لدراسة اعادة تنظيم الجيش والاركان العامة · (هآرتس ٩ـ٨ـ٧٧) ·

ويرى البعض انه اذا لم يحدث شيء مفاجيء يعرقل ، خلال السنة القادمة ، الحياة الجارية في الجيش الاسرائيلي ، فانه يتوقع ان يبدأ الجيش بعملية اعادة تنظيم شاملة لرئاسة الاركان والقوات البرية وكافة شعبه وقياداته وقد طلب وزير الدفاع من طال في كتاب التعيين تقديم توصياته حتى تاريخ الخامس عشر من نوفمبر من هذه السنة · ومن هنا فان مناقشة هذه التوصيات ستتم في نهاية السنة القادمة ومن المؤكد ان تتم التغييرات التي سيوصي بها خلال السنة المالية القادمة (المصدر نفسه ١٢ـ٨ـ٧٧) ·

ويبدو ان الجنرال طال سيوصي بانشاء قيادة للقوات البرية ، ويؤيده في ذلك وزير الدفاع ، ولكن رئيس الاركان الحالي لا يؤيد مثل هذا المشروع · ومن جهة اخرى يبدو الهيكل الحالي للاركان العامة لبعض الخبراء بانه « هيكل غير طبيعي » لانه لا توجد قيادات خاصة لسلاح الجو او للبحرية او القوات البرية ، بل تتولى الاركان العامة نفسها هذه المهمة (معاريف ١٢ـ٨ـ٧٧) ·

قائد جديد لسلاح الجو

تم مؤخرا تعيين اللواء دافيد عفري قائدا لسلاح الجو ، خلفا للواء بنيامين بيلد ، الذي كان قد تسلم قيادة هذا السلاح في ربيع ١٩٧٣ · وكانت الانتقادات قد وجهت ، بعد حرب يوم الغفران ، لسلاح الجو لعدم تحقيقه الامال التي علقت عليه والقيام بالمهام الموكلة اليه ، وخاصة في معالجة بطاريات الصواريخ العربية وفشله ايضا في مساعدة القوات البرية · ولكن بيلد يرفض هذا الانتقاد ويرد عليه : من الناحية العسكرية كانت تلك الحرب انجح حرب يخوضها سلاح الجو منذ نشأته · فقد دفع الجيش الاسرائيلي خسائر اقل مما كان متوقعا ، بالرغم من ظروف بداية الحرب وبالرغم من المفاجأة · واضاف انه لو كانت بداية حرب ١٩٦٧ شبيهة بتلك التي وقعت سنة ١٩٧٣ ، « فانني لا اعرف اين كنا اليوم » · واستطرد بيلد في دفاعه فأشار الى انه في عام ١٩٦٧ سمح لسلاح الجو بالقيام بهجوم مفاجيء ، وعندها قام بالمهمة ولكنه دفع ثمنا باهظا ، واذا ما جرت مقارنة بين الحربين ، فانه يجب ان نذكر ان سلاح الجو الاسرائيلي قد خسر خلال حرب الايام الستة حوالي ٢٤٪ من طائراته و ٢٦ من الطيارين المقاتلين بالاضافة الى دخول الطائرات العربية اسرائيل ووصولها الى نتانيا وكفار سيركين (زئيف شيف ، هآرتس ٢١ـ١٠ـ ١٩٧٧) ·

وكان القرار بشأن تعيين دافيد عفري ، قائدا لسلاح الجو قد صدر قبل حوالي شهرين بتوصية من قائد السلاح الحالي ، بنيامين بيلد · وقد اعلن عن ذلك للمرة الاولى وزير الدفاع في اجتماع لضباط السلاح في تل ابيب · والقائد الجديد من مواليد فلسطين ، انضم الى الجيش الاسرائيلي عام ١٩٥٢ وبعد سنتين اصبح

طيارا وشارك في كافة الحروب التي خاضها سلاح الجو · وكان قد تسلم رئاسة قسم العمليات وعين مديرا لكلية الطيران وكذلك قائدا لاحدى القواعد الجوية الكبيرة (هآرتس ، ١٨-٩-٧٧) ·

اعادة فتح كلية الامن القومي

اعيد مؤخرا فتح كلية الامن القومي ، التي كانت الحكومة الاسرائيلية قد اغلقتها في ربيع ١٩٦٧ ، بعد ان تبين من تقرير اللجنة التي كانت قد عينت برئاسة يجئيل يادين في حينه ان مستوى الدراسة فيها لم يكن ملائما ، وان غالبية طلابها لم يكونوا يتمتعون بمستوى لائق · وبالرغم من ان اللجنة لم توصي باغلاق الكلية ، قامت حكومة اشكول بذلك · ويرى البعض ان الحكومة الاسرائيلية قد ارتكبت خطأ باغلاق الكلية ، اذ نجم عن ذلك زيادة الفجوة طيلة السنوات الماضية في ثقافة الضباط السياسية والاستراتيجية (هآرتس ٢٢-٨-٧٧) ·

كما انتقد زئيف شيف القائلين بان كلية القيادة والاركان ستملأ الفراغ الذي خلقه عدم وجود كلية الامن القومي ، لان اهم ما تتركز عليه الدراسة في كلية القيادة والاركان ، هو المواضيع العسكرية العملية ويشير المعلق ايضا الى انه بالرغم من ارسال العديد من الضباط للدراسة في كليات الامن القومي في الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا ، فان الفائدة لم تكن كافية وذلك بسبب عدم تخصص دراستهم في منطقة الشرق الاوسط وفي قضايا اسرائيل الامنية · ومن هنا فانه لا مفر من وجود كلية للامن القومي · وهذا ما حدث بالفعل · وقد حاولت السلطات العسكرية الاسرائيلية تلافي كافة الاخطاء التي وقعت فيها الكلية في الماضي ، والتي كانت سببا في اغلاقها · فقد اصبحت مثلا ، الشروط والمقاييس لاختيار الطلاب متشددة للغاية ، حيث لا يسمح بوجود اكثر من ثلث الطلاب من المدنيين ، بعد ان حدث العكس في الماضي · كما ستقبل الكلية الضباط ممن تعدهم الاركان العامة لتولي مناصب عليا في الجيش في المستقبل (المصدر نفسه) ·

حمدان بدر

ب- قضايا الخلاف الامريكي- الاسرائيلي

رغم التصريحات التي اطلقها رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، ابان زيارته للولايات المتحدة وبعدها ، عن الانسجام السياسي الكامل بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وزوال خطر المواجهة الذي كان متوقعا بين الدولتين الحليفتين ، اثر صعود مناحيم بيغن وحزبه الى سدة الحكم في اسرائيل، فان القيادة الاسرائيلية واجهزة اعلامها ، سرعان ما راحت تتحدث عن أزمة في العلاقات مع واشنطن ، وعن خطر مواجهة حقيقية بين اسرائيل والولايات المتحدة ·

ولم يتورع الاسرائيليون وحلفاؤهم

داخل الولايات المتحدة ، من القاء التبعية في كل ذلك ، على كاهل الولايات المتحدة والادارة الاميركية نفسها ، متمثلة بالثلاثي كارتر ، بيريزنسكي وفانس ، وليس نتيجة المواقف الاسرائيلية من الصراع الدائر في الشرق الاوسط ، او لطبيعة الحكم الليكودي الجديد في اسرائيل · وانما هي نتيجة لمفاهيم معينة ترسخت في البيت الابيض ، نتيجة لتعاظم القوة في العالم العربي (دافار ٧-١٠-٧٧) ، والتي كان بريزنسكي نفسه قد صاغها قبل توليه لمنصبه كمستشار للامن القومي في الادارة الاميركية الجديدة ·

وخلاصة هذه المفاهيم كما تعرضها وسائل الاعلام الاسرائيلية والصهيونية هي : « بما انه يحكم العالم اليوم اقل من ٣٠ نظاما ديموقراطيا ، فان الولايات المتحدة لا تستطيع الاستمرار في سياستها ، القائمة على ان كل الدول الديموقراطية هي حليفة لها بطبيعتها » · ولهذا فان بريزنسكي يعتقد ان على « الولايات المتحدة التقرب من الانظمة الدكتاتورية ، لكونها تشكل الاكثرية » ، ومن ضمنها الدول العربية ، الغنية بمواردها الطبيعية ، والمواد الاولية التي « تحتل المكانة الاولى في نظريته السياسية ـ الفلسفية هذه » (دافار ٧-١٠-٧٧) ·

وبناء على ذلك، فان القيادة الاسرائيلية تعتقد ، بأن الادارة الاميركية ، قد رسمت خطوط سياستها الشرق اوسطية سلفا ، وقبل انتصار حزب الليكود في الانتخابات الاخيرة ، وتولي مناحيم بيغن وجنرالاته المتطرفين سدة الحكم ، في اسرائيل ، وانه سواء « بقي المعراخ في الحكم ، او الليكود» ، وبغض النظر عمن يترأس الحكم في اسرائيل « سواء كان ذلك مناحيم بيغن او مئير باعيل » فانه « لن يكون لذلك سوى اهمية ضئيلة جدا فقط بالنسبة للاستراتيجية الاميركية الجديدة » (دافار ٧-١٠-٧٧) ، التي يبلورها الثلاثي كارتر وبريزنسكي وفانس ، والتي دأبوا على تنفيذها خلال الثمانية اشهر الاولى لتوليهم الحكم ، في الولايات المتحدة بخطوات صغيرة ، حيث كانت الادارة الاميركية « تبتعد في كل خطوة من هذه الخطوات عن مواقف اسرائيل » · الا ان الادارة الاميركية كانت تضطر في كل مرة الى تهدئة اسرائيل ، اثر ردود فعلها العنيفة ، باعلانها عن انه « لم تكن ثمة نية لاي تغيير في السياسة الاميركية » حيال موقفها من اسرائيل « دون ان تتخلى عن تنفيذ استراتيجيتها الجديدة » (المصدر نفسه) ·

وكان هذا التحول في السياسة الاميركية كما تعتقد اسرائيل ، قد بدأ في ٩-٣-٧٧ مع تصريح الرئيس كارتر في مؤتمره الصحفي ، الذي طالب اسرائيل فيه « بالانسحاب الى حدود ما قبل عام ١٩٦٧» ثم اتبعه بتصريح اخر في خطابه الذي القاه في كلينتون في ١٦-٣-٧٧ ، والذي « تكلم فيه عن ضرورة ايجاد وطن فلسطيني » ومن ثم مطالبة اسرائيل « بالتعويض على اللاجئين الفلسطينيين وتنديده بالسياسة الاستيطانية التي تنتهجها « واخيرا « الاتصالات مع الاتحاد السوفييتي لرسم اطار شامل للسلام في الشرق الاوسط كجزء من المسيرة الاستراتيجية الجديدة هذه للادارة الاميركية » (المصدر نفسه) · وقد اسفرت تلك الاتصالات عن صدور البيان الاميركي ـ السوفييتي المشترك الذي يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · ويرى الاسرائيليون ان سبب التوقيع الاميركي على ذلك البيان يعود الى قناعة اميركية مفادها انه يستحيل عليها عقد مؤتمر جنيف في نهاية عام ١٩٧٧، واحلال السلام في الشرق الاوسط دون التعاون مع الاتحاد السوفييتي ومنظمة التحرير الفلسطينية ·

اذ ان كلا من الطرفين يستطيع عرقلة

السلام في أي وقت يرتئيه ولا بد اذن لاي سلام ثابت في المنطقة من ان « يقبله كل من الاتحاد السوفييتي وم·ت·ف· ، وهذا عكس ما ترتئيه اسرائيل تماما (المصدر نفسه) ·

وهكذا فان الاسرائيليين يلخصون مجمل القضايا الاساسية التي تختلف فيها الولايات المتحدة مع اسرائيل في النقاط التالية : الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني والدولة الفلسطينية، الاستيطان في المنطاق المحتلة والتمثيل الفلسطيني في جنيف ·

يعتقد الاسرائيليون ان توجه الرئيس كارتر « المؤيد للفلسطينيين » ليس « نتيجة اوضاع عابرة في مكانة م·ت·ف في العالم العربي والشرق الاوسط ، وانما لايمانه بأن الفلسطينيين هم حتمية تاريخية » (يديعوت احرنوت ٢٣-٩-٧٧) · ويعود هذا الايمان الى وجهة نظره في ان « شمس الشعوب الفقيرة والملونة والمضطهدين في العالم سوف تشرق ان عاجلا ام اجلا ، وان روديسيا وجنوب افريقيا قد حكم عليهما بالانقراض ، بينما تخبيء الحتمية التاريخية لكوريا الجنوبية وتيوان مصيرا مماثلا ·· وانه لا بد وان يضيء من بينها جميعا الكوكب الفلسطيني ايضا » (المصدر نفسه) ·

ولهذا فان الرئيس الاميركي ومعه مستشاره للامن القومي يؤمن بأن الولايات المتحدة تستطيع ان تجد مكانها كزعيمة لهذا العالم المتغير الجديد ، اذا ما عرفت كيف تتلاءم قبل فوات الاوان مع هذه الحتمية التاريخية · وعليه « لا بد لاسرائيل من تفسير التحول المؤيد للفلسطينيين الذي طرأ على سياسة الولايات المتحدة في نطاق هذا المفهوم العام » (المصدر نفسه) · وهذا يعني اعتقاد القادة الاسرائيليين ان الرئيس كارتر يؤمن في قرارة نفسه ان الحتمية التاريخية لا بد وانها تخبيء لاسرائيل ايضا ، مصيرا مماثلا لروديسيا وجنوب افريقيا وتيوان ، وان كان لا يقول ذلك جهارا ، خوفا من ردود الفعل الاسرائيلية العنيفة ، واثارة غضب اللوبي اليهودي ذي التأثير الفعال داخل الولايات المتحدة·

ولهذا ، وعلى عكس معارضة الحكم السابق لقيام دولة فلسطينية قد تتحول في المستقبل الى قاعدة سوفييتية ، وبؤرة « للشغب » في الشرق الاوسط ، الامر الذي قد يخلق وضعا خطيرا في المنطقة ، اكثر مما هو قائم اليوم ، « فان الحكم الاميركي الجديد يؤمن بأنه اذا لم يفعل شيئا في هذا الصدد فان الامر سيصل الى مرحلة الانفجار حتما بينما يستطيع الحؤول دون مثل هذا الانفجار « اذا ما عمل في المقابل شيئا للفلسطينيين » (المصدر نفسه) · ويساعد على بلورة هذا المفهوم تعاظم التأثير الاميركي في منطقة الشرق الاوسط في المدة الاخيرة ، ومن ضمنها الدول العربية الموالية لاميركا ، وخاصة العربية السعودية الامر الذي « سيضمن اعتدال الفلسطينيين لانهم سيكونون مرتبطين بالعربية السعودية من الناحية الاقتصادية » · وهذا ما اكدته بحسب رأي الاسرائيليين ، السعودية للولايات المتحدة في كثير من المناسبات موضحة انه « اذا ما اعطيت للفلسطينيين دولة ما ، فانهم سيكونون اقل ازعاجا واقل خطرا بالنسبة للانظمة العربية الموالية لاميركا » (المصدر نفسه) ·

وبالاضافة الى ذلك فان الولايات المتحدة « تعتقد حقا ان ثمة عناصر معتدلة داخل م·ت·ف » ، ولذلك فانه « لمصلحة الولايات المتحدة القومية وللمصلحة الاسرائيلية ، على المدى البعيد ، لا بد من دعم هذه العناصر » (المصدر نفسه) ، وذلك باجراء حوار غير رسمي معها في البداية ، ومن ثم بشكل رسمي ، اذا ما قبلت م·ت·ف

بقرار مجلس الامن ٢٤٢ واعترفت بحق اسرائيل في الوجود ٠

ونظرا لكل ذلك وانطلاقا من ايمان الرئيس كارتر بنظريته الاستراتيجية ـ السياسية بالنسبة للحتمية التاريخية، وحق تقرير المصير لكل الشعوب ، فان الاسرائيليين يعتقدون ، بانه « يتخذ مواقفا مؤيدة لاقامة وطن فلسطيني اكثر من أي رئيس اميركي اخر ، من الرؤساء الذين سبقوه » ٠ ولذلك فانه ما دام يدعو لاقامة وطن فلسطيني فليس باستطاعته ان يتجاهل م٠ت٠ف٠ ولا يعني الاسرائيليين هنا ، سواء اعترف الرئيس الاميركي بها، كممثل وحيد للشعب الفلسطيني ام لا ، لانه لا يوجد لديهم « ادنى شك في انه يعترف بها كأحد الممثلين للشعب الفلسطيني » ، وانها اذا ما وافقت على القرار ٢٤٢ ، فانه « سيعتبرها مفاوضا شرعيا بالنسبة للولايات المتحدة على الاقل ، اذا لم يكن بالنسبة لاسرائيل ، وهذا ما يتعارض تماما مع موقف اسرائيل بشكل عام، وايديولوجية الطاقم الجديد بيغن ـ دايان في الحكم الاسرائيلي « بشكل خاص » (يديعوت احرنوت ٢٣ـ٩ـ٧٧) ٠ وقد عبر بيغن ـ دايان بكل صراحة ووضوح في كثير من المناسبات عن موقفهما هذا ، منذ تسلم الليكود زمام الحكم ونقلا رأيهما هذا للرئيس كارتر ومساعديه ابان زيارتيهما للولايات المتحدة ولوزير الخارجية سايروس فانس ٠ وتتلخص هذه المواقف باللاءات المتكررة للوطن الفلسطيني والدولة الفلسطينية ، والمفاوضات مع م٠ت٠ف٠ حتى وان اعترفت بقرار مجلس الامن ٢٤٢ وبحق اسرائيل في الوجود ، لان ذلك يعني « الانتحار للدولة اليهودية » على حد تعبير دايان ، ولان « الدولة اليهودية اقيمت قطعا على حساب دولة الفلسطينيين على أرض كانت تدعى فلسطين ، ولو انني خيرت بين الدولة الفلسطينية وبين الحرب لاخترت الحرب » (د٠أ ١٦ـ٩ـ٧٧) ٠

الاستيطان :

ان مسألة الاستيطان في المناطق المحتلة هي موضوع خلاف قديم ـ جديد بين الولايات المتحدة واسرائيل ، اذ ان الولايات المتحدة لم تتفق مرة في الرأي مع اسرائيل بالنسبة للاستيطان ، في الاراضي المحتلة ، وان كانت ردود الفعل الاميركيه على عمليات الاستيطان منذ ١٩٦٧ ، لا تتعدى الاعراب عن الاسف ، او تقديم اللوم الحذر للحكومة الاسرائيلية ، دون ان تلجأ حتى الى التنديد على الاقل ولا نقول الادانة ويبدو ان سبب هذا الموقف الاميركي هو ايمان الولايات المتحدة ، كما عبر عنه هنري كيسنجر في كثير من المناسبات ، بأن تلك المستوطنات التي تقيمها اسرائيل ، لن تكون عقبة في طريق السلام وانه « عندما يتم التوصل الى السلام ، لن يكون من الصعب ازالتها ، اذ لا يمكن لها ان تبقى في مكانها » (يديعوت احرنوت ٢٣ـ٩ـ٧٧) ٠

الا ان الاسرائيليين يعتقدون ، بان « التناقض » بين الولايات المتحدة واسرائيل ، قد تضاعف بعد صعود حزب الليكود الى الحكم اضعاف ما كان عليه في عهد الرؤساء السابقين لكارتر ، وذلك ليس « لسياسة الاستيطان التي تنتهجها حكومة بيغن » وانما « نتيجة لتوجه الرئيس كارتر في معالجة المشاكل المختلفة ، الذي يتسم بطابع التوجه الاخلاقي والقانوني ، اكثر من التوجه البراغماتي الذي كان ينتهجه هنري كيسنجر » (المصدر نفسه)٠ ولذلك فان ردود فعل كارتر بالنسبة لكل موضوع الاستيطان « اكثر عنفا » باعتباره « عملا غير قانوني ويتنافى مع بنود معاهدة جنيف » كما « ويضع العراقيل أمام امال المفاوضات الجدية في الشرق

الاوسط » (يديعوت احرونوت ٢٣ـ٩ـ٧٧ ر٠ا٠ ٣ـ١١ـ٧٧) ٠

ومن ناحية اخرى ، يعتقد الاسرائيليون ان ثمة قاسما مشتركا للاستراتيجية الاميركية الجديدة في المنطقة ، التي ترتكز على « الخيار الفلسطيني » ، وتهدف الى « اكراه اسرائيل على الانسحاب من الاراضي المحتلة في النهاية ، وانشاء دولة فلسطينية مستقلة ، بقيادة م٠ت٠ف (دافار ٢٩ـ٩ـ٧٧) ٠ وهذا التحول في السياسة الاميركية وعلى هذا المستوى، هو « حتما نتيجة مبادرات وتخطيط دقيق » اذ حول حكم الرئيس كارتر « الخيار الفلسطيني الى مشروع فعال وفي الدرجة الاولى لسلم الاولويات » ، بينما كان « الخيار الفلسطيني » في السابق « احد خيارات كثيرة مطروحة كأحد البدائل الممكنة للخيار الاردني » (المصدر نفسه) ٠

وطبيعي ان لا تحظى مثل هذه الاستراتيجية بتنسيق اسرائيلي اميركي ، بينما كانت الاستراتيجية الاميركية التي « ترتكز على الخيار الاردني تسمح بذلك » ومن هذه الناحية لا فرق بين الحكومة الليكودية في اسرائيل وبين خطة الحكومة المعراخية السابقة ، اذ « لا يمكن تسوية اقليمية او وظيفية مع دولة فلسطينية منفردة ، على عكس ما هو عليه الحال بالنسبة للاردن » (المصدر نفسه) ٠ وبذلك يكون الرئيس كارتر قد « نسف بنفسه التسوية الاقليمية التي كانت تقترحها حكومة المعراخ ، حين عاد واكد بشكل قاطع ان على اسرائيل ان تنسحب الى حدود ٤ـ٦ـ٧٧ » ٠ ولهذا السبب بالذات « فانه يعارض ، وبشكل احد مما كان عليه الامر في الماضي ، اي استيطان اسرائيلي في الاراضي المحتلة » (دافار ٢٩ـ٩ـ٧٧) ٠

اما السبب الثالث للتحول في السياسة الاميركية بالنسبة للاستيطان ، كما يراه الاسرائيليون ، فانه « يتعلق بالسياسة الداخلية الاميركية » (يديعوت احرنوت ٢٣ـ٩ـ٧٧)، اذ ان الادارة الاميركية تعرف جيدا ، ان اسرائيل لا تتمتع بالنسبة لموضوع الاستيطان بتأييد الكونغرس ، ولا بتأييد الرأي العام الاميركي ، اللذين تعتمد عليهما في كل مواجهة لها مع الادارة الاميركية « مع انهما يدعمانها في رفضها التفاوض مع م٠ت٠ف واقامة الدولة الفلسطينية » ٠ ولهذا فان الادارة الاميركية تعتمد ، في مواجهة اسرائيل وحلفائها داخل الولايات المتحدة ، « على مسألة الاستيطان كوسيلة لاضعاف مكانة اسرائيل داخل الكونغرس الاميركي ولدى الرأي العام » ٠ (المصدر نفسه) ٠

وفي المقابل فان اسرائيل والحكم الليكودي بالذات يعتبر ان « الضفة الغربية وقطاع غزة هما جزء لا يتجزأ من اسرائيل » وبالتالي فانها « لن تنسحب منهما ، ولا يمكن بأي شكل من الاشكال التحدث عن استيطان غير مشروع في جزء من ارض اسرائيل » ، وان لاسرائيل «الحق في اقامة المستوطنات في اي مكان من أرض اسرائيل التاريخية » (يديعوت احرونوت ٢٣ـ٩ـ٧٧ ، ر٠ا٠ ٦ـ١١ـ٧٧) ٠

والتمثيل الفلسطيني :

أما الخلاف حول انعقاد مؤتمر جنيف ، فهو الخلاف الاكثر الحاحا ، من بين كل المواضيع المختلف عليها بين الادارة الاميركية واسرائيل ، مع ان الخلاف كما تعتقد اسرائيل « ليس قائما بالنسبة لعقد المؤتمر بالذات ، لموافقتها على عقده من جديد هذا العام » (يديعوت احرونوت ٢٣ـ٩ـ٧٧ ، دافار ٦ـ١٠ـ٧٧) ، وانما الخلاف القائم هو بالنسبة « لتركيبة

المشاركين في المؤتمر والتمثيل الفلسطيني ، (المصدر نفسه) ٠

وكان موشي ديان قد وصف هذا الخلاف بـ « لعبة اليويو بين الجوهر والاجراء » (هآرتس ٢-١٠-٧٧) ، اي بين البحث في الجوهر و « العقبات التي تعترض الطريق الى جنيف قبل افتتاح المؤتمر ، وهو ما تصر عليه اسرائيل ، او « البحث في الاجراء فقط بالمفهوم التقني » لافتتاح مؤتمر جنيف قبل نهاية عام ١٩٧٧ ، وهو ما تصر عليه الولايات المتحدة ٠ ولذلك فان ديان يعتقد بان ما يريد الاميركيون فعله في الوقت الحاضر هو « فتح ثغرة تحت ستار الاجراء ، تمكن قطار الجوهر من المرور عبرها » ، وان الطلب الاميركي « الحاق موضوع الكيان الفلسطيني بجدول الاعمال ، وضمانة حضور وفد فلسطيني مستقل ، هو ثغرة واسعة كالنفق يمر عبرها قطار الدولة الفلسطينية في النهاية » (المصدر نفسه) ٠ ولهذا فان اسرائيل « غير مستعدة ولا توافق على الاطلاق ، في بحث هذين الامرين المطروحين لانها تكون قد وافقت مبدئيا على البحث بالدولة الفلسطينية » (المصدر نفسه) ٠

أما بالنسبة لتمثيل الفلسطينيين ضمن وفد عربي موحد ، وهو ما تسعى اليه الولايات المتحدة ، فان اسرائيل « ترفض تمثيلهم وبشدة » ، مدعية انه « ضمن وفد عربي موحد سيكون للفلسطينيين مكانة مشابهة لتلك التي للدول العربية ، وهذه المكانة قد تؤدي في نهاية الامر الى اقامة دولة فلسطينية ايضا ، حتى وان كانت في المراحل الاولى توصف بالوطن او « الكيان وهذا ما تريد اسرائيل ان تحول دونه » (يديعوت احرنوت ٢٣-٩-٧٧ ، ر١٠١٠ ٢٦ -٩-٧٧ ، هآرتس ٢-١٠-٧٧) ٠ ولذلك توافق اسرائيل فقط على « اشراك فلسطينيين في الوفد الاردني الى جنيف على ان لا يكونوا اعضاء في م٠ت٠ف٠ » (المصدر نفسه) ٠

والمسألة هنا ، كما تعتبرها اسرائيل ، ليست مجرد قضية اجرائية فقط ، اذ عندما ترفض اسرائيل فكرة امريكية بشأن وفد عربي موحد ، فانها لا تفعل ذلك لاسباب اجرائية ، وانما « بسبب التفسيرات التي قد تنشأ عن ذلك بالنسبة لوضع الضفة الغربية في المستقبل ، حيث لا يزال ثمة تفاوت كبير في المواقف بين الولايات المتحدة من جهة واسرائيل من جهة اخرى» (المصدر نفسه) ، وبالاضافة الى ذلك ، يعتبر هذا الموقف ايضا رفضا لاستراتيجية الادارة الاميركية الجديدة ، متمثلة بالرئيس كارتر نفسه ، « ببحثه عن نقطة ارتكاز بديلة لسياسته الشرق اوسطية ، عبر الدولة الاكثر تطرفا بين دول المواجهة، وهي سوريا » (هآرتس ٥-١٠-٧٧) لان نقطة الارتكاز « لم تعد في القاهرة » ٠ كما كان سائدا في عهد الرئيس نيكسون٠ وكان كيسنجر قد عبر مرة عن ذلك بوضوح حين صرح ان « مفتاح الحل في المنطقة هو في يد السادات » (المصدر نفسه) ، وهذا هو رأي اسرائيل التي لا تزال تعبر عنه في كل مناسبة ، وتسعى الى عقد حل جزئي مع مصر ٠ غير ان الرئيس كارتر يعتقد انه « لا يمكن الوصول الى حل سلمي ، في المنطقة بدون سوريا » لايمانه بأنه في « الاستجابة الى المطالب المتطرفة ثمة ارضاء لرغبات الدول المعتدلة ضمنا ، بينما الإستجابة الى المطالب المعتدلة ، لا تجيب على مشاكل الدول الاكثر تطرفا » ٠ (هآرتس ٥-١٠-٧٧) ٠

والوفد العربي الموحد الى جنيف ، في نظر اسرائيل ، « هو التعبير الملموس لوجهة النظر الاميركية الجديدة هذه » ، لان سوريا كانت « هي الدولة الوحيدة بين دول المواجهة التي تبنت هذه الفكرة ، وعرضتها على الولايات المتحدة ، كحل وحيد لانعقاد مؤتمر جنيف وكتنازل كبير

من جانبها » ٠ وقد تبناها الرئيس الاميركي كارتر وطرحها على « موشي ديان بحذافيرها » (المصدر نفسه) ٠

أما اسرائيل فتؤمن بعكس ذلك تماما ولهذا فانها « ترفض وفدا عربيا موحدا يضم ممثلين عن م٠ت٠ف٠ رفضا قاطعا وترى ان « الحل في المنطقة يتعلق بقدرة الولايات المتحدة على ايجاد قاسم مشترك بين اسرائيل والدول العربية المعتدلة » ٠ اما « القاسم المشترك بين اسرائيل وسوريا فلا يمكن الحصول عليه مطلقا » ٠ هآرتس ٥ـ١٠ـ٧٧) ٠

توفيق فياض

جـ ـ موقف اسرائيل من التمثيل الفلسطيني في جنيف

لا تزال عقدة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف المشكلة الرئيسية التي تواجه كافة الاطراف الساعية الى اعادة عقد المؤتمر ٠ ولا تزال معارضة اسرائيل لاي شكل من التمثيل الفلسطيني الذي لا يتطابق بالضبط مع رغباتها على أشدها ٠ ويبدو ان هذه المعارضة ناجمة عن مفاهيم اسرائيلية معينة غير قابلة للتغيير ٠

هناك عدد من الاسس الثابتة في السياسة الاسرائيلية بالنسبة للتمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، او بالنسبة لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ ويمكن تلخيص هذه الاسس على النحو التالي :

١ ـ ترفض اسرائيل ان تمثل منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر جنيف ، حتى لو أدى ذلك الى مواجهة مع الولايات المتحدة ، كما ترفض ان يكون في المؤتمر وفد فلسطيني مستقل ، حتى ولو لم يكن من غير اعضاء المنظمة ٠ ٢ ـ عدم السماح باقامة دولة فلسطينية ، حتى لو كانت مرتبطة بالاردن بحلف كونفدرالي ٠ ٣ ـ عدم الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ « فقد قال موشي دايان لكارتر ، ان فكرة دولة فلسطينية مرفوضة تماما ، وان اسرائيل تفضل شرخا في علاقاتها مع الولايات المتحدة على اقامة دولة فلسطينية كذلك ترفض ان يكون البيان السوفياتي ـ الامريكي اساسا للمفاوضات في مؤتمر جنيف ٠٠ وان قرار ٢٤٢ يبقى الاساس الوحيد لعقد المؤتمر » (هارتس ١٣ـ١٠ـ ٧٧) ٠

وجاء في تصريح اخر لموشي دايان « ان الامر المؤكد هو انه لا يمكن عقد مؤتمر جنيف بدون اسرائيل ، واسرائيل لن تغير موقفها من منظمة التحرير الفلسطينية ٠ وبالتالي لن تكون م٠ت٠ف٠ في جنيف ، حتى لو غيرت موقفها وقبلت بقراري مجلس الامن ٢٤٢ و٣٣٨ وغيرت ميثاقها الوطني ، فاننا سنرفض ان نجلس معها في جنيف ، الا انني اعتقد بأنها لن تغير موقفها هي الاخرى » (هارتس ١٢ـ١٠ـ٧٧)٠

أما رئيس الحكومة مناحم بيغن ، فانه كان اكثر تشددا بالنسبة للمواضيع

الثلاثة ، الدولة الفلسطينية ، التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف كوفد مستقل ، سواء مثل م٠ت٠ف او لم يمثلها ، والانسحاب من الضفة الغربية وحول هذه المواضيع قال بيغن : « ان اسرائيل لن توافق على اقامة دولة فلسطينية ، بأي حال من الاحوال ومهما كانت النتائج ٠ ولن توافق ايضا على تسليم يهودا والسامرة » (اي الضفة الغربية) لسلطة غريبة ولسيادة غريبة ٠ واضاف ان حكومته ماضية في مخططاتها الاستيطانية وهي تعتبر الضفة جزءا من اسرائيل ، لذا لا يمكن التحدث عن استيطان غير قانوني في جزء من اسرائيل » (ر٠ ا٠ ٦ ـ١١ـ ٧٧) ٠

أما عن جنيف واشتراك الفلسطينيين فقد قال بيغن انه لا يوافق على اشتراك وفد من م٠ت٠ف ، لا كوفد مستقل ولا كأعضاء في وفد موحد او في وفود عربية ، « كما انه لا يوافق على اشتراك وفد باسم فلسطين ، وانه يوافق على حضور رؤساء البلديات من الضفة الغربية فقط ، اذا اعلنوا بكل وضوح انهم ليسوا من رجال م٠ت٠ف » (المصدر نفسه) ٠

وكان دايان قد اوضح هذا الموقف منذ فترة ، بقوله : « اننا نرفض بشكل قاطع منظمة التحرير الفلسطينية ، حتى لو ان هذه المنظمة قبلت قرار ٢٤٢ وغيرت الميثاق الوطني ، فاننا نعارض بشدة ان نجلس معها ٠ والسبب ان لمنظمة التحرير الفلسطينية مضمونا خاصا ، وهو القضاء على اسرائيل وتدميرها اذن لماذا يجب علينا ان نجلس مع هذه المنظمة ؟ ومن اجل اي موضوع ؟ وعندما نفاوض وفدا اردنيا بين اعضائه فلسطينيون ، فان اجابتنا تكون كما يلي : اننا نجلس مع هذا الوفد كي نبحث معه العلاقات بيننا وبين الاردن ٠ ومن جهة اخرى العلاقات بيننا وبين العرب الفلسطينيين سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ٠٠٠ لكن اذا كان هناك وفد خاص من منظمة التحرير الفلسطينية ، او وفد فلسطيني فمعنى ذلك اننا نجلس مع هذا الوفد من أجل بحث اقامة دولة فلسطينية والسؤال ليس مع من تجلس ، بل ما هو الموضوع الذي تفاوض من أجله » (يديعوت احرونوت ١٩ـ٨ـ٧٧) ٠

وكان دايان قد اقترح ان يكون في مؤتمر جنيف فلسطينيون ضمن الوفد الاردني ، واعرب عن استعداده لمفاوضة فلسطينيين على انفراد ، ولكن « ليس في جنيف ، ولا من فلسطينيي منظمة التحرير ، وليس حول دولة فلسطينية ٠ لذلك نفضل التفاوض مع رؤساء البلديات في الضفة والقطاع كممثلين للعرب الفلسطينيين حول طريقة الحياة المشتركة معنا » (المصدر نفسه) ٠

وكان مناحم بيغن قد سارع بعد عودته من الولايات المتحدة ومباحثاته مع كارتر الى استصدار جملة قرارات من الحكومة والكنيست ، برفض م٠ت٠ف٠ كليا كطرف مفاوض ، وقرار بمساواة الخدمات في الضفة والقطاع ، واقامة ثلاث مستوطنات وفقا لقرار من الحكومة السابقة ٠ لقد اراد بيغن بذلك توضيح الركائز السياسية التي تستند اليها حكومته ، ووضعها امام الولايات المتحدة ، بهدف تقييد المجال الذي يمكن لكارتر ان يتحرك ضمنه ، بالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط ٠ وتتمثل هذه الركائز في تقوية الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، الذي يعني عدم الانسحاب وبمساواة في الخدمات ومعناها تطبيق القانون الاسرائيلي في تلك المناطق كخطوة اولى لضمها لاسرائيل ، ثم رفض م٠ت٠ف كطرف مفاوض في جنيف ، او في اي اطار اخر ، ومعنى ذلك عدم الموافقة على قيام دولة فلسطينية ٠ « هذه هي العلامات البارزة في الخط السياسي الاسرائيلي المناهض للرغبة المعلنة من قبل الولايات

المتحدة · وقد قوبل هذا الخط ـ خـــط التحدي ـ الذي سلكه بيغن بعد زيارته للولايات المتحدة بالاستغراب » (هارتس ٢٦ـ٨ـ٧٧) ·

الا ان المراقبين يعتقدون « ان هـذه الاجراءات التي اتخذها بيغن في اعقاب زيارته للولايات المتحدة ، بدأت تعـطي ثمارها ، فهي التي ستجعل منظمـــة التحرير الفلسطينية ترفض قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وبهذا تكون قد سدت الطريق على نفسها لاجراء اتصالات رسمية مـع الولايات المتحدة · وان بيغن ودايـان يمكنهما الزعم ان الخط الذي سلكاه ، هو الذى حال دون قبول م·ت·ف للقـــرار المذكور ، وبهذا تكون المنظمة قد خسرت الاعتراف الضمني من قبل الولايات المتحدة بها » (المصدر نفسه) ·

لقد دعم هذه المقولة تصريح شخصية بارزة من م·ت·ف· على حد قول صحيفة هارتس ٢٦ـ٨ـ٧٧ ، حيث قال « ان الموقف الاسرائيلي المتشدد والذي بقي دون رد فعل من قبل الولايات المتحدة ، اقنـــع الفلسطينيين بأنهم لا ينبغي ان يكونوا معتدلين ، او متنازلين ، وان قبولنـــا ـ تضيف الشخصية نفسها ـ لقرار مجلس الامن ٢٤٢ لن يغير من الامـــر شيئا · فالرئيس كارتر لا يمكنه ان يمارس ضغطا على اسرائيل اذا لم تعترف المنظمـــة باسرائيل ، حتى من أجل دعوتنا الى مؤتمر جنيف فقط » ·

ويعتقد المراقبون ، انه اذا تحقق فعـلا رفض م·ت·ف بهذا القرار ، فان الميـزان السياسي لحكومة بيغن سيكون ايجابيا جدا ، الامر الذي يفتح الطريق امـــام اسرائيل لاعادة العلاقات الطبيعية والجيدة مع الولايات المتحدة · لكن عدم اشتراك م·ت·ف· قد يؤدي الى عدم عقد مؤتمر جنيف نهائيا ، والى عدم التوصل الى أية تسويات جزئية كما يتوقع دايان ، بـل سيؤدي بالضرورة الى حالة جمود فـــي الوضع السياسي ، لا خروج منه الا بحرب اخرى · « لقد اوضح دايان بشكل قاطع ان اسرائيل ستعارض اي مشروع يهـدف الى اقامة دولة فلسطينية في الضفة وقطاع غزة ، كما ستعارض تمثيل م·ت·ف· في مؤتمر جنيف ، حتى اذا وصلت الامور الى حالة جمود تام · وقال ان هذا العمـــل سيكون انتحارا بالنسبة لنا ، ولن نسهم فيه بأيدينا ، واذا كانت هناك قضيـــة تستحق ان [نصر على موقفنا بالنسبـــة لها] فهي الضفة الغربية · ولا يمكن ان نوافق على مشروع كارتر لاقامة دولـة فلسطينية في الضفة الغربية ، وليس مهما اذا قبلت م·ت·ف· قرار ٢٤٢ او ٣٣٨ · واقترح من أجـــل حل قضية اللاجئيـــن توطينهم فى الاردن ولبنان » (يديعـوت احرونوت ٢٤ـ٨ـ٧٧) ·

التحول في السياسة الامريكية

تعتقد الدوائر السياسية في اسرائيل ان تحولا ملحوظا قد طرأ على السياســـة الامريكية المتعلقة بالشرق الاوسط ، وان هذا التحول برز عندما تحدث كارتر عن وطن فلسطيني ، وطالب باشراك م·ت·ف في مؤتمر جنيف ، وذلك بتاريخ ٨ـ٣ـ ١٩٧٧ ·

لكن هناك من يعتقد ان هذا «الانجراف» في الموقف الامريكي بدأ في ٢١ـ١٠ـ١٩٧٣ خلال المفاوضات الساخنة بين بريجنيـــف وكيسنجر في موسكو ، حول صيغة قرار مجلس الامن ٣٣٨ ·

« ان هذا القرار الذي فرضته الدولتان الكبريان ، دعا الى مفاوضات سلام بين الاطراف ، وهذا خلافا لقرار ٢٤٢ الذي دعا الى ايجاد حل سلمي بين الـــدول المعنية · واذا لم يكن هذا التغير فـــي الاصطلاح ذا اهمية في تلك الفترة ، فانه قد وضع حجر الاساس ـ بناء على مطلب

سوفياتي ـ في جعل الولايات المتحدة توافق على فتح الباب اما الفلسطينيين » (يديعوت احرونوت ٢٠ـ١٠ـ٧٧) ٠

ويؤكد الاسرائيليون هذا الرأي مستشهدين برسالة الدعوة لمؤتمر جنيف ، التي ارسلت في كانون الاول ١٩٧٣ ، حيث « كتب رئيسا المؤتمر بأن الاطراف المعنية وافقت على امكانية دعوة اطراف اخرى لدى انعقاد المؤتمر ٠ وكان قد ورد بوضوح في المسودة الاولى للدعوة ، انه في المرحلة الاولى سوف تبحث مسألة دعوة الفلسطينيين واللبنانيين ٠٠ وقد اثارت هذه الصيغة غضب رئيسة الحكومة السابقة جولدا مائير ، التي رفضت تسلم الدعوة ٠ وعلى الاثر قام الرئيس نيكسون بارسال مذكرة يتعهد فيها بأن دعوة اطراف اخرى لن تتم الا بموافقة جميع الدول المشتركة في المؤتمر » (المصدر نفسه) ٠

وعندما ازدادت ، مع مرور الوقت ، مخاوف الاسرائيليين من ان حكومة الولايات المتحدة قد تغير موقفها تجاه م٠ت٠ف ، قررت حكومة رابين ادراج هذا الموضوع على جدول مفاوضاتها مع الولايات المتحدة ، حول الاتفاق الجزئي مع مصر عام ١٩٧٥ ٠ وبالفعل تم التوصل الى مذكرة تفاهم وقع عليها الطرفان ٠ وفي تلك المذكرة التي عرضت على الكونغرس وتمت المصادقة عليها ، نصت احدى الفقرات « بان الولايات المتحدة لن تعترف بمنظمة التحرير ولن تجري اي اتصال معها ، طالما ان هذه المنظمة لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ، ولا تعترف بقراري ٢٤٢ و ٣٣٨ » (يديعوت احرونوت ٢٠ـ١٠ـ٧٧) ٠

ولقد بدا كأن هذين الشرطين اغلقا الباب على امكانية اعتبار م٠ت٠ف طرفا في مفاوضات السلام في اي وقت لاحق٠

ولكن مع مرور الوقت ، ونتيجة لمواقف وسياسات اميركية مختلفة ، بدأت تتبلور لدى الاسرائيليين اراء اخرى مفادها ان هناك بديهيتان انغرستا في رأس كارتر ، الاولى : لا حل بدون اشتراك الفلسطينيين في جنيف ٠ والثانية والمكملة لسابقتها فهي « ان الفلسطينيين هم م٠ت٠ف ٠ (هآرتس ٢٦ـ٩ـ٧٧) ٠

ويعتقد الاسرائيليون انه لم يطرأ اي تغيير فعلي على النظرية الامريكية لكيفية احلال السلام في المنطقة ٠ فوفقا لهذه النظرية ، لا توجد لدى الولايات المتحدة اية مشكلة بالنسبة للفلسطينيين ولمنظمة التحرير ، فهي تؤمن انه بدون الاثنين معا لا يمكن ان يتم التوصل الى تسوية ٠ اما جولة سايروس فانس للشرق الاوسط فقد عرضت موقفا امريكيا جديدا ، تنازل عن المطالبة ببعض الشروط الموضوعة للقبول بمنظمة التحرير طرفا في جنيف، او الاعتراف بها ٠

واول شرط تنازلت عنه الولايات المتحدة ـ من وجهة نظر اسرائيلية ـ هو مطالبتها المنظمة بالاعتراف بحق اسرائيل بالوجود « واكتفت ، اي الولايات المتحدة ، بمطالبة المنظمة بالاعتراف بقرار ٢٤٢ مع التحفظ على الفقرة التي تتحدث عن الفلسطينيين كلاجئين ، واستبدالها بفقرة تؤكد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ٠وفي وضع كهذا سترى ادارة الرئيس كارتر في هذا الاعتراف موقفا يمكنها من اجراء اتصالات مع م٠ت٠ف٠ وقبولها طرفا في جنيف » (يديعوت احرونوت ١٩ـ٨ـ٧٧)٠

وقبل ان يبدأ فانس جولته في الشرق الاوسط ، وقبل سماعه لوجهات النظر الاسرائيلية والعربية ، كان الرئيس كارتر قد سبقه في خلق حقيقة سياسية جديدة في الشرق الاوسط ، حين قال : « ان كل شيء ، او تقريبا كل شيء ، اصبح متعلقا الان بمنظمة التحرير الفلسطينية ٠وليست

هناك حاجة لان تغير المنظمة ميثاقها الوطني ، بل يكفي ان تقبل بقرار ٢٤٢ ،مع اضافة فقرة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » (دافار ١٨ـ٨ـ٧٧) ٠

لذا فان الاعتقاد السائد لدى الدوائر الاسرائيلية هو انه اذا قبلت م٠ت٠ف٠ الاقتراح الامريكي ، فسوف يخلق وضع جديد في النزاع العربي الاسرائيلي ٠ ان لهذا الامر احتمالين ، الاول ، خيالي ويفتقد الى الواقعية ، وهو ان تخضع اسرائيل ، وعليه تشترك م٠ت٠ف في جنيف ، وبالنتيجة اقامة دولة فلسطينية تتزعمها م٠ت٠ف ٠ والاحتمال الثاني ، ان لا تخضع اسرائيل ومن ثم تبقى ملتزمة بموقفها بعدم التفاوض مع المنظمة تحت اي ظرف من الظروف ، والنتيجة عدم اقامة دولة فلسطينية ٠٠٠ الا ان النتيجة الراجحة والمعقولة لمحاولة ضم المنظمة للمفاوضات في جنيف ، هي الاقتراب من حافة الحرب الشاملة في الشرق الاوسط، وربما الانزلاق لاكثر من هذا ، وهذه هي ـ في نظر الاسرائيليين ـ المفارقة الخطيرة التي وقعت فيها السياسة الامريكية » (دافار ١٨ـ٨ـ٧٧) ٠

احتمالات الصدام

منذ ان تحدث كارتر عن الوطن الفلسطيني ، والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وحل مشكلة الشرق الاوسط، لم تكف القيادة الاسرائيلية عن اطلاق التصريحات والبيانات ، مسخرة كل اعلامها للترويج لنقطة واحدة ، وهي التحول في الموقف الامريكي في غير صالح اسرائيل ، ومن ثم اقتراب احتمالات الصدام السياسي مع الولايات المتحدة ٠

فالاسرائيليون يعتقدون انه كان لجولة فانس في المنطقة هدفين ، الاول التركيز على ان الجانب العربي مرن ومعتدل ، والثاني ، « خلق رأي عام عالمي ، ينظر لاسرائيل على انها هي الدولة المتعنتة ، التي لا تبدي اية مرونة تجاه تسوية مشكلة الشرق الاوسط ، لكي لا تصل امريكا بالنهاية الى المساس باستراتيجية بيغن ، واضعاف الفرضيات الاساسية في سياسته ، الرافضة للانسحاب من الضفة والقطاع ، والاعتراف بالفلسطينيين ، واقامة دولة فلسطينية ٠ ولم تكن تلك الجولة تهدف الى خلق صدام في هذه المرحلة المبكرة ، لان هذا الصدام يتطلب بان يدفع كارتر ثمنا سياسيا باهظا ٠ الا ان الجولة حققت هدفا اضافيا وهو الغاء مضمون مذكرة التفاهم الامريكية الاسرائيلية » (معاريف ٢٦ـ٨ـ٧٧) ٠

اما صحيفة دافار ٣٠ـ٩ـ٧٧ فقد تحدثت عن نفس الموضوع بقولها : يخيل ان كارتر يحاول وبصمت ان يمهد الطريق لخلق موافقة جماهيرية في العالم وفي الولايات المتحدة ، لضم م٠ت٠ف٠ للمفاوضات في جنيف ، اذا ما وافقت المنظمة على قرار ٢٤٢ في أية مرحلة كانت ٠ ويبدو ان الولايات المتحدة قد اوعزت للدول الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة ٠ لاصدار بيان يدعو لاقامة دولة فلسطينية ، وذلك لكي يبدو كأن هناك اجماعا عالميا حول هذا الموضوع » ٠

ويقول المراقبون الاسرائيليون « ان هذا الواقع السياسي الجديد لا يؤدي الى صدام معنا حتى الان ، لان جنين الدولة الفلسطينية لا زال مطويا في رحم الدبلوماسية الامريكية ٠ لكن الصدام يصبح وشيكا عندما ينمو هذا الجنين ، الذي يجب ان نجند كل قوانا من أجل القضاء عليه وهو لا يزال في الرحم » (معاريف ٢٦ـ٨ـ٧٧) ٠ ان « هدفنا الاساسي هو انه حتى اذا قبلت م٠ت٠ف

قرار ٢٤٢ وغيرت ميثاقها الوطني ، فأن اسرائيل لا يمكنها ان تسلم باقامة كيان فلسطيني مستقل في الضفة والقطاع ... واذا كان قد طرأ اي تراجع على الموقف الامريكي . فليس هناك تراجع في ارادة واصرار اسرائيل على الحيلولة دون اقامة دولة فلسطينية على انقاض دولتنا، حتى لو كان هذا بمساعدة الولايات المتحدة» (معاريف ٢٥-٨-٧٧) .

لقد حاولت اسرائيل خلق عقبات امام اراء كارتر ، فقد زعمت انها ليست هي الدولة الوحيدة التي تعارض سياسته ، بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وفي هذا الصدد اعلن موشي دايان « ان الملك حسين (ايضا) لا يعترف بمنظمة التحرير وهو بالتالي يرفض عودة المنظمة الى بلاده . وهكذا فان كارتر لا يواجه وضعا يبدى فيه الاردن مرونة ، بل ان كلا الدولتين ، الاردن واسرائيل ترفضان اراء كارتر بشأن اقامة وطن للفلسطينيين يتزعمه ياسر عرفات » (معاريف ١٥-٩-١٩٧٧) .

وكان سفير اسرائيل في الولايات المتحدة ، سمحا دينتس ، قد هاجم الاتجاه الامريكي لاجراء حوار مع م.ت.ف بقوله : « ان هذا الاتجاه يعني ، من الناحية العملية معارضة استمرار التواجد الاسرائيلي في الضفة الغربية ، وان في واشنطن الان قرارا جديا للطلب من اسرائيل الانسحاب من الضفة والقطاع من اجل اقامة وطن للفلسطينيين ، وكذلك مطالبة اسرائيل بحل مشكلة التمثيل الفلسطيني في مفاوضات السلام »(معاريف ١٥-٩-٧٧) .

مكرم يونس

مكانة الأدب ووظيفته

في تسجيلنا هذا السؤال على رأس جدول اعمالنا ، تواجه حلقتنا الدراسية مجموعة من الاسئلة المفتوحة التي جرت حولها مناقشات واسعة · لا تطمح هذه المقدمة الى صياغة « موضوعات » ، بل الى طرح اسئلة وتقديم فرضيات ·

١ ـ

عندما نتكلم عن « الادب » ، فاننا غالبا ما ننسى ، ان لهذا الاصطلاح تاريخا · وانه لم يحل مكان الاصطلاحات الاخرى الا في فترة متأخرة · يضاف الى ذلك ، ان استخدام هذه الكلمة هو اليوم موضع جدل ·

وما يسمى تقليديا ، حتى اليوم ، « ادبا » ، يحتل مكانة مبهمة في مجتمع تسيطر عليه رأسمالية الدولة الاحتكارية ·

فمن جهة ، يحتفل هذا المجتمع « بالكاتب الكبير » ويعامله ايضا عندما

هذا المقال ، هو التقرير الاول المقدم الى حلقة دراسية عقدها مركز الدراسات والبحوث الماركسية في باريس ١٩٧٥ · ونوقشت فيها ثلاث مسائل · (١) مكانة ووظيفة الادب · (٢) الكتاب ومستقبله : الانتاج والتوزيع · (٣) حول وضعية الكاتب · وقد شارك في هذه الحلقة الدراسية حوالي مئتي مشترك ، كتاب ، نقاد ، ناشرين ، موزعين ····

وقد صدرت اعمال هذه الحلقة في كتاب مستقل عن المنشورات الاجتماعية في باريس عام ١٩٧٦ ·

تقتضي الحاجة « كالنجوم » · فيتصرف المجتمع وكأن قيمه العليا هي القيم الروحية ·

لكنـه ، يطور من ناحية اخـرى ، مالتوسية ثقافية يكـون الادب ضحيتها الاساسية · فالازمة العامة للمجتمع الرأسمالي تؤثر على الادب تأثيرا عميقا ·

٢ ـ

على الادب اذن ، ان يواجه شروطا مادية صعبة · تبررها وتموهها في آن ، ايديولوجيات تسعى الى جعل الادب مجرد نشاط كمالي ، « هربا » و « روحانيـة اضافية » ·

تقوم بعض اتجاهات النقد « الحديث » ، بتثبيت هذا المفهوم التقليدي للادب ، عبر ممارسة تقنية ، تعالج الادب كشبكة من المعطيات الشكلية ·

ان الجواب على هذه الايديولوجيات ، عبر استخدام نقيضها المنهجي ، مضر جدا · وهذا النوع من الاجابة ، يتمفصل حول موضوعتين متكاملتين ·

أ ـ تقليص دور الادب « المهيمن » المعاصر والقديم (والذي يدعى في الحالتين الادب البرجوازي) الى مجرد اداة ايديولوجية للطبقة المهيمنة تستخدمها مـن اجل اعادة انتاج علاقات الانتاج والايديولوجيا ·

ب ـ تقليص دور الادب « المعارض » لا بل « الثوري » ، الذي يعرف بوصفـه مناوئا للنوع السابق ، الى مجرد اداة « تخريب » ايديولوجية وسياسية ·

هذا المفهوم ، الذي لا يزال واسع الانتشار في صفوف جمهور يريد المشاركة باخلاص في عملية التغيير الثوري للمجتمع ، يتناقض والتقليد الثوري فـي الماركسية ·

فالماركسية لا تتجاهل العلاقـات بين « المستـوى السياسي » و « المستوى الادبي » ، الادبي لا يمكن ان يكون معزولا · فالادب يتعامل مع التاريخ السياسي والاجتماعي في علاقات معقدة لا تزال بحاجة الى توضيح فـي كثيـر مـن الحالات · فضلا عن ذلك ، فالمادية التاريخية هي التي تسمح بطرح صحيح لهذا السؤال الهام : ما هي الاشكال التي تجعل العمل الادبي يساهم فـي عمليـة التغيير الثوري والديمقراطي للمجتمع ؟

لكن في الوقت نفسه ، فان الماركسية لا ترفض « الادب البرجوازي » باسره بوصفه رجعيا · بل تخضع مفهوم « الادب البرجـوازي » نفسه لنقـد صارم · وكتابات الماركسية الكلاسيكية من البيان الشيوعي الى لينين ، شددت دائمـا على الضرورة الملحة في ان يمارس الثوار عملية استيعاب نقـدي للتـراث الثقافي ، بما في ذلك الادب « البرجوازي » و « الاقطاعي » ·

من جهة اخرى ، فان تاريخ قراءة الاعمال الادبية ، يشير الى امكانية ان يحمل نص ما ، معنى ثوريا دون ان يعيه كاتبه · كما نلاحظ ايضا ، ان اعمالا غنية بالنوايا الايديولوجية ، هي مجردة من البعد الجمالي ، ولا تبقى الى ما بعد العصر الذي كتبت فيه · اليس من الضروري اذا ، ان نميز في الادب ، بين البعد الايديولوجي الموضوعي والبعد الذاتي ؟ اليس في هذا التمييز يقع اساس حرية التعبير ، وحق الكاتب في **البحث** و **الاختبار** ؟ ألم ينجم عن اخذ هذا التراث الادبي على عاتقنا ، ضرورة اخذ ادب اليوم على عاتقنا ايضا ؟ وذلك لسببين متكاملين : كوننا **نركب** الارث الادبي في الحاضر ، بالعلاقة مع الجهد الابداعي لكتاب اليوم (ومن المفيد دراسة هذه العلاقة ، اذا كان القراء والكتاب يعيشونها بالطريقة نفسها) · وكون هذا النشاط الابداعي يطرح على قراء اليوم والغد اسئلة شبيهة بالتي طرحتها ولا تزال تطرحها الاثار المكتوبة في الماضي ·

٣ ـ

عبر جهدهم الدائم في النضال ضد تقليص الادب الى مجرد مركبات سياسية وايديولوجية ، اعد الماركسيون التربة للطريق المؤدية الى الاعتراف بخصوصية الادب ووظيفته · كتب انجلس عام ١٨٨٨ الى الانسة هاركنس انه « تعلم ـ من قراءته لبلزاك ، حتى فيما يتعلق بالتفاصيل الاقتصادية (···) ، اكثر مما تعلم من قراءة كتب جميع المؤرخين والاقتصاديين والاحصائيين المحترفين المعاصرين » ·

وعام ١٩٦٦ ، اعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في ارجنتوي ان « ··· الخلق الفني والادبي هو ثمين مثل الخلق العلمي ، واحيانا يفتح له الطريق » ·

ان تصريحات كهذه ، وتصريحات اخرى كثيرة صدرت عن ماركس ولينين وغرامشي ، الخ · ، لا تكون علما للجمال · ولكنها توصي بلا ريب ، بانه يمكن اعتبار الادب **نشاطا من نشاطات المعرفة** ·

ويمكننا تعريف النشاط المعرفي باعتباره **ممارسة نشطة لتملك العالم الخارجي عن طريق الفكر** ·

« ان الكل ، كما يظهر للذهن ككل فكري ، هو نتاج العقل المفكر الذي يتملك العالم بالطريقة الوحيدة الممكنة له · طريقة تختلف عن التملك الفني او الديني او الممارسة الروحية في هذا العالم » (١) ·

---

١ ـ كارل ماركس · مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي · في مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي المنشورات الاجتماعية · باريس ·

ان اعترافنا بهذه الوظيفة المعرفية للادب ، يعني اننا نعترف له ايضا ، ومن وجهة نظر اخرى ، بالحق في البحث والاختبار ؟ حينئذ لا تعود وظيفة الادب هي تصوير المعرفة المعطاة سلفا والمسجلة عبر وسائل اخرى (التاريخ ، السياسة ، السيكولوجيا والعلوم الانسانية) بل تصبح وظيفة **اكتشاف واستباق** ؟ يمكننا ان نقول مثلا ان وظيفة الفن والادب انهما « يجعلان صمت التاريخ يتكلم » ٠ وان نؤكد ان المبدع ليس مجرد صانع منتجات اعطيت موادها له ٠ انه ليس مجرد « مولف » ٠

٤ ـ

يجب تقدير الدور المعرفي الذي يلعبه الادب في خصوصيته بالنسبة الى : ـ

أ ـ العلوم والنشاط النظري والايديولوجي والسياسي التي تستخدم ايضا اداة **اللغة** ٠

ب ـ بالنسبة للميادين الثقافية الاخرى ، خاصة التي تعود الى « اللعب » والتي ندعوها « اللهو » ٠ وفي هذا المضمار ، هل يمكننا فصل الادب عن هذه الميادين؟ أليس الادب على علاقة باللهو واللذة كما كان يفكر برشت؟ هل التمييز بين الادبي واللاأدبي (او بين الادب السيء او الانواع الثانوية الخ ٠) هو تمييز مشروع ؟ أيمكن ان يستعير الاول من الثاني مادة يسترعبها فيما هو يغيرها ؟

ج ـ بالنسبة للفنون الاخرى بما فيها تلك التي تستخدم الاساليب الجديدة في التعبير (السينما ، الراديو ، التلفزيون) والتي اصبحت تحتل جزءا من الحيز الذي كان يغطيه الادب تقليديا ٠

يبدو ان البحث في الطابع الخاص الذي للادب ، يطرح بعض الاسئلة الاولية ٠

أ ـ هناك عدد من الاختصاصات والمقتربات المختلفة (علم اللسان ، التحليل النفسي) تسمح لنا دون شك ، بان نحيط بشكل افضل بمكونات العمل الادبي ٠ ولكن اليس علينا ان نسهر على ان لا يحدد اختصاص واحد تعريف **ما هو الادب** ، بمفاهيم تستثني المقتربات الاخرى ؟

ب ـ هل يمكن صياغة تعريف صحيح لوظيفة الادب على الشكل التالي : « الادب هو ٠٠٠ ؟ »

اليس من الافضل ان نفهم هذه الوظيفة بوصفها **علاقات** ؟ وبصورة اعم ، اليس علينا ان نؤكد على **تاريخية** تفكيرنا ؟

ج ـ ومن اجل استكمال طرحنا يجب الاشارة الى صعوبة : فالموضوع ليس فقط في ابراز علاقة تطور اجتماعي معين في تحديد ادب ما ٠ بل ايضا ، في

فهم ما يعنيه ماركس في كلامه عن جمال الفن اليوناني الدائم » · أليس علينا ايضا ان نأخذ بعين الاعتبار الجانب « الذي يتجاوز التاريخ » في الفن والادب ؟

فالنشاط المعرفي ، مصدر « اللذة » « يمكن ان نفهمه بمعناه الاوسع : وظيفة النقد ، وظيفة التمثيل ، وظيفة الاكتشاف والاستباق · عمـــل علـــى الموروث الثقافي · ودون شك ، وعلى اعمق مستوى من خصوصيته **عمل في اللغة وعـلى اللغة** ·

هل يمكننا ان نعتبر ، ان الذي يحدد خصوصية الكاتب في النهاية ، بالنسبـة الى ممتهني الكتابة الاخرين (النقاد ، المؤرخين ، الصحفيين الخ ·) هو فـــي كونه لا يستخدم اللغة في اولويتها **كاداة بل كمـــادة** ؟ بعض علمـــاء اللسان يحددون وظيفتين للغة : فهي تحمل رسالة وهي وسيلة فعل · « التعبيـــر » و « الفعل » · اليست الوظيفة الثانية هي التي تعطي الكاتب خصوصيته · فخاصية عمله تبدو في الاشارة *Signifiant* دون احتجاب الدلالة *Signifié* ان العلاقة اشارة / دلالة في عمله ليست منفردة بل متعددة ؟

جميع هذه الاسئلة هي للنقاش · فلقد حاولنا هنا ابراز محاور للتفكير ولبحث جماعي يجب تطويرها بدلا من تقديم اجوبة ·

ونقاشنا ، يجب ان يظهر لنا بوضوح ، ان حرية الابداع ليست امتيازا خاصا بالمبدعين ، بل ضرورة تخص المجتمع ككل ·

فيصـــل دراج

ان الزمن الذي تسود فيه ذروة الاضطهاد هو الزمن الذي يكثر الحديث فيه عن الاشياء العظيمة والسامية » ٠

بريشت

بَعض الاسـئلة حول وضـع الواقعيَّـة الاشـتراكيَّـة

منذ « ذوبان الجليد » والواقعية الاشتراكية حقل لصراع ايديولوجي ، ميدان لنقد ونقد ذاتي ونقد مضاد ٠ لكن الكلمات ليست بريئة دائما ، فالكلمة غلاف لموقف ، تقدمه واضحا احيانا ، ومقنعا احيانا اخرى ٠ وطالما ان الاستشهادات ليست بريئة والكلمات مواقف لذلك ينبغي علينا ان نعرف من اين يأتي النقد ، الارضية التي ينطلق منها والغاية التي يتجه اليها ٠

لم تعش الواقعية الاشتراكية تاريخها بشكل مستقيم ـ فالمستقيم لا وجود له الا في عقل واهم ـ بل حايثت تاريخ الحركة العمالية في صعودها ، نجاحاتها ، واخفاقها ٠ لهذا فان تاريخ الواقعية الاشتراكية او تاريخ « الواقعيات الاشتراكية » مركب ، معقد تعايش فيه النجاح والاخفاق لذلك نقول ان تاريخ الواقعية الاشتراكية ككل تاريخي هو تاريخ « الواقعيات الاشتراكية » ٠

ان ما هو مأساوي في تاريخ الواقعية الاشتراكية ليس عمرها الستاليني فحسب بل حجم الرفض والنقد الذي اعقب ذلك العمر ، رفض ونقد من الاعداء والانصار معا ، « لم يكتف بقذف الماء القذر بل قذف بالطفل ايضا » ٠

يمكن ان نميز ثلاثة مواقف « نقدية » ازاء الواقعية الاشتراكية :

ـ الموقف الاول لا يعالج الواقعية الاشتراكية على ارضية الفن بل يشدها مباشرة الى حقل السياسة والايديولوجيا ، فهو لا يرفضها كموقف فني من العالم بل يرفض منطلقاتها النظرية ٠ اي يقف ضدها وضد ايديولوجيا الطبقة العاملة وتنظيماتها السياسية ٠ ان هذا النقد يندرج في عملية الصراع الايديولوجي والطبقي ، وبذلك يفقد موضوعيته الظاهرية بداهة ٠

اذا كان النقد السابق ينطلق من مواقع تناقض قطبيا ايديولوجيا الطبقة العاملة وممارساتها السياسية فان الموقفين النقديين الاخرين ينطلقان من الارضية الايديولوجية للطبقة العاملة ، موقف يعود الى التاريخ ويحاول اعادة كتابته :

ـ لا يرفض اولهما الواقعية الاشتراكية في ذاتها ، بل يمحور نقده على اجهزة الدولة التي تكبح تلقائية الفنان وتحاصر عمله الفني وتستبيح انتاجه · معنى ذلك ان « المراجعة » تتجه الى آلة الدولة وممارساتها اللاديمقراطية ، وبالتالي فان تحرير جهاز الدولة من البيروقراطية كفيل بنهوض الواقعية الاشتراكية ·

ـ اما الموقف الثاني ـ الذي ينطلق كسابقه من الارضية النظرية للطبقة العاملة ـ فيرفض الواقعية الاشتراكية كنظرية معتبرا اياها موقفا مثاليا · فالنظرية لا تسبق الفن بل ترافقه او تتبعه ، فاعتبار كل الحقيقة موجودة سلفا في نظرية يشكل تخلفا للفن وتخلفا عن الحياة ، اضف الى ذلك ان وضع النظرية في الفن مسألة اشكالية ، منطق جامد ، فالجديد سرمدي · ينبغي ان ينطلق التنظير من **داخل** الفن لا من واقع النظرية · وهذا يعني ان « نظرية » الواقعية الاشتراكية بشكلها المؤسساتي او الدغمائي نظرية مثالية تخضع الواقع للفكر لا الفكر للواقع ، تنطلق من اولوية النظرية مع ان نقطة كل انطلاق هي الممارسة · وبالتالي فان الوصول الى « نظرية » للادب يتم داخل الادب ·

اذا كان النقد المثالي (البرجوازي) يفقد موضوعيته بداهة ، فان النقد الثاني ، على الرغم من تمايزه ، ينطلق من التاريخ الموضوعي والنظرية الحية · لذلك فانه قادر على رسم جملة مؤشرات تسمح باعادة قراءة الواقعية الاشتراكية ووضعها من جديد في حقل الفكر العلمي ، فهو يشير الى آلة الدولة والى النظرية المادية في المعرفة ، اي يدعو الى ممارسة سياسة جديدة وممارسة نظرية جديدة في حقل الفن والادب ·

ان النقد السابق الموجه للواقعية الاشتراكية بشكليه المثالي ـ البرجوازي والمادي ـ البروليتاري مكتوب في عملية الصراع الطبقي المستمرة التي تدور بين قوى الثورة/الثورة المضادة من ناحية وبين صفوف الطبقة العاملة من ناحية اخرى ·

ان كل مقاربة او قراءة نقدية للواقعية الاشتراكية لا يمكن ان تخطو في مسارها الصحيح الا بالتأكيد على حقيقتين :

ـ الممارسة الفنية تتمايز عن الممارسة السياسية · لكل منهما شكل اقترابه الخاص من الثورة ·

ـ الحياة لا تخضع للنظرية الجاهزة بل العكس تماما دون اغفال الدور الذي تلعبه النظرية في الممارسة بكل اشكالها ·

يبقى مع ذلك موضوع الواقعية الاشتراكية شائكا ، بسبب الادوار المختلفة التي مرت بها ٠

لقد ترك الفن المرتبط بالطبقة العاملة ـ او ما يحصر في اطار الواقعية الاشتراكية ـ ظلاله على كل القرن العشرين ، بل كان في اكثر من مجال طليعة وابداعا حقيقيا ٠ قد يكون من السهل ادانة الواقعية بشكلها الجدانوفي ، لكن ذلك لا يمحو ولا يستطيع ان يمحو ما قدمه : مایاكوفسكي وايزانشتاين وفيرتوف ، آرغون ، ايلوار ، بيكاسو ، فرديناند ليجيه ، رافائيل البرتي ، اتيلا جوزيف ، سكيروس ، ريفييرا ، ناظم حكمت ٠٠٠

ان هذا يعني ان تاريخ الواقعية الاشتراكية اكثر تعقيدا مما يظن وليس بالبساطة والابتذال التي يصورها بعض النقاد البرجوازيين والمتمركسين ايضا٠

اذا كان تاريخ الواقعية الاشتراكية كممارسة فنية هو تاريخ الواقعيات الاشتراكية فان تاريخ النظرية « الاشتراكية » في الفن هو تاريخ النظريات الاشتراكية في الفن ، فكل من هذه النظريات كانت تعكس خصائص الصراع الطبقي في زمانها وصراع المادية والمثالية داخل الفلسفة المادية نفسها ، لذلك نعثر على جملة من النظريات ليست متطابقة ، متقاربة احيانا ، ومتناقضة احيانا اخرى على الرغم من اعتمادها جميعا على المادة التاريخية والديالكتيكية، فهناك « نظريات » بليخانوف ، ومهرنغ ، لافارغ ، لوكاش ، غرامشي ، كالدويل ، فوكس ، كاجان ، بافلوف ، مورافسكي ، ديلافولبي ٠٠٠ بعضها يغرق في الميكانيكية ، ينسى او يقلل من شأن الذات ، وبعضها الاخر يغرق في النزعة الانسانية ، يبالغ في دور الذات ٠٠٠ ان صراع المادية والمثالية في المادية انما يعكس ديالكتيك تطور المعرفة ٠

عن تاريخ الواقعية والواقعية الاشتراكية :

ليست مسألة الواقعية جديدة في الفن وخاصة في الغرب ، فهي قديمة على الرغم من الاشكال التي مرت بها ٠ برزت في اواخر القرن السابع عشر كشكل ادبي مترابط مع ظهور علاقات انتاج جديدة : نمط الانتاج الرأسمالي ٠ رفعت منذ البدء راية البرجوازية ودافعت عن قيمها منتجة صورة قريبة من الواقع المعاش ، صورة متقدمة تاريخيا رافضة للايديولوجيا الاقطاعية والكنسية ٠ عالجت المكان والزمان في ماديتهما المباشرة ، اي رفضت المطلق بمعناه الميتافيزيقي ، وانفتحت بمفهوم جديد على عالم جديد بطله الذات الانسانية ، الفرد الحر بمعناه البرجوازي ٠ لكن تلك الواقعية ذات النزعة الانسانية ما لبثت ان غيرت شكلها موازية في ذلك مسار الرأسمالية نفسها ٠ تراجعت وسلكت مسالك مختلفة بعد بروز احصاء الرأسمالية البارد الذي لا يرى في

الانسان الا سلعة · ابتعدت الواقعية عن الايديولوجيا الرسمية للطبقات الجديدة المسيطرة ، واخذ شكل تعاملها مع الواقع اشكالا جديدة ، بالهروب من الواقع تارة ، او بالاحتجاج عليه تارة اخرى ، وهذا ما عرف في القرن التاسع عشر باسم الواقعية النقدية ·

عاشت الواقعية النقدية القرن التاسع عشر محتجة ضد آلة رأس المال الرهيبة، كانت تطمح في حذف ما هو بشع من النظام القائم دون ان تهدف الى تحطيمه ·

شكل ظهور الطبقة العاملة كطبقة واعية لذاتها على مسرح التاريخ عنصرا اساسيا في التأثير على مسار الواقعية · ان نضال الطبقة العاملة ضد الاستغلال طرح معضلات وآثارا جديدة على الفن والادب وكل حقول الثقافة · واصبح لزاما على الادب ان يقوم بمقاربة جديدة للواقع ، ان يجد له مكانا في الصراع القطبي بين الطبقة العاملة والرأسمالية · لكن الوصول الى اخذ موقف لم يكن تخطيطيا ، فالادب لا يعيش الصراع الطبقي من الخارج بل يتطور ويتشكل داخل عملية الصراع الطبقي نفسها · واذا كان للطبقة المسيطرة ادبها فان الحال لم تكن كذلك بالنسبة للطبقة العاملة ، كان صراعها بأشكاله الاقتصادية والسياسية والايديولوجية سابقا للفن المعبز عن قضيتها · وهذا يعني ان الادب المرتبط بها لم يبدأ جاهزا ، فالاولوية للممارسة التي تأخذ شكلها النظري لاحقا · فاذا نظرنا الى اثر الصراع الطبقي في الادب ضمن اطار النظام الرأسمالي يمكننا ان نعاين تيارات عدة · التيار الذي هرب من واقع مخيب الامل نحو رومانسية عاجزة ، ترفض ما هو قائم باعتباره المثال التاريخي الساقط والاخير ، مثال بلاديل · وتيار اكتفى بوصف ظاهر المجتمع بدون تحليل ، رسم ظاهر الاشياء الساكن دون ان تطول ادواته وامكانياته الجوهر الذي يحكم الظاهر ، وهذا ما عرف باسم النزعة الطبيعية في الادب · بالاضافة الى التيارين السابقين ظهر تيار ثالث يلمس الواقع التاريخي في تناقضاته الاساسية مدخلا في الفن عنصرا جديدا : الطبقة العاملة في صراعها اليومي ·

شكل هذا التيار الجسر الواصل بين الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية ·

ولدت الواقعية الاشتراكية في التاريخ كأثر للصراع الطبقي في الادب · فهي في شكلها التاريخي الطبيعي ليست « ظاهرة روسية » كما يدعي النقاد البرجوازيون ، او ظاهرة جدانوفية بدأت من العدم ، فهي ذات تاريخ طبيعي قام جدانوف بتصفيته مؤسسا لها تاريخا جديدا ، تاريخا مشوها ، تظهر دراسة تاريخ الادب جذورا للواقعية الاشتراكية في الادب الفرنسي والالماني والانجليزي ··· وجذورا عميقة في الادب الروسي · ان دراما الواقعية الاشتراكية لا يمكن وعيها دون معرفة دور آلة الدولة في التأثير على الادب · فنهاية الواقعية الاشتراكية بشكلها الجدانوفي تعبر عن بدايتها · البداية في التاريخ « والنهاية » لاتاريخية على الرغم من ظهورها في التاريخ ·

شكلت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى منعطفا حاسما في تاريخ البشرية ، فدعا الفنانون المدافعون عنها الى ادب واقعي ، ادب جديد · وعلى الرغم من توافق المنطلقات الايديولوجية عند هؤلاء الدعاة فانتحديد وضع الادب «الواقعي» كان حقلا لصراع مستمر · فدعا فورنسكي في بداية العشرينات الى اسلوب جديد كتركيب لواقعية تولستوي وواقعية ديستويفسكي ، ثم عاد فدعا الى واقعية جديدة تحتضن التقاليد الواقعية الروسية وتكنيك المدرسة الانطباعية والرمزية ، ودافع لونا تشارسكي عن بروست وموزيل ، بينما اعتبر راديك بروست نموذجا للادب البرجوازي المنحط · يضاف الى ذلك مدرسة بروليت كولت Prolet Kult وامتداداتها الداعية الى ادب بروليتاري ، والتي انطلقت من تعاليم بوغدانوف لتأسيس واقعية مادية جدلية ، واقعية بروليتارية · وبدءا من عام ١٩٢٦ بدأ لونا تشارسكي بالدعوة الى واقعية اجتماعية · ونشر زونين عام ١٩٢٨ كتابه « من اجل واقعية » بروليتارية · الى جانب كل هذا كانت تقوم المدرسة الشكلية وهي بلا شك اكثر الاتجاهات اصالة وقدرة على وعي طبيعة العمل الفني ·

شكل عام ١٩٢٨/١٩٢٩ منعطفا في الحوار الدائر عن « الواقعية الجديدة »· فبرز تيار يدعو الى ضرورة انتاج « تولستوي احمر » وضرورة الانعطاف نحو الادب النفسي · واطلق ايرميلوف شعار الانسان الجديد والادب الجديد المعبر عنه · ويمكن ان نلاحظ في هذه الصورة الديناميكية التأثر بتولستوي وخاصة بكتابه « ما هو الفن » لكن هذا التأثر لم يأخذ مداه الا بعد مؤتمر الكتاب السوفييت الاول · وتتسم اطروحات تولستوي بنزعة روحية اخلاقية وانسانية مجردة ذات بعد مسيحي · كما نعثر في الصورة الادبية المائجة اثرا لآراء بليخانوف الجمالية التي ساهمت فيما بعد في انتشار النزعة الاجتماعية المبتذلة في الادب ·

لم تأخذ « نظرية » الواقعية الاشتراكية وضعها الرسمي الا في المؤتمر الاول لاتحاد الكتاب السوفييت عام ١٩٤٣ ، حيث جاء في نظام الاتحاد ما يلي :

« صاغ الادب السوفييتي والنقد الادبي السوفييتي المسايران للطبقة العاملة التي يقودها الحزب الشيوعي مبادئهما الابداعية الجديدة خلال سنوات ديكتاتورية البروليتاريا · ونتجت هذه المبادىء الجديدة عن تمثل نقدي لتراث الماضي الادبي من ناحية ، وعن دراسة التجربة المنتصرة لبناء الاشتراكية وتفتح الثقافة الاشتراكية من ناحية ثانية · وقد وجد الادب السوفييتي والنقد الادبي السوفييتي تعبيرهما الاساسي في مبادىء الواقعية الاشتراكية » ·

ساهم في هذا المؤتمر غوركي مبرهنا على « صحة » مقولات الواقعية الاشتراكية ، كما القى جدانوف محاضرته « حول الادب » مبينا ان هدف الواقعية الاشتراكية هو « تقديم الواقع في تطوره الثوري » · ومن الطريف ان نشير هنا الى ان مداخلة جدانوف ، وهو انسان ذو ثقافة عريضة ، لم تتسم بالجمود او

الدوغمائية ، فقد ركز على خصوصية الادب وضرورة البحث المستمر عن اشكال ابداعية جديدة ، فقد قال مثلا : « من الضروري الاشارة الى ان تكنيك الكاتب يمتلك سلسلة من الخصوصيات النوعية الملازمة له » · لكن القول لا يساوي ممارسته وهذا ما اظهرته التجربة التاريخية ·

قامت الواقعية الاشتراكية اذن على ارضية تاريخية ، تراث فني عريض ، وتجربة ثورية رائدة · لكن ذلك التراكم الكمي لم يجد ترجمته دائما في قفزة نوعية ، لقد ابدع احيانا وسقط احيانا اخرى ، وما زال مسار الواقعية الاشتراكية يتابع طريقه في وحدة تناقضية يتصارع فيها المفهوم المؤسساتي للفن والمفهوم المادي للفن ، يتصارع فيها الفن والسياسة ليس كقارتين مستقلتين بل كحقلين مترابطين يحاول كل منهما ترويض الآخر · لم يصبح الكم في الفن كيفا تعثر في قنوات الدولة ، لذلك بقي احيانا اسير الماضي في شكله وقيمه الجمالية واسير الحاضر ايضا · واذا استعرنا مفهوم « الانقطاع المعرفي » الذي طبقه آلتوسر على تطور فكر ماركس ، نقول ان الواقعية الاشتراكية كممارسة فنية لم تنجز ، او عجزت عن انجاز « انقطاعها المعرفي » · لقد انطلق ماركس من المعرفة التاريخية المتراكمة في زمانه ، ثم اعاد قراءتها وصياغتها كي يؤسس علما جديدا : علم التاريخ ، لكنه لم يؤسس هذا العلم على ارضية المعرفة القديمة بل على ارضية جديدة قطعت علاقاتها مع الارضية القديمة · انطلق من الايديولوجيا ليصل الى العلم الذي هو نفي لكل ايديولوجيا · اما الواقعية الاشتراكية الرسمية فقد تابعت الماضي ، لم تجاوزه ، بل تخلفت عنه احيانا · حكم الماضي الحاضر كما يحكم الميت الحي احيانا · لذلك فعلى الواقعية الاشتراكية ان تناضل لانجاز « انقطاعها المعرفي » كي تصبح فعلا تعبيرا عن كل ما هو جديد وثوري في زماننا ·

السياسي والنظري في الواقعية الاشتراكية :

يذهب بعض المنظرين الماركسيين الى اعتبار الواقعية الاشتراكية نظرية متكاملة تفسر العمل الادبي وتعطيه منطلقاته ايضا ، فهي اساس عضوي للنقد الادبي وللانتاج الادبي ايضا · يتفجر هذا المنطق ويتراجع امام الاعتبارات التالية : يخلط المنطق السابق ما بين السياسي والنظري · فالموقف السياسي من العالم لا يساوي بالضرورة الموقف النظري الموازي له · بمعنى آخر ان العمل الادبي المرتبط او المتعاطف مع طموحات الطبقة العاملة لا يعكس بالضرورة في اعماله وانتاجه او ممارسته الادبية المنطلقات النظرية للممارسة السياسية للطبقة العاملة ، فيمكن ان يكون الكاتب تقدميا في موقفه السياسي ومحافظا بل مثاليا في شكل عمله الادبي ومضمونه · لذلك فمن السذاجة بمكان اعتبار الموقف السياسي من الطبقة العاملة موقفا فنيا · يضاف الى ذلك ان المنطق

السابق يتسم بـ « المدرسية » والنزعة التأطيرية ، المفهوم التنظيمي للادب ، اي ان التماثل في الموقف السياسي يجب ان يترافق مع تماثل فني : الموقف السياسي = الموقف الفني · انه ينسى بذلك خصوصية الفنان وتجربته اي فردية الفنان التي ترفض وتنفي كل تأطير وتنظيم · فممارسة الفنان عملية مستمرة تتجدد بتناقضاتها المشروطة بتجربة الفنان الحياتية والفنية التي لا تخضع لقانون · فالممارسة الفنية تختلف عن الممارسة العلمية ، واذا كانت الذات الانسانية محايدة في الممارسة العلمية فان الممارسة الفنية تتضمن موقف الذات ، موقف الفنان من الظاهرة التي يصوغها فنيا ، فهو يضع فيها مشاعره ورؤيته الجمالية وتقييمه النقدي ، انه في محرق الظاهرة حتى عندما يحاول تصويرها موضوعيا · لذلك فان التجربة العلمية تنمو بتراكم القوانين والمعرفة العلمية بينما تنمو التجربة الفنية مشروطة بتطور العالم من ناحية وتطور ذات الفنان وقدرته على التجريب الفني من ناحية ثانية · واذا كان العلم ينمو بديالكتيك المعرفة العلمية فان الفن ينمو بديالكتيك الذات والموضوع · لهذا فان مقاربة الفنان لنفس الواقع تختلف باستمرار مشروطة بنمو وعيه الجمالي · من هنا فان معايير الحقيقة في العلم تختلف كليا عنها في الفن ، الاولى مطلقة نسبيا بينما الثانية نسبية دائما او غالبا · معنى هذا انه لا يمكن اخضاع الفنان لقانون او نظرية ، فنظريته الحقيقية هي ممارسته الذاتية : نظرية بلا ضفاف · نقول بلا ضفاف ليس انطلاقا من مفهوم ميتافيزيقي للفنان يضعه فوق الزمان او المكان بل انطلاقا من المفهوم المادي لديالكتيك العمل الفني ولديالكتيك الذات والموضوع : الفنان يعيش عالمه كعملية مستمرة منفتحة ·

فهمت الواقعية الاشتراكية بشكلها التخطيطي الفنان كذات منجزة ، منغلقة ، تعكس ما هو قائم بشكل وردي · قد يقول البعض لكن الواقعية الاشتراكية لها مقوماتها النظرية : البطل الايجابي ، الفن للجماهير ، الدور التحريضي للفن ، ضرورة فهم الجماهير للفن ···

ان كل هذه المقولات مجردة وذهنية واحيانا ميكانيكية ، ولا يمكن التعامل معها وتقييمها الا ضمن البنيان الفني الذي يتضمنها · فالتعامل يتم مع النص الفني لا مع المقولات النظرية المجردة التي يتضمنها ·

لم تقدم الواقعية الاشتراكية بشكلها الجدانوفي ، او بشكل ادق بممارساتها الجدانوفية الا بيانا اخلاقيا ووصايا انسانية للفنان ، ثم اعتبرت نفسها وهما وسلطة نظرية منجزة · وبذلك لم تعش تلك « النظرية » تاريخها كفشل فقط بل عاقت وكبحت اداريا كل بحث حقيقي وكل تجريب للوصول الى اشكال فنية جديدة توافق المضمون الجديد الذي قدمته ثورة اكتوبر سياسيا والمادية الجدلية معرفيا ·

لقد شكلت الواقعية الاشتراكية الادارية تخلفا ليس فقط عن المفهوم المادي

للعالم بل حتى عن الفن البرجوازي في القرن العشرين ٠

طرحت ثورة اكتوبر ضرورة التمايز السياسي والتمايز الشكلي في الادب ، تمايز الممارسة الفنية ٠ هناك عالم جديد ، ومن الضروري ان يتمايز عن القديم في كل شيء ، وبالتالي في انتاجه واستهلاكه للفن ٠ ومن هنا انطلقت المدارس الفنية معتمدة على النظرية والتجريب للوصول الى ضفاف الفن الجديد ، فعثرت على **تسميات** تميزها عن الفن البرجوازي وحاولت جاهدة الوصول **بشكل طبيعي** الى المنطلقات النظرية ضمن **اطار التنوع او الكثرية الفنية** Pluralisme Artistique التي تحدد الممارسة الفنية الجديدة ٠ لنقترب من الصورة اكثر ولنر دلالة التسميات :

« يتصف مجمل الادب الجديد الذي ينمو في الاتحاد السوفييتي بنزوع نحو الواقعية الاجتماعية »

بيريفيرتسر ١٩٢٥

« للفنان المرتبط عضويا بطبقة نقية وصاعدة طريق واحد هو : الواقعية الفنية المعمقة »٠

عن بيان لمجموعة من الكتاب صدر عام ١٩٢٥

« على عكس الواقعية البرجوازية التي تركز على الشخصية المعزولة فان واقعيتنا تعالج الشخصية ضمن مجمل الشروط التي تحيط بها وتؤثر عليها ٠ تتصف واقعيتنا بمضمون اشتراكي »٠

ستافسكي ١٩٢٦

« السمة الاساسية للادب في طوره الثالث ، اي في طوره الراهن ، هي انعطافه النهائي نحو الواقعية الاجتماعية » ٠

لونا شارسكي ١٩٢٧

« تنزع الواقعية البروليتارية نحو توحيد التحليل النفسي للانسان ، الانسان الجديد بشكل خاص ، وتصورات الواقع وذلك في فهم مادي جدلي للمجتمع » ٠

زونين عام ١٩٢٩

« ينبغي ان ندعو المنهج الذي يمكن ان نقتدي به بـ « الواقعية الاشتراكية الثورية »

كوليك ١٩٣٢

« تشير جميع الظواهر الى ان الواقعية الجديدة ستشكل في المستقبل طريقة الكتابة الرئيسية والمسيطرة ، وهي تمازج اصيل بين الرومانسية والرمزية والواقعية » ٠

فورنسكي

ان قراءة نقدية للتعريفات السابقة تقدم لنا جملة قرائن :

نلمس اولا ذلك البحث المستمر عن التمايز الفني ، فالتمايز السياسي قد انجز بانتصار الثورة وبقيت ضرورة التمايز الفني ٠ ان الدعوة الى « الواقعية الاشتراكية الثورية » ، « الواقعية الفنية المعمقة » ، « الواقعية الجديدة » ، « الواقعية البروليتارية » ، « الواقعية الاجتماعية » ٠٠٠ تشير الى حضور البحث المستمر وديناميه هذا البحث الذي تجلى في التراث الثقافي السوفييتي

المذهل في العشرينات · اذا كان هذا البحث قد بدأ طبيعيا فان مساره بدأ يفقد تطوره الطبيعي عاكسا جدليا الصراع السياسي في الاتحاد السوفييتي والمنحى العام لممارسات آلة الدولة ، لذلك بدأ هذا النمو الطبيعي يتراجع منذ نهاية العشرينات ويظهر ذلك حتى من الاستشهادات السابقة ، ويكفي تأمل ما يقوله كوليك « ينبغي ان ندعو المنهج ··· » وما يقوله فورانسكي « تشير جميع الظواهر ··· » اي بدأ ظهور اديب السلطة · لقد عارض مایاکوفسكي والمدرسة الشكلية النزعة الاجتماعية المبتذلة في الادب لكن هذه المعارضة لم تعش طويلا ·

ارتبط البحث عن الجديد في طوره الطبيعي بعامل هام بل حاسم : موقع الفن من الطبقة العاملة ، كي يرتبط ويعبر ويصل اليها · فالدولة هي دولة الطبقة العاملة التي هي الطليعة والقائد · استلزم هذا الشرط التاريخي الجديد البحث والتجريب · وقد استطاع البحث ان يصل الى مشارف جديدة في الفن والسينما والرسم والموسيقى ، لكن تراجع الحرية الشرط الاساسي لكل ابداع وعملقة آلة الدولة كبح البحث واستبدل الصيغة · كانت الصيغة في البدء : ديالكتيك الممارسة الفنية والممارسة الثورية للطبقة العاملة ، ثم اصبحت : ديالكتيك الممارسة الفنية والممارسة الادارية للدولة · **بدل عمق الاستبدال دلالة الاشياء** ، فانحسر البحث ، واصبح الفن يسير في قناة الدولة ، اصبح مغتربا عن جوهره ، فمات الحقيقي او صمت وبقي الزائف ، اي التحم بالايديولوجيا الرسمية كمبرر·

لم يلد الاستبدال من الفراغ ، فاستمرار الصراع الطبقي القى بظله على جميع المظاهر ، امست الرؤيا وحيدة الجانب : رؤية سياسية فقط · كما نعلم فأن الفني يرتبط بالسياسي دون ان يصبح سياسة · الا ان الدولة او شرطها التاريخي المعقد ارجع الفن الى سياسة من خلال صيغة الدور الوظيفي للفن او الدور التربوي للفن · كان على الفن ان يمارس دوره في عملية البناء الاشتراكي وتوعية الطبقة العاملة ، خاصة ان محاربة الامية كانت شعارا راهنا ، كان عليه ان يقوم بدوره التربوي كفن دون ان يهبط الى المستوى الذي شدته اليه الدولة · اي ان الدولة حولت الفن الى مبشر ايديولوجي ، نظرت اليه من منظار **المنفعة المباشرة** ، معطية الاسبقية الى المعيار السياسي بدلا من المعيار الجمالي· ان اطروحة اولوية الوظيفة التربوية للعمل الفني نقلت الفن من حقل الفن الى حقل السياسة ، وهكذا تحولت الدولة من راع مستقل للفن الى منظم سياسي له ، وفقد الفن تطوره الحر واستقلاله الذاتي ، ينمو كتابع وكظل ، كسيف للدولة ·

اذا نظرنا الى الامر بشكل آخر نرى ان عناصر العملية : الدولة ، الفن ، الجماهير ، المنفعة ، الدور التربوي للفن · فالدولة هي السلطة والمنظم ، اما نظريتا الفنية فهي المنفعة الفنية والدور التربوي · وهذا يعني ببساطة ان النظرية هي نظرية الدولة للفن التي هي عاجزة عن دفع اية ممارسة فنية حقيقية الى الامام ·

ان هذا المفهوم الاداري الفني هو الذي ادى الى اعتبار الواقعية الاشتراكية ظاهرة سوفيتية ، مع ان النضال من اجل الاشتراكية كوني والفن المرتبط به كوني ايضا ٠

يبقى امامنا سؤال هام ٠ لماذا دار معظم البحث والحوار في حقل الواقعية مع انها ارث برجوازي ؟ ٠ كان من المنطقي ان يستفيد الفنانون من التراث الانساني الثقافي بعد قراءته بشكل نقدي ٠ لكن الامر هنا جاوز القراءة النقدية للتـــراث فقد بقي في قلب التراث : « دائما في اطار الواقعية » ٠ كانت الواقعية الانطلاق دائما ٠

يعود ذلك ــ في تقديرنا ــ الى سببين احدهما ذاتي والاخر موضوعي ٠

فاذا تناولنا السبب الاول نجد ان محاولات التنظير للادب ومساره اثرت عليه ودفعته باتجاه معين ٠ لقد ساد في تلك الفترة شعار « استعادة افضل ما خلفته الثقافة البرجوازية بشكلها الديمقراطي ، وكانت الواقعية ممثلا لوجه هذا التراث الديمقراطي ٠ يضاف الى ذلك النزعة المضمونية التي خلفها بليخانوف ، وان كتابات ماركس وانجلز عن الادب والفن لم تنشر الا عام ١٩٣٢ ــ ١٩٣٤ ، على يد جورج لوكاش وميخائيل ليفشتس Mikhail Lifshitz ٠ أما جورج لوكاش فقد بدأ اعماله النظرية وانهاها خلال اكثر من نصف قرن معتمدا على مفهوم الواقعية ، « كل فن عظيم واقعي » ٠ كتب عن الواقعية و « الواقعية العظيمة » وبالتالي فان مفهومه للادب الاشتراكي كان امتدادا لرؤيته لادب الواقعيـــة القديم ، ولم ير في الادب الجديد الا واقعية جديدة ، واقعية تتابع تقاليد بلزاك وفلوبير وتولستوي ٠ فاذا عدنا الى ليفشتس الذي ساهم في تقديم تأويل محافظ لاعمال ماركس وانجلز ، لوجدناه عدوا شرسا لكل انواع التجديد في الفن ٠ ويدخل في حقل العامل الذاتي عنصر اخر يكمن في النظرية الماركسية نفسها ، فقد قدم ماركس نظرية في التاريخ لكنه لم يترك الا مؤشرات عامة ومنهجيـــة فلسفية تعطي اساسا لنظرية في الفن لا نظرية جاهزة في الفن ٠

وبشكل عام فان التنظير الفلسفي للفن والادب ساهم في تشديد مسارهما لأن نسي الخصوصية الجمالية مرجعا اياهما الى شكل ايديولوجي بدون تميز ٠

اذا عدنا الى السبب الموضوعي وجدناه مكتوبا في التاريخ ٠ فالطبقة العاملة لم تظهر على مسرح التاريخ الا بعد الثورة الصناعية ، ولم تصبح طبقة مسيطرة الا بعد ثورة اكتوبر ، اي انها لم تهيمن سابقا لا ايديولوجيا ولا سياسيا ، لذلك كان على الفنانين صياغة نظرية فنية تلازم الممارسة الفنية الجديدة ٠ كان الوعي السياسي جاهزا بدون ان يعايشه وعي جمالي موازٍ ، اي كان هناك فرق وتفاوت بين الوعي السياسي للعالم والوعي الجمالي له ، فاتجهت الانظار الى « وجـــه التراث الايجابي » والى البحث عن الجديد ، بحث لم يكتمل ٠ بشكل آخر :

عندما وصلت الطبقة العاملة الى السلطة لم يكن لها ثقافة مسيطرة ، اصبحت مسيطرة سياسيا دون ان تصبح مسيطرة ايديولوجيا ٠كان عليها ان تنتج ثقافتها في شرط تاريخي كانت فيه الثقافة القديمة هي المسيطرة ، فللطبقة البرجوازية ثقافتها وتاريخها وعمق هذا التاريخ ، لذلك فان الصراع الطبقي في حقل الثقافة كان محكوما بالقديم ذي الجذور المهيمنة والجديد الذي لم يهيمن بعد ٠ نعود فنقول : ان الوعي السياسي للعالم لا ينتج مباشرة اطره الثقافية والفنية الموازية له بشكل مباشر وميكانيكي ، وان الوعي السياسي لا يتطابق مع الوعي النظري الا بعد فترة صراع تاريخية طويلة ٠ لذلك بقي البحث الفني للطبقة العاملة يدور فترة طويلة على أرضية الفكر البرجوازي على الرغم من كونه النقيض السياسي له ٠ وذلك يعود الى سبب مركب : هيمنة الايديولوجيا الجمالية البرجوازية من ناحية ، وتأثر الايديولوجيا الجمالية المسيطر عليها بالايديولوجيا الاولى من ناحية ثانية ٠ فالتاريخ صراع بين الطبقات ليس على المستوى السياسي والاقتصادي فقط بل على مستوى القيم الجمالية ايضا ٠

الايديولوجي والفني في الواقعية الاشتراكية :

يقول عالم الجمال السوفييتي م٠ كاجان ان « الفن الاشتراكي اسلوب ومنهج » ٠ بعبارة اخرى ان الفن الاشتراكي موقف ايديولوجي واسلوب فني في الوقت ذاته ، وبذلك يقودنا كاجان الى جوهر المسألة : هل الواقعية الاشتراكية موقف ايديولوجي فقط ام موقف ايديولوجي واسلوب فني ايضا ؟يجب ان نقوم هنا بتمييز الاجابة ٠ ان الواقعية الاشتراكية بشكلها الجدانوفي لا تشكل لا نظرية معرفية ولا مدرسة فنية ٠ نعود فنناقش الموضوع بشكل اخر تاركين جانبا النظرة الميكانيكية الجدانوفية ٠ لا شك انه يوجد دائما علاقة بين الشكل الفني وايديولوجيا الفنان ، وان كل شكل فني يتضمن دلالة ايديولوجية ٠ فاذا عالجنا الموضوع انطلاقا من خصوصية التجربة الفنية لكل فنان ، والخصوصية والتميز الثقافي لكل بلد على حدة والتقاليد الفكرية والفنية لكل شرط تاريخي ، ومستوى الوعي الاجتماعي المترابط بمستوى التقدم الاجتماعي لكل بلد لامكننا الوصول الى ما يلي : الواقعية الاشتراكية موقف الايديولوجي يمكن الفنان من الوصول الى رؤية فنية خاصة به انطلاقا من ديالكتيك الذاتي والموضوعي ، اي من تجربة الفنان والشرط التاريخي الذي يعيش فيه ٠ ان ذلك يعني انه لا توجد مدرسة فنية كونية مرتبطة بالواقعية الاشتراكية ٠ ما هو كوني هو الموقف الايديولوجي أما الرؤية الفنية فهي متميزة اي لا كونية ٠ ان المطابقة المطلقة بين الموقف الايديولوجي والرؤية الفنية ضمن الاطار الكوني تشكل نفيا لقانون التمييز والكونية وسقوطا في التبسيط والميكانيكية ، فالشكل الروائي عند السنغالي الشيوعي سمبن عثمان يختلف عنه عند الشيوعي الفرنسي جان تنبودو ،

ولوحات المكسيكي سيكيروس تختلف عن لوحات السوفييتي سيروف ٠٠ يعني ذلك ان كل فنان يصوغ ويصنع شكله الفني خلال ممارسته الفنية وان اخضاعه لقوانين او معايير او موجهات يكسر هذه الممارسة ويشلها ٠

لنقارب الموضوع بشكل اكثر وضوحا ، نقول ان الواقعية الاشتراكية موقف ايديولوجي ، اي ببساطة موقف الفنان الملتزم بالمادية الجدلية من العالم ٠ لننظر الان الى « تعريفات » الواقعية الاشتراكية ٠

يقول شولوخوف « تعبر الواقعية عن فكرة تجديد شباب الحياة ، اعادة تشكيلها من أجل صالح الانسانية ٠ أتكلم هنا بالطبع عن الواقعية التي ندعوها الان اشتراكية ، والتي تقوم سمتها النوعية على رفض التأمل السلبي للواقع او الانسحاب منه ، والتي تدعو الى النضال من أجل تقدم البشرية ، كي تصبح قادرة على انجاز الاهداف العزيزة على قلوب الملايين واضاءة طرق النضال »٠

ويقول مكسيم غوركي « لا يمكننا ان نحد انفسنا بمعرفة واقعين فقط : واقع الامس وواقع اليوم الذي نشارك في خلقه بمعنى ما ٠ ينبغي علينا ان نعرف ايضا واقعا ثالثا : واقع المستقبل ٠٠٠ علينا ان نتمثل ونرسم هذا الواقع الثالث باستمرار ٠ وبدون هذا فمن المستحيل فهم منهج الواقعية الاشتراكية » ٠

ونجد في « القاموس الصغير لعلم الجمال » ـ موسكو ١٩٦٥ ـ ما يلي :

« الواقعية الاشتراكية منهج فني يعتمد جوهره على عكس Refléter الواقع بطريقة صادقة ومشخصة تاريخيا ، منظور اليه في تطوره الثوري ، اي في مساره نحو الشيوعية ٠ تتطلب الواقعية الاشتراكية من الفنان التحقيق الواعي لغاية محددة : تربية البشر بالقيم الشيوعية ، المساعدة النشطة على التغيير الثوري للواقع بالوسائل الفنية ، بناء المجتمع الجديد ، النضال من أجل السلام والديمقراطية والاشتراكية ، بناء الانسان الجديد الذي يتعايش فيه بشكل متناغم الفني، الايديولوجي والجمال الروحي والكمال الجسدي » ٠

أما كوليكوفا فتقول « تظهر الواقعية الاشتراكية عبر منظور جديد العلاقة بين الفردي والاجتماعي ، سواء في الصراعات او في سمات الابطال » ٠

فاذا وصلنا الى الشاعر التركي ناظم حكمت :

« يبحث الفنان المخلص للواقعية الاشتراكية بدون انقطاع ٠ ويجهد نفسه في عملية البحث المستمرة هذه لايجاد الشكل الموافق كل مرة لمضمون مشخص ، ويجاهد ليحفظ فرديته بدون ان يقلد او يكرر اي شخص كان ٠ لا يعترف مطلقا بقواعد ومعايير الفن الجامد ، ما خلا قانون واحد : تقديم الواقع بعيون وعقل وقلب ماركسي ـ لينيني » ٠

تطرح التعريفات السابقة بعض القضايا ولكن بشكل متفاوت :

يقدم شولوخوف الواقعية الاشتراكية ـ من خلال ما يقول ـ كموقف ايديولوجي مفعم بالنزعة الانسانية مركزا على الدور الذي يلعبه الادب في تغيير العالم وتثويره · أما غوركي ، ذلك الرومانسي الثوري ، فيؤكد على ضرورة رسم العالم في حركته المتصاعدة باتجاه مستقبل افضل ، اي يركز على مضمون الادب وشكل معالجته للواقع · ويلقي التعريف الثاني والثالث (القاموس السوفييتي وكوليكوفا) الضوء على الدور التحريضي والمعرفي والانساني للادب من ناحية مع اعتبار الواقعية الاشتراكية منهجا فنيا من ناحية ثانية ·

أعتقد ان التعريف النظري ـ هنا ـ مجرد وعام · ان الرؤيا الفنية او المنهج الفني الذي يصل اليه الفنان الملتزم بالواقعية الاشتراكية ينتج عن تجربة الفنان الذاتية وقدرته على التجريب والابتكار ، الواقعية الاشتراكية تعطيه ما هو عام ليصل الى ما هو خاص · ويبدو هذا واضحا من موقف ناظم حكمت الذي يرفض القوانين ويدافع عن فردية الفنان · فالفنان الحقيقي يصل الى نظريته الخاصة خلال عمله الفني ، يلازم ما بين ممارسته الفنية ومفهومه للفن ، وبذلك يأتي المفهوم النظري للعمل الفني من داخله · ويمكن ان نقول ان هناك واقعية اشتراكية واحدة من حيث هي موقف ايديولوجي وهناك واقعيات اشتراكية كخصائص فنية ·

مقاربة نقدية للواقعية الاشتراكية بشكلها الجدانوفي :

لا يقتصر فهم جدانوف الميكانيكي على الادب وحده ، بل يرتبط بكل معقد من الممارسات الخاطئة، واذا قصرنا معالجتنا على الحقل الفني نقول ان فهمه لطبيعة الادب يرتبط بفهم ستالين للفلسفة كصراع جامد وميتافيزيقي بين المادية ـ المثالية لقد اراد جدانوف اقامة أدب جديد يعكس النظام الجديد ، لكنه نسي ان زوال البنيان الفلسفي لاينتج مباشرة ودفعة واحدة تغييرا موازيا في الوعي الاجتماعي ومن هنا جاء مفهومه لادب بروليتاري ـ أدب برجوازي لا تاريخيا ، جامدا ، مناقضا للمادية الجدلية · فالوعي لا يعكس واقعه المعاش **بوضوح** نسبي الا على مسافة ، أي ان تثوير الادب والوعي الاجتماعي ، وتعديل علاقة الفنان بالشعب ، وتعديل علاقة الفنان بانتاجه تتم **داخل** عملية التغيير الثوري للعلاقات الاجتماعية فالوعي لا يسبق الممارسة بل يتبعها بشكل عام · لذلك لا يمكن **برمجة الادب بشكل** مسبق لانه لا يعكس الفراغ الا اذا كان الادب فراغا ، فالادب كجزء متميز من البنيان الفوقي يعكس تطور العلاقات الاجتماعية · بمعنى اخر اراد جدانوف ـ ومن تبعه ويتبعه ـ اقامة علم جمال ارادوي ، علم ماركسي منجز ونقي ينتج بقرار · لكن نشوء كل علم لا يتم الا بعملية تاريخية ، لان الجديد لا يولد نقيا ، فالقديم يدافع عن مكانه في داخل الجديد وقد يهزمه أحيانا ، كما ان الجديد يحتفظ بوعي او بلا وعي بجزء من القديم في بنيانه ، فصراع

الاتجاهات او النزوعات يستمر طويلا في كل حقل من حقول المعرفة · فالظواهر الادبية ظواهر اجتماعية ، والحوادث الادبية حوادث اجتماعية · فالجمالي لا يدرك الا من خلال علاقة الاجتماعي والادبي · لذلك فان جدانوف قد « انتج » **علما جماليا ازادويا ماديا في ظاهره مثاليا في جوهره** · فاذا كانت الميتافيزيقيا ترى « سر » الادب في الغامض او السماوي فان جدانوف رأى سر الادب في الدولة والقانون مع ان قانون الادب الوحيد هو حركة الحياة وحركة الاثر الادبي في الحقل الاجتماعي · « استخلص » حزمة قوانين ، تطبق لتنتج مباشرة اثارا سحرية في الادب واللغة وحتى البيولوجيا ·

نعود لنناقش مسألة « علم الجمال الماركسي » ؟

ان هذا العلم بشكله الناجز لا وجود له حتى الان ، لا يزال حقل بحث مستمر فيه نقاط بيضاء ونقاط سوداء · لكن القسمة الجامدة مثالية ـ مادية ، برجوازي ـ بروليتاري ، جعلت الماركسيين في الفترة الجدانوفية يقفون امام السؤال التالي : هل هناك علم جمال ماركسي ام لا ؟ اذا كان الجواب نفيا فذلك سيكسر بالضرورة القسمة الجامدة التي سار عليها جدانوف · واذا كان الجواب ايجابا فمعنى ذلك ضرورة « انشاء » هذا العلم الذي لا وجود له · لكن هذا العلم لم ينشأ تاريخيا بل نشأ كرد فعل وكتقليد **وتطابق مقلوب** لعلم الجمال عند ليسنغ وهيجل وبول فاليري بقيمه الجمالية المطلقة · اعتمد جدانوف على المبادىء السياسية اولا ، فانتج قيما جمالية متميزة سياسيا لا معرفيا ، انها قيم « شيوعية » سياسيا مثالية معرفيا ، ينسحب ذلك على جملة جوركي (علم الجمال هو دين المستقبل) وكذلك على جملة ستالين « الكاتب هو مهندس الارواح » ·

انتج المفهوم الميكانيكي للفن **واقعية طبيعية** ، واذا كان الفن الاشتراكي « الواقعية الاشتراكية الحية » يقوم بتصوير الواقع في حركته الواقعية ، فان اعمال الفترة الستالينية ومشتقاتها قدمت صورة مجردة للواقع ، **ليس الواقع** في حركته وتناقضه وصراعه المتعدد المناحي ، بل **الواقع ـ المثال** ، الواقع الذي لا وجود له ، قدمت صورة الواقع المرسوم في ايديولوجيا الدولة والذي هو كيان ميتافيزيقي · بمعنى اخر ، بدل ان تقدم الواقع المعاش قدمت صورة مثالية ـ افلاطونية ، صورة الواقع كما يجب ان يكون ، الصورة ـ المثال · اي الكامل بالمعنى الديني · واصبح الاديب منظرا او مبررا لايديولوجيا الدولة ، ينطلق من سماء الدولة ، من وصفات جاهزة ، فالمجتمع لا صراع فيه والبطل الايجابي اسطوري السلوك ، امكانية مجردة لا مكان فيها لديالكتيك الشخصية ··· ان البطل الايجابي بمواصفاته الجدانوفية مقولة دينية غريبة عن كل وعي ديالكتيكي لقد مات الجديد في الشكل القديم · لما كان المضمون الذي طرحته ثورة اكتوبر

جديدا كان على الفن جدليا البحث عن شكل جديد مؤات له ، لكن **الواقعيـــة** التخطيطية كانت أعجز من ان تقدم هذا الشكل فأجهضت حتى المضمون الجديد ٠ كما نعلم فان **الجديد تاريخيا** لا يتعايش مع القديم ، فالجديد « يدخل في تناقض محتدم باستمرار ٠» مع القديم وهذا التناقض هو الذي يغني الجديد ويفجر القديم بسبب استحالة التعايش بينهما وبسبب **اللاتوافق** Non - Correspondance بين نمط تواجدهما التاريخي ٠ مع ذلك فان الواقعية الجدانوفية قد « تجاوزت » مفهوم التوافق واللاتوافق بين الشكل والمضمون مفجرة بذلك النص الادبي والعمل الفني ، اي شالة بنيان العمل الفني واثره الاجتماعي ٠ لهذا استمر الشكل القديم واصبح تولستوي طموحا ٠

اذا رجعنا الى فكرة « القانون » التي لازمت مقولات جدانوف وقرأنا اثرهـــا على العمل الفني لوجدنا ان لديه قوانينا للشكل والمضمون والشخصية وعملية الكتابة ايضا ٠ وبذلك سمح « لشكل أدبي » وحيد بالاستمرار ، شكل قديم ، عميق ، أكاديمي ٠ مع ان الواقع في تفرعاته وغناه وخصبه أوسع بكثير من ان يصب في شكل وحيد ٠ وان غنى الاشكال الفنية تعبير عن غنى الواقع نفسه ، والفن لا يخضع ولا يستطيع ان يخضع لقانون او مثال حتى لو كان مبدعا ٠ ان الواقع يطرح باستمرار اسئلته التي تستلزم بالضرورة اشكالا جديدة موافقة لها ٠ فالفنان ليس آلة لانتاج المضمون ، بل عقدة علاقات حية تجاهد باستمرار لتملك الواقع جماليا في عملية جزئية ومستمرة تنهض على الشكل اولا ٠

نعود فنلخص اطروحاتنا على الشكل التالي :

ـ ولدت الواقعية الاشتراكية في التاريخ ، وعاشت تاريخها بشكلين : طبيعي ومؤسساتي ٠ أبدعت في تاريخها الاول وسقطت في تاريخها الثاني ، لذلك نقول هناك واقعيات اشتراكية ٠

ـ ان الواقعية الاشتراكية ليست مدرسة فنية بل موقف ايديولوجي ، كونية كموقف ايديولوجي ، ومتميزة كخصائص فنية اي لا كونية ٠

ـ الواقعية الاشتراكية بشكلها الجدانوفي أعجز من ان تنظر للفن واعجز من ان تشكل نظرية فنية لاعمال فنية حقيقية ٠ فهي عاجزة كنظرية وعاجزة كملهم ٠

ـ نظرية الفنان الحقيقية هي ممارسته الفنية ، علما ان كل ممارسة تقوم داخل عملية الصراع الطبقي ٠

ـ الواقعية الاشتراكية ليست مسألة شكل ولا مسألة مضمون بل مسألة ايجاد الشكل الملائم للمضمون الملائم ٠

ـ لا تنطلق الممارسة الفنية من النظرية المجردة بل من الحياة بكل صراعاتها وتناقضاتها وهذا لا ينفي دور النظرية كموجه عام ٠ لذلك فان العمل الفنـــي

يسترشد بالنظرية ليعيد صياغتها من جديد على ضوء ممارسته المستمرة ، صياغة جديدة ومستمرة تصل الى النفي أحيانا ٠

ـ لا يوجد حتى الان « علم جمال ماركسي » منجـــز ، بل توجد مؤشـــرات ومنطلقات منهجية ، ولن يتشكل هذا «العلم» الا بتلاحم البحث النظري والممارسة العملية في وحدة جدلية تكون الاولوية فيها للممارسة ٠

مراجع ذات صلة بالموضوع :

1 — Stratégie No 12. Automne Hiver 75 .

2 — Litterature et Réalité , Budapeste 1966 .

3 — D. Lecourt : Lyssenko . Maspero 1976 .

4 — LSI : Automne 1975 No 6 .

5 — Action Poétique No 44 .

6 — Socialiste Realisme in Litterature and art — Moscow 1971 .

7 — Esthétique Marxiste et actualité Moscow 1972 .

8 — R. Balibar : Les Français Fictifs . Hachette 1974 .

9 — G. Luckacs : écrits de Moscow Paris 1974 .

كتب

د. رضوى عاشور :
الطريق الى الخيمة الاخرى
دار الاداب ـ بيروت ، ١٩٧٧

كما اشار الغلاف ، فان كتاب « الطريق الى الخيمة الاخرى » للدكتورة رضوى عاشور ، هو « دراسة في اعمال غسان كنفاني » ، وفق منظور « لا يمكن التعامل مع اعماله الفنية من منطلق ان مكانته ، كمناضل وشهيد ، تجعل لزاما علينا تمجيد كتاباته » ، كما تقول المقدمة . وتنطلق الدراسة من اعتبار غسان « كاتبا مبدعا له انجازاته الفنية الجديرة بالدراسة » . وانه قام بدور ريادي في « كتابة القصة القصيرة والرواية الفلسطينية » . واشتمل الكتاب على الفصول السبعة التالية :

الفصل الاول : ابن عكا يذهب الى المخيم

قدمت الناقدة السيرة الذاتية لغسان كنفاني ، بهدف ان تكون « مدخلا وخلفية لعالمه القصصي والروائي » .

الفصل الثاني : ولادة الاسود الصغير:

تناولت في هذا الفصل ، بالاستعراض والنقد ، مجموعات غسان : موت سرير رقم ١٢ (١٩٦١) ، وارض البرتقال الحزين (١٩٦٣) ، وعالم ليس لنا (١٩٦٥) . ولاحظت انها بمجموعها « يشوبها عثرات فنية ، ويبدو واضحا فيها ان تجربة كاتبها وحساسيته المميزة ، اكثر ثراء وقوة من امكانياته الحرفية » (ص ٣٥) ، ولكنها « مشروع كاتب كبير » واشارت الى تنقل غسان في اشكال عمله « فهو حينا يعمل على اتقان الشكل الواقعي « ارض البرتقال الحزين » و « كعك على الرصيف » و « الصبي يذهب الى المخيم » . واحيانا يعمل على تطعيم هذا الشكل بعناصر غير واقعية كالحكايا الشعبية والفانتازيا « المنزلق » وفي احيان اخرى يتحرر من الشكل الواقعي تماما ، لينطلق في افاق التجريب الفني « الاخضر والاحمر » .

ان مادة قصة « كعك على الرصيف » (بطلها ماسح احذية : حميد : طفل) « تهدد بالسقوط في الرومانسية والسنتيمانتالية « العاطفية الرخيصة » والتسطح » (ص ٤٣) . ولكن غسان يخرج من ذلك بخلق شخصية مركبة . وتقارن بين أبطال (الاطفال عادة) « الصغير يذهب الى المخيم » و « المنزلق » و « كعك على الرصيف » ، لتصل الى نتيجة ان « الاطفال الفلسطينيين الفقراء في قصص غسان ، يتسمون بدرجة عالية من الذكاء والمعرفة ، فقد تعلموا في مدرسة الفقر والغربة الشيء الكثير » ص ٤٧ .

وتبدأ قصة « الاخضر والاحمر » (١٩٦٢)

بسؤال « لماذا لا تكون ندا قبل ان تموت »، وتنتهي باقرار « لا تمت قبل ان تكون ندا ٠٠ لا تمت » ٠

الفصل الثالث : الرحلة :

خصصت هذا الفصل لروايتين رجال في الشمس (١٩٦٣) ، وما تبقى لكم (١٩٦٥) ، فعن رجال في الشمس تقول « هناك انجاز اساسي لا اعتقد انه تحقق حتى الان على يد روائي فلسطيني اخر ، هذا الانجاز هو خلق الصورة المكثفة والدالة لرحلة العذاب الفلسطيني كما تتجسد في الصحراء والخزان » ص ٠٦٨ ورأت ان البناء الملحمي اقتصر على الفصول الثلاثة الاولى « ولكنها تصب بعد ذلك في حدث واحد كامل ومحدد ، يتخذ المسار التقليدي في التطور العضوي ، كما وضعه لنا ارسطو في كتاب الشعر قبل اكثر من الفي عام » ص ٧٣ ٠

وحول « ما تبقى لكم » تؤكد ان غسان اعتمد « على التجريب وتيارات الشعور المتداخلة والتجريد ، متأثرا (بالصخب والعنف) للكاتب الاميركي ويليام فوكنر »٠ وتستشهد بما قاله غسان ، في حديث اذاعي ، عن مشكلة الادب والتوصيل، حيث قال « ما تبقى لكم قفزة من ناحية الشكل ، ولكنها اثارت بنفس الوقت تساؤلات بالنسبة لي « لمن اكتب انا ؟ » ٠ هذه الرواية قلة يستطيعون من بين قرائنا العرب ان يفهموها ٠ فهل انا اكتب من أجل ان يكتب احد النقاد في مجلة ما ، انني اكتب رواية جيدة ؟! ام أنا اكتب من أجل ان اصل الى الناس ، وان تكون هذه الرواية شكلا من أشكال الثقافة الموجودة في مجتمعنا ؟! » ٠

ان غسان في هذه الرواية يطرح «المعادلة الصعبة التي يواجهها الاديب في العالم الثالث : كيفية التوفيق بين جودة الفن وجماهيريته » ٠

وفي « الاعمى والاطرش » استخدم غسان نفس الاسلوب (اسلوب الشعور ، كما تقول الناقدة) ، لان الرواية تقدم لنا وجهتي نظر اعمى واطرش ، والعزلة مفروضة على كليهما بسبب عجزه (ص ٨٩) ٠ ولذا ترى ان انجاز غسان في « ما تبقى لكم » انجازا شكليا في الاساس (ص ٩٠) ٠

الفصل الرابع : عن العشق القديم الجديد :

يقتصر هذا الفصل على قصة «الدوي» والمجموعة القصصية « عن الرجال والبنادق » ٠ ففي العروس التي اعيد نشرها في (عالم ليس لنا) ، يقول الراوي في رسالة الى صديقه : « ابحث معي حيث انت ، عن رجل طويل جدا ، صلب جدا ، لا اعرف اسمه ، ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة ، ويلوح لاول وهلة كأنه مجنون »٠ فهي رؤية جديدة للتاريخ (الماضي والذاكرة) ، تتبلور في « عن الرجال والبنادق » (١٩٦٨) ، حيث « يصبح وصل الحاضر بجذوره في الماضي احدى المهام الاساسية للكاتب » ص ١٠٢ ٠ وفي العملين نجد ان « اكتشاف الهوية الفلسطينية ، مرادف لشيئين اساسيين : الارتباط بالارض وحمل السلاح » ص٠١١٣

الفصل الخامس : الوصول الى الخيمة الاخرى :

كرست الدكتورة رضوى عاشور الفصل الخامس ، لروايتي ام سعد (١٩٦٩) وعائد الى حيفا (١٩٧٠) ٠ فأم سعد « رواية عن بعث امة ، ولادة الحياة من الموت ، نماء الثورة داخل مخيمات الذل والهزيمة » ص ١٢٤ ٠ وتمجيد غسان لام

سعد « ليس سوى تمجيد لجوهر ارتباطها بالارض والثورة » ص١٢٧ ٠ وهي من الروايات التي اثارت « جدلا حول شكلها ، وتتفاوت ردود فعل قرائها ما بين متحمس شديد الحماس ، وبين معتقد بأنها اجتهاد متواضع لا يرقى الى مستوى الرواية » ص ١٣٢ ٠ وترى رضوى عاشور ، ان الجانب التعليمي في الرواية « صفة من صفات الادب الاشتراكي » ٠

وعلى الرغم من كتابة الروايتين ، ام سعد وعائد الى حيفا ، في الوقت نفسه ، « الا ان بينهما فارقا كبيرا في المضمون والشكل والمستوى التقني » ص ١٣٨ ٠ فعائد الى حيفا تقدم (شخصيات من الطبقة الوسطى الفلسطينية ، التي لم تفقد وضعها الطبقي بفقدها الوطن » ، وتمتاز ببناء « عضوي » ٠ ومع ذلك تظل « رواية محدودة فنيا ، مكتوبة على عجل ، فيما يبدو فتجنح لنقل الواقع بشكل ذهني لا يصل في الغالب الى التناول الوجداني ، الذي يخلق للفن الجديد » ص ١٤٤ ، وتقدم « لنا الشخصيات كأدوات للحدث ، وكأنها شخصيات في قصة قصيرة ، فلا نراها في اكتمالها الانساني » ص ١٤٤ ٠

الفصل السادس : معجزة المعذبين في الارض :

ناقشت في هذا الفصل ، مسرحية الباب (١٩٦٤)، ورواية الاعمى والاطرش فمسرحية الباب « عمل فلسطيني من الاعمال القليلة جدا لغسان كنفاني ، التي لا يتناول فيها جانبا من جوانب القضية الفلسطينية» ص ١٥٢ ، فهي تحمل «اصداء وجودية واضحة ، ومحاولة لبناء بطل تراجيدي على غرار اوديب سوفوكليس ، وان كان يستمد جذوره من الاسطورة العربية » ص ١٥٣ ٠

اما رواية « الاعمى والاطرش » ، التي لم تستكمل ، فتعتبرها « رسالة نضالية في شكل فني راق » ص ١٧٣ ٠

الفصل السابع : وصار ندا :

هو خلاصة ما توصلت اليه الناقدة رضوى عاشور من الفصول الستة ٠ وترى ان كتابات غسان من الادب القومي « وهو الادب الذي ينشأ في مراحل نهوض الامة وتماسكها ، ويعمل على تقديم وتجسيد جوهر الجماعة ، واكثر السمات تأصلا فيها » ص ١٧٨ ٠ وفي تعامله مع الماضي ، ينتقل غسان من مستويات المرارة والندم ، الى المنظور التاريخي « فيتمكن من رؤية العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر ، ولا تصبح اللحظة وجودا معزولا لا امتداد له ، بل تصبح استمرارا لما سبق يحمل بذور الاتي من الايام » ص ١٨٠ ٠ وتعتبر ان اهم سمات عالم غسان القصصي والروائي ان هذا العالم يزخر بالرموز الدالة ، وترى انه يستخدم « رموزه في سياق واقعي احيانا ، فيعتمد الشكل التقليدي في البناء والسرد ، مع اضافات طفيفة هنا وهناك ٠٠ وفي احيان اخرى يستخدم هذه الرموز في سياق تجريبي يعتمد على اسلوب تيار الشعور او ينحو الى التجسيد والتجريد وصولا الى الكثافة الشعرية » ص ١٨٣ ٠

ومن حيث الشكل ، تستنتج الناقدة ، ان اساليب غسان متنوعة ، فقد استخدم البناء العضوي التقليدي في (عائد الى حيفا) و (الاعمى والاطرش) ٠ واستخدم البناء الملحمي في « ام سعد » و « العاشق » ، ومزج بين الشكلين في « رجال في الشمس » ٠

وعلى العموم ، فانها تعتقد ، ان غسان كنفاني « من اوائل الروائيين العرب الذين بدأوا بمواجهة انسانية الفلسطيني٠ وحين يواجه الكاتب انسانية شخصياته ، فلا يمكن ابدا ان يقدمهم في شكل مسطح

او عاطفي رخيص · ولقد كان غسان ايضا اول من رأي واستشرق امكانات التمرد والرفض في المخيم » ص ١٧٩ ·

قراءة في النقد

ـ ما الذي يضيفه هذا الكتاب الى الدراسات التي تناولت تجربة غسان كنفاني ؟

ـ لماذا اتخذت رحلة غسان مسارا متعرجا في الاشكال الادبية ؟
وما علاقة هذا التعرج بمفهوم غسان الايدولوجي وموقفه السياسي ؟

ـ الشخصيات ، اتجاهاتها وقيمها ، ماذا تعكس في قصص وروايات ومسرحيات غسان ؟

ـ ظاهرة المكان المميز (الصحراء) ، هل هي مقابل عدمي للارض الرطبة في المخيم ؟! ام هي ارض مفتوحة لكل الاحتمالات ؟ وهل نجح غسان في ان ينمي موقفه على الرمل ؟!

هذه ، وغيرها من الاسئلة ، تطفو على السطح ، فور الانتهاء من « الطريق الى الخيمة الاخرى » · وعلى قاعدة تقسيم الناقدة الدكتورة رضوى عاشور ، لفصول الكتاب ، ستكون هذه القراءة النقدية ·

ليست خلفية او انارة

يفترض الكشف عن الجوانب المتعددة لحياة غسان ، حتى تكون خلفية لعالمه القصصي والروائي ، ما هو اكثر من بطاقة هوية ، في المولد والنزوح وتعدد مرافق العمل حتى الشهادة · وحتى هذه النقلات بقيت دون تفسير ، لاثر الانتقال مثلا من الكويت الى مجلة الحرية ، ومن القوميين العرب الى الجبهة الشعبية · فالتعريف سكوني ، به ومضات نقدية دالة ، اعتمد على اعادة تلخيص لبعض مواد كتاب الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين (١) ، وعلى دراسة غسان كنفاني عن ثورة ١٩٣٦ (٢) · وظل ، بالنتيجة ، دون المهمة او الهدف المنوط به ·

الانارة الحقيقية هي في ان نكشف عوالم غسان كنفاني في مراحله المختلفة، ايدلوجيا وسياسيا وادبيا · ومدى ترابط هذا النسيج الثلاثي في كل مرحلة ، وما اثره على الرحلة الطويلة المضنية ؟! وان نبين مدى تاثر غسان بالتيارات الثقافية الغربية ، والثقافة القومية العربية ، واثر ذلك على اشكاله الادبية المتنوعة ، وعلى شخوص ادبه · لا ان نستسهل الاقتباس المنشور ، وغير المكلف ، واعادة قذفه في وجه القارىء ، وفي اول فصل من الكتاب ·

واذا كانت القضية الفلسطينية هي « النسيج الاساسي لكتابات غسان ، وكان عالم الموت متداخلا بكتاباته عن هذه القضية بشكل متواصل » (٣) ، فان الرحلة في ادب غسان ، معنية بكشف ريادة او تأخر الاديب في استيعاب الدور الخاص للفلسطينيين ، وفي تعبيد طريق الخلاص الوطني · فلقد كانت عظمة تولستوي ،كما اشار لينين ، في انه قدم انتقادات اساسية (من خلال الادب) للدولة والكنيسة والملكية الخاصة للارض · ولذا قال «سوف تأخذ البروليتاريا ، هذا التراث وتدرسه » (٤) ·

ان الغوص في رحلة النفي الفلسطيني (من خلال غسان) ، يتيح للدكتورة رضوى عاشور ، ان تكشف « عالم المنفى » ، كيف تعامل غسان معه ؟ كيف استوعبه ، ليخرج منه ؟! كيف تمثله في النتاج المبكر واللاحق ؟ وبدون ذلك ، تبقى بطاقة الهوية

قاصرة عن تقديم انارة حقيقية عن ادب غسان كنفاني ، ولا تصلح ان تكون خلفية جادة له ٠

الفجيعة !

رغم اسبقية القاصة الفلسطينية سميرة عزام ، لغسان كنفاني في الكتابة ، فأنها في مجموعاتها الثلاث الاولى « اشياء صغيرة » ١٩٥٤ ، و « الظل الكبير » ١٩٥٦ ، و « قصص اخرى » ١٩٥٩ ، لم تتمكن من تمثل المنفى الفلسطيني واستيعاب علاقاته ٠ واكتفت بواقعية رومانسية من شق نافذة على الماضي ، ومن ادمان العذاب والحزن والاحساس بالفجيعة وخيبة الامل، مع الاحساس الضمني بالاثم بسبب الخروج من فلسطين ٠ ووفق هذا الاسار لم تتمكن من تمثيل دور الوعظ الاجتماعي ، او من بناء جسور جديدة بين المنفيين في الخارج واهلهم في الداخل في « رسائل اللاجئين الى ذويهم » ، وبين شطري الجسد الواحد في « مندلبوم » ٠

ورغم الفوارق بين غسان كنفاني وسميرة عزام ، فأنه في مجموعته الاولى وقع فيما وقعت فيه « اشياء صغيرة » ، فكلاهما ، لم يجد حرفته القصصية في مجموعاته الاولى ، وظلا اسيرين في السرد المباشر ، والخواطر والحكايا ، والسير الذاتية والرسائل الواقعية الرومانسية ٠ وغسان ايضا لم يتمثل المنفى في نتاجه المبكر ٠ وعندما وصل غسان الى الواقعية النقدية في « رجال في الشمس»، كانت واقعيته تثقب وتنتقد كل جدران المنفى ٠ ومع ذلك بقيت دون واقعية بلزاك في نقده وتحليله للمجتمع البرجوازي ، وذلك لضعف رؤيتها الاجتماعية ٠

ان المجموعات الثلاث « موت سرير رقم ١٢ ، ارض البرتقال الحزين، عالم ليس لنا » « لا تريد سوى ان تصرخ في وجوهنا ، ان تنزف قضيتها دون ان يكون بوسعها ان تعطي حلولا ، او حتى ان ترسم سؤالا » (٥) ٠ ولذا تنزلق « نحو السقوط والهاوية واليأس » (٦) ٠

اما عالم القصص (يستبدل هنا مجموعة عالم ليس لنا ، برواية رجال في الشمس) ، فأول ما يلفت النظر فيه « انه مشدود الى الماضي بشكل مخيف ، وانه عالم بلا تفاؤل او فرح ٠ ان الحاضر ليس فقط لا يقدم لابطال هذا العالم اي تعويض، وانما ايضا يفترسهم وباستمرار٠ اما المستقبل فانه اكثر من ثقب اسود كبير في نفسيتهم » (٧) ٠ ويرى ان المرارة تضاف الى الندم في افتراس الكيان الداخلي لابطال عالم قصص غسان كنفاني في فترة ما قبل ١٩٦٥ ٠ ان العجز اقوى من المرارة والندم ، وهو شعور خانق ومدمر ، واتخذ التعبير عنه « شكلا ضاريا في واحدة من اروع قصص غسان كنفاني القصيرة ، وهي قصة « الاخضر والاحمر» الرمزية ، من مجموعة ارض البرتقال الحزين » (٨) ٠

ان « الاخضر والاحمر » التي انتهت باقرار « لا تمت قبل ان تكون ندا ٠٠ لا تمت » ، رغم انها تنمو على حواف دائرة العجز ، فانها تعظ باختراقها وتجاوزها٠ وهي متعاكسة مع الموت امام الاصداف بحثا عن اللؤلؤ في « لؤلؤ في الطريق » من ارض البرتقال الحزين

رجال في الشمس

تتماثل الرواية في مضامينها مع مجموعتي موت سرير رقم ١٢ وارض البرتقال الحزين ، في التعبير عن الرحلة الفلسطينية في المنفى ٠ وتتمايز عنهما في فاجعة الموت الحادة في التأثير والتعبير

وفي تشريح واعدام ما افرزه المنفى من تمركز حول الذات ، والسعي للخلاص الفردي · فالرؤية السوداوية ،.لم تكتف بالصحراء ، فقدمت الخزان مدفنا للباحثين عن خلاص فردي ، دون ان تفتح ولو نافذة صغيرة في افقهم من اجل المستقبل · وهذا العالم « لا يمكن ان يقدم في النهاية لابطاله الا الموت السخيف والمجاني ، ولذلك لم يكن غريبا ان يكون مثل هذا الموت نصيب ابطال رواية رجال في الشمس » (٩) ·

وبحثا عن لا منطقية هذا الموت ، قارن فضل النقيب بين « بداية ونهاية » لنجيب محفوظ وبين « رجال في الشمس » لغسان كنفاني · واستنتج ان رواية نجيب محفوظ اكثر منطقية ، بينما الفشل غير مفسر وغير مبرر في رواية غسان ، والتي اعتبرها « ليست رواية بالمعنى الفني للكلمة » ، ولكنه استخلص ان هدف غسان ان يقول ، « لا جدوى من الحل الشخصي المغامر لقضية هي اصلا عامة » (١٠) ·

واشترط الياس خوري لفهم الشخصيات الثلاث (ابو قيس ، اسعد ، مروان) ان نفهم البؤس اليومي الذي يعيشه سكان المخيمات ، فهي « شخصيات واقعية تريد الخلاص بسرعة » (١١) ·

وبذلك وضع الياس خوري يده على المعنى السياسي للشخصيات التي « تريد الخلاص بسرعة » ، دون ان يسميه · فهؤلاء هم انماط من البرجوازية الصغيرة، ضيقو الافق ، مغامرون ، عصاميون ، مترددون ، ان مأزقهم من مأزق البرجوازية الصغيرة الطامحة الى حل مأزقها الخاص، دون ان تربطه بمأزقها الوطني العام ، اذا لم يكن على حسابه · انها عبثية الهروب الى بوابات العالم ، دون ان نطرق بوابة الوطن · فالموت مصير حتمي للذين يخرجون من النفي ، حتى يدخلوا فيه مرة اخرى ·

ان عطف الدكتورة رضوى عاشور على ابي قيس ، حوله الى جان ومجني عليه ، نشفق عليه بقدر ما ندينه ونرفضه ·وهذا العطف اخل بمضامين حلم « ابو قيس » ، المال لتعليم قيس ، عرق او عرقين من الزيتون ، بناء منزل » · وذات القضية تتكرر عند ابي الخيزران ، الذي يجسد القيادة التقليدية للفلسطينيين ، قبل النكبة وبعدها ·

فاذا كان هو رمز القيادة التقليدية حقا، فأين الخروج من سقفها ؟ اين ؟

لا الخزان يجيب ! ولا الصحراء قادرة على رد السؤال ·

وكما يقول الدكتور احسان عباس « فالشخصيات المصابة بصدمة لا تتمكن من نسج جسور متينة مع الحياة » (١٢) ·

رواية « ما تبقى لكم »

الرواية ارتداد واضح في مسار رحلة غسان· فبعد الواقعية النقدية في « رجال في الشمس » ، يرتد الى تيار اللاوعي ، كأحد مقومات المدرسة السريالية في الادب الغربي · فالسريالية عند مارسيل بروست وجيمس جويس وفرجينا وولف ، هي حركة احتجاج سلبية على المجتمع البرجوازي ، كمجتمع نمطي الي ، يقتل انسانية الانسان ويحوله الى اله ، الى مغترب · وهي على النطاق العالمي ، ثورة مقلوبة ، اي تيار عدمي يتوجه الى النخبة عبر بحثه عن الاشكال الفنية المتقدمة ، ويضع الشخصيات في أطار مجرد عبر انسحابه الى اللاشعور ، ويحول الحرية الى تحرير للانسان ولسلوكه من سيطرة العقل · ورد الكاتب الانجليزي جون ستراتشي على هذا المنحى بالقول :

« هدفنا ان نجعل من الفن خادما للانسان، كوسيلة للكفاح ، لا ان نجعل من الانسان خادما للفن ، كوسيلة للهرب » (١٣) ٠

واذا كانت رجال في الشمس ، قد تقدمت جزئيا ، على المنحى الرومانطيقي في فلسفة الموت عند غسان ، في اعماله الاسبق ، فانها لم تكن ، كما يفترض منحى التطور، مقدمة لسريالية جديدة (١٤) ٠

ولكن هذا الشرخ له دلالته بالتأكيد ٠

فهو اولا تعبير صارخ ، على ان فهم غسان الايدولجي والسياسي ، لم يكن منسقا في ارتقائه وتطوره ، فتأرجح بين الصعود والهبوط ٠ ولم تتطرق الدكتورة رضوي عاشور من قريب او بعيد الى هذه المسألة ، واكتفت بمناقشة الشكل الفني الجديد ، من خلال اصوله المقتبسة، ومدى قدرته على الايصال ٠

لقد قال غسان في مقابلة اذاعية عن القفزة في الشكل الجديد ، واثار تساؤلا لمن يكتب ٠ ولم يتحدث عن الصخب والعنف للكاتب الاميركي ويليام فوكنر ٠ وهذه الاستعارة تطرح التساؤل مجددا :

لماذا استعار غسان هذا الشكل من ويليام فوكنر للتعبير عن القضية ؟!

وهل وفق هذا الشكل ام فشل ؟!

والاجابة قديمة ، قدم صدور الرواية ٠ فقد فشلت في الوصول « الى المصير الجماعي ، اي مصير القضية ككل » ٠ وفقد الانتقال اللاواعي مبرره «بوجود شخصيات طبيعية لا تعاني من مرض ما في نظرتها للاشياء من حولها ، وان كانت متعلقة بعبء العار الذي تحمله (١٥) ، فبنجي احد ابطال الصخب والعنف ، انسان معتوه ، ونظرته مضطربة نظرا لوضعه هذا ، « بينما شخصيات غسان الخمسة العادية تتجمع في بطل واحد هو الكاتب ايضا » (١٦) ٠ بينما يرى الياس خوري، جميع الشخصيات في بطل واحد ايضا ولكنه « الموت » (١٧) ٠ ولان الموت كان « قريبا باستمرار ، يعيشه ، يكتب عنه ٠٠ واخيرا يمارسه » (١٨) ، فلا فرق بين استخلاص الياس خوري واستخلاص عرودكي ٠ واكتفت يمنى العيد بتسميته «قلق ومسحة مرارة » (١٩) ٠

وقد اصابت الناقدة رضوى عاشور عندما سمت انجاز ما تبقى لكم « انجازا شكليا في الاساس » ٠

« عن الرجال والبنادق »

مهد غسان كنفاني في قصته القصيرة « العروس » (عالم ليس لنا) الى ظهور البندقية ، كشكل جديد من التعاطي مع الذاكرة الفلسطينية ، فهي جزء من لحمة الحاضر النضالي ، ومادة متواصلة مع التراث ٠ وفي بحثه عن الرجل الطويل جدا والصلب جدا (الصورة الرومانسية للفدائي عند الانطلاقة) ، يشرك كل الناس في هذه المحاولة ، فيصير البحث عن (بندقيته)مهمة فلسطينية شاملة ٠ فالمبلغ المخصص لصداق العروس ، يشتري به بندقية عتيقة : « ابحث معي عنه ، حيث انت ، فلدي اخبار جديدة عن العروس » ، مما اعطى القصة طابع البشارة المفرحة في مسار غسان القاتم والحزين ٠

وعلى كتف العروس ، سار غسان الى مجموعة « عن الرجال والبنادق ، حيث نجد ان « اكتشاف الهوية الفلسطينية مرادف لشيئين اساسيين : الارتباط بالارض وحمل السلاح » (٢٠) ٠

وقدمت الدكتورة رضوى عاشور ،صورة دقيقة لمضامين اللوحات التسع التي تتضمنها المجموعة ، فترى ان « ارتباط منصور بالارض من ناحية وولعه بالبندقية

من ناحية اخرى وجهان للشيء نفسه » ، وبشكل بارز ، قدمت قيمة ان يكتشف الصغير « ان المفتاح يشبه الفأس » ٠

رواية « ام سعد »

شكلت الرواية قفزة في موقف غسان الادبي ٠ وظلت من حيث شكلها مثار جدل « ما بين متحمس شديد الحماس وبين معتقد بانها اجتهاد متواضع لا يرقي الى مستوى الرواية » (٢١) ٠ وغطى نقد الدكتورة رضوى عاشور كافة الجوانب الاساسية في شكل ومضمون هذه الرواية٠ واعتبرت الجانب التعليمي فيها « صفة من صفات الادب الاشتراكي » ، وارجعت تمجيد غسان لام سعد الى « جوهر ارتباطها بالارض والثورة » ، ولذا فهي رواية عن (بعث امه) ٠

ويرى الياس خوري ان ام سعد « تذكرنا كثيرا بام جوركي ، وبالبطل الواقعي الاشتراكي ، بالمثال الشعبي الذي يجب ان يحتذى » (٢٢) ٠ فهي تعرف أن « خيمة عن خيمة تفرق » في مقارنتها بين خيمة المخيم وخيمة معسكر الفدائيين ٠ الاولى حبس ، كما تقول رضوى عاشور، والثانية اختيار حر لطريق المستقبل ٠

ان الرواية الواقعية تكره الحب البدائي ، وتمقت التعبير الرومنطيقي والسريالي ، وترسم الحب الحقيقي المتفتح لكل رياح الحياة والعصر ٠ وهي في رفضها للغموض ، فانما ترفض لعبة الشكل ، ولا تنادي بالمباشرة الساذجة، والتبسيط الفج ٠ فموقف بليخانوف «قيمة العمل الفني في مضمونه فقط » ، قد هزمه مكسيم جوركي في حديثه مع الروائية الانجليزية مارغريت هاركتس ، عندما قال « كلما كانت اراء المؤلف اكثر خفاء كان هذا افضل للعمل الفني » ٠ وهي جملة قريبة نسبيا مما قاله الناقد التقدمي محمود امين العالم « الشكل ـ الصورة ـ تكاد تكون جوهر ما يجعل الادب ادبا والفن فنا » (٢٣) ٠

وام سعد رواية واقعية ، عبرت عن لحظة اقتراب غسان من الفكر الماركسي ، وبدء مغادرته للفكر القومي ٠ ان كدحها البروليتاري الرث ، يتجاوب مع واقعية العمل المتاح للنساء الاميات في اغلبية مخيمات اللاجئين ، وليس بالضرورة ان ينم هذا الاختيار عن اضطراب نظري وتشوش ايدولوجي ٠ وعفويتها ، لا تخفي وجهها الشعبي الجميل ، كما قالت يمنى العيد ، في « ممارسات في النقد الادبي » ٠

رواية عائد الى حيفا

مرة اخرى يضطرب مسار غسان ٠ يتقدم في الشكل ، فتصبح عائد الى حيفا متقدمة على ام سعد في الحركة الايقاعية والوحدة العضوية ٠.ولكن التناول الذهني للشخصيات والاحداث ، هو الذي جعل الدكتورة رضوى عاشور تعتبر الرواية « محدودة فنيا ، مكتوبة على عجل ، فيما يبدو » ٠ وهو الذي جعل الياس خوري يعتبر الابطال فيها « مجرد حالات » ٠ وعادت رضوي عاشور لتستخلص ان غسان قدم الشخصيات « كأدوات للحدث ، وكأنها شخصيات في قصة قصيرة ، فلا نراها في اكتمالها الانساني » ص ١٤٤٠

نقطة اخرى ، ارتد غسان عن الام الكادحة (ام سعد) الى الطبقة الوسطى (سعيد/عائد الى حيفا) ، تماما كما ارتد من الواقعية النقدية في رجال في الشمس الى تيار اللاوعي في ما تبقى لكم ، وهذا الاضطراب المتجدد ، ينم عن ازمة ايدولوجية اولا ، حاول غسان التعويض عنها ، بطرح مشكلات جديدة ، ولاول مرة ان تقديم الاسرائيلي خارج ميدان القتال

خطوة جريئة ينقصها الكشف عن عوالم هذه الشخصيات · صحيح ان خلدون الذي تحول الى دوف يكشف عن «مسؤولية التوجيه والتربية في تحويل خلدون الى دوف المجند في الجيش الاسرائيلي » (٢٤)، ولكنه بذات الوقت يريد ان ينسج جسرا بين الداخل والخارج ، بين الوطن وبين المنفى ، ولو من خلال حادثة الصورة ·

ان الطريق الذي سلكته الدكتورة رضوى عاشور ، قد اوصلها الى الخيمة الاخرى ، ولكن دون تدقيق كاف في محطات الاستراحة ، وفواصل السير المتعرج نحو الهدف ·

علي حسين خلف

هوامش :

(١) غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا : احسان عباس ، فضل النقيب، الياس خوري ·

(٢) ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في فلسطين، خلفيات وتفاصيل وتحليل · شؤون فلسطينية ، العدد ٦ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ·

(٣) بلال الحسن : « غسان والموت » ـ شؤون فلسطينية العدد ١٣ ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ·

(٤) في الادب والفن : ف·ي· لينين ـ الجزء الاول ـ ترجمة يوسف حلاق ·

(٥) الياس خوري في غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا ص ٩٢ ·

(٦) نفس المرجع ·

(٧) احمد خليفة : عالم القضية الفلسطينية في ادب غسان كنفاني شؤون فلسطينية العدد ١٣ ·

(٨) نفس المرجع ·

(٩) احمد خليفة : مرجع سابق ·

(١٠) فضل النقيب : غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا ص ٦٤ ، ٦٧ ·

(١١) الياس خوري : مرجع سابق ·

(١٢) احسان عباس : غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا ·

(١٣) د· لويس عوض : الاشتراكية والادب ·

(١٤) راجع « الرومنطيقية في الادب الفرنسي » ف·ل· سولنيه ، ترجمة احمد دمشقية ، وخاصة ما هو متعلق بفلسفة الموت عند راب ، بوربل ، اونيدي ·

(١٥) بدر الدين عرودكي : ما تبقى لكم ولعبة الشكل ، دراسات عربية ، العدد ٢ ، كانون الاول ١٩٦٦ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ·

(١٦) نفس المصدر ·

(١٧) الياس خوري مرجع سابق ص ١١٢ ·

(١٨) بلال الحسن مرجع سابق ·

(١٩) يمنى العيد : ممارسات في النقد الادبي ـ دار الفارابي ـ نيسان ١٩٧٥ ·

(٢٠) الطريق الى الخيمة الاخرى ص ١١٣ ·

(٢١) نفس المصدر ص ١٣٢

(٢٢) الياس خوري مرجع سابق ٠

(٢٣) محمود .امين العالم : تأملات في عالم نجيب محفوظ ٠

(٢٤) د٠ احسان عباس : الجسور والعلاقات في قصص غسان ـ شؤون فلسطينية العدد ١٣ ٠

السينما وفلسطين

منشورات E 100 باريس

صدر في باريس مؤخرا اول كتاب عن السينما العربية باللغة الفرنسية وباسم (فلسطين والسينما) ٠ عن دار نشر E 100 (يتألف من ٢٩٠ صفحة بالقطع الكبيرة ويحتوي على مجموعة من صور الافلام عن القضية الفلسطينية ٠ وقد اهدي الكتاب لذكرى السينمائي الفلسطيني الشهيد هاني فخري جوهرية) ٠

واشرف على نشر الكتاب الناقد الفرنسي الشهير غي هاينبيل مؤلف الكتب السينمائية الهامة التالية (السينما الافريقية ـ خمسة عشر عاما من تاريخ السينما العالمية ، دليل الافلام ضد الامبريالية ، السينما النضالية) وخميس الخياطي الناقد التونسي المقيم بباريس استاذا للسينما العربية والاداب العربية في جامعة باريس الثالثة ومدير تحرير مجلة السينما العربية ٠

وقد تعاون في تأليف هذا الكتاب عدد كبير من السينمائيين النقاد العرب والاجانب ٠

قدم للكتاب كل من عز الدين القلق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية بباريس وقد اشار في مقدمته الى اهمية تطوير عملية نشوء جبهة ثقافية عالمية تقف الى جانب القضية الفلسطينية كما قدم للكتاب ايضا مصطفى ابو علي مدير مؤسسة السينما الفلسطينية والذي حقق ما يقارب عشرة من اهم الافلام الفلسطينية الوثائقية التي حاز معظمها على عدة جوائز عالمية مثل (بالروح بالدم ـ مشاهد من احتلال غزة ـ طريق النصر وغيرها ٠)

ولقد لفت الانتباه في مقدمته الى ما يسميه خطر الاستشراق في السينما العربية المعاصرة اي الخضوع تحت ركام النظرة السطحية للواقع العربي الحالي ٠

اما غي هاينبيل وخميس خياطي فقد حددا في مقدمتهما هدفهما من وراء اصدار هذا الكتاب والذي يتجلى في (١) التأكيد على صعيد المجال الشخصي اكثر منه النقدي وعلى دعمهما لقضية الشعب الفلسطيني الذي تجاوز من جديد وبشجاعة لا توصف مرحلة من ادق المراحل المأساوية عبر كل تاريخه المأساوي المعاصر ٠ ٢ ـ القيام بحملة تعريف للافلام العربية والاجنبية التي تساهم بالدفاع عن المقاومة الفلسطينية ، ٣ ـ التأكيد

على ابراز ارادة الشعب الفلسطيني في الكفاح وذلك من خلال دعمه باستمرار على صعيد الشاشة السينمائية ٠

وقد شملت المقدمات الثلاث ٢١ صفحة من صفحات الكتاب وقسم الكتاب الى خمسة اقسام جاءت كما يلي :

القسم الاول : السينما الفلسطينية التي انتجتها منظمات المقاومة الفلسطينية من ص (٢٢ ـ ٦٩) ٠

القسم الثاني : السينما العربية وفلسطين من صفحة (٧٠ ـ ١٦٣) ٠

القسم الثالث : السينما الغربية وفلسطين من صفحة ١٦٥ ـ ٢٢٦ ٠

القسم الرابع : فلسطين في سينما العدو من صفحة ٢٢٧ ـ ٢٣٨ ٠

القسم الخامس : فيلموغرافيا من صفحة ٢٣٩ ـ ٢٨٢ ٠

١ ـ السينما الفلسطينية :

احتوى هذا القسم على معلومات تاريخية عن السينما الفلسطينية منذ تأسيس اول قسم سينمائي لحركة فتح على يد السينمائيين الفلسطينيين مصطفى ابو علي وهاني فخري جوهرية والمصورة السينمائية سلافة فرسال ٠

كما يحتوي على معلومات عن السينمائيين الفلسطينيين معطيا حيزا خاصا للسينمائي الشهيد هاني جوهرية ٠ وقد كتب الصفحات الخمس التي احتوت هذه المعلومات السينمائي الفلسطيني سفيان الرمحي المقيم في باريس ٠

كما كتب حسان ابوَ غنيمة عن نشأة السينما الفلسطينية واتجاهاتها وتياراتها الاكثر اهمية ٠ وقد اعطيت لدراسة ابو غنيمة هذه (٢٣) صفحة يشير فيها الى ان السينما الفلسطينية ضمن اطار منظمة التحرير الفلسطينية هي التي عبرت عن نضال الشعب الفلسطيني في سبيل وطنه المغتصب واصراره على هزيمة العدو الصهيوني ٠ وقد بدأ هذا النوع من السينما بعد بدء الكفاح المسلح ١٩٦٥ وارتبط بهذا الكفاح ٠ وبدأت وحدة افلام فلسطين ، التابعة لحركة فتح وهي اول وحدة سينمائية عملت من خلال تنظيم فلسطيني مقاتل ، عملها في تصوير الاحداث الثورية المتعلقة بالثورة الفلسطينية مكونة اغنى ارشيف سينمائي وفوتوغرافي عن الثورة الفلسطينية المعاصرة وكان الدافع لهذا العمل الشعور بان ثمة احداثا هامة تجري في المنطقة ويجب تسجيلها وحفظها حتى يحين الوقت المناسب للاستفادة منها ٠

وعلى صعيد الحديث عن اتجاهات وتيارات السينما الفلسطينية فان حسان ابو غنيمة يشير الى انفراد السينما الفلسطينية بتجربة متميزة عن بقية ممارسات هذا الفن في الدول العربية الاخرى باستثناء الجزائر فهي تجربة نبعت من خلال الكفاح المسلح وارتبطت به واكتسبت خصائص الحرب الشعبية الطويلة الامد باللون والخصائص الفلسطينية لهذا النوع من الكفاح ٠ ويحدد ابو غنيمة اتجاهات هذه التجربة في اتجاه افلام الحدث وهي الافلام التي تعنى بالحدث وتسجيله والتعليق عليه وتحليل اسبابه ونتائجه خاصة ما يتعلق منه بالثورة الفلسطينية ٠ اما الاتجاه الثاني فهو اتجاه الافلام التسجيلية ومنها الاتجاه الذي يعتمد كليا او جزئيا على الارشيف السينمائي مهما كان مصدره والاتجاه الاخر الذي يعتمد على تسجيل واقع الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني في القواعد والمخيمات ٠ اما الاتجاه الثالث فهو اتجاه الافلام الروائية وضمن

هذا الاتجاه هناك نوعان اولهما ، حاول تقديم حقائق موضوعية عن واقع الشعب الفلسطيني او ثورته المسلحة اما النوع الاخر فهو تجاري تجاهل تماما الحقائق واعتمد كلية على الخيال بغرض الاثارة وجلب المتفرجين باي ثمن وقد استغلت هذه النوعية تعاطف الجماهير العربية مع الثورة الفلسطينية المسلحة استغلالا تجاريا مثل (كلنا فدائيون) كفاح حتى التحرير وغيرها اما الاتجاه الجاد فينحصر في عدد قليل من الافلام هي (المخدوعون) و (كفر قاسم) ٠

كما ناقش ابو غنيمة مسألة توزيع الفيلم الفلسطيني وكيفية التوزيع وعروض الافلام ومناقشتها مع الجماهير ٠ واشار الى ان نوعية التوزيع التي تتبعها مؤسسة السينما الفلسطينية هو توزيع نضالي لا يستهدف الربح التجاري بل الاعلام والتعريف بنضال الشعب الفلسطيني وفضح العدو الصهيوني ٠ كما وناقش مشكلة الارشيف السينمائي وقضية الانتاج السينمائي لدى منظمات المقاومة ومنها مؤسسة السينما الفلسطينية التي بدأ نشاطها منذ العام ١٩٦٨ وقسم الثقافة والفنون بمنظمة التحرير الفلسطينية ببيروت وبدأ نشاطها عام ١٩٧٢ واللجنة الفنية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وبدأ انتاجها عام ١٩٧١ ٠

وعلى صعيد مسألة الدراسات والابحاث في السينما الثورية فقد اعطى ابو غنيمة اهمية خاصة لتجربة وحدة افلام فلسطين، مؤسسة السينما الفلسطينية باعتبارها تشكل تجربة غنية ومميزة عن كافة الجهات الاخرى واشار الى انه كان على السينمائيين الفلسطينيين ان يبحثوا بجدية عن طبيعة ظروف وخصائص ومميزات نشاطهم السينمائي في اطار حرب الشعب الطويلة الامد ليكون على الاقل سائرا في الاتجاه العام للثورة وليس في الاتجاه المعاكس ٠ وكان السؤال الهام الذي بدأه العاملون في المجال السينمائي انذاك هو هل القيم الفنية والجمالية التي درسوها تناسب الجماهير الفلسطينية التي ابتدأت بالتعرف على الثورة المسلحة وهل على السينمائيين الفلسطينيين مخاطبة هذه الجماهير بنفس الاساليب التي تعلموها في الخارج ام ان عليهم ان يتعلموا من جديد اسلوبا خاصا في مخاطبة جماهيرهم الفلسطينية والعربية ٠

وابرز ابو غنيمة بشكل خاص تجربة فيلم بالروح بالدم (للمخرج مصطفى ابو علي) مشيرا الى المناقشات التي تمت انذاك وادت الى اختيار اسلوب السينما النضالية بدل السينما الوثائقية بهذا اصبح وضع تحليل سياسي للفيلم هواساس العمل ، واصبح هذا التحليل هو البديل للسيناريو التقليدي وقد تم وضع هذا التحليل بمشاركة اكبر عدد متوافر من الكوادر الثورية واصبحت مهمة الفريق الفني ترجمة هذا التحليل السياسي سينمائيا ٠ وفي معرض الحديث عن الاستفتاء الجماهيري وملاحظات عن العروض والاستفتاء حول الافلام التي انتجتها مؤسسة السينما الفلسطينية ، اشار ابو غنيمة الى النتائج الاتية : اهتمام الشعب بقضيته الاساسية ، ومدى خطورة الفيلم كوسيلة اتصال جماهيرية ومدى اهمية الوعي السياسي لدى صانع الفيلم ووعي الشعب لطبيعة معركته ضد الاحتلال والامبريالية العالمية وتفضيل الجماهير للاسلوب الواقعي من بين الاساليب الفنية الاخرى ٠

وقد عنت هذه الاستفتاءات الكثير لمؤسسة السينما الفلسطينية اذ قررت لهذه المؤسسة اتجاهها في التوجه اولا واخيرا للجماهير صاحبة المصلحة في النضال ،

وعلى صعيد النتائج التي توصلت اليها السينما الفلسطينية من خلال هذه الدراسات والابحاث فان ابو غنيمة يشير الى عدة نقاط اولها ان السينما النضالية تجربة نمت مع الثورات الشعبية المسلحة، كما هو الحال في فياتنام وكوبا والجزائر وفلسطين وان الفيلم النضالي سلاح يخدم الثورة في مهامها سواء في التعبئة الجماهيرية او التحريض والتثقيف السياسي وفضح العدو · وثاني هذه النقاط ان الفريق السينمائي النضالي يقوم بجميع المهام المطلوبة لانجاز فيلم ما بدءا من السيناريو وانتهاءا بالعرض والمناقشة وعلى الفريق السينمائي اثناء العمل ان يعتبر نفسه خلية تلتزم استراتيجيا وتكتيكيا بالقضية التي يطرحها في فيلمه · ثالثا : ان طبيعة انتاج العمل السينمائي النضالي تتمثل في نوعين هما الانتاج الذي يلتزم بالمرحلة النضالية والانتاج الذي يلتزم باستراتيجية النضال كما ان الفيلم النضالي يجب ان يكون مفيدا وضروريا · رابعا : ان العمل السينمائي النضالي لا يكتمل الا بعرض الافلام على الجماهير المعنية بالنضال والممارسة له ويجب على السينمائي ان يذهب بنفسه لعرض افلامه على هذه الجماهير بشكل علني او سري حسبما تتطلبه طبيعة المرحلة النضالية وان العلاقة بين السينمائي والجماهير يجب ان تظل قائمة في جميع مراحل العمل · خامسا : ان صفات السينما النضالية تتحدد بالتزامها بثورية المضمون وجدية المعالجة وجودة الايصال وقدرة الفيلم على التصدي وبشكل خاص للسينما الامبريالية التي تهدف لربح ونشر القيم الرأسمالية الاحتكارية والقيم السياسية للامبريالية والاستعمار ·

كما ونشر الناقد السينمائي غي هاتييه في هذا القسم نص الحوار الذي اداره بالتعاون مع الطاهر الشريعة وسيرج لوبيرون مع كل من مصطفى ابو علي وحسان ابو غنيمة وكان هذا الحوار قد نشر من قبل في عدة مجلات سينمائية فرنسية كندية اميركية في عدة صحف عربية واجنبية يتركز الحوار حول السينما الفلسطينية والسينما الثورية وعلى ضرورة خلق سينما شعبية يجد فيها الشعب ذاته يصنع التاريخ ·

اما الناقد والمخرج السينمائي الفرنسي سيرج لوبيرون فقد كتب مقالة بعنوان ابطال السينما الفلسطينية (٣ صفحات) مركزا فيها على صورة نماذج هؤلاء الابطال مثل زوجة الشهيد ـ الفدائي ـ الشهيد ـ المرأة العربية الثورية ـ الاديب المقاتل واشار لوبيرون الى المزايا الفنية والسياسية القيمة التي تتميز بها افلام مثل (بالروح بالدم) (ليس لهم وجود) (جريدة فلسطين العدد الاول وجريدة فلسطين العدد الثاني ومشاهد من الاحتلال في غزة) وقد اخرج هذه الافلام مصطفى ابو علي ·

اما المخرجة العربية التقدمية هيني سرور التي سبق وقدمت فيلمها (دقت ساعة التحرير) فقد كتب مقالة في (٦ صفحات) حول صورة المرأة الفلسطينية في السينما العربية انطلاقا من تساؤلها حول الدور الكبير الذي ادته ولا تزال المرأة الفلسطينية على صعيد النضال ضد الصهيونية ، وهل استطاعت السينما العربية التعبير بدقة عن دورها هذا ؟ ان هيني سرور تؤكد على ان السينما العربية في معظم الاحيان لم تنجح في ذلك الا انها ايضا تناقش في مقالتها صورة المرأة في عدة افلام ومنها (المخدوعون) لتوفيق صالح و (كفر قاسم) لبرهان علوية وكلا الفيلمين من انتاج مؤسسة السينما السورية · وفيلم (العصفور) ليوسف شاهين ·

اما الفصل الاخير من هذا القسم فقد اختتمه حسان ابو غنيمة بتحليل واف لثلاثين فيلما فلسطينيا انتجتها منظمات المقاومة ومن هذه الافلام (بالروح بالدم) لا للحل السلمي ـ العرقوب ـ عدوان صهيوني ـ جريدة فلسطين ـ ليس لهم وجود ـ طريق النصر للمخرج مصطفى ابو علي ـ والارهاب ، ليلة فلسطينية وغيرها لسمير نمر ولماذا نزرع الورد ـ غسان كنفاني الكلمة البندقية ـ لقاسم حول وذكريات دنار لاسماعيل شموط والطريق والبنادق متحدة وايار الفلسطينيون لرفيق حجار والمفتاح لغالب شعث ومشاهد من احتلال غزة لمصطفى ابو علي وقد اخذ هذا الفصل (١٨ صفحة) من الكتاب ٠

٢ ـ السينما العربية وفلسطين :

في الفصل الاول من هذا القسم وبعنوان غياب فلسطين عن السينما المصرية يحلل مصطفى درويش (ناقد مصري) ونبيهة لطفي مخرجة وناقدة مصرية كيفية اظهار السينما المصرية للقضية الفلسطينية ضمن مراحلها التاريخية المختلفة :

١ ـ من فاروق الى ناصر ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢ ٠ ٢ ـ العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ٠ ٣ ـ هزيمة حزيران عام ١٩٦٧٠ ٤ ـ حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ ٠

كما ويقدم ثلاثة سينمائيين مصريين وجهة نظرهم حول هذه الظاهرة في هذا الفصل وهم صلاح ابو سيف وسعد نديم وكمال الشيخ وقد سبق للاول ان قدم فيلمه (عنتر وعبلة) معطيا بعض الايحاءات السياسية عن الخطر الصهيوني الذي يهدد العرب ٠ اما الثاني فقد قدم مجموعة كبيرة من الافلام الوثائقية التي تندد باعتداءات العدو الصهيوني المتكررة على مصر اما الثالث فحقق فيلمه الروائي عن المقاومة الفلسطينية (ارض السلام) عام ١٩٥٦ ومثله انذاك فاتن حمامة وعمر الشريف ٠

وفي الفصل الثاني وبعنوان (هزيمة حزيران ١٩٦٧ في السينما المصرية) يحلل يوسف شريف رزق الله الفيلم الاول من الناحية التاريخية من بين ثلاثة افلام مصرية ناقشت بشكل غير مباشر القضية الفلسطينية ما بعد هزيمة ١٩٦٧ ٠ وكان الفيلم (الظلال على الجانب الاخر)لغالب شعث (سينمائي فلسطيني) ٠ كما وهناك مقابلة مع شعث حول فيلمه الذي تدور احداثه في اوساط الشباب الجامعي في مصر في الفترة ما بين ٦٦ ـ ١٩٦٧ ٠

اما علي الشوباشي فيناقش الفيلمين التاليين وهما اغنية على الممر (لعلي عبد الخالق) والعصفور (ليوسف شاهين) الذي يقدم له ايضا كل من رضا الباهي (مخرج تونسي) وغي هاينبيل حوارا حول فيلمه ٠

أما حرب تشرين في السينما المصرية ، فقد كان لها الفصل الثالث من هذا القسم وقد ترجم الناقد التونسي خميس الخياطي مجموعة من المقالات التي تحدثت عن افلام حرب اكتوبر المصرية والتي تم نشرها في الصحف والمجلات المصرية ومنها (الجمهورية) كما يحلل خميس خياطي فيلم شادي عبد السلام (جيوش الشمس) وتقدم نبيهة لطفي حوارا مع المخرج حول هذا الفيلم ٠

أما الفصل الرابع فهو عن القضية الفلسطينية في الافلام العربية ٠

وفضلا عن الافلام السورية والمصرية التي تم تحليلها مسبقا في القسم الخامس من الكتاب فان الفصل الرابع من القسم الثاني بعنوان (القضية الفلسطينية في السينما العربية) يعرض مختلف نوعيات

الافلام العربية التي تناولت بشكل مباشر موضوعة نضال الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية حيث نادرا ما كان منها يتمتع بجدية وموهبة في طرح هذه القضية ، في حين ان اغلبها كان مبنيا على مبدأ استجداء الشفقة على الشعب الفلسطيني وارضه المسلوبة · وفي هذا الفصل يحلل حسان ابو غنيمة وغي هاينبيل النوعيات الخمس التي تمثلت بها هذه الظواهر وكانت كما يلي :

١ ـ افلام الحركة على النمط الاميركي وكان مثالها افلام مثل (عملية الساعة السادسة) عام ١٩٦٩ لسيف الدين شوكت و٣ عمليات داخل فلسطين عام ١٩٦٩ لمحمد صالح الكيالي و (الطريق الى القدس) لعبد الوهاب الهندي ١٩٦٩ ·

٢ ـ الافلام الميلودرامية على الطريقة المصرية وكان مثالها افلام مثل « فداك يا فلسطين » لانطوان ريمي ١٩٦٩ ، و « اجراس العودة » لتيسير عبود ١٩٦٩·

٣ ـ الافلام على الطريقة الايطالية وكان مثالها ، افلا مثل كلنا فدائيون لغاري كارابديان عام ١٩٦٩ والفلسطيني الثائر لرضا ميسر عام ١٩٦٩ ·

٤ ـ افلام الحالة السايكولوجية وكان مثالها فيلمي « المخدوعون » لتوفيق صالح و «السكين » لخالد حمادة وكلاهما من انتاج المؤسسة العامة للسينما بدمشق وعن أعمال غسان كنفاني الادبية « رجال في الشمس » وما تبقى لكم · وفي هذا المجال يتحدث المخرج خالد حمادة عن تجربته في السكين وعن وجهة نظره في تحويل الاعمال الادبية الى أعمال سينمائية وخصوصا ما يتعلق بأدب غسان كنفاني ومعادلة السينمائي ٥ · ـ الافلام السياسية وكان مثالها اتجاهان متضادان اولهما اتجاه هدام ومثاله فيلم مائة وجه ليوم واحد لكريستيان غازي والثاني اتجاه هوليودي معاكس وكان مثاله فيلم سنعود للجزائري سليم رياض وضمن هذه النوعية من الافلام السياسية كان هناك ثلاثة خطوط للبحث اولهما الخط الذي يمثله فيلم رجال تحت الشمس لمحمد شاهين ومروان مؤذن ونبيل المالح ، وكل منهم حقق وعلى التوالي الاسكتشات الثلاث للفيلم وهي ميلاد « لقاء » و « المخاض » أما ثانيهما فهو الخط الذي يمثله فيلم المخدعون للمخرج العربي الكبير توفيق صالح ·

أما ثالثهما فهو الخط الذي يمثله فيلم « كفر قاسم » للمخرج اللبناني التقدمي برهان علويه · اما الفصل الخامس من هذا القسم فقد احتوى على مقابلات مع ثلاثة من أبرز المخرجين العرب الذين حققوا افلاما عن فلسطين وهم توفيق صالح وبرهان علويه وسليم رياض ·

٣ ـ السينما الغربية وفلسطين :

احتوى القسم الثالث من الكتاب على عدة فصول ، وقد كتب الناقد غي هاينبيل الفصل الاول من هذا القسم وبعنوان (الصهيونية في السينما الغربية) وفيه يحلل التكتيكات الثلاثة التي تعتمدها الدعاية الصهيونية عبر السينما واهم الافلام الصهيونية ويقول هناك حدثان اساسيان ساهما بشكل حاسم في مثول القضية الفلسطينية على الشاشة اولهما هزيمة حزيران ١٩٦٧ واحداث ايار ١٩٦٨ في فرنسا وانعكاساتها على الصعيد الايديولوجي ، وعن التكتيكات الثلاث فهو يحددها بما يلي :

١ ـ عملية التزييف التاريخي وافتعال الاكاذيب · ٢ ـ عملية التركيز على ضرورة ان يتحمل العالم اجمع وزر النازية وابقاء هذا السيف بمثابة تهديد جماعي للعالم · ٣ ـ تمجيد الصهيونية ·

أما عن اهم الافلام الصهيونية · فهو يحدد بعضها مثل (الدعي) الذي اخرجه الاميركي ادوارد وغيريك عام ١٩٥٣

و (المفتش) للاميركي فيليب دون ٠ و (القفص الزجاجي) للفرنسي فيليب ارتويس عام ١٩٦٤ و (ساعة الحقيقة) للفرنسي هنري كاليه عام ١٩٦٤ ٠

اما الافلام الصهيونية المباشرة وبوضوح فمنها التل ٢٤ لايجيب والاكسودس للاميركي اوتوبير منجر عام ١٩٦١ واعطني عشرة رجال يائسين للفرنسي بيار زيبه عام ١٩٦١ وصف معركة (الفرنسي كريس ماركر) عام ١٩٦١ وجوديت للاميركي دانيال فان عام ١٩٦٤ ٠ و (لا سؤال يوم السبت) للفرنسي اليكس صوفيه عام ١٩٦٤ و (ليلة في بتيرياد) عام ١٩٦٥ للمهندس الفرنسي هيرفي برومبيرجر ٠ و (ظل العملاق) عام ١٩٦٦ للاميركي ميلفيل نشافلسون (والحرب المرة) عام ١٩٦٧ للفرنسي اليوناني الاصل جول داسان ٠ و (جدار في القدس) للفرنسي فريدريك روسيف و (خمسة ايام في سيناء) للايطالي ماوريزيو لوسيدني عام ١٩٧٠ و (صابرا) للفرنسي دينيس دي لاباتالييه عام ١٩٧٠ و (لماذا اسرائيل) عام ١٩٧٤ للفرنسي كلود لانزمان و (رادسباد) للاميركي اوتوبير منمر عام ١٩٧٤ ٠ (والقدس القدس) عام ١٩٧٤ للفرنسي هنري شابييه و (الارض الموعودة) عام ١٩٧٤ للاميركية سوزان سونتاج ٠

أما الفصل الثاني من هذا القسم فهو بعنوان (ضد الصهيونية في السينما الغربية) ويحلل غي هاينبيل في هذا الفصل ٢٥ فيلما ومنها اربعة افلام فرنسية عبرت عن المفهوم المعادي الصهيوني في السينما الغربية ويركز على الدرس المستفاد من فيلم (فلسطين ستنتصر) وعلى عمل التجمعات اليسارية بفيلم (فلسطين) وعلى الرومانتيكية الثورية في فيلم (بلادي) وعلى المسودة التجريبية بفيلم (هنا وهناك) لغودار وعلى النتائج التاريخية التي قدمها فيلم (ثورة حتى النصر) الذي حققته مجموعة يهودية تقدمية في الولايات المتحدة ، وعلى السينما المباشرة كما عبر عنها فيلم (الزيتونة) ٠ ويعدد هاينبيل الوثائق الاعلامية المضادة للصهيونية التي قدمتها افلام اجنبية اخرى منها (فلسطين) و (الطريق الشرعية الوحيدة) و (لكن عندما اكون جائعا) و (ثمن السلام) و (فلسطين والدنمرك نضال مشترك) و (سأحرق هذه المدينة) و (ميونيخ ١٩٧٣) و (لن انسى فلسطين) و (الفلسطينيون) وهذه الافلام من انتاجات فرنسية وبريطانية ودنمركية وهولندية ووقف وراء انتاجها مجموعات يسارية وتقدمية اوروبية ٠

٤ ـ فلسطين في سينما العدو :

القسم الرابع من الكتاب بعنوان فلسطين في السينما الاسرائيلية وهو مكون من فصلين الاول تحت عنوان الصهيونية في السينما الاسرائيلية وكتبه غي هاينبيل والثاني تحت عنوان ثلاثةافلام (اسرائيلية) مختلفة وكتبته مجموعة من النقاد العرب والاجانب ٠

وفي الفصل الاول يكتب هاينبيل عن اوائل الافلام الصهيونية في فلسطين والتي حقق اولها الصهيوني الروسي جاكوب بين دوف تحت عنوان (الحياة اليهودية في ارتييز) عام ١٩١٢ و (المنطقة اليهودية) عام ١٩٢٣ وغيرها ويقول ان (السينما الاسرائيلية) اعتمدت على ٤ مواضيع رئيسية اولها الانجيل وثانيها الفولكلور اليهودي وثالثها الطريقة الاسرائيلية في العيش ورابعها الملحمة الحربية اليهودية منذ ٢٠٠٠ عام ٠٠٠ ويقول هاينبيل « لقد حاولنا فيما يلي انشاء علاقة قصيرة بين الافلام التي تمتدح بشكل او بآخر الصهيونية وقد بدا

لنا انه من الضرورة في كل الاحـــوال الشاذة ان نعلق على كل ملخص لسيناريو اي فيلم من تلك الافلام » · ومن ثم اخـذ هاينبيل في تعداد بعض هذه الافـــلام الصهيونية والتعليق على دعواها المزيفـة ومن بين هذه الافلام الثمانية والعشرين التي اختارها والتي تمتد الفترة الزمنية لانتاجها منذ العام ١٩٦١ وحتى العـــام ١٩٧٢ كانت افلاما مثل (كانوا عشرة) لباروش دينار و (سيناء ·· غيوم فـوق اسرائيل) لالان الدات، و (صلاح) لابراهيم كيشون و (سوء القاهرة) لمناحيم غولان و (كل سافل ملك) ليروي زوهار (حياة دافيد بن غوريون) لدافيد بيرلوف و (جي للقدس) لمناحيم غولان · و (ينبت) لمناحيم غولان ·

اما الفصل الثاني من هذا القســـم فيتناول ثلاثة افلام اسرائيلية تختلف في جوهرها عما سبق من أفلام ومنها (من اجل الفلسطينيين) شهادة اسرائيلية لادنا بوليثي و (حوار عـــربي اسرائيلي) لليونيل روغازين وهو حوار بين الكاتب الاسرائيلـــي اموس كنعان والشاعـــر الفلسطيني راشد حسين· اما الفيلم الثالث فهو (الحياة في حرية) لشمعون لوفيتش·

وقد حوت هذه الافلام وجهة نظر مضادة للصهيونية · وفي الصفحات الست التـي احتواها هذا الفصل يكتب كل من فيليـب مايليه ومارياكريستين اولاس وطاهر بـن جلون واغناسيورامون ومحسندين سلامة تقييماتهم النقدية المختلفة لهذه الافلام ·

سعيد هـــلال

مفكرة

دين ريد ٠٠ الجيتار المقاتل

حينما ترك الولايات المتحدة الاميركية منذ أربعة عشر عاما ، كان في اوتار جيتاره كل الصرخات المكتومة لكل ثورة في العالم ٠ وكان يحس دائما ـ ان اصابع الذين يضغطون على الزناد من أجل الفرح والخبز والحرية ، هم الذين يضربون أوتار الجيتار ، فترتفع موسيقى دمهم ٠

وهكذا نذر هذا الجيتار المقاتل ـ دين ريد ـ صوته وموسيقاه لكل المقاتلين ، فغنى لاطفال العالم : اه ايها الطفل الصغير : اغنية لكل طفل مذبوح بشظية قنبلة ، وفي خنادق المقاتلين في الفيتنام ارتفع صوته يغني لسماء الفيتنام الزرقاء القادمة من دخان البارود ، ومع كل اصدقاء مستقبل الانسان ، مع كل الذين يقصون بأصابع ايديهم الاسلاك الشائكة ، يغني دين ريد : كتفا الى كتف ومعا أيها الرفاق ٠

وأصبح صوته يدق زجاج نوافذ كل الذين يرتجفون تحت جلود المطاط حينما يستمعون الى صرخة ثورة محاصرة ٠

حينما ألقي القبض عليه بتهمة كتابة الموسيقى للفقراء والغناء للثورات ، كان صوت صديقه الشاعر الكوني الشهيد : بابلو نيرودا هو اول الاصوات التي ارتفعت تطالب باطلاق سراحه ٠ وكسر صوت نيرودا السلسلة وخرج الجيتار المقاتل من الزنزانة ليواصل مسيرته بين الخنادق والمتاريس وشوارع العالم ٠

وها هو دين ريد ، في بيروت ، هذا الذي منحه الاتحاد السوفياتي جائزة لينين للسلام وستقدم له في يناير ١٩٧٨ ٠ ما أقل الاخبار الصغيرة التي كتبت عنه ٠ ففي برنامجه لم تكن هنالك أمسية غنائية في كازينو لبنان ، او في الكباريهات الغنائية الليلية الاخرى ٠

جاء دين ريد ليغني للمقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين ، واذا كان هناك ذلك الحصار على البندقية فلماذا لا يكون هناك ذلك الحصار على الجيتار ، على الصوت وعلى الموسيقى ٠

أميركي يغني للثورة الفلسطينية ، أميركي يغني دم سلفادور الليندي الذي أراقته المخابرات المركزية الاميركية ٠

دين ريد يبتسم : أجل انني اميركي ومع الثورة الفلسطينية ، وهناك في بلادي اميركيون كثيرون يحسون بالاهانة كلما نظروا الى النوافذ السوداء لناطحة السحاب التي تعشش فيها المخابرات المركزية الاميركية ٠

لو جاء فرانك سيناترا العجوز بصوته المليء بالتجاعيد ، لو جاء سيناترا ربيب المافيا لاستقبلته في المطار كل عجائز المافيا وكل مقاولي الحناجر وكل جرسونات الاسطوانات الخشبية ٠

ولكن دين ريد جاء الينا ويكفيه انه في أيام الشتاء هذه جاء ليشعل النيران للمقاتلين والشهداء وسلام الى دين ريد ٠

معين بسيسو

جدول بالعمليّات العسكريّة لقوّات الثورة

١٦	٣١-١٠-٧٧	١٣٫٤٥	القدس / احد الباصات التابعة لشركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—
١٧	٤-١١-٧٧	٧٠٠ صباحا	القدس / مكتب ضابط محطة الباصات المركزية لشركة ايجد / كريات موشي	تفجير	عبوات ناسفة	—
١٨	٤-١١-٧٧	١٠٫١٥ صباحا	مار الياس / طريق القدس / الخليل	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة شديدة الانفجار	غير محدد
١٩	٧-١١-٧٧	٧٫٣٥ صباحا	بتاح تكفا / قسم الحجز في محطة الباصات المركزية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
٢٠	١٠-١١-٧٧	٨٫١٥ صباحا	اللد / الساحة الرئيسية الواقعة امام المطار	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—
٢١ (٢)	١١-١١-٧٧	١٣٫٠٠	كريات جات / موقف باصات شركة ايجد ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
٢٢	١١-١١-٧٧	٢١٫٠٠	نابلس / ميدان الساعة	هجوم	قنابل يدوية واسلحة فردية	—

الفلسطينية ١٦/١٠ - ١٤/١١/٧٧

	—	ـ اكتشفت العبوات اثناء توقف الباص عند احد حواجز التفتيش حيث تم تفجيرها ·	—	—	—	٧٧-١٣٢	١-١١-٧٧
	٦	ـ بلغ عدد الجرحى ستة من افراد العدو ـ اصابة مكتب ضابط المحطة باضرار بالغة وتحطم معظم محتوياته ·	—	—	—	٧٧-١٣٣	٥-١١-٧٧
	غير محدد	ـ قتل وجرح عدد من جنود العدو ومستوطنيه ـ تدمير واعطاب ثلاث باصات ـ اصابة مبنى المحطة والمكتب الرئيسي باصابات بالغة ·	—	—	—	٧٧-١٣٤	٥-١١-٧٧
	غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ـ تحطم زجاج معظم الابنية المجاورة	—	—	—	٧٧-١٣٥	١٨-١١-٧٧
	—	ـ اكتشفت العبوات اثناء تفتيش المنطقة لكنها انفجرت وادت الى تحطم زجاج بعض واجهات المطار وتضرر السيارات المجاورة ·	—	—	—	٧٧-١٣٦	١١-١١-٧٧
	غير محدد	ـ تدمير اجزاء من مبنى المحطة واعطاب احد الباصات ـ قتل وجرح عدد من المستوطنين الصهاينة	—	—	—	٧٧-١٣٧	١٢-١١-٧٧
	٣	ـ اندلاع النيران في سيارة الجيب الصهيونية ـ اصابة ثلاثة من افراد العدو بجراح مختلفة ·	—	—	—	٧٧-١٣٨	١٢-١١-٧٧

جدول بالعمليّات العسكريّة لقوّات الثورة الفلسطينية ١٦/١٠ - ١٢/١١/٧٧

الرقم	تاريخ العملية		موقعهـــا	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائـــر العـدو البشرية	
	اليوم	الساعة				قتيـــل	
١	١٥-١٠-٧٧	١٠ر١٠ صباحا	باب يافا / موقع الباصات التابعة لشركـــة ايجد في القدس ٠	تفجير	عبوات موقوتة	-	
٢	١٥-١٠-٧٧	١٥ر١٠ صباحا	القدس / شارع داڤيد محل تجاري صهيوني	تفجير	عبوات موقوتة	غير محدد	
٣	١٥-١٠-٧٧	٤ر٠٠	ناتانيا / مستودع للالبسة الرياضية ، تابـع لبلدية ناتانيا ٠	تفجير	عبوات ناسفة شديدة الانفجار	ـــ	
٤	١٤-١٠-٧٧	٢٠ر٠٠	نابلس / مكتب العمل الصهيوني	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـــ	
٥	١٤-١٠-٧٧	٥ر٢٠	رام الله / سيارة تابعة للحاكم العسكري فـي ساحة السوق التجاري في البيرة ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	١	
٦	١٨-١٠-٧٧	١٨ر٠٠	تل ابيب / الطابق الاول لمبنى بيت الشبـــاب الصهيوني شارع احادا هعام	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد	
٧	٢١-١٠-٧٧	١٥ر١٥	تل ابيب / محطة الباصات المركزية بالقـرب من حديقة هاكوشيم ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـــ	
٨	٢٣-١٠-٧٧	٥ر٩ صباحا	القدس / باب العامود / سيارة عسكرية تابعة لشرطة العدو	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	ـــ	
٩	٢٥-١٠-٧٧	١ر٠٠ صباحا	بئر السبع / قسم المطاحن التابع لجيش العدد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	١	
١٠ (١)	٢٦-١٠-٧٧	٢٢ر٣٠	رأس العين / مقهى تسميرت	هجوم	قنابل يدوية	ـــ	
١١ (٢)	٢٨-١٠-٧٧	٥ر٠٠ صباحا	رأس العين / شمال شرق تل ابيب خـــط سكة الحديد الممتد بين حيفا والقدس ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	
١٢	٢٨-١٠-٧٧	١١ر٥ قبل الظهر	القدس / حاجز للشرطة الصهيونية في منطقة المصرارة	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	
١٣	٢٧-١٠-٧٧	٧ر٣٠ صباحا	القدس / بوابة يافا موقف للسيارات	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	
١٤	٢٩-١٠-٧٧	١٣ر٣٠	حيفا / مستودعات الخشب المشغول في سوق الكتاب وسط المدينة	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	ـــ	
١٥	٢٩-١٠-٧٧	١٥ر٠٠	تل ابيب / مشغل تجارة	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد	

(١) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٧ر٠٠ بانفجار قنبلة في مقهـــى « تسميرت » في رأس العين كما اعتـرف باصابة ثمانية اشخاص بجروح اصابـات ثلاثة منهم بالغة ٠ (رصد اذاعة اسرائيل ص ١٩٠ ، الساعة ٧ر٠٠ ، الخميس ٢٧-١٠-١٩٧٧ ، العدد رقم ١٣٢٧) ٠

(٢) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٧ر٠٠ بان عربة شحن خرجت عن الخط ما بين اللد ورأس العين وانه تـم الغاء رحلات جميع القطارات على خـــط حيفا - القدس ٠

(رصد اذاعة اسرائيـل ، ص ٣٠٣ ، الساعة ٧ر٠٠ الجمعـة ٢٨-١٠-١٩٧٧ ، العدد ١٣٢٨) ٠

(٣) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ١٤ر٠٠ بوقوع انفجار في محطـة باصات « ايجد » في «كريات جات» واعلن عن اصابة ولد بجراح طفيفة ٠

(رصد اذاعة اسرائيـــل ، ص ١٤٣ ، السبت ١٢-١١-١٩٧٧ ، الساعة ١٤ر٠٠ العدد ١٣٤١) ٠

	خسائـــر العـــدو الماديـة	خسائر المقاومـــة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
		شهيد	جريح	مفقود	رقـم	تاريخ
حدد	ـ اصابة عدد من افراد العدو بجراح مختلفة ـ تضرر عدد من السيارات المتواجدة مكـــان الانفجار	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٨	١٦ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بيـــن قتيل وجريح ـ اتلاف جزء من محتويات المحل التجاري ـ تحطم زجاج معظم الابنية المجاورة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٨	١٦ـ١٠ـ٧٧
ـ	ـ اندلاع النيران داخل المستودع وامتدادها الى احد المستودعات المجاورة وقد اتت النيران على جميع محتويات المستودع والمستودع المجاور	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١١٩	١٦ـ١٠ـ٧٧
١	ـ اصابة حارس المبنى بجراح خطيرة ـ اتلاف معظم محتويات مكتب العمل الصهيوني ـ تصدع احد جدرانه	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٠	١٥ـ١٠ـ٧٧
ـ	ـ تدمير السيارة تدميرا تاما ٠ ـ اندلاع النيران فيها ٠ ـ مقتل سائقهـــا ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢١	١٥ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ تدمير معظم جدران الطابق الاول واشـــتعال النيران في جميع المحتويات ـ تكبيد العدو خسائر مادية وبشرية لم يعلن عنها	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٢	١٩ـ١٠ـ٧٧
٢	ـ اصابة اثنين من افراد العدو بجراح مختلفة ـ تضرر احد الباصات القريبة من مكان الانفجار ـ تحطم زجاج عدد من الباصات المتواجدة داخل المحطة	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٣	٢٢ـ١٠ـ٧٧
ـ	ـ تدمير السيارة تدميرا تاما ٠ ـ اندلاع النار فيها ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٤	٢٥ـ١٠ـ٧٧
	ـ اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بوقت قصير. واثناء محاولة احد خبراء المتفجرات نقل العبوات انفجرت بين يديه وقتل فورا كما اصيب احدرجال حرس الحدود المتواجدين هناك ٠	ـ	ـ	ـ	٧١ـ١٢٥	٢٦ـ١٠ـ٧٧
١	ـ عشر اصابات بين افراد العدو ـ اصابة المقهى باضرار بالغة وتحطمت معظم محتوياته ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٦	٢٧ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ قتل وجرح عدد من افراد العدو ـ تدمير واعطاب ما لا يقل عن خمس عربات ـ تعطيل السير على الخط المذكور لمدة يوم كامل	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٧	٢٩ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد الحاجز الصهيوني بجراح كما فر باقي افراد الحاجز ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٨	٢٩ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ اكتشفت العبوة فحاول خبير المتفجرات تفكيكها لكنها انفجرت ونتج عن ذلك قتل وجرح عـــدد من افراد شرطة العدو ٠ ـ اعطاب سيارة للعدو	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٢٩	٢٩ـ١٠ـ٧٧
ـ	ـ التهمت النيران جميع محتويات المستودع ـ تكبد العدو خسائر مادية لم تحدد بعد	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٣٠	٣١ـ١٠ـ٧٧
حدد	ـ اندلاع النيران في المشغل ٠ ـ اصابة عدد من افراد العدو ـ امتدت السنة النيران الى مستودع ومشغـــل مجاورين ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٣١	٣١ـ١٠ـ٧٧

مروان حميد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor* , Mahmoud Darwish : *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125 ; *Annual Subscription* (surface mail) : Countries outside the Arab World L L 65. *Address :* P. O. Box 1691 . Beirut, Lebanon ; Tel. 351261 : Cables : MARABHATH.

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعـراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سـائر الاقطـار العربيـة
٨٥٠ درهـماً في ج.ع.ل.